

الفرق بين
حرف

تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

تأليف

محمد الصادق

انتشارات فرهنگ اسلام



مرکز تحقیق تکامپویر علوم اسلامی

الف، و س، ی

۲۵ - ۲۴



مركز تحقيقات كامتقار علوم اسلامی

الكتاب	الفرقان فی تفسیر القرآن
المؤلف	الدكتور الشيخ محمد الصادق
الجزء	الرابع والعشرون والخامس والعشرون سورة: فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية
الطبعة	الثانية
المطبعة	مطبعة أمیر - قم
الناشر	انتشارات فرهنگ اسلامى - طهران تلفن : ۶۲۰۰۸۴
سنة الطبع	۱۴۰۶ ق - هـ
عدد المطبوع	۳۰۰۰ نسخة

سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الفروق في تفسير القرآن بالقرآن والسنة

الجزء الرابع والعشرون والخامس والعشرون

سورة فصلت - سورة الشورى
سورة الزمر - سورة النور - سورة المائدة

دار الفوائد الإسلامية

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان



مرکز تحقیقات کتاب و اسناد



(۱) سُوْرَةُ فَصَّلَتْ مَكِيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا أَلِفٌ وَخَمِيسُونَ

مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ① تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ
 فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③
 بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ④
 وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا
 وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمِلْ إِنَّا عَمِلُونَ ⑤
 قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ
 وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ⑥ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ⑦
 الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ⑧
 إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
 مَمْنُونٍ ⑨ * قُلْ أَنتُمْ لَنُكْفِرَنَّ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ
 فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ۥ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑩

وَجَعَلَ فِيهَا رُوسِيٍّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا
 أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ
 إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا
 أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ
 سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا
 السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
 الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

﴿سورة فصلت : حَمْدُ السَّجْدَةِ - مَكِّيَّة - وَأَيَّاتُهَا أَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ﴾

حَمْدُ فَصَلت: السَّجْدَةُ هي ثَانِيَةُ الْحَوَامِيمِ السَّبْعِ الْمَكِّيَّةِ ، وَهِيَ «تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» وَفِي الْمُؤْمِنِ الْغَافِرِ قَبْلُهَا وَهِيَ أَوَّلُهَا : «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» وَفِي الشُّورَى ثَالِثَةُ الْحَوَامِيمِ «كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» وَفِي رَابِعَتِهَا الزَّخْرَفُ «وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» وَفِي خَامِسَتِهَا الدُّخَانُ «وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ» وَفِي سَادِسَتِهَا الْجَاثِيَةُ «تَنْزِيلُ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» وَفِي سَابِعَتِهَا الْأَحْقَافُ : «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» .

فثَلَاثٌ مِنْهَا تَشْرِكُ فِي «الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» قَدْ يَشْرِكُهَا فِي أَنَّ آيَاتَهَا تَحْمِلُ عِزَّةً مِنَ اللَّهِ وَحِكْمَةً أَمْ وَلِسَانُ الْقُرْآنِ كَكُلِّ ، وَوَاحِدَةٌ «الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ»

سورة فصلت / آية ١-٣ ٩

فهكذا الأمر ، واثنان ليس فيها صفة من هذه أو تلك أمّاذا ، وهذه السجدة تنفرد في « الرحمن الرحيم » قد تلمحان أن أيها تحمل الوصفين وكما في سائر القرآن ، فهذه مواصفات خمس في هذه الخمس ، تصوغ سورها والقرآن كله بعزة الله وعلمه وحكمته ورحمته رحمانية ورحيمية ، وفي « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » نجد جمعية الصفات التي نمت بصلة للكمال القمة في هذا الذكر من العزيز العليم الحكيم الرحمن الرحيم ! خمس في المحور وسائرهما محور حولها .

وهذه من العزائم الأربع « اقرء باسم . . : النجم - ألم تنزيل : السجدة و « حم : السجدة »^(١) حيث تجب السجدة عند استماع أو سماع آية السجدة فيها .

وفي هامة حم روايات عدة تقول كلمة واحدة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قرء آياً من أولها إلى « أنذرتكم صاعقة » أمّاذا ؟ فاعجبت وحيرت نفراً من الناكرين لرسالة المستهزئين به ، المتهددين له ، فأمن قوم وكفر آخرون^(٢) .

مركز تحقيق كامبوتر علوم إسلامي

(١) نور انضليل ٤ : ٥٣٨ ح ٣ في كتاب الخصال عن أبي عبد الله (عليه السلام) : . . .

(٢) من ذلك ما في الدر المنثور ٥ : ٣٥٩ - اخرج البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال قال أبو جهل والملا من قريش قد انتشر علينا امر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فلو التمستم رجلاً عالماً بالسحر والكهانة والشعر فقال عتبة علمت من ذلك علماً وما يخفى علي ان كان كذلك فاتاه فلما اتاه قال له يا محمد انت خير ام هاشم انت خير ام عبد المطلب فلم يجبه قال : فيم تشتم آلهتنا وتضل آباءنا فان كنت إنما بك الرئاسة عقدنا الويتنا لك فكنت رأسنا ما بقيت ، وان كان بك الباء زوجناك عشرة نسوة تختار من أي بنات قريش وان كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به انت وعقبك من بعدك ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ساكت لا يتكلم فلما فرغ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً فقرا حتى بلغ فان اعرضوا فقل انذرتكم =

ولقد فصلت في فصلت شطرات من الرحمتين ابتداءً بالرحيمية الخاصة «كتاب فصلت .. لهم أجر غير ممنون» ومن ثم الرحمانية «قل أئنكم لتكفرون ..» وبعدها خليطة من هذه وتلك ، دمجاً برباط كامل شامل لكتابي التدوين التشريع والتكوين ، وأن كاتبها واحد هو «الرحمن الرحيم» !

﴿ حَمَّ تَنْزِيلٍ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ^(٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣)

هنالك إنزال للكتاب في إحكام : «إنا أنزلناه في ليلة القدر» وهنا تنزيل للكتاب في تفصيل تجمعهما «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» (١١ : ٢) .

في مرحلة الإنزال الإحكام لم يكن قرآناً يُقرأ ، ولا عربياً يُعرب «لقوم يعلمون» إذ كان نازلاً في محطة الوحي : القلب المحمدي ، ولما يبرز في تفصيل ، فلما فصل في هذه الآيات المفضلات أصبح قرآناً عربياً : لائحاً «لقوم يعلمون» وبطبيعة الحال غير عربي لا يلوح في حقائقه «لقوم يجهلون» «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين

= صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» فامسك عتبة على فيه وناشله الرحم ان يكف عنه ولم يخرج الى اهله واحتبس عنهم فقال ابو جهل يا معشر قريش ما نرى عتبة الا قد صبا الى محمد واعجبه طعامه وما ذاك الا من حاجة اصابته انتقلوا بنا اليه فاتوه فقال ابو جهل والله يا عتبة ما حسبنا الا انك صبت الى محمد وأعجبك أمره فان كنت بك حاجة جمعنا لك من اموالنا ما يغنيك عن محمد فغضب واقسم بالله لا يكلم محمداً ابداً وقال لقد علمتم أني أكثر قريش مالاً ولكني اتيتك فقص عليهم القصة فاجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة قرء بسم الله الرحمن الرحيم حم حتى بلغ أنذرتكم صاعقة فامسكت بفيه وناشدته الرحم فكيف وقد علمتم ان محمداً اذا قال شيئاً لم يكذب فخفت ان ينزل بكم العذاب ، وفيه ان ممن سمعها سعد بن معاذ فرجع وقد هداه الله .

سورة فصلت / آية ١-٣ ١١

إلا خساراً» (١٧ : ٨٢) إنه في نفسه بيان للناس ، وعربي لا تعقيد فيه ولا خفاء يعتريه ، فإنه داعية العالمين « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » ولكنها الواجبة العللة هي التي تهدي الناس بالقرآن ، والجاهلة المتجاهلة لا تزيدهم إلا خساراً .

هنالك لتنزيل الرحمن الرحيم تفاصيل عدة تَلَوُّ بعض ، تفصيل أول عن إحكامه هذا حتى برز آيات مفصلات « قرآناً » وتفصيل ثان « عربياً » واضحاً حيث ينطق بعضه ببعض ويفسر بعضه بعضاً ، في ترتيب التنزيل لبعده واحد - : الآيات المتشابهة ببعض ، تفسر بعضها بعضاً ، وفي ترتيب التأليف لبعده ثان ، الآيات التي تحتف بها من قبل ومن بعد ، فإنها تساعد في تفصيل معانيها وتكميل مغازيها ، فهما إذاً تفصيلان بعد الأول ، ومن ثم تفصيلها بالسنة حيث يفسرها الرسول والأئمة من آل الرسول صلوات الله عليهم أجمعين .

فهذه تفاصيل أربع للناس ، بعد إحكامه الخاص في قلب الرسول ، وكما يسبقه إحكام في علم الله قبل إنزاله على الرسول « وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » (٨٩ : ٤) إحكامان اثنان ثم تفاصيل أربع .

أترى « لقوم يعلمون » بماذا تتعلق ؟ علماً بكلٍّ من « تنزيل - فصلت - عربياً » فرغم أن الكل مبدئياً كافة لسائر المكلفين ، ولكنها التعرف إلى معارفه وتصديقها وتطبيقها ليس إلا « لقوم يعلمون » على درجاتهم ، فالذي يتجاهل حق القرآن وحقيقته ليس هو له عربياً لا ثحاً فلم يفصل له ، ولم ينزل ، إنما « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » « إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم » .

والذي يؤمن به ولكنه لا يتخطى مداخل تفهمه وغارجه وهو يهوى

تفسيره بغير هدى أو أثارة من علم ، ليس له عربياً ولا فصلت له آياته ، وقد يصبح القرآن لهؤلاء وهؤلاء ضللاً ولا يزيد إلا خساراً وملاًلاً .
والذي يعرف مفاتيح تفسيره ولكنه لا يطبقه ليس له عربياً كما يحق ، حيث العمل بالقرآن مما يساعد على تفهمه ، فكل من مراتب العلم حظ من درجات القرآن ، وللجاهل المتجاهل المتعنت دركات .

ثم وفي « لقوم يعلمون » استجاشة لكافة القدرات العلمية واستنهاض للعلماء ان يكرسوا طاقاتهم للحصول على الأكثر فالأكثر من معاني آي الذكر الحكيم ، مستنبطين متشابهة بحكمه ، ومجملات بمبنيته ، فحاصلين على العبارة ثم الإشارة ثم الطائفة ومن ثم الحقائق ، دوناً نظرة بيان في هذه السبيل سوى بيانه ، فإنه النور المبين وما بال النور يستنير بنور سواء ام بنور سواء ، اللهم إلا استيضاحاً من السنة القاطعة متطرفة طريق الدلالة صريحة وظاهرة .

فلا تعني عربية القرآن إلا جزالة بيانه ووضوح تبيانه وبرهانه ، وإن كانت تزيد في عربيته تفهماً عربيته لغوياً .

﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (١)

« تنزيل من الرحمن الرحيم » . . . بشيراً ونذيراً « كتاب » : « بشيراً ونذيراً » « فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » : « بشيراً ونذيراً » للعالمين : من يعلمون ومن لا يعلمون « فأعرض أكثرهم » وهم الذين لا يعلمون « فهم » بإعراضهم عن هذا الذكر العظيم جاهلين أو متجاهلين « لا يسمعون » « صم بكم عمي فهم لا يرجعون » « لا يسمعون » بأذانهم مخافة الإنتباه ، لحد « ختم الله على سمعهم » فإذا سمعوه بأذانهم لا يسمعون بعقولهم وقلوبهم ، فإنه قول محطته الأنفس : « وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً » (٤ : ٦٣) .

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا خَائِفُونَ ﴾ (٥).

أعذار ثلاثة زعم أنها تعذرهم عن سماعه « فهم لا يسمعون » إمعاناً في العناد وتبشيراً للرسول ليذرهم كما هم فيذروه كما هو :

^١ « قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه » - « وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون » (٢ : ٨٨) . ترى وهم صادقون في أكنة قلوبهم ؟ أجل ! ولكنها إمتناع بإختيارهم إذ كفروا وأصروا واستكبروا « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً » (٢٥ : ٦) .

^٢ « وفي آذاننا وقر » ثقل عن الإستماع والسمع ، وإذا اعترض أسماعهم فلا يصل إلى قلوبهم لأنها في أكتها .

^٣ « ومن بيننا وبينك حجاب » نحن لا نفهمك وأنت لا تفهمنا لاختلاف المبادئ فيما بيننا وبينك ، وسد المداخل إلى قلوبنا ، والأكنة جمع كنان وهو الستر والغطاء ككنان وأجنة وسنان وأسنة ، وقولتهم هذه خارجة مخرج الدلالة على استغفالهم ما يسمعون أو يستمعون من قوارع القرآن ، وبوارع البيان ، فكأنهم من قوة الزهادة فيه وشدة الكراهية له ، قد وقرت أسماعهم عن سماعه وأكنت قلوبهم دون علمه ، وقد أكنها الله وأوقرها جزاء الإكتنان والتوقر .

إن الأسماع هي مداخل القلوب تعي ما سمعت وتسمع ما وعت ، فإذا كانت القلوب في أكنة ، لا تدخلها الذكرى وإن كانت الأذان تسمع ولكن « في آذاننا وقر » إذا - فقلوبنا بعد في بعدي الكنان ، ثم « ومن بيننا وبينك حجاب » يعم كنان القلوب ووقر الأذان إلى عمى الأبصار وتعطل الحواس أماذا من مداخل الأعضاء إلى القلوب ، وقد تعني « من » أن الحجاب مبتدئ منا ومبتدئ منك ، فهو إذاً حجابان ذاتيان ، لا حجاب واحد

في هذا البين ، منفصلاً عنا ، فاصلاً بيننا ، فالمسافة المفاصلة بيننا وبينك مستوعبة بحجاب ، دون إبقاء على جزء هو نجلو من حجاب .

إذاً ففي ثالث المفاصلات بيننا وبينك لا تفيدك الدعوة ولا إيانا « فاعمل » كما تشاء ما تشاء تجاهنا في شأنك « إننا عاملون » تجاهك ما نشاء كما نشاء وفي شؤوننا ، أذاناً منا إليك لحرب شعواء عشواء ، وبلاء لأواء « فاعمل إننا عاملون » !

« فاعمل » في حجابك عنا « إننا عاملون » في حجابنا عنك ، فكلّ يعمل على شاكلته ، ثم « فاعمل » في إبطال أمرنا « إننا عاملون » في إبطال أمرك ، « فاعمل » كما تستطيع في دعوتك سلباً وإيجاباً « إننا عاملون » كما نستطيع ، فقد وقعت المفاصلة التامة ثم لا يرجى تأثير أية دعوة .

أتراهم صادقين فلا يمكنهم الإعتداء بما كفروا وختم الله ؟ لقد صدق البعض وهم الذين « سواءً عليهم » أنذرهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم . . . وكذب الآخرون ، فنحن الكاذبون^(١) وهلك الصادقون !

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٦ - اخرج ابو سهل السري ابن سهل الجنديسابوري في حديثه من طريق عبد القدوس عن نافع بن الأزرق عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب في قوله « وقالوا قلوبنا في اكنة . . » قال : اقبلت قريش الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال لهم ما يمنعكم من الإسلام فتسودوا العرب فقالوا يا محمد ما نفقه ما تقول ولا نسمعه وان على قلوبنا لغللاً واخذ ابو جهل ثوباً فمد فيها بينه وبين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال يا محمد ! قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقرو من بيننا وبينك حجاب . . . فقال لهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ادعوكم الى خصلتين ان تشهدوا ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واني رسول الله فلما سمعوا شهادة ان لا اله الا الله ولوا على ادبارهم نفوراً وقالوا اجعل الآلهة الهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب وقال بعضهم لبعض امشوا واصبروا على آهتكم ان هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق أنزل -

وهذا نموذج مما كان يواجه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في دعوته على طول الخط ، ولكنه ليس ليكف عن الدعوة او ييأس من تبيسهم ، وليس ليحيب عن قولتهم الهباء الخواء إلا بياناً لكيانه بالوحي :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۖ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۖ ﴾ (٦)

آية لا ثانية لها في سائر القرآن إلا التي في الكهف إلا في ذيلها « .. فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » (١١٠) (١).

إنني لا أهل من بشريتكم إلا ظاهر القلب ، وأما باطن القلب فإنه « يوحى إلي » دون قلوبكم المقلوبة الخاوية ، غير المهدية بهدى الوحي ، فأنا وحي في الفطرة والعقل والصدر والقلب والفؤاد واللب أماذا من جنبات الروح ، وأنا اكمل بالوحي ما قصرتم او قصرتم !

« أنا بشر مثلكم » أمثالكم في القلب ومداخله ومخارجه ، ولا أفاصلكم

= عليه الذكر من بيننا ، وهبط جبرئيل فقال يا محمد ان الله يقرئك السلام ويقول اليس يزعم هؤلاء ان على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقر فليس يسمعون قولك ، كيف واذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على ادبارهم نفوراً لو كان كما زعموا لم ينفروا ولكنهم كاذبون يسمعون. ولا ينتفعون بذلك كراهية له ، فلما كان من الغد أقبل منهم سبعون رجلاً الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا يا محمد ! اعرض علينا الاسلام فلما عرض عليهم الاسلام اسلموا عن آخرهم فتبسم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : الحمد لله الستم بالامس تزعمون ان على قلوبكم غلفاً وقلوبكم في اكنة عما ندعوكم اليه وفي آذانكم وقراً واصبحتم اليوم مسلمين ، فقالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كذبنا والله بالامس لو كان كذلك ما اهتدينا ابداً ولكن الله الصادق والعباد الكاذبون عليه وهو الغني ونحن الفقراء اليه .

(١) راجع تفسير الآية الى الكهف تجد تفصيلها فيها فلا نعيدها هنا .

تلك المفاصلة التي تجعل من بيني وبينكم حجاباً ، وفي قلوبكم أكنة وفي آذانكم وقراً ، فلا أفهمكم ولا تفهموني ، لا أنحملكم ولا تتحملوني !

لا ! أنا بشر كما أنتم ، أسمع وأبصر وأحس كما أنتم ، وأعي بقلبي ذاتياً ومن مداخله كما أنتم ، إلا أن قلبي أوعى من قلوبكم إذ « يوحى إلي » دونكم ، وليست هذه المفاصلة بفاصلي عنكم ، وإنما هي مواصلة أخرى فيها لا تنالون بكامله ، وإن كنتم تنالونه دون كامله « إنما إلهكم إله واحد » فلا حجاب بيني وبينكم إلا منكم ، ولا كنان عما أذكركم إلا على قلوبكم منكم ، ولا قرأ أسمعكم إلا في أسماعكم منكم ، ثم من الله جزاءً وفاقاً : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً » (٦ : ٢٥) « بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون » (٢ : ٨٨) ! « ما كنت بدعاً من الرسل » : فأننا بشر كما هم وأنتم ، ولا بدعاً فيما ادعوف « إنما يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد » كما الرسل كلهم ، وهو قضية الفطرة والعقل وكافة البراهين حسية وعقلية ، فلماذا الحجاب بكنانه ووقره أماذا ؟ « فاستقيموا إليه » : إستقامة على قضية العقل والفطرة ، والعدل في القوامة والفضيلة ، دونما اعوجاج عنها ولا ارتجاج ، ثم الإستقامة « إليه » لا « له » فليس هو المستفيد من تلك الإستقامة ، وإنما هو المفيد المستقيمين إليه ، القاصدين سبيله « إليه » لا زماناً ولا مكاناً ، وإنما مكانة وإمكانية في بعدي التكامل شرعة وتطبيقاً « واستغفروه » عما يعبدكم عنه ويضلكم عن سبيله - : وويل لمشركين . . . »

﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ .

المشرك بالله - بطبيعة الحال - لا يدين بدين الله فلا يؤتي الزكاة زيادة مالية على أية حال ، فإنها مطلق الزيادة ولا سيما قبل نزول آيات الزكاة

الخاصة ، والآية من أقدم المكتبات ، ولما تفرض هذه الزكوة ، ولا يؤتي الزكوة حالياً أن يزكى نفسه كما تقول شريعة الله ، فلا له أموال زاكية ولا أحوال زاكية « وهم بالآخرة هم كافرون » فهم لمثلث الزمان هم خاسرون ، وأما حاله الدنيا فلا يزكيها لا مالاً بتعطفه على عباد الله ، ولا حالاً في انعطافه بنفسه تقريباً إلى الله ، وأما مستقبله فهو كافر بالآخرة ، فهو ناكراً للمبدء والمعاد وبينهما يعيش نكران الشرعة الحاكمة بين المبدء والمعاد فـ « ويل لهم » بدءاً وعوداً ، ويل لهم في أولاهم وويل لهم في آخرهم !

« إن الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وبشرعة الله حيث تزكى أحوالهم وأموالهم «وعملوا الصالحات» التي تتجاوب وإيمانهم « لهم أجر غير ممنون » ولا مقطوع عطاء غير مجذوذ ، لأنه قضية فضل الله ، فليست له نهاية مهما كان الويل للمشركون ممنوناً مقطوعاً حين تحمد النار ومن في النار لأنه قضية عدل الله فله نهاية .

﴿ قُلْ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِاللَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ^(٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ^(١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ^(١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ^(١٢) ﴾ .

آيات أربع من « فصلت » هي منقطة النظير في سائر القرآن بما فصلت من أيام الخلق بين السماوات والأرض بعد إذ أجملت في آياتها

السبع^(١) ولكنها تركت إجمالاً بعد تفصيلاتها مما حيرت ألباب الباحثين عنها فأصبحت معترك الآراء المتضاربة ، وقد توضّحها هي بنفسها عند التأمل اللائق بها فيها ، والآيات التي تناظرها فتناصرها في إيضاح ما أجمل منها ما أجملها ، دون أن تمشي في تفسيرها مكين على وجوهنا ، لاجئين في دراسة القرآن إلى نظريات العلماء القابلة للتبديل أو التعديل ، فلا نحمل على القرآن ما لا يتحمّله من توجيهات ، أو هو ساكت عنها ، وإنما نستنبط من نصوصه وظواهره شيئاً على صراط مستقيم ، حيث القرآن هو الإمام

(١) السبع هي التالية :

١ - « ان ربكم الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره أإله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » (٧ : ٥٤) .

٢ - « وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير » (٥٧ : ٤) .

٣ - « وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ... » (١١ : ٧) .

٤ - « إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدير الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون » (١٠ : ٣) .

٥ - « الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاستل به خبيراً » (٢٥ : ٥٩) .

٦ - « ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب » (٢٥ : ٣٩) .

٧ - « الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تذكرون » (٣٣ : ٤) .

الذي لا بديل عنه . ولا دليل أوضح وأتقن منه ، فهو - فقط - المحور
وسائر الأنظار حائرة حوله ، نصدق منها ما صادقه نصه دون تمحل ،
ونرجح ما يصادق ظاهراً منه ثابتاً متظاهراً بتفسير منه ، ونضرب عرض
الحائط ما يخالفه نصاً أو ظاهراً جلياً أم لا يوافقه !

هنالك تساؤلات حول أيام الخلق ماهيه ؟ وما هما اليومان تارة لخلق
الأرض ، وأخرى لتسبيح السماء ، وما هي الأربعة بينها ولماذا هي والجمع
ثمانية ؟ أو قد يزيد عليها يوم لأقل تقدير نصيباً مفروضاً لخلق الدخان .
فأين الثمانية او التسعة أما هي ؟ واين الستة الثابتة بآياتها السبع ؟ « ولو
كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » ؟ .

ثم ومن « ثم استوى إلى السماء » نتلمح كصراحة أن خلق الأرض
كان قبل السماوات بمرحلة ، فهو قبل خلق الأنجم في السماء الدنيا
بمرحلتين ، فهي - إذاً - قبل الشمس المخلوقة مع الأنجم ، وقد تنازع
ذلك سبق آيات النازعات : « وأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها . رفع
سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك
دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعاً لكم
ولأنعامكم » (٢٧ - ٣٣) .

وعلى ضوءها النظريات العلمية القائلة أن الأرض هي من مواليد
الشمس المنفصلة عنها ، المستضيئة منها ! ومن ثم فماذا تعني « ثم استوى
إلى السماء وهي دخان » من الإستواء ومن الدخان ؟ وما هي المقابلة بين
رب العالمين والأرض ودخان السماء ؟ وما هو إتيانها طوعاً أو كرها وقولها :
« أتينا طائعين » وإلى م يرجع ضمير الجمع في « فسواهن » ولا يسبقه
جمع ؟ وما هو الوحي في كل سماء ، دون إلى كل سماء أم لكل سماء ؟

ما هو اليوم ؟ .

اليوم في مطلق مايعنيه هو واحد الزمان حقيقياً أو نسبياً ، فالواحد الحقيقي هو واحد الحركة في المادة الاولية ولا يعلمها إلا الله أو من علمها إياه كـ « كل يوم هو في شأن » (٥٥ : ٢٩) .

والنسبي - فيما نعرف - يعم اليوم الإلكتروني وهو مقطع من الزمان للدور الإلكتروني حول شمسها البروتوني، وسنته ١ / ٥٠,٠٠٠ ثانية أرضيه .. ثم اليوم الأرضي نهراً أم بليلاً كما في آيات قد لا تعدو عشرين^(١) بين الآي التي تحمل اليوم وهي تدرج أربع مائة وتسعة وأربعين .

ثم أيام عمر الإنسان طفولة وكهولة وشيخوخة ، إلى أيام السلطة لآل فلان وفلان ، إلى يومي الدهر فـ « الدهر » يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطل وإذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبره وإلى أيام عمر الكون منذ البداية حتى الآن ، وإلى يوم القيامة ، وإلى أيام " سنة الأربع وهي فصولها التي يتقدر فيها الأرزاق كلها، وإلى الأيام النجومية ، ثم الأيام الكونية التي خلقت فيها السماوات والأرض ، وقد تعد يوماً واحداً بحساب المجموعة : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض .. » (٨ : ٣٦) حيث اعتبرت السنة يوماً واحداً ، والأيام التكاملية للأرض والسماوات بعد خلقهما، أما إذا من أيام ابتداء من « كل يوم هو في شأن » وانتهاء إلى يوم الكون كله منذ خلق حتى النهاية، وبينهما متوسطات من هذه وسواها^(٢) .

إن الأيام المذكورة في آيات التقسيم ليست هي الوليدة عن دوران

(١) وهي الآيات ٢ : ٢٠٣ و ٣ : ٤١ وأخرها .

(٢) راجع ج ٢٩ : ١١٦ ستجد تفاصيل لليوم على ضوء آية المعارج .

فَجَعَلَ الأربعة تَمَتُّها بعد اليومين-على مشاكله العدة- لا يغني عن المناقضة بين الستة والزائدة ، فإن يوم الدخان يجعلها سبعة ! أم يزيد يوماً لتزيين السماء الدنيا بمصابيح فرجعت ثمانية !

أم إن الأربعة لا تَمَّتْ بصلة لأيام الخلق ، إذا فهي الفصول الأربعة لدور السنة حيث تقدر فيها أقواتها كل سنة^(١) ؟ وفي ذلك التوجيه العضال إهمال أمرين من الثلاثة المتقدمة على الأربعة : « وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها » بإشغال الثالث فقط - : « وقدر فيها أقواتها » أنها متعلِّق الظرف « في أربعة أيام » دونها ، فلا هما ضمن « يومين » كما الثالث إذ ليسا من أصل الخلق ولم يُذكر قبل يومين ، ولا ضمن الأربعة إذا اختصت بالثالثة ، ولماذا ذلك الإختصاص ؟ وذكر أيام بعد أفعال متتالية يقتضي الشمول بطبيعة الحال !

ثم اللفظ الصحيح الصريح لهذا الإختصاص « وقدر أقواتها في أربعة أيام وجعل فيها .. وبارك » بعداً عن أي التباس ، وكما نراه في تسبيح السماء : « فسواهن سبع سموات في يومين وأوحى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً .. » حيث خرج الوحي والتزيين عن يومي تسبيح السماء !

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٣٨ تفسير علي بن ابراهيم اخبرنا احمد بن ادريس عن احمد بن محمد عن ابن محبوب عن ابي جميلة عن ابان بن تغلب قال قال لي ابو عبد الله (عليه السلام) يا ابان - الى ان قال - : « في أربعة أيام » يعني في أربعة اوقات وهي التي يخرج الله عز وجل فيها اقوات العالم من البهائم والطيور وحشرات الأرض وما في البر والبحر في الخلق من الثمار والنبات والشجر ، وما يكون فيه معاش الحيوان كله وهو الربيع والصيف والخريف والشتاء ...

اقول : انها رواية يتيمة في تفسير الأربعة بالفصول الأربعة ، فقد تطرح او تزول بأنها ضمن المعنى من الأربعة .

أم إن الأربعة هي الأدوار التكاملية الأرضية بعد خلقها ، ذكرت هنا لأفعال ثلاثة ، وأجملت في تكملة السماء عن فعلها ، فلا هما ضمن اليومين لتسبيح السماء ، ولا ذكر لها يوم ؟

إن ذلك لحق تنطق به الآية نفسها ، ففيها خلق للأرض ، وفيها دون ذلك مما في الأرض ، والكل قبل تسبيح السماء : « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل خلق عليم » (٢ : ٢٩) والأيام الستة في آياتها السبع تخص أصل الخلق دون ما فيه ! .

وقد تعم « قدر فيها أقواتها في أربعة أيام » الفصول الأربعة دلالة ضمنية تحملها الآية وتؤيدها الرواية ، فـ « في أربعة أيام » تتعلق أصالة بالثلاثة تكملة للأرض ، وبالأخيرة ، الفصول الأربعة بعد التكملة .

إذا فالمذكورة من الأيام الستة لخلقها ليست هنا إلا الأربعة ، واليومان الآخران عليهما لخلق الدخان ، أم يقسمان بينه وبين خلق الأنجم في السماء الدنيا ، أمآذا من محتملات علنا نستعرضها .

فالتيجة الحاسمة المجتثة لجذور المحتملات الدخيلات أن خلق الأرض كان قبل تسبيح السماء ، فهو - إذا - قبل الشمس بمرحلتين إذ خلقت مع سائر الأنجم في السماء الدنيا بعد تسبيحها .

تري هذه هي الأرض خلقت في أصلها قبل الشمس دون انفصال عنها ، فما ترى في تكملتها الثلاث في أربعة أيام ، هل هي كما الأرض مدبرة لها بعد يومها وقبل يومي السماء ؟ وآيات النازعات تؤخر ماءها ومرعاها عن بناء السماء !

هنا محكمات في تقديم ما في الأرض كما الأرض ، وأخر متشابهات

ترجع إلى هذه المحكمات : - فآية البقرة تجمعهما في تقدمهما على السبع السماوات : « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات » . . . (٢٩) (١) .

وآية فصلت فصلت ما في الأرض أن « جعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين » . ثم استوى إلى السماء . . . فسواهن سبع سماوات في يومين . . .

وآيات النازعات هنا متشابهات في جهات محكمات في أخرى ، فإنها تصرح أن دحو الأرض فأخرج ماءها ومرعاها وإرساء جبالها، هي كلها بعد بناء السماء ، دونما تصريح ولا إشارة أن خلق الأرض بعد بناء السماء ، ثم تبقى الأفعال الثلاثة الأخرى المتشابهات بين فصلت والنازعات (٢) .

فهل إنها كما الأرض قبل تسبيح السماء ، أم هي - فقط - بعده وخلقها نفسها قبله .

وهنا تشابه في بناء السماء هل هو تسبيحها ؟ فالثلاثة إذا بعده ؛ أم بناء لها من دخانها قبل سبوعها ؟ و « ثم استوى إلى السماء وهي دخان » . . . فسواهن سبع سماوات « قد لا تفسح مجالاً لبناء ثان ، فإن القضاء سبوعاً مبدؤه - فقط - الدخان، لا شيء ثان ! أم إنه بناء الدخان أولاً ثم بناء ثان هو ، « سواهن سبع سماوات » ؟ والدخان ليس فيه ماء ينزل على الأرض ، مع العلم أن مياه الأرض كلها من السماء !

(١) نور الثقلين ٢ : ٢٩٢ ح ١٢ تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال قال أمير المؤمنين ان الله جل ذكره وتقدس است اسماءه خلق الأرض قبل السماء ثم استوى على العرش لتدبير الأمور .

(٢) في فصلت « وجعل فيها رواسي » . . . وفي النازعات « اخرج منها ماءها » مهما اختلف الترتيب بين الثلاثة هنا وهناك .

أم إن الثلاثة في النازعات متأخرة عن ثلاثة فصلت ، تأخر البارز عن الكامن ، فقد « جعل فيها رواسي من فوقها » قبل بناء السماء « والجبال أرساها » بعدها ، ثم « وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » بنزول تراكيب الماء من دخان السماء ولما أصبح بالفعل بركات وأقوات ، إذ كانت غيبات ، ثم « أخرج منها ماءها ومرعاها » بعد بطونها وكمونها ، إذاً فالثلاثة هي قبل بناء السماء دخاناً أم سبع سماوات ، كامنة في الأرض ، وهي بعد ذلك ظاهرة ، وكما « الأرض بعد ذلك دحاها » وهي الحركة المعتدلة التي هيأتها لفعلية الحياة ، وقد كانت شمساً في حركات غير معتدلة .

ولأن « قدر فيها أقواتها » قد تعني - فيما عنت - أقوات الفصول الأربعة ، لذلك فمن هذه الثلاث ما هو متأخر عن تسبيع السماء ، كما منها المتقدم عليه ، ونحتمل أخيراً - بناءً على وحدة الثلاثة في فصلت والنازعات ظهوراً وكموناً - أن للسماء بنائين اثنين بعد دخانها ، بناءً أول انتج « رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلاً » وأخرج ضحاها ، وهي تعديل لها وتحريك عن حرٍّ إلى قرٍّ لحدّ إنزال الماء ، وبناءً ثانياً هو تسبيعها ، فأيات النازعات تعني البناء الأول إذ لم يذكر ضمن أفعالها الثلاثة تسبيعها ؟ وآية فصلت تعني البنائين مع بعض ، ودحو الأرض وإخراج ماءها ومرعاها وإرساء جبالها كان بين البنائين ا .

إذا فلا تنازع بين آيات فصلت والنازعات إلا تشابهات ترجع إلى محكمات والله اعلم بما أنزل من محكمات ومتشابهات .

وأما نظرات العلماء في انفصال الأرض عن الشمس ، فإنها على كونها فرضيات لم تصل لحد القانون العلمي القاطع ، ليست لتعارض صراح الآيات أنها خلقت قبل الشمس بمرحلتين ، وقد أثبت العلم أخيراً استحالة

الواقعية لهذه الفرضية لاختلاف جرمي الأرض والشمس شاسعاً بحيث تولد إحداها عن الأخرى (١).

(١) الفرضيات حول تشكيل المنظومة الشمسية كالتالية :

- ١ - فرضية التصادم لـ : بوفون الفرنسي ١٧٤٩م .
انه يذكر في كتاب له بين (٤٤) كتاباً ألفها في التاريخ الطبيعي ويقول حول تشكيل المنظومة الشمسية : « الأم الكبرى للعائلة الشمسية كانت تحمل أولادها لزمن مجهول ، ثم أخذت في ولادتها ، وكلف كوكب من ذوات الأذنان لإيلادها فضربت بنفسها الشمس في سرعتها الهائلة فتقاطرت منها قطرات ، وهذه المواليد الحائرة أصبحت تدور حول أنفسها على أثر هذه الضربة الهائلة فأصبحت عائلة لأُمها الشمس .
- ٢ - الفرضية الحلقوية او السحابية لـ « كانت » الألماني ٢٠ - ٣٠ بعد بوفون :
ابطل كانت باستدلالات واستبعادات فرضية التصادم ومنها أن كوكبة صغيرة لا تقدر في صدامها مع الشمس أن تفصل عنها جذوات تصبح كرات ، فهذه الفرضية بعيدة في عالم الفرض ... وسائر الأدلة المذكورة في محالها - ثم يشرح فرضية الحلقوية بان الشمس كانت في البداية كتلة وسعة من الغازات المعتدلة الشاغلة للمنظومة الحالية ، وكانت تحول حول نفسها بهدوء فانتقلت مقادير من حرارتها على أثر التشعشات إلى الأجواء المحيطة بها فانتقصت بذلك حرارتها فانقبضت وتراكمت لحد كثير فزادت حركتها الدورانية فخلقت هذه السرعة زيادة في فرارها عن مركزها وعلى أثرها تسطح قطبها وانقطعت منها حلقات سقطت على الصفحة الاستوائية ثم تكسرت هذه الحلقات وتراكمت وتحولت عن الحلقات الغازية الى كرات المنظومة الحالية .
- ٣ - فرضية « لا بلاس » الفرنسي ١٧٩٦م :
لابلاس ياخذ الفرضية الحلقوية بعين الاعتبار (في كتابه عرض الجهاز العالمي) وعرضها مرة ثانية بشرح أوسع ووجه أبدع ولكنه لم يكن لوقت ما يستدل له بأدلة رياضية - :
ثم - كلارك ماكس ول - بعد ستين سنة من هذه الفرضية - اخذ يجدد النظرية فيها بدقة ووصل الى النتيجة التالية :

أن تقبل هذه الفرضية يستلزم قبول تناقضات عدة ...

ولحد الآن أصبح الفرضيتان الحلقوية والتصادم مقبورين تلو بعض ، ومن ثم اخذ « جبرلن - مولتون الأمريكي ، وسرجس جنس الانجليزي يحددون حياة فرضية التصادم مرة أخرى ، ولأنها لم =

هذا - وإلى رجعة تفصيلية بحثاً دقيقاً عن آية التقسيم :

كيف خلقت السماوات والأرض ؟ ومم خلقتا ؟ ومتى خلقتا ؟ أسئلة تطرح نفسها وإليكم إجاباتها :

= تكن مثل الحلقوية تشتمل على تناقضات ، وفي هذه الرجعة وهي ترث الفرضية السحابية طرد عنها بعض الاستبعادات التي كانت عليها ، فالسيارة ذات الذنب هنا أصبحت ثابتة وجرمها كالشمس لكي تستطيع بصدامها مع الشمس على فصل قطرات منها . ولكنها رغم هذه الرجعة لم تعد قابلة للقبول ، حيث الأصل المقروض فيها وفي زميلتها مظنة المشابهة بين عناصر الشمس وسيارات المنظومة ، فماذا بعد إذا اختلفت العناصر هنا وهناك اختلافاً شامعاً .

هنا « ويزريكر » الألماني في كتابه (سر الحلقة) يتبنى تشكل المنظومة على مبنى العناصر التي تشكل الشمس وسائر المنظومة قائلاً : إن الفيزياء النجمية كشفت عن اختلاف العناصر بين الشمس وسائر المنظومة .

ثم « شترومكرن » بعد تأمل زائد حول كيفية هذه العناصر حصل على نتيجة : أن ٣٥٪ من جرم الشمس يتشكل من خالص الأوكسجين ، ومن ثم تبين أنه ٥٠٪ وقسم كبير منها هليوم . ثم « شوارتس شيلد » استمر في تكامل هذا المبنى ، وعلى أثر التجزئة الدقيقة الطيفية من سطح الشمس أنتج أن الشمس تشتمل - فقط - على ١٪ من العنصر الأرضي و ٩٩٪ منها مركب من نيدروجين بكثرة وهليوم بقلة .

هذا آخر ما أنتجته التحقيقات حول عناصر الشمس وسائر المنظومة ، مما يجيل حسب العادة انفصال الأرض وسائر المنظومة من الشمس .

ومن لباب العجائب ان « ويزريكر » هو أول كاشف لاختلاف العناصر يرنجح إلى فرضيتي كانت ولا بلاس موجهاً ذلك الإستبعاد ان الحلقات المنفصلة عن الشمس علها من ١٪ من جرمها المشابه لأجرامها ، حيث الشمس كانت مائة أضعاف حجمها الفعلي وعلى أثر الحركة الدورانية انفصلت عنها - فقط - العناصر ال ١٪ التي تشكل الأرض وسائر المنظومة .

هنا نعرف مدى بطلان هذه الفرضيات ، وصحة البيان القرآني الناصح ، أن لا صلة بين الأرض والشمس إلا في المادة الأم « الماء » وان الأرض متقدمة على الشمس في أصل تكوينها، وان كانت تستضيء منها حال اعتدالها الحيوي الحالي .

المادة الاولى لخلق الكون « ماء » ؟ !

آية يتيمة وحيدة في القرآن تتكفل بياناً مجملاً لام الكون اجمع : المادة الأولى التي خلقت منها السماوات والأرض وما بينهما : « وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » (١١ : ٧) وبيانها الفصل راجع إلى موضعه في « الفرقان » .

« كان » هنا تضرب إلى أعماق الماضي البعيد لكيثونة « الماء » قبل خلق الأرض والسما ، فليس - إذا - هو الماء المتولد عنها وفيها حيث خلقها « و » الحال أن « كان عرشه على الماء » .

والعرش فيما يعنيه من معانيه هو السلطة والبناء ، وقد كانت سلطته التدبيرية قبل خلق الأرض والسما على الماء إذ لم يكن دونه كائن ، وكان بنائه سائر الخلق على الماء إذ لم يخلقها دون مادة سابقة .

وقد وردت في بُعد هذا الماضي لكيثونة الماء رواية ما أرواها واروعها عن الإمام امير المؤمنين (ع) تضرب إلى مليارات من سنينا والله اعلم^(١)

(١) في تفسير البرهان ٢ : ٢٠٨ عن تفسير العياشي سئل امير المؤمنين (عليه السلام) عن مدة ما كان عرشه على الماء قبل ان يخلق الأرض والسما فقال : تحسن ان تحسب ؟ فقال - السائل - نعم فقال (عليه السلام) لو أن الأرض من المشرق الى المغرب ومن الأرض الى السما حب خردل ثم كلفت على ضعفك ان تحمله حبة حبة من المشرق الى المغرب حتى افنيته لكان ربع عشر جزء من سبعين جزء من بقاء عرش ربنا على الماء قبل ان يخلق الأرض والسما ثم قال : انما مثلث لك مثلاً .

أقول هذا الزمن الهائل هو من زمن بقاء العرش مع الماء ، ومع النظر الى بسطو الحركة العادية ، والسعة الهائلة بين المشرق والمغرب وعدد حبات الخردل ملا الأرض والسماوات ، والزمن الذي يتطلب نقل كل من المشرق الى المغرب ، يفوق عمر المادة الاولى بليارات البليارات من السنين الضوئية ، وبالعالم الامام حيث يحيط بهذا الزمن دون ان يلفظ بحدة اذ لا يحده القلم !

وعن سائر العنرة الطاهرة كلمة واحدة في متظافر الرواية « كان كل شيء ماءً وكان عرشه على الماء فأمر الله الماء فاضطرم ناراً ثم أمر النار فخدمت فارتفع من خمودها دخان فخلق السماوات من ذلك الدخان وخلق الأرض من الرماد »^(١) مما تتأيد بالقرآن « ثم استوى إلى السماء وهي دخان . . » .

« الماء » هو الخلق الأول اذ لا خلق غيره ، المادة الأولى اذ لا مادة سواها ، ولو كان أول ما خلق من خلقه ، الشيء من الشيء ، اذ لم يكن له انقطاع أبداً ، ولم يزل الله اذاً ومعه شيء ليس هو بتقديمه ، ولكنه كان اذ لا شيء وخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه وهو الماء الذي خلق الأشياء منه ، فجعل نسب كل شيء إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضاف إلى شيء »^(٢) .

إذا فليس هو - قطعاً - مائناً (H^2O) منسوباً إلى أبوين ، ولا أي عنصر أو جزئي أو ذرة حتى الثيدروجين حيث النسب يشملها كلها فهي - اذاً - المادة الأولى المعبر عنها هنا بالماء لمناسبات شتى قدمناها في موضعها .

ذلك أن الماء على أثر تفجيرة فوق الذرية اقتسمت إلى زبد الأرض ودخان السماء ، وهذه أولى الفتقات بعد رتقات للأرضين والسماوات : « أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون . وجعلنا في الأرض رواسي أن تميز بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلم يبتدون . وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون » (٢١ : ٣٢) .

(١) رواه الكليني في الكافي بسند عن محمد بن مسلم ، قال قال لي ابو جعفر (ع) : . .

(٢) الكليني في روضة الكافي بإسناده عن محمد بن عطية قال جاء رجل الى ابي جعفر

(ع) من اهل الشام من علمائهم - الى ان قال - : وكان الخالق قبل المخلوق ولو كان . .

الأرض بعد خلقها ودحرها ، إذ تسبق الأرض والسماء ، بل هي على الترتيب بين أيام الخلق ، وتكملة الخلق ، والأيام الفصول ، وهي مختلفة الزمان وأحياناً بمليارات الأضعاف بنسبة بعضها لبعض .

فليست هي الأيام النجومية العالمية وواحدھا ٤٣٢٠٠ سنة^(١) حيث القرآن يخاطب المكلفين اجمعين دون النجوميين حتى يمحصر صلاحاته الكونية فيما يصطلحون ، ولا الايام التدبيرية الألف او المئارية الخمسين الف ، فلإنها خاصة بمواردها في آياتها ، وانما هي ادوار الخلق والتكملة اماذا مما يحوم حوم خلق السماوات والأرض . حسب المراحل المختلفة المتدرجة من خلق الكون وتكامله .

هنالك يومان واربعة ويومان في آياتها الأربع من « فصلت » هذه، وليس ليعنى من الكل أيام أصل الخلقة التي هي ستة ، مع العلم أنها لا تخرج عن نطاق الخلقة ا .

أتري أن « اربعة أيام » تعني تنمة الأربعة^(٢) فهي مع اليومين

(١) في تفسير الجواهر للشيخ الطنطاوي ٤ : ١٦٥ : اعلم ان لفظة (يوم) قد وردت في علوم البابليين والآشوريين التي عثر عليها العلماء في المكتبة الملكية بقصر آشور بانيبال) ففي هذه الخزائنة وجدوا انهم قسموا منطقة البروج الى اثني عشر قسماً وهي البروج وقسموا الدائرة ٣٦٠ درجة وهكذا الدقيقة والثانية .. والاسبوع سبعة ايام ويقولون ان تقهر الاعتدالين في زمان (٤٣٢٠٠) سنة ويسمون هذه المدة يوماً من الايام العالمية وجعلوا السنة الشمسية التي قدرها ٣٦٥ يوماً وربع يوم ثانية واحدة من السنة العالمية ثم يقسمون اليوم العالمي إلى اثني عشرة ساعة، فتدبر تجد أن اليوم جاوزت عشرات الألوف من السنين وهو اليوم العالمي .

(٢) وما يؤيده من الروايات ما في الدر المنثور ٥ : ٣٦٠ - اخرج ابن جرير والنحاس في ناسخه وابو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس ان اليهود اتت النبي (صل الله عليه وآله وسلم) فسألته عن =

الآخرين ستة ، كما يقال : سرت من البصرة إلى الكوفة في يومين وإلى كربلاء في أربعة أيام ، والآيات السبع أن الخلق في ستة أصلح قرينة لهكذا توجيه ؟ ولكنه خلاف الفصيح والأدب الصحيح أن يتمحل في مثل هذه المعارض الهامة بين معترك الآراء ، ولزامها البيان الصريح « خلق الأرض في يومين وجعل فيها . . في يومين » أمّاذا ، والمثال إن صح في نفسه ليس إلا في استمرارية فعل واحد كالسفر وأمّشاله ، وهنا أفعال عدّة مفصولة بعضها عن بعض كما فصل « خلق الأرض في يومين » ، عن « وجعل فيها . . في أربعة أيام » ؟ !

ثم اليومان بعد الأربعة المختصان بتسبيح السماء لا يفسحان مجالاً لأصل الدخان السماء ، واللائح من « خلق السماوات والأرض في ستة أيام » في آياتها ، ومن « قضاهن سبع سماوات في يومين » هنا بعد دخانها - : أن الستة تنقسم - لأقل تقدير - إلى ثلاثة هي خلق الأرض ودخان السماء وتسبيح الدخان .

= خلق السماوات والأرض فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) خلق الله الأرض يوم الأحد والاثني وخلق الجبال وما فيهن من منافع يوم الثلاثاء وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب فهذه أربعة فقال تعالى : ﴿ قل ءانكم تكفرون . . في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه فخلق في أول ساعة من هذه الثلاثة الأجل حين يموت من مات وفي الثانية القي الأفة على كل شيء من متفع به وفي الثالثة خلق آدم واسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة قالت اليهود ثم ماذا يا محمد ! قال : ثم استوى على العرش قالوا قد أصبت لو أنتمت ثم قالوا : استراح فغضب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) غضباً شديداً فنزل : ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون « ورواه مثله في المجمع عن عكرمة عن ابن عباس عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى « خلق يوم الجمعة » بتفاوت يسير .

فقد كان هنالك رتق أول إذ كانتا ماء « ففتقناهما » في تلك التفجيرة عن مادتها الأولى ، وفتقُ ثانٍ اقتسام كلٍّ إلى طبقات سبع ، وثالث فتق السماء بالأمطار وفتق الأرض بالإنبات ، ورابع فتق السماء بالوحي وفتق أراضي القلوب بتقبل الوحي ، أماذا من فتق بعد رتق فصلناهما في موضعها .

آية الدخان هنا تشير إلى ما خلفه الفتق الأول « ثم استوى إلى السماء وهي دخان » ثم الثاني « فقضاهن سبع سماوات في يومين » ورابع « وأوحى في كل سماء أمرها » وبينما الثالث يشار إليه في تكملة الأرض : « وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » إمطاراً من السماء وإنباتاً من الأرض .

وترى هذه السماوات نرى مادتها المرتوقة « دخان » وفتقها إلى سبعها هنا ، فأين المادة الأرضية وأين فتقها إلى سبعها ؟ وابن سبعها ؟ .

مركز تحقيق كاميون علوم إسلامي

« خلق الأرض في يومين » تشير إلى أصلها مادة كثيفة تناسبها كما السماء في دخانها ، ثم ومن « الأرض مثلهن » (٦٥ : ١٢) تشير إلى انقسامها إلى سبعها ، ومن ثم « وقال لها وللأرض أتيَا طوعاً أو كرها .. فقضاهن سبع سماوات في يومين » تشير إلى موازات انقسامها إلى سبعها مع تسبيع السماء « في يومين » متداخلين لها لذلك التقسيم الجسمي ! فسبعُ الأرض ومادتها في مراحلها الثلاث غامضة مرموزة دون سبع السماء بمادتها ، ونحن نسكت عما سكنت الله عنه ، ونستلهم ما ألهمه رمزاً كما هنا .

فلولا تسبيع الأرض مع تسبيع السماء في يوميهما فلماذا خطاب التكوين لهما « إتيَا .. » ولماذا الجواب تقبلاً لتكوين « قالتا أتيَا طائعين » ؟

ولأن الأرضين السبع هي في السماوات ، وعلى كل واحدة منها في كل واحدة منها ، لذلك « فقضاهن سبع سماوات » و « هن » جمعاً باعتبار الأول الى سبع وسبع ، فهن إذا اربع عشر طبقات .

هذان يومان من أصل الخلق يختصان بخلق السماء والأرض طباقاً ، وقبلهما يومان لخلق الأرض الأم أماذا من أرض : « خلق الأرض في يومين » وهل للسماء الأم « وهي دخان » من نصيب في الباقيين من الستة ، وهل لـ « وزينا السماء الدنيا بمصابيح » من نصيب فيهما؟ نعم بطبيعة الحال ، فإنها ضمن خلق السماوات من طباقها وكراتها وقبلها دخانها ، كما الأرض الأم وطبقها ، أمور خمسة حصلت في ستة أيام ! .

فهل - بعد - يبقى نصيب لخلق المادة الأم « الماء » ؟ كلا ، لأنه ليس من خلق السماوات والأرض في شيء إذا لم تكن حينها لا سماء ولا أرضاً ، ولا يعني خلقهما إلا الزيت والدخان الحصيلين من التفجرة فوق الذرية في المادة الأم ، فلخلق الأرض يومان ، وتسبيع الأرض والسماء يومان ، ثم الآخران يقتسمان بين دخان السماء وزينة السماء الدنيا .

أم وكما تداخل السبعان في يومي السماوات ، كذلك التداخل للأرض والدخان في يومي الأرض ، فيبقى أخيران لزينة السماء الدنيا !

ثم اليومان لخلق الأرض قد يتخللها اليومان لتسبيع السماء والأرض ، فتأخر الأفعال الثلاثة للأرض في أيامها الأربعة عن استقلال هذه الأرض ، مهما شملت هذه الثلاث سائر الأرضين السبع !

وعلى أية حال هنا محكمات في ذلك التقسيم العضال ، يومان لخلق الأرض ، ويومان لتسبيع السماء ، ثم لا ندري كيف التقسيم في الآخرين .

ومن ثم تداخل السبعين ليومي تسبيع السماء ، ولا ندري هل تداخل الأرض والدخان في يومي الأرض أم لكل نصيبه متفصلاً ؟

ولأن خلق الأرض كما السماء يشمل مرحلتي الوحدة الأم والكثرة السبع ، فـ «خلق الأرض في يومين» قد يعني يوماً لخلق الأرض الأم ويوماً لتسيعها مع السماء ، فتصبح الأربعة - إذاً - ثلاثة ، فثلاثة باقية لسائر الخلق ! .

هنالك نصوص وظواهر هي بدرجاتها محكمات ، وهنا مبهمات مجملات متشابهات ، نؤمن بما تشابه منها ونعلن ما أحكم فيها نصاً بنص وظاهراً بظاهر والله أعلم بما قال !

ثم لا بد لنا من تحقيق معنّى أنيق حول ذلك التقسيم في رجعة ثالثة إلى آيات التقسيم :

﴿ خلق الأرض في يومين ﴾ ؟

ترى أنها أرضنا هذه التي نسكنها ؟ حيث الأرض في كافة إطلاقاتها في سائر القرآن تعنيها لا سواها .

لكننا الأرض كما السماء تعني جنسها الشامل للسبع إلا لقرينة تخصها ، والخطابات القرآنية تعم كافة المكلفين فلا تخص أهل هذه الأرض ، ولو أنها هذه لا سواها فكيف اقتسمت مع السماء إلى سبع ؟ أو ليس لسائر السبع نصيب من يومي الخلق وأربعة التكملة ، وقد شملتها الأيام الستة في خلق السماوات والأرض ! .

أم إنها السبع حيث الإطلاق يشملها ، وآيات خلق السماوات والأرض تؤيدها ؟ إلا أن «قضاها» الشامل لقضاء الأرض سبعاً ، تعارض سبعها قبل تسيعها !

أم انها الارض الأم خلقت في يومين ، ثم في « قضاهن » اقتسمت سبعا؟ وكيف تقسم بعد كماها الثلاثة في أربعة ايام؟ والظاهر من « خلق الأرض » كل خلق جوهرى لها فيشمل تسبيعا!

علّ الثلاث أوسطها أولاها ، أن خلقت سبعا « في يومين » واستكملت في أربعة ، ثم تمكنت في « قضاهن » اقتساماً في السماوات السبع ، فالقضاء لدخان السماء تسبيعا ، وللأرضين السبع تمكينها عن جمعها إلى مكانات أخرى ، ولذلك ترى النص يخص « سبع سماوات » بذلك القضاء ، وتهمل عن سبع أرضين ، مع العلم أنها داخلة في القضاء ، والفارق أن قضاء السماء تقسيم لها إلى سبع ، وقضاء الأرضين تحويل لها إلى سماواتها .

وقد يساعد هذه الوسطى أدب اللفظ حيث يقدم الأفعال الثلاثة على تسبيح السماء ، وواقع المعنى ، إذ من البعيد جداً إقتسام الأرض سبعا بعد تكملتها ، وتساعدنا الروايات المستعرضة لها^(١).

(١) ومنها رواية الكافي عن الصادق (عليه السلام) « وفي يوم الاحد والاثنين خلق الأرضين » تفسير البرهان ٢ : ١٧٧ وفيه ٢ : ٢٠٧ عن تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان عنه (عليه السلام) مثله . ومنها ما في شرح النهج للخوئي ١ : ٣٩٣ عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فخلق من زبده الأرضين السبع . . . ومنها ما في دعاء عرفة عن الإمام الحسين (عليه السلام) تسبح لك السماوات السبع والأرضون ومن فيهن ، وفي القرآن « الأرض » مكان « الأرضون » مما يدل على انها معنية من « الأرض » وقد يدل عليه أو يؤيده ما في الدر المنثور ٥ : ٢٦١ عن عكرمة ان اليهود قالوا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، يوم الاحد قال : خلق الله فيه الأرض ، وجاء الرواية المتظافرة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) وعن عترته (عليهم السلام) انها خلقت يوم الاحد والاثنين ، كما في نفس المصدر اخرج ابن جرير عن أبي بكر قال جاء اليهود الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا يا محمد اخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الايام الستة فقال : خلق الله الأرض يوم الاحد والاثنين . . . اذا فالיום الثاني لتسبيح الأرض بعد خلقها .

وهنا اليومان قد يقتسمان إلى خلق الأرض الأم ، واقتسامها إلى سبع ومن ثم الأربعة التكاملية للثلاثة ، ولو أن تَقْسَم الأرض إلى سبع كان في غير يومها ، موازياً لسبع السماء أَمَازَا ؟ فالمحتملان التاليان في موردها :

١- يومٌ للأرض الأم الحصىلة عن تفجرة الأم الأولى: « الماء » ويومٌ لتجميدها بعد ذوبانها وقد تؤيده « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً .. » (٦٧ : ١٥) حيث ذلت بعد شمس ، واعتدلت بعد ارتكاس ، فلشماسها يوم ولذَّها يوم .

٢- أم إن يوماً لحالتي شماسها وذَّها والآخر لدخوها « والأرض بعد ذلك دحaha » وعلى أثر دحوها وجراكاها ، تصلَّبت رواسيها شيئاً فشيئاً في أعماقها ف « أخرج منها ماءها ومرعاها .. » والجبال أرساها .. « كبداية للأعمال الثلاثة في الأربعة التكاملية .. أَمَازَا ؟

ولكننا الأوفق لِلْمَحَات الآيات وتصريحات الروايات وقضية الترتيب الطبيعي علَّه ما قبلهما ، أن الثاني لتسبيع الأرض ، ثم الأربعة لتكامل السبع ، ومن تمكينها في مكاناتها بين السماوات السبع ، ثم إخراج ماءها الكامن فيها ومرعاها الباطن لها ، وإرساء جبالها في أعماقها بعدما جعلت من فوقها ، ونخالقها أعلم بما قال .

« وجعل فيها رواسي من فوقها .. في أربعة أيام .. »

هنا افعال ثلاثة في أربعة أيام ، فكيف التقسيم لثلاثة بين أربعة ؟ .
تعرَّفنا من آية الذَّلُول حالتي الأرض في شمس وذَّل ، فقد كانت في أول أمرها شمساً : متحرقة مذابة وفي حركات مضطربة كما الدابة الشَّموس ، فحركتها الدورانية من ناحية ، ومساس سطحها الخارجي مع الهواء من أخرى « وجعلنا فيها رواسي من فوقها » كبداية لخلق الجبال ولما ترسو الجبال في أعماقها ، ولأنما أمواج على سطح الأرض ، وكما يسأل

الإمام امير المؤمنين (عليه السلام) مِمَّ خُلِقَت الجبال ؟ قال : من الأمواج^(١) وعَلَّه اليوم الأول من الأربعة لبداية خلق الجبال .

ثم وتَّدها في أعماق الأرض لما أخذت الأرض تجمد من ظاهرها إلى أعماقها « والجبال أرساها » تعني التي جعلت فيها من فوقها وأرساها في متنها وعمقها ، فللجبال حالة أولى هي نصبها « وإلى الجبال كيف نصبت » .

﴿ وجعل فيها رواسي من فوقها ﴾ .

وحالة أخرى بعدها هي إرساءها « والجبال ارساها » وتوتيدها « والجبال أوتاداً » (٧٨ : ٧) أن تميد بكم « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم » (١٦ : ١٥) « وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الصُّم من صياخيدها فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسبخ بحملها » « ووتد بالصخور ميدان أرضه » وهذا من دحوها الذي خلَّف إخراج ماءها ومرعا بعدما « والجبال أرساها » !

هذان يومان كما يقول القرآن لنصب الجبال وإرسائها ، وقد يصادفه نظرات المعرفة الأرضية أن اليوم الأول لبداية ظهور الجبال والثاني لإرساء الجبال في قطع أديمها والاول ٣٦٠ مليون سنة والثاني ١٣٥ مليون سنة .

فالملاحظ في الدور الأول ظهور « كالدونين وهرسى نين » وفي الثاني أغلب الجبال الفعلية ، والأصل هو الاستفادة من القرآن ليومي جعل الجبال وإرسائها .

﴿ وبارك فيها ﴾ .

مباركة الأرض هي تحصل المياه فيها وتهيؤها لتبريك الأرض ببركاتها

وبذلها بعد شماسها وقرها بعد حرها ، واعتدال حركاتها بعد اضطرابها ،
وتقول النظرية معرفة الأرضية : إن هذا الدور لم يعد طائلاً إلا ٥٤ مليون
سنة والأكثرية الساحقة من الماء والكلاء التي نعيشها الآن هي من ذلك
الدور ، وهي أهم الادوار الجغرافية العمرية لأرضنا ، لها أهميتها بين
أدوارها .

﴿ وقد ر فيها اقواتها ﴾ .

علها أخذ في تنظيم الفصول الأربعة ، ولأن الأقوات ليست إلا لذويها
فهو دور ظهور الحياة الحيوانية والإنسانية على وجه الأرض ، وتقول النظرية
إن هذا اليوم الرابع يقدر بـ ٣٠٠,٠٠٠ سنة التي ظهر فيها الإنسان^(١) .

﴿ سواء للسائلين ﴾ .

يعني المحتاجين لأن كل محتاج سائل ، وفي العالم من خلق الله من لا
يسأل ولا يقدر عليه من الحيوان كثير « فهم سائلون وإن لم يسألوا »^(٢) فمن
سائل يسأل بلسان القال ، ومنه من ليس له قال أم لا يسأل بقال فسؤاله -
إذا - بلسان الحال ، ومن سائل يسأل قبل كونه سؤال الحاجة الذاتية
للإستكمال ، فهناك مثلث السؤال « فهم سائلون » بسائر السؤال « وان
لم يسألوا » بلسان القال !

« يسأله من في السماوات ومن في الأرض كل يوم هو في شأن . فبأي
آلاء ربكما تكذبان » (٥٥ : ٢٩) « وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا

(١) وهذا على فرض صحته لا ينافي عمر هذا النسل المقدر بزهاء عشرة آلاف ، فان
قبله أنسال إنسانية كما فصلنا في آية الخلافة في البقرة .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٣٨ تفسير القمي عن الإمام الصادق (عليه السلام) في حديث
طويل حول تفسير آية التجميع .

نعمة الله لا تحصىها .. » (١٤ : ٣٤).

وترى البركات والأقوات السواء للسائلين هل هي قدر السؤال وحسبها؟ إنها قدر الحاجيات والمصلحيات دون إفراط فيها ولا تفريط ، فالنبات يأخذ من الماء والهواء ومن القَرِّ والحَرِّ قدر الحاجة ، والحيوان يأخذ منها كما يحتاجه ، وعلى الإنسان أن يعدل فيها يأخذ دون أثر ولا كبرياء ، اقتطاعاً لأكثر مما يحتاجه مهما كان من سعيه ، فوا ويلاه إذا كان من مساعي الآخرين ! .

﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان .. ﴾ .

ذلك إستواءه الإستيلاء لخلق الدخان سبباً كما خلق الأرض في يومين « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم » (٢ : ٢٩) .

هنا وهناك « استوى إلى » وبعد خلق السماوات الأرض « استوى على » والفارق بينهما أن الأولى استواء لخلقها، والثانية استواء لتدبير أمرها : « إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يَغْشَى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » (٧ : ٥٤) .

استوى إلى السماء لخلق لها ثان وهي دخان ، حالة ثانية للمادة الأم ، فنصيب السماء دخان نائر ، ونصيب الأرض زبد مائِر ، وليدان اثنان إثر التفجرة فوق الذرية للوالدة الكبرى « الماء » .

ترى ما هي « الدخان » ولم يأت ذكرها إلا هنا وفي « الدخان » : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » (١٠ - ١٢) .

ليس الدخان - فقط - الصاعد عن محترق الحطب وأضرابه ، بل هو

المستصحب للهبب أياً كان: من هيب الأحطاب والفحوم الحجرية، إلى هيب الفلزات المذابة على درجاتها الحرارية المختلفة، وإلى هيب الغازات الصاعدة عن التفجرات الذرية على درجاتها الحرارية، إلى الثيدروجين وقد شكلت الكرة الشمسية منها في قسم كبير من جرمها، ففي مركزها ٧٠ مليون درجة من الطاقة الحرارية، وإلى ٣٨٠ مليون درجة كالتى في مركز الشعري وهي تبعد عنا ٥٠٠٠٠ ضعف الشمس، وهنالك درجات فوقها لم يصل العلم إليها حتى الآن، والتي وصلها ليست إلا من وليدات الدخان الأم.

وهل هنالك بناء للسماء بين دخانها وطباقتها كما بنيت الأرض أرضاً ما، ثم انقسمت إلى سبعها؟ عله نعم، فالتسوية سبعاً تتحمل للسماء بناءً أولاً هو لها وحدها بتحويلها عن دخانها إلى حالة أخرى، فيه «رفع سمكها فسواها». وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، وثانياً هو تسبيعها، فخلق الأرض وما فيها هو قبل تسبيع السماء كما تقول آية البقرة وفصلت، ودحو الأرض وإخراج ماءها ومرعاها هو بين بناء السماء وتسبيعها.

ف «ثم استوى إلى السماء وهي دخان» لبناءها سماءً وتسويتها سبعاً وكما:

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ .﴾

وتراه قولاً قولياً؟ وليست الأرض والسماء من أهل المقال، ولا خيرة الأفعال «طوعاً» وإذا لا تختار فـ «كرهاً»! فهو- إذا- قوله الفعل تكوينياً كما في سائر تكوينه «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» (٨٢: ٣٦) وتعبيره عن فعله بقوله إشارة إلى نفاذ أمره دونما نظرة للفاعل ولا من القابل، وهي فيهما لكل فاعل غير الله «وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكَرْهاً» (٨٣ : ٣) «ولله يسجد من في السماوات

والأرض طوعاً وكرهاً» (١٣ : ١٥) فهذه السجدة وذلك التسليم تعطفان إلى طوعية شاملة للكون أمام أمر التكوين في بداية الخلق ونهايته ، فقد «خلق السماوات موطدات بلا عمد . قاثمات بلا سند ، دعاهن فأجبن طائعات مذعنات غير متلكثات ولا مبطيات»^(١) «ذلّل للهابطين بأمره والصاعدين بأعمال خلقه حزونة معراجها وناداهما بعد إذ هي دخان فالتحمت عرى أشراجها»^(٢) فقد كان التحامها - وعله بناءها سماء قبل سبعها - كان ذلك بدعاءها والأرض «أثيا» «قالتا أتينا طائعين» فكان في إتيانها بناءً لهما ثان بعد دخان السماء وزيد الأرض أماذا ؟

وفي «طوعاً أو كرهاً» إشارة إلى حتمية إرادته، أن لو كانت لهما خيرة لامتنعتا، فإتيانها - إذاً - واقع كرهاً ، «قالتا» بلسان الكينونة والحال وواقع المحكي المقال : «أتينا طائعين» ! فعل العاقل اللبيب والسامع المجيب جرياً على المراد ووقوفاً عند الحدود والأقدار ، من غير معاناة طويلة ولا مشقة شديدة ، فكانت في ذلك جارية مجرى الطائع المميز إذا انقاد إلى ما أمر به ووقف عندما وقف عنده إيقاظاً بغير علوم راسخ

«فقضاهن» هل السماء فحسب ؟ والإتيان بعد الأمر لهما دونها فحسب ! أم لهما ؟ وهذه جمع وهما اثنان ! .. إنه قضاءهما سبعاً ، سبعاً في سبع ، علّ كل أرض استكنت في سماء أماذا ؟ وما أطفه تعبيراً أن الأرض ما كنُ السماء كسائر الأنجم حيث يحول حولها الفضاء ، ليست على قرني الثور أو ظهر الخوت أماذا من أماكن اختلفتها أيدي الجهل «الجعل !» «فقضاهن سبع سماوات في يومين» دورين من الأدوار الستة لخلق السماوات والأرض ، وذلك قضاء تكوين ثان للأرض والسماء ، أياً

سورة فصلت / آية ٩- ١٢ ٤١

كان فإنه « قضاهن » لا « هن » أو « إليهن » أو « عليهن » أم سائر القضاء التي تحمل سائر معاني القضاء !

أترى أحدها لتسبيح السماء والآخر لتزيين السماء الدنيا بمصابيح كما يروى^(١) ولو كان لذلك التزيين نصيب منها فصحيح التعبير إذا « فقضاهن .. وزينا . في يومين » ! فنصيبه - إذا - من اليومين الباقيين .

أم إنيهما - فقط - لتسبيح السماء كما في رواية أخرى^(٢) وهو الصحيح الفصيح من آيتيها فتصدق روايته ويعرض عن الأخرى .

﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾

وذلك الوحي - أياً كان - يشمل الوحي في كل أرض كما في كل سماء كما « ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن .. » وهو الأمر الموحى في كل من السماوات السبع والأرضين السبع « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه .. » (٣٢ : ٥) . و « كل سماء أمرها » تلمح باختصاص كل بوحى خاص ، اللهم إلا وحي الشرعة الشاملة لكل عام وخاص !

أترى أن الأمر الموحى في كل أرض وسما هو التكوين فقط ؟ ولا يناسبه الوحي ، وإنما القضاء أماذا من صيغ التكوين ! أم هو التشريعي ؟ فلماذا

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٦٠ في رواية ابن عباس الماضية عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) « وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة ... » أقول وقد سبق صدرها أنها تصرح « في أربعة أيام » تعني في تمتتها وهي أيضاً خلاف ظاهر الآية فالرواية بمجموعها مطروحة لمخالفة الكتاب .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٣٩ ح ٧ في روضة الكافي عن الصادق (عليه السلام) في حديث تقسيم أيام الخلق : « وخلق السماوات يوم الأربعاء ويوم الخميس .. » وروى مثله القمي عن الرضا (عليه السلام) .

« في كل سماء » دون « الى » ! أم إنه يعنيهما ، والوحي « في » جامع للوحيين « لـ » كما للارض « بان ربك اوحى لها » رمز في التكوين بعدما كونت أماذا من خلق يعبر عنه بـ « اوحى » ثم الثاني : الوحي « الى » كما إلى الأنبياء والملائكة آمن ذا من مؤمن بارع ، وإلى حيوان صانع كما « اوحى ربك إلى النحل » ! فلكل سماء ولكل ارض أمر من الأمور : اشياء وأفعالا ، وأمر من الأوامر شرعة ففعالا^(١) ، وهما من الأمر المدبر من السماء إلى الأرض والعارج إليه .

والأمر أياً كان يقابل الخلق « ألا له الخلق والأمر » فهو التدبير للخلق مادياً : وحياً لخلق ، أو معنوياً : وحياً إلى خلق ، يجمعهما « وأوحى في كل سماء أمرها » !

﴿ وَزَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾^(٢) .

مركز تحقيق كامبوتر علوم إسلامي

والسماء الدنيا هي أدنى السماوات السبع إلينا ، فهي الأولى بالنسبة لنا ، أم هي الدنيا بالنسبة للأرضيين السبع كلها في احتمال أنها كلها في السماء الأولى ، وعلّ الأولى أولى كما قد تقتضيها : « فقضاهن سبع سماوات » و « مصابيح » هنا هي « الكواكب » في الصافات ، تشمل كافة الكرات الصابحة ، السابحة في خضم البحر الملتطم ، مرئية بعيون مجردة و مسلحة أماهيه ؟ وهي تشمل شمسنا ، فهي متأخرة عن أرضنا وعن الأرضيين كلها ، فليست هي والدلة لها ، بل هي وليدة غازات في السماء الدنيا كما والأرض حيث ، انتهيا إلى الجدة الأولى « الماء » !

(١) حيث الأمر بين هذه المعاني الثلاث : الشيء - الفعل - مقابل النهي .

وهذه الكرات مصابيح لمن يستصبحها ، وحفظاً من كل شيطان مارد ،
أماذا من حِكم أجمل عنها « ذلك تقدير العزيز العليم » .

قد لا يربينا شك أن لتزيين السماء الدنيا نصيباً من اليومين الباقيين ،
كما ولدخان السماء نصيب منهما ، فهل هنا نصيب ثالث لـ « أوحى في كل
سما أمرها » ؟ بطبيعة الحال نعم ، ولكنه أنى ؟ وقد قُضيت الستة ، ولكنه
لا ، حيث الوحي « في » ليس من الخلق ، وإنما هو تدبيرٌ شرعة وتكويناً
للخلق ، وهو بعد أصل الخلق ، فإنما الشركاء في الأيام الستة ، الأرض
بتسبيعها والدخان بتسبيعها وتزيين السماء الدنيا .

فذلكة حول أيام الخلق :

أسماء أيام الاسبوع التي تتكرر في أحاديثنا لا تعني أنها بقدرها هي أيام
الخلق ، بل هي صيغ فرعية عن الأيام العالمية أو الأرضية المختلفة مع
بعض بالآفات المضاعفات ، خلافاً للخرافات التي أقحمت في التوراة أنها
أيامنا هذه بلياليها ! .

مركز تحقيق كامبوتر علوم إسلامي

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً
 مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ
 بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ
 شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾
 فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ
 أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ
 أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا
 عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ
 الْحَزَنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَثَرِيٌّ
 وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا
 الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ
 بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا
 يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ

يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ
وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا
لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ
كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾
وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ
وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبرُوا فَلِلنَّارِ
مَشْوَى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعِزُّوا فَلَهُمُ مِنَ الْمُعْتَزِينَ ﴿٢٤﴾
* وَقَبَضْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَزَيَّنَّا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا
خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَّتْ مِنْ
قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾

... إنها جولة في مصارع الغابرين عبرة للحاضرين بعد تلك الجولة العابرة في خلق السماوات والأرضيين ، مما تهز القلوب المقلوبة وتعز الصافية النقية « فإن أعرضوا » بعد ذلك العرض العريض للرحمة الكونية والشرعية الشاملة ، وتلكم البراهين الكاملة على التوحيد « أعرضوا » عن رب العالمين ، فلا دواء لدائهم العضال إلا أشد الإنذار « فقل أنذرتكم صاعقة » تصعقكم « مثل صاعقة عاد و ثمود » أفهذا هو بنفسه الإنذار؟ وصيغة الماضي تضربه إلى ماضٍ ! فأين كان ذلك الإنذار - إذاً - ومتى ؟ لا نجد في سائر القرآن إنذاراً لهم سابقاً كصاعقة عاد و ثمود أم أية صاعقة ، فذلك ، - إذاً - هو هو بنفسه ، تعبيراً بماضٍ تأكيداً لمستقبل قاضٍ ! أم إنه إنذار ماضٍ فيما استعرضت صاعقة عاد من آيات ، فإن قصص القرآن عما مضى بشارات وإنذارات لمن يستقبل ، ولا يُعنى من قصصها على اللاحقين إلا عبرة « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب » (١٢ : ١١١) « إن في ذلك لعبرة لمن يخشى » (٧٩ : ٢٦) .

ولأن الإنذار ليس إلا يتوقع مستقبل المنذرين أم في حال ، فلتكن لهم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود فأين هي وأنى ؟

لعاد و ثمود والمصعقين من قبل ومن بعد ، قد تكون صاعقة في الأولى وأخرى في الأخرى : « فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » (١٦) أم هي - فقط - في الأخرى كما هنا !

فلأن صاعقة الأخرى هي أخزى فقد أنذروا بمثل صاعقتهم وأخزى ، فإن عذاب الأخرى أشد وأنكى ، إذ تضم لهم إلى صاعقتهم ما استحقوها في الأولى ، فأولى لهم ثم أولى !

والصاعقة هي التي تصعق غشبة أو إمانة من صواعق الرعد والبرق :

« ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » (١٣: ١٣) أم صاعقة ريح صرر قر صر: « ريحاً صرصرأ في أيام نحسات » (١٦) وهي عاتية : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » (٦٩ : ٧) ، أم صيحة خاصة كما في ثمود : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين .. ألا بعداً لثمود » (١١ : ٦٨) وقد جمعتها « صاعقة » فأخذتهم صاعقة العذاب الهون » (١٧) .. أم صيحة تحشرهم جميعاً إماتة وإحياء: « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » (٣٩ : ٦٨) أم صاعقة الجحيم ، فقد تشملهم صواعق العذاب إلا التي في الدنيا لمن أنذرهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » (٨ : ٣٣) .

﴿ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأَنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾^(١).

« هم » هنا عاد وثمود، رجعاً لجمعهم مهما كانوا اثنين ، فمن هم الرسل التي جاءتهم ولم يكن إلا صالح وهود ؟ وماذا تعني « من بين أيديهم ومن خلفهم » ؟ ولا نجيء الرسل إلا بين أيدي المرسل إليهم حضوراً ، لا غيباً في ماضٍ أو مستقبل ! إنها آية عديمة النظر في مجيء الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ، إلا التي لعاد في الأحقاف « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » (٢١)^(١) الرسل من بين أيديهم

(١) راجع الفرقان ٢٦ : ٥٣ .

هم المعاصرون لهم ، صالح وهود في أصل الدعوة ، ومن معهم من الرسل حيث وصلتهم دعوتهم المناصرة لتلك الدعوة ، وليست الرسل المستقبلية إذ لا صلة لهم بعاد وشمود حضوراً ولا وصولاً إذا هم غُيِّبُوا و « من خلفهم » هم الرسل الذين خلوا من قبل ، فقد جاءتهم دعوتهم في بُعدي إنذار آبائهم فهم إذاً منذرون ، ثم وصول دعوتهم من طرق أخرى ، فلا يُعنى من مجيء الرسل إلا مجيء الرسالة ، كما جاءت الرسالة الإسلامية ملاً العالمين من الجنة والناس أجمعين وإلى يوم الدين ، ولم يبق الرسل إلا شذراً من السنين .

أم وفي وجه أوسع « من بين أيديهم » نعم الحاضرين ومن يستقبل ، كما « ومن خلفهم » نعم كافة الماضين ، تدليلاً على أن الرسالة القائلة بتوحيد الله واحدة مهما كان الرسل عِدَّة ، فليس فاصل الزمان والعِدَّة والعِدَّة بالتي تفصل بين الرسالات ، فرسول واحد - بهذا الصدد - هو الرسل كلهم يحمل الرسالات كلها ، فتصديق واحد منهم تصديق لهم أجمع ولها كلها ، كما وتكذيب واحد تكذيب الآخرين ، لذلك نرى « كذبت عاد المرسلين » (٢٦ : ١٢٣) « كذبت ثمود المرسلين » (١٤١) و « كذبت قوم لوط المرسلين » . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ، (١٦١) .

ووجه ثالث مجيء الرسل من كافة الجهات والجنبات ، حيث استغرقت الحجج كلها : حسية وفطرية وعقلية وكونية أماذا « فله الحجة البالغة » تبلغ البالغين ، من ألقى منهم السمع وهو شهيد ، وقد تعني « من بين أيديهم ومن خلفهم » مثلث الجهات والوجهات !

« جاءتهم الرسل . . » ولكنهم اعرضوا كما أعرضتم « وقالوا » كما قلتم « لو شاء ربنا لأنزل ملائكة » ف « لو » إحالة منهم أولى لإرسال الرسل ، و « لأنزل ملائكة » إحالة ثانية أن يكون بشراً لو أنزل ، و « ربنا » دون

« الله » أو « رب العالمين » إحالة ثالثة ، فإنه - وهو ربنا - لم يرسلنا ونحن بشر المرسلين البشر ، فهم - وهم ناكرون للرسالات الإلهية - يعتذرون في نكرانهم بثالوثهم ، وحجتهم داحضة عند ربهم لو كانوا يعقلون .

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (١٥).

وهل هناك استكبار بحق حتى يوصف هنا « بغير الحق » ؟ عله كقتلهم النبيين بغير حق تأكيداً لبطلانه ! أم ولأن استكبار المستضعف أمام المستكبر الظالم هو استكبار بحق ، أخذاً لحق أو دفاعاً عن حق ، وقد يروى أن التكبر مع المتكبر عبادة ! ولكنه ليس استكباراً فإنه طلب الكبر لمن ليس بنفسه كبيراً أو لا يحق له الكبر ، ولا تجدد في سائر القرآن استكباراً بحق فكله دوغما استثناء بغير حق ، وقد تعنيهما « بغير الحق » حيث الإستكبار الحق هنا ضمن المعنى المتحرز عنه « بغير الحق » .

وفي تاريخ الإستكبارات الباطلة قُوت بعضها فوق بعض « كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً .. ألم يأتيهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات .. » (٩ : ٧٠) فمنهم أولاء وهم كانوا أشد منكم قوة ، وثالث هم أشد من أولاء « وقالوا من أشد منا قوة » ؟ كأن لم يروا أشد منهم قوة ، فإذا لم يروا « أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة » (١) وليس الله بقادر على أن ينتقم منهم ؟ « وكانوا بآياتنا يجحدون » - :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَابٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ

(١) فالواو هنا عطف على محذوف هو « لم يروا » والا لم يكن لها موقع ادبي ومثله كثير في القرآن .

في الحياة الدنيا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾.

« فأرسلنا عليهم » هؤلاء الحماقى الطغاة السرسرين « ربحاً صرصراً في أيام نحسات » ^(١) وكما السرسر هي بالغة الشر ، كذلك الصرصر هي بالغة الصر والقر ، والأيام النحسات هي سبع ليال وثمانية أيام حسوماً مجتثة جذورهم « فهل ترى لهم من باقية » (٦٩ : ٨) .. أتري أن هناك أياماً بين الأيام هي بنفسها نحسات وهي من قالة المنجمين ؟ كلا ! حيث النحوسة والسعادة في زمان او في مكان هما الناتجتان عما يحصل فيهما ، دون ذاتية لآتي منهما في نحوسة أم سعادة ، وهما ترجعان إلى عملية الإنسان ونوئته النحسة او السعيدة ، دونما قضاء فيها وقدر لها لا تَمُتُ بصلة لما يعملهُ الإنسان .

ذلك « لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا »، وصرصرهم في الآخرة أخزى وأنكى « وهم لا ينصرون » خزيّاً زائداً على الأولى في بُعديه ، فإذا هم يظنون نصرة في الأولى فد « هم في الآخرة لا ينصرون » بل ويُخذلون ويُردّلون ! ألا « واتعظوا فيها بالذين قالوا « من أشد منا قوة » حُملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبائنا، وأنزلوا فلا يدعون ضيفاناً، وجعل لهم من الصفيح أجنان، ومن التراب أكفان، ومن الرفات جيران » ^(٢).

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ^(١٧).

(١) راجع الفرقان ٣٩ : ٨٦ ، و ٣٧ : ٤٨٩ نجد تفصيلاً زائداً لعذاب الصرصر في آيتي الحاقة والقمر وقد ذكرت عاد في القرآن - وهم عاد الأولى - ٣٤ مرة وثمود ٢٦ مرة ولم يذكر قوم طغات كما ذكرنا فانهم اظلم واطفى .

(٢) نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام) .

هذه الهداية هي العامة بارادة طريق الهدى عن الردى ، فإذا استحبوا العمى على الهدى فهم إذاً في ضلال قاصد بعناد زائد « فأخذتهم صاعقة العذاب الهون » وعله في بُعدي القلب والقلب ، « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » « فاما ثمود فأهلكوا بالطاغية » (٦٩ : ٦) وهي الصيحة : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائمين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا بربهم ألا بعداً لثمود » (١١ : ٦٨) وبالرجفة الطاغية : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جائمين » (٧ : ٧٧) وثالث الصيحة الرجفة الصاعقة هي من عذاب الهون « بما كانوا يكسبون » .

وقد تعني « فهديناهم » واقع الهدى بعد آية الناقة ، ثم ردتهم بعد ربح قليل منها ، وتري إذا يستحب الإنسان عماه على هداه فهل هو مايز هداه عن عماه ؟ أو على علم يستحب المكروه على المحبوب ؟ وليس هكذا اي حيوان ، بل آية حشرة فضلاً عن إنسان ، اللهم إلا ذو جنة فاقد عقله وتمييزه ، إذا فلماذا صاعقة العذاب الهون ، للمجنون !

ولكن إذا كانت الفطرة الإنسانية وعقليتها مقياس الإستحباب فلا يستحب الانسان إلا هداه ، فالذي « أخلد الى الارض واتبع هواه وكان أمره قُرْطاً » (١٨ : ٢٨) هذا يستحب هواه على هداه ، أم ليست هداه إلا هواه « ورضوا بالحياة الدنيا واطمئنوا بها » « وجحدوا بها استيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » إذا « فاستحبوا العمى على الهدى وهم يعرفون »^(١) ولأن العمى هنا

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٤٢ ح ٢٢ في كتاب التوحيد باسناده الى حمزة بن الطيار عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : عرفناهم فاستحبوا .. وفي اعتقادات الامامية للصدوق وقال الصادق (عليه السلام) في الآية : قال وجوب الطاعة وتحريم المعاصي وهم يعرفون .

تقابل الهدى فهي ظلام البصيرة، والمناه في الغواية، والهدى بصيرة مختارة، يتركون هذه إلى تلك باختيار دون جنة ولا إيجاب، فإن ذلك أخف على الإنسان، وأشد ملائمة للطباع من تحمل مشاق النظر والتلجيج في غمار الفكر « فآخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ».

﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (١٨) .

إيمان بقلب ثم إتقاء من جرّاءه بالقلب، حيث الإيمان المجرد لا يُنجي إلا أن يظهر في الإنسان ككل من ظاهره وخافيه ، وعنده النجاة عن صاعقة العذاب الهون .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ .

هنا شهادة الأعضاء عدلاً وحقاً إلى جنب ما هناك وهنالك من شهادة الأرض بفضائها، وشهادة التبيين والكرام الكاتبين ، وليكون عدو الله غارقاً في يَمُّ الشهادات عينية وذهنية أماهيه من شهادات قاطعة قاصعة لا يحيد عنها ولا يحيص ! وليراجع للتعرف الى كل لموضعه من الفرقان بطيات آياته المفسرات (١) .

الحشر إلى النار هو الجمع إليها، والإيزاع هو الإكفاف والإحباس ، أن

(١) فصلنا البحث حول شهادة الذات والأعضاء في سورة الإسراء والنور، وفي شهادة الأرض والفضاء في الزلزال وفي الشهادة ككل في الجاثية ولقد استوفينا البحث حول الشهادة عند آياتها ومناسباتها ، ويأتي حديث الامام الصادق (عليه السلام) حول أن هذه الشهادة بعد شهادة الملائكة وعرض أعمالهم وتكذيبهم لكل فيختم على أفواههم عند الآية : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ».

سورة فصلت / آية ٢٠ ٥٣

يُكْفَوْا عَنِ التَّفَرُّقِ ، وَيُحْبَسْ أَوَّلُهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ حَتَّى لَا يَتَفَلَّتُوا ، فَقَدْ يَكُونُ إِحْتِرَاماً كـ « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. » (٢٧ : ١٩) أَوْاحْتِرَاماً كَمَا هُنَا وَفِي « يَوْمٍ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مَنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ » (٢٧ : ٨٣) فَلَا يَفِيدُ الْحَشْرُ الْجَمْعَ لِحَسَابِ فَعِقَابِ أَمْ شُكْرُ فَتَوَابٍ إِلَّا إِيزَاعاً لَجَمْعٍ كَيْلَا يَتَفَرَّقُوا وَيُهْمَلُوا عَلَى كَثَرَتِهِمْ .

﴿ ... حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٠) .

عَلَيْهَا شَهَادَةُ آخِرَةٍ فِي مَوْقِفٍ آخِرٍ « إِذَا مَا جَاءُوهَا » وَقَدْ سَبَقَتْهَا شَهَادَاتُ مِنْهَا وَسِوَاهَا ، أَمْ هِيَ تَجْمَعُ شَهَادَاتِ الْأَعْضَاءِ كُلِّهَا ، وَعَلَى آيَةِ حَالٍ لِمَاذَا الْإِنْحِصَارُ فِي « سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ » وَالْإِنْحِصَارُ عَنْ أَلْسِنَتِهِمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ ، وَهَذِهِ أَقْوَى مِنْ تِلْكَ وَأَجْلَى وَالْإِسْتِشْهَادُ بِهَا أَشْجَى وَأَحْجَى !

هنا « جلودهم » - كاجمال بعد تفصيل ما - تشمل هذه الثلاثة وسواها ، وَعَلَى اخْتِصَاصِ « سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ » لِأَهْمِيَّتِهِمَا مِنْ جِهَاتٍ أُخْرَى أَبْرَزَهَا أَنَّهُمَا رَقِيَّانِ عَلَى الْجَوَارِحِ وَعَلَى أَنْفُسِهِمَا ، كَمَا الْفُؤَادُ عَلَى الْجَوَانِحِ وَعَلَى نَفْسِهِ : « إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولٌ » (١٧ : ٣٦) مَسْئُولاً لِدَوَائِهَا فِيمَا افْتَعَلَتْ ، وَمَسْئُولاً عَنْهُ لِسَائِرِ الْجَوَارِحِ وَالْجَوَانِحِ فِيمَا افْتَعَلَتْ . وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ سَائِرُ الْجَوَارِحِ وَالْجَوَانِحِ .

فَقَدْ تَسْمَعُ آيَاتٍ أَوْ تُبْصِرُ يُسْتَهْزَأُ بِهِمَا فَلَا تَمْنَعُ بِجَارِحٍ أَمْ تَغْضَبُ بِجَوَانِحٍ ، أَمْ تَسْمَعُهَا وَتُبْصِرُهَا فَلَا تَعْتَبِرُ بِهِمَا ، فَهَذَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ كُلُّهُ مَسْئُولٌ عَنْهُ مَاذَا فَعَلَتْ وَهِيَ بِرِيشَانٍ عَمَّا افْتَعَلَتْ مِنْ حَرَامٍ أَوْ تَرَكَتْ مِنْ وَاجِبٍ ! ..

أَوْ تَسْمَعُ أَمْ تَبْصِرُ مُحَرَّمًا فَلَا تَمْنَعُ أَوْ تَمْتَنِعُ ، فَشَهَادَةُ مَزْدُوجَةٍ مِنْهُمَا

عليهما وعلى لسانك أماذا كان عليك أن تمتنع بها ! أم تسمع وتبصر ما لا يحيد عن حرمة بمنع وسواه، فشهادة منهما - فقط - عليها ، فيما اقتربا من حرام !

ولكنما الجوارح الأخرى من السنة وأيدي وأرجل أماذا فلا رقابة لها على غيرها ، بل هي شاهدة - فقط - على أنفسها شهادة ذاتية ولا سواها ، فإنما هي كآلات مباشرة لما عصت ، لا تعدوها إلى سواها فيما افتعلت .

فللسمع والبصر والفؤاد اختصاصها من هذه الجهة ، ولللسنة والأيدي والأرجل أهميتها من أخرى، وقد يجمعها كلها « جلودهم » فإنها جلود الأرواح : الأبدان ، فتشمل الجوارح كلها كما « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » فلا تعني - فقط - القشور حيث النضج والشهادة تعم الأعضاء .

إذا ف « شهد عليهم سمعهم وأبصارهم » تعني مثلث الشهادة ومزدوجها ، ثم « وجلودهم » تعني شهادة واحدة . ولأن الشهادة على شيء تتطلب تحمُّل الشهادة من قبل وآلا فلا شهادة ، فلتكن الأعضاء متحملة لأصوات الأقوال وصور الأعمال حتى تلقى ما تحملت وتؤدي ما حُملت ، إذا فهي مسجَّلات الأقوال، وشاشات تحمُّل صور الأفعال ، وهكذا تشهد عليهم « سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » أن يظهر على كل ما يناسبه من شهادة عينية هي الحجة القاطعة والبينة القاصصة القارعة على المكلفين ، حيث « صارت الأجساد شحبة بعد بضتها والعظام نخرة بعد قوتها ، والأرواح مرتنهة بثقل أعبائها ، موقنة بغيب أنباءها ، لا تستزاد من صالح عملها ، ولا تستعقب من شيء زللها »^(١).

(١) نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام).

وقيلة من قال إن «جلودهم» هي عوراتهم مردودة إلى قائلها ،
والرواية (١) القائلة بها مأولة إلى بيان مصداق هو عارٌ بين مصاديقها ،
فتشهد العورة كسائر الجلود بما افتعلت أم وفعل غيرها .

﴿ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢١) .

مفاجئة هائلة من مشهد الشهادة في معرض القيامة بموقفه العصيب وهم
بحاجة ماسة إلى مناصرة من سواهم فإذا هم محجوجون بشهادة الجوارح ،
وانها بحق جوارح تخرج قلوبهم وتفتت أكبادهم ولات حين مناص ، ولا منفذ
لخلاص ! يا ويلاه ! فكل شهادة كانت بحسبان إلا شهادة الإنسان على
نفسه ، بجارحه وجانحه ، ويا للفتنة المحيرة بسلطان الله الخفي يغلبهم على
أبعضهم فتلبّي وتستجيب .

وكيف يقولون جلودهم وليست بقائلة إلا ألسنتهم، وهي السائلة القائلة؛
«لم شهدتم علينا؟ لأنهم شاهدوها تشهد ، ولم تسبق لهم منها سابقة
الشهادة ، وهذه خارقة للعادة ، فليسألوها «لم شهدتم علينا» مما يدل على أن
شهادتها لم تكن باختيار منهم أو علم ، ولا يصدر من الأعضاء فعل إلا عن
إختيار منهم وعلم ! (١) .

﴿ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ - وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ - وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴾ .

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٤٤ - القمي بسنده عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث
فرض الإيمان على الجوارح : يعني بالجلود الفروج والافخاذ .
ورواه مثله في الفقيه عن أمير المؤمنين (عليه السلام) : يعني بالجلود الفروج . اقول وبما
يدل على أنه تفسير بمصداق ما في الدر المنثور ٥ : ٣٦٢ - اخرج عبد الرزاق واحد
والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن معاوية بن
حيدة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديث وإن أول ما يعرب عن =

جواب مثلث عن « لم شهدتم علينا » فيه بيان الحكمة والسبب والمبرر لتلك الشهادة العجيبة :

١ - « أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » وماذا تعني « كل شيء » ولا نسمع شيئاً ينطق إلا أنفسنا كعادة ، وإلا أعضائنا هنا كخارقة العادة ونحن نتساءلها « لم شهدتم علينا » ؟ .

أترى « كل شيء » هنا هم سائر الشهداء من الأرض بفضائها والملائكة والأنبياء ، وقد شهدوا من قبل شهادتها ولما تشهد الأعضاء ، إذاً فـ « كل شيء » تعرّفوا إلى شهادتها قبل هذا الموقف ، وهي مخصوصة بالأشياء الشاهدة لا كل شيء ، الأشياء التي عشناها في حياة التكليف ، وما كنا نظن أن أعضائنا سوف تشهد علينا ، ولكن الله الذي أنطق هؤلاء الشهداء خلاف العادة ، هو الذي أنطقنا ونحن أقرب الشهداء فأحق بالشهادة وأحرى .

وشهادات الأعضاء كما سائر الشهداء هي شهادات عينية وحقى اللسان إذ تبرز منه الكلمات التي تكلمها^(١) فالأعضاء - إذاً - هي مسجلات

= احذكم فخذوه وكفه وتلا (صلى الله عليه وآله وسلم) « وما كنتم تسترون ان يشهد عليكم سمعكم ولا ابصاركم ولا جلودكم ، اقول لا تناسب الآية مستنداً لـ « فخذوه وكفه » الا ان يعمها « جلودكم » والفخذ كناية عن العورة .

(١) تفسير البرهان ٤ : ١٠٨ ح ٢ علي بن ابراهيم انها نزلت في قوم تعرض عليهم اعمالهم فينكرونها فيقولون ما علمنا شيئاً منها فتشهد عليهم الملائكة الذين كتبوا عليهم اعمالهم قال قال الصادق (عليه السلام) فيقولون الله يا رب هؤلاء ملائكتك يشهدون لك ثم يحلفون بالله ما فعلوا من ذلك شيئاً وهو قول الله « ويوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم » هم . . فعند ذلك يختم الله على ألسنتهم وينطق جوارحهم فيشهد السمع بما سمع مما حرم الله ويشهد البصر بما نظر إلى ما حرم الله وتشهد اليدين بما أخذتا وتشهد الرجلان بما سعتا فيما حرم الله ويشهد الفرج بما ارتكب مما حرم الله ثم أنطق =

الأصوات والصور ، شاشات من صنع الله تبرز كل ما حصل منها في حياة التكليف: « يوم تجدد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء . . . » . فليست الأعضاء لتتسطق كلها قولاً ، وإنما كما يناسبها من عينية الشهادات ، تلقي ما تلقت دوغماً زيادة أو نقيصة ، اللهم إلا قولها: « أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء . . » فإنه خارقة أخرى تنطق بالأولى ولكي يعرف المجرمون ما جهلوه من خافية الأعضاء والأشياء « يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها » فـ « أنطقنا » تلقى ثان إجابة عن « لم شهدتم » إفصاحاً عن تلقى أول « بأن ربك أوحى لها » !

وإذا كانت شهاداتهم كلها نطقاً لفظياً فما هي بشهادات ، وإنما كلمات خلقت فيها ، ليست حجة على أصحابها فقد ينكرونها ، ولكنها الشهادات العينية ليست لترد على شاهديها فلا تكذب رداً عليها كما نرى « لم شهدتم علينا » دون : ان شهادتكم كاذبة علينا .

إنهم يلمسون واقع الشهادة وصدقها ، ويختارون كيف الأعضاء تشهد على أصحابها .

إذا فـ « أنطقنا » تنظير لشهادتها بشهادة كل شيء خارقة تلو خارقة ، ولا تملك الجلود أن تتمنع عن هذه الشهادة ، فإن الله هو الذي أنطقها وأنطق كل شيء .

٢ - « وهو خلقكم أول مرة » وهذه ثاني مرة ، خلقكم بهذه الأعضاء المسجلة للأصوات ، الشاشة للصور وأنتم جاهلون - :

٣ - « وإليه ترجعون » ولا بد للمخلوق أول مرة الراجع إلى خالقه ثاني مرة ، أن تبرز شهادته يوم الحساب الرجعة ، شهداء من نفسه بعد سائر

= الله الستهم فيقولون جلودهم لم شهدتم علينا .. ولا جلودكم ، الجلود الفروج .

الشهداء ، ولكي لا يخلد بخلده نكران ما افعل ، ويذكر ما فعل بعد نسيان ، فواقع « أنطق كل شيء » يبرز تنطق الأعضاء ، و « خلقكم أول مرة وإليه ترجعون » يفرضه كحكمة عالية ، إذا فالجواب هو مشهد الواقع وشهادة الحكمة ولات حين مناص !

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٢) .

هنالك تمت الشهادات وتم الجواب ، وهنا الله يعقب تكملة الجواب « وما كنتم . . . » .

وكما الإستتار عن التسجيل حين الأقوال والأعمال غير ماكن ولا ممكن حيث المسجل المستنسخ لها هو الله : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » (٢٨: ٤٥) وأنتم لا تعلمون ، كذلك بأحرى « ما كنتم تستترون » هنا « أن يشهد عليكم » ما تلقوها من أعمال ، إذ « أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » « ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون » !

وقد كان ما كان من ظنهم هذا أنهم يخفون عن الله كثيراً من خافية أقوالهم وأعمالهم ونياتهم ، فنزلت الآية تنديداً بظنهم ، علاجاً لعلتهم ، تنبيهاً نبيهاً عن غفوتهم ولما يموتوا ويحشروا على وجوههم إلى جهنم^(١) :

(١) (٢١) الدر المنثور ٥ : ٣٦٢ - اخرج سعيد بن منصور واحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن مسعود قال : كنت مستراً باستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي وثقفيان او ثقيفي وقرشيان كثير لحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فتكلموا بكلام لم اسمعه فقال احدهم اترون ان الله يسمع كلامنا هذا فقال الآخر اذا رفعنا اصواتنا سمعه واذا لم نرفعه لم يسمع فقال الآخر ان سمع منه شيئاً سمعه كله قال فذكرت ذلك للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فانزل الله « وما كنتم تستترون . . . » .

« إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا .. » (١٤ : ٤٠) « بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل .. » (٦ : ٢٨) « إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً » (٣ : ٥٤) « ويعلم ما تخفون وما تعلنون » (٧ : ٢٥) « ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً » (١٠ : ٦١) .

وقد يشير « المضي » في « ما كنتم » إلى أن الإستتار المنفي يشمل حين تلقي الشهادة يوم الدنيا ، كما يشمل حين إلقاءها يوم الأخرى ، وكما يلمح به نزول الآية عند ظنتهم هذه^(١) مهما كانت الشهادة الأولى شهود نفس العمل ، والثانية شهادة عليه ، فموقف « على » هنا يسجل نفي الإستتار هناك^(١) .

بل الأصل في « ما كنتم » هو الإستتار في الأولى ، أن لو تحقق كان استتاراً في الأخرى ، ولكن « ما كنتم تستترون » هناك ، فكيف تستترون هنا وهي شهادات ملتقاة ولا بد أن تلقي !
ما كان يخطر ببالكم أنها سوف تكون وبالكلم « ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون » فخدعكم ذلك الظن القاحل فالأثيم وقادكم في مآلكم إلى الجحيم :

﴿ فَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢٣) .

الردىء هو الهلاك ، فالإرداء : الإهلاك ، وقد أرادهم هالكين ذلك الظن

(١) ففي الاول يقال شهده وفي الثاني شهد عليه ولا يصح الجمع بـ « شهده » الا « شهد عليه » حتى يشمل الشهادة عليه .

الردىء ، فالذي يظن أن الله لا يعلم كثيراً مما يعمل ، والقليل الباقي يخفف أو يعفى عنه ، ذلك الأحق الشرس ليس ليتقي بأس الله يوم بأسه ، فيردى في جحيم العصيان فيصبح يوم القيامة من الخاسرين .

إن سوء الظن بالله يُردى الظان حسب دركات السوء ، كما حسن الظن ينجي حسب درجاته ، ولكنه ليس فوضى جزاف أن كل ظان بالله يكون عند ظنه ، فلو ظن كافر بالله حسناً من غفران ورضوان من أهل الغفران ! او ظن مؤمن بالله سوء من عدم الغفران يصبح من أصحاب النيران ! كلاً .

ولما حسن الظن فيما يحسن به الظن ، وسوء الظن فيما يسوء في ميزان الله لا سواء . فـ «الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء» (٤٨ : ٦) وناترة الظن السوء «وطائفة قد أهتمهم انفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ...» (٣ : ١٥٤) .

وأما أن يظن بالله أنه يعاقب المستبين عدلاً ، فهو ظن الخير العدل ، وخلافه ظن السوء ، كما ظن الذين كفروا أن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون ، فأرداهم فاصبحوا من الخاسرين .

أو أن يُظن بالله أنه لا يعفو عن المؤمنين ، فهو ظن السوء مهما كان من المؤمنين. وما يروى «أن الله عند ظن عبده إن خيراً فخير وإن شراً فشر»^(١) وليس عبد يظن بالله عز وجل خيراً إلا كان عند ظنه به «^(٢) ليس بذلك

(١) المجمع عن الصادق (عليه السلام) ينبغي للمؤمن أن يخاف الله خوفاً كأنه يشرف على النار ويرجوه رجاء كأنه من أهل الجنة أن الله تعالى يقول «وذلكم ظنكم ...» ثم قال : إن الله ...

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٤٤ ح ٢٩ - القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن عبد الرحمن = :

الفوضى التي يزعمها الفوضويون ، حتى أن لو ظن كافرٌ خير الجنة دخلها ، أو ظن مؤمن شر النار وردها ، فإنما المعنى من هذه وتلك وجوب حسن الظن بالله في ميزان الله ، دون ما أهمتهم أنفسهم فيظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ! ف « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم بالله عز وجل قال الله عز وجل : « وذلکم ظنکم الذی ظننتم بربکم أرداکم فأصبحتم من الخاسرين » ^(١) .

﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ ^(٢٤) .

واويلاه ، ويا للسخرية المرهفة ، حيث الصبر الآن صبرٌ على النار

= بن الحجاج قال قلت لابي عبد الله (عليه السلام) حديث يرويه الناس فيمن يؤمر به آخر الناس الى النار فقال لي : اما انه ليس كما يقولون قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان آخر عبد يؤمر به الى النار ، فاذا امر به التفت فيقول الجبار جل جلاله رده فيردونه فيقول له : لم التفت الي ؟ فيقول يا رب لم يكن ظني بك هذا فيقول وما كان ظنك بي فيقول كان ظني بك ان تغفر لي خطيئتي وتسكنني جنتك قال فيقول الجبار يا ملائكتي لا وعزتي وجلالي وآلائي وعلوي وارتفاع مكاني ، ما ظن بي عبدي هذا ساعة من خير قط ولو ظن بي ساعة من خير ما ودعته بالنار اجيزوا له كذبه وادخلوه الجنة ثم قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس من عبد يظن بالله عز وجل خيراً الا كان عند ظنه به وذلك قوله عز وجل « وذلکم ظنکم الذی ظننتم بربکم أرداکم فأصبحتم من الخاسرين » اقول: هذا الحديث مطروح من جهات عدة أو مؤول فإن مجرد حسن الظن ولو في غير محله فضلاً عن كونه كذباً وفي الآخرة ، هذا لو اوجب دخول الجنة لم يبق احدٌ للنار فان مجال الكذب واسع لكل اصحاب النار ! .

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٦٢ - اخرج احمد والطبراني وعبد بن حميد ومسلم وابو داود وابن ماجه وابن حبان وابن مردويه عن جابر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ...

« وما أصبرهم على النار » وليس الصبر الذي يعقبه الفرج حتى يبذل مره حلواً لأجل الفرج ، وإنما هو النار المثلوى القرار ولات حين فرار ! ليس لهم إلا الصبر على النار فإنه مثوهم المأوى ومستقرهم في الأخرى بما قدموها ، وإن يستعتبوا - طلب العتبي - والرضا - فما هم بمرضيين ، والإعتاب هو استصلاح الجلد بإعادته في الدُّبَاغ ، وهؤلاء لم يبق لهم مجال الإستصلاح حيث تردوا بكاملهم إلى الفساد فلا مشوى لهم إلا النار « إصلوها فاصبروا ولا تصبروا سواء عليكم » (٥٢ : ١٦) .

ومعنى ثان للعتبي هو العتاب الشديد ، فإن طلبوا عتابهم فلا يعتبون ، كناية عن غاية ترذُّلهم لحد لا يخاطبون حتى خطاب العتاب « فيومئذ لا ينفع الذين كفروا معذرتهم ولا هم يُستعتبون » (٣٠ : ٥٧) وقد جرت العادة أن الذي يطلب العتاب يطلبه كذريعة لما يرجوه من الصفح والرضا تغاضياً عن الأسباب ، فاليوم يغلق باب العتاب متاباً وعتاباً .

مركز تحقيق كتاب علوم إسلامي

فالإعتباء يعني كلا السلب والإيجاب ، العتبي وإزالة العتاب ، كما الإطاقة هي سلب الطاقة ، فإن يستعتبوا طلب سلب العتاب بعنبي الإستصلاح فما هم بمعتبين ، وإن يستعتبوا إيجاب العتاب التنديد فما هم بمعتبين ! « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » جزع الصراخ أم طلب الإصلاح ، أم طلب العتاب ، فقد سدل الستار وأغلقت الأبواب وتمت كلمة ربك بتمام العذاب !

﴿ وَقَيُّضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ (٢٥)

ولأنهم عشووا عن ذكر الرحمن فعاشوا عشو الشيطان « ومن يعيش عن

ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » (٤٣ : ٣٦) لذلك « وقضنا لهم قرناء . . » « ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا » (١٩ : ٨٣) .

فالتقيض هو الإرسال ، فكما الله يرسل للمؤمنين مؤيدين لاكمال الإيمان ثواباً وفاقاً ، كذلك يرسل للكافرين مؤيدين عقاباً وفاقاً ، أم ليس التقيض - فقط - الإرسال وإلا جيء بصيغته الشهيرة « أرسلنا » كما في آيته الأخرى ، بل هو الإرسال التبديل ، أن بدلناهم عن الهداة التُّقاة بغاة طغاة ، إذ بدلوا نعمة الله كفراً و«ذلك بأن الله لم يكن مغيراً ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» فلما بذلوا دعوة الهدى إلى الردى «قضنا لهم قرناء» ليواصلوا في السردى «ونعدهم في طغيانهم يعمهون» ، «فزينا لهم» ثانياً بزيادة ، ما تزين لهم أنفسهم بما ظلموا وتعاموا وعشوا «زينا لهم ما بين أيديهم» من شهواتهم الحاضرة ودنياهم المستقبلية ويوم القيامة «وما خلفهم» ما خلفوها وجعلوها سنة أم فعلة عابرة غابرة ، ومن سنن الغابرين أمثالهم ، فعند ذلك تمادوا في العصيان وتعاموا في الطغيان .

ومن تزين دنياهم بين أيديهم وخلفهم أنهم يصورونها بمكائد وأكاذيب صورة المطلوب والغاية القصوى من الحياة : «إن هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا . . » ومن تزين عقابهم الأولى تشتتجيعهم على جبران ما فات منها ، عرضاً للمستقبل أعرض مما مضى ، ومن تزين عقابهم الأخرى ، تزين نكرانها ، أم وعلى قبولها لمن ليس لينكرها ، تزين حسابها هيناً لا يعتد به ، أم غفراناً للمجرمين قضية الرحمة الواسعة الفوضى جزاف، أم «ان الله لا يعلم كثيراً مما تعملون» أماذا من تحريف للأخرة وحسابها ، وتحديف فيها وتحريف لها يخرجها عما يحمل على التقوى ويذر على الطغوى فهذه هي المهلكة العظمى والمصيبة الكبرى والمنحدر الذي ينتهي الى كل بوار « جهنم يصلونها وئش القرار » وهم من « الأخسرين أعمالاً » الذين

ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » « وأولئك لهم سوء الدار » .

لذلك « وحق عليهم القول » كلمة العذاب « قال فالحق والحق أقول ،
لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين » (٣٨ : ٨٥) .

« في أمم قد خلت » مضت « من قبلهم » فإن أصحاب الجنة يتواردون
ردف بعض تلوأ ، لا دفعة واحدة « من الجن والإنس » قضية إشترك
التكليف فاشتركا في عقاب أو ثواب « إنهم كانوا خاسرين » .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٣٦﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا
شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ
بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنسِ نَجْعَلُهُمَا
تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا نَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا

تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾
نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا
مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا
إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾
وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعُ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ
حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا
ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَتَزَغُّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ
الْبَلُّ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ أَسْكَبُوا فَإِلَّا الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ

يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾
 وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا
 عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ
 الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾



مركز تحقیق کتاب ویر علوم اسلامی

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٢٦) .

علها من قبلة القرناء المقيض لهم ، يزينون لهم كفرهم بمزيد هو اللغو في القرآن ، بعد أن كانوا به كافرين ، ولكي يغلبوا على دعوة القرآن ودعايته الجذابة الجلابية ، كيلا يقيموا - هم - او من سواهم - على حد زعمهم : في فخ القرآن ، ولا يصطادوا بصيده .

فالذين يكفرون بالقرآن يقتسمون إلى ثلاث النكران ١١ - نكراناً في أول مرة وقد يؤول إلى إيمان على ضوء سماع له أو إسماعه وتسمعه ، ٢ - ونكراناً عريقاً بما سئلت لهم أنفسهم وسول لهم الشيطان ثم يبعدون عنه فلا له ولا عليه ، ٣ - ومن ثم نكراناً يعني غلبهم على القرآن بمحاولات كلغو فيه أماذا من دوائر السوء ، يتربصونها بدعوة القرآن وليس إلا عليهم « لعلكم تغلبون » فلا « تغلبون » ولا عوان بين ذلك ، بل « تغلبون » ! « قال الذين كفروا » لقراهم الكافرين ولما يصلوا ما وصلوا من عمقهم في كفرهم وحقهم ، قالوا كلمتين اثنتين لها تأثيرهما ردف بعض : ! « لا تسمعوا لهذا القرآن » فإنه يسحركم فيحملكم دونما اختيار إلى الإيمان ، علماً منهم أنه يأخذ بازمة القلوب فيحركها إلى المطلوب .

ولماذا « لا تسمعوا لهذا القرآن » والسمع متعد بنفسه ، والقرآن كتاب واحد لا يحتاج في شخصه وتشخيصه إلى اشارة التعريف ؟

القرآن - في وجه عام - يشمل كل مقررٍ وحياً وسواه « وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه » (٣٤ : ٣١) فالذي بين يديه قرآن غير هذا وحياً « قال الذين لا يرجون لقاءنا إئت بقرآن غير هذا أو بدله . . . » (١٥ : ١٠) « غير هذا » وحياً يختلف عنه « أو بدله » من عند نفسك تحويراً عن وحيه « قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن

اتبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم» (١٥) .

فـ هذا القرآن « بين قرائين الوحي وسواها هو الذي لا تسمعوا له .

وأما لهذا « دون » إلى هذا ؟ فلأن سماع القرآن قد يعني الهزء به واللغو فيه والرد عليه ، وأما السماع له فهو سماع خاص لصالح الهدف الذي يُرام ، تدبراً فيه وتفكيراً يحويه ، فالسماع له ممنوع ، وسماعه بين ممنوع وممنوع ، ومن الممنوع المفروض « والغوا فيه لعلكم تغلبون » كلمة ثانية للذين كفروا .

فهناك غلبٌ بحجة تدحض حجة القرآن ولسنا عليها بقادرين ، فتحولاً إلى لغو فيه كيلا يسمعه السامعون ، فكما أنتم لا تسمعون له ، إختلقوا جو الإلصاق له « لعلكم تغلبون » حجته بعدم بلوغها للناس ، ثم افتراءات عليه أنه سحر أو شعر أماذا من مبعّد عنه وهنالك الغلبة التامة .

وإنها كلمة مضللة وقالة قاحلة جاهلة من الكبراء القراء المقيض لهم ، يغرون بها الجماهير بعدما عجزوا عن مغالبتة بحجة « لا تسمعوا .. والغوا » سلبٌ ثم إيجابٌ يتضمنان اجتثاث حجة القرآن ، مفاصلة بينهما وبين الإنس والجان وسائر المكلفين .

وإنها مهاترة ومكابرة عجزاً عن المواجهة بالحجة ، والمقارعة ، عند الطغاة المستكبرين على الإيمان ، توسلاً بكل الوسائل ، وتربصاً بكل الدوائر « لعلهم يغلبون » ! « هيهات هيهات لما يوعدون » !

واللغو هو ما لا يعتد به من فعال أو مقال ، ومن قيله صوت العصفير في مقياسنا إذ لا نفهمه ، ولكنه ليس لغواً بينها فإنه محادثة وذكر لا نفهمها ، فاللاغي منا - على فهمه - هو ألغى من العصفير على حيونتها .

ولغو الفعل والكلام قد يكون لإجماله كأن كان مفرداً دون جملة ، كمفردات الكلام ، ونذلك سميت لغة ، وقد يكون في جملة إجمالاً لأنه لغة خلاف ما نعرفها من لغة كلغو العصافير أماذا من لغات حيوانية أم انسانية لا نعرفها ، وثالثة هو لغو بقول مطلق ، لا يعني أي معنى صالح في أية لغة ، ثم هو يلحد في لغة صالحة كاللغو في القرآن .

فمن اللغو في القرآن تحريفه بزيادة او نقصان ، فتجريفه الى منحرفات الكتب التي بين يديه ، الى شفا جرف هار منهار ، ولكنهم عن بكرة أبيهم حاولوا ولم يفعلوا ولن ... حيث القرآن في ضمان دائب من الرحمان الرحيم .

ومنه نقضة بنقضة لغوياً أو معنوياً أم أي خلاف للحق او اختلاف « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » (٤ : ٨٢) .

ومن اللغو فيه إلهاء الناس عن السماع له بقصص خرافية أماهيم ، ملهية عن سماع القرآن لما يقتره ، واللغو بالهراج والصياح والنياح ، وبالرجزات والسجعات ، وقد فعلوا كل ذلك وافتعلوا ولكنها ذهبت كالتى قبلها إدراج الرياح ، وغلب القرآن وغلب هنالك المبطلون ! ... ثم لا جواب عن تهدهم هذا إلا بما يلقون - جزاء ما يلغون - يوم القيامة ، حيث الجواب هنا تبايهم عما كانوا يهون :

﴿ فَلْتَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٧)

قد يعني ذوق العذاب أولاً وجاء وقبل الجزاء ، أسوء الذي كانوا يعملون ، ذوقه في الدنيا قليلاً ، ثم في البرزخ وسطاً ، ومن ثم الجزاء الأوفى يوم الجزاء ، وسرعان ما شهدنا حنقهم يوم الدنيا أن رجعوا عن

لغوهم في هذا القرآن خاسرين مهانين ، ومن ثم البرزخ والقيامة الكبرى فإن فيها نفس الجزاء بعد ذوقه .

« الذين كفروا » تعم الكبراء الأتباع ، و« أسوء الذي كانوا يعملون » هو اللغو في القرآن وأضرابه من بالغ الكفر والتكذيب بآيات الله ، والجزاء هنا هو الأسوء نفسه ، إذ ليس جزاء بأسوء ، مما يتهذّدهم أن لغوهم في القرآن يبرز يوم القيامة بملكوته جزاءً فـه إنما تجزون ما كنتم تعملون » فهي من الآيات القائلة أن الجزاء هو العمل والعمل هو الجزاء ، فليس هنالك إنتقام وإنتصار ، بل هو ظهور ما كان خفياً « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (٢٨) .

« ذلك » البعيد المدى « جزاء أعداء الله » وهو « النار » « لهم فيها دار الخلد » قدر ما أخلدوا إلى عداة الله « جزاء » وفقاً « بما كانوا يكسبون » .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضِلْنَا مَنْ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ (٢٩) .

« الذين كفروا » هنا هم التابعون و« اللذين أضلنا » هم القرناء المتبوعون ، يطلب الأولون ربهم أن يُريهم الآخرين ليدلوهم ويسفلوهم .

وهل « الذين أضلنا من الجن والإنس » هما شخصان إثنان ، إبليس الجن وقابيل الإنس (١) ؟ وليس قابيل مضلاً لكل الكافرين مهما كان باديء

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٦٣ - اخرج عبد الرزاق والفرياني وسعيد بن منصور وعبد بن حميد =

الإضلال من الإنس، فهناك في تاريخ الإنسان من هو أشر منه وأطغى !
وليس المضل من الجن هو شخص إبليس مهما كان يرأس المضلين ! إذا فهما
النموذجان الأولان للإضلال ومن ثم الآخرون في كل زمان ومكان ،
واللذان «تثنية» الجمع لا المفرد .

وإنه تطلب بختي عنيف تحرقاً على الإنتقام ، أترى إنهم المجابون في
طلبتهم هذه ؟ عله نعم لأن المضلل هو أسفل من المضلل وقد ظلمه فليكن
تحت قدمه ، وقد يجاوبه اللا جواب ! . . . وعله لا إذ لا إجابة لدعاء الكافر
وهو في النار « وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » (١٣ : ١٤) ! وليس كل
مضلل أسفل من مضلله ولا أظلم منه وأطغى ! : « قالت أكرهم لأولاهم
ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا
تعلمون » (٧ : ٣٨) وعلمهم حيث أضلوا غيرهم كما ضلوا بغيرهم فهم
ومضللوهم في الضعف سواء !

وقد يكون الإنظلام أظلم من الظلم ! ثم الله هو الذي يجعل الأسفل
من الأسفلين والسافل من السافلين عدلاً وجزاء وفاقاً ، أفطلب بعدله يوم
عدله ؟ وفي جعلهما تحت أقدامهم حظوة ونعيم للتابعين وليست النار دار
النعيم !

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاءُكُمْ فِي الْحَيَاةِ

= وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه وابن عساكر عن علي
بن أبي طالب رضي الله عنه انه سئل عن قوله « ربنا ارنا . . » قال : هو ابن آدم الذي
قتل اخاه وابليس .

الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ^(٣١)
نَزَّلْنَا مِنْ عَقُودٍ رَحِيمٍ ^(٣٢) ﴿١﴾

آية الاستقامة في فصلت فصلت ثانيتهما الم جملة في الأحقاف ، ثم
ليست سواهما في سائر القرآن إلا « لمن شاء منكم أن يستقيم » (٨١ : ٦)
« فلذلك فادع واستقم كما أمرت » (٤٢ : ١٥) « فاستقيموا إليه »
(٤١ : ٦) .

في الأحقاف تبشر بسلب الخوف والحزن وإثبات الجنة « إن الذين قالوا
ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أولئك أصحاب
الجنة خالدون فيها جزاء بما كانوا يعملون » ^(٣٣) وهنا يحمل الملائكة تنزلاً
عليهم هذه البشارة بولاية لهم دائبة في الدنيا والآخرة ، وما أُلِّهاها بشارة
وحياً من الله ثم إلهاماً يحمله ملائكة الله !

وترى ما هي الحاجة إلى بشارة الملائكة وولايتهم بعد الله في الدنيا
والآخرة ؟ علماً لتكملة المقابلة بينهم وبين الكافرين ، فأولاء لهم قرناء من
الشياطين وهم أوليائهم بعد الشيطان الأول ، وهؤلاء لهم قرناء من الملائكة
يبشرونهم وهم أولياء لهم بعد الله ويأمره في الدنيا والآخرة ، تشريعاً لهم
وليس بحساب الحاجة .

« .. وقد قلتم ربنا الله فاستقيموا على كتابه وعلى منهاج أمره وعلى
الطريقة الصالحة من عبادته ، ثم لا تمرقوا منها ، ولا تبتدعوا فيها ، ولا
تخالفوا عنها ، فإن أهل المروق منقطع بهم يوم القيامة » ^(٣٤) وقد قالها

(١) فصلنا بحث الاستقامة في الفرقان ٢٦ : ٢٥ - ٢٧ فراجع ولا نعيده هنا .

(٢) في نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام) واني متكلم بعبدة الله وحجته
قال الله تعالى « ان الذين قالوا ربنا الله » وقد قلتم ..

ناسٌ من الناس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها^(١) ومادة الإستقامة تختصر بل وتختصر في «فرائض الله»^(٢) أصلية كولاية الله والرسول وخلفائه (عليهم السلام)^(٣) وحقيقة المعاد، وفرعية كسائر الفروع المفروضة على العباد .

فالإستقامة في قول «ربنا الله» هي إستقامة في العمق بكافة متطلباتها ، وإستقامة في طول الحياة وعرضها في معارضها كلها ، إستقامة على الطريقة الصالحة إليه علماً وإيماناً وعملاً صالحاً ، والإستقامة عليها شعوراً في الضمير وسلوكاً في الحياة وصبراً على تكاليفها ، والأشلاء والدماء في سبيلها ، والحرمانات وترك الشهوات والنفسيات في جادتها بصورة قاطعة جادة .

أُتري المستقيمين - كلهم - تنزل عليهم الملائكة ببشراهم؟ فمن رأى منهم الملائكة وسمعهم ؟! اللهم إلا من يجذب جذو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) منهم ونحى نحوه ، وهم الأئمة الاثني عشر (عليهم

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٦٣ - اخرج الترمذي والنسائي والبخاري وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عدي وابن مردويه قال قرأ علينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الآية « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » قال : قد قالها ..
(٢) الدر المنثور ٥ : ٢٦٣ - اخرج ابن مردويه عن طريق الثوري عن بعض اصحابه عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله : ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » قال : على فرائض الله .

(٣) نور الثقلين ٤ : ٥٤٧ ح ٤٣ في تفسير اهل البيت (عليهم السلام) عن ابي بصير قال قلت لابي جعفر (عليه السلام) قول الله « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » قال : هي والله ما انتم عليه .

(السلام) اذ كانوا يرونهم ويسمعونهم^(١)، ولكنها الآية تعم المستقيمين كلهم، أو أن بشرى الملائكة بوجه عام هي عند موتهم، مهما بشروا الخصوص منهم قبل موتهم؟^(٢) والظاهر من «تنزل...» هو تنزلهم عليهم منذ استقاموا

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٤٥ ح ٣٦ في بصائر الدرجات بسند قال دخل حمران بن اعين على ابي جعفر (عليه السلام) فقال له جعلت فداك يبلغنا ان الملائكة تنزل عليكم؟ قال : اي والله لتنزل علينا فتطأ فرشنا اما تقرأ كتاب الله تبارك وتعالى «ان الذين قالوا ربنا الله...» وفي ح ٤٤ عن الخرائج والجرائع باسناده الى ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية فقال : اما والله لربما وسدناهم الوسائد في منزلنا، قيل له : الملائكة تظهر لكم؟ فقال : هم الطف بصبياننا منا بهم وضرب بيده الى سور في البيت فقال : والله لطلما اتكثت عليها الملائكة وربما التقطنا من زغبها .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٤٧ ح ٤٥ القمي في الآية «ثم استقاموا» قال : على ولاية امير المؤمنين (عليه السلام) «تنزل عليهم الملائكة» قال : عند الموت «الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن اولياءكم في الحياة الدنيا» قال : كنا نحرسكم من الشياطين «وفي الآخرة» اي : عند الموت... وفي تفسير الامام الحسن العسكري (عليه السلام) عند قوله تعالى «الذين يظنون انهم ملائكة ربهم» من البقرة قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يزال المؤمن خائفاً من سوء العاقبة ولا يتيقن الوصول الى رضوان الله حتى يكون وقت نزع روحه وظهور ملك الموت له وذلك ان ملك الموت يرد على المؤمن وهو في شدة علته وعظيم ضيق صدره بما يخلفه من امواله وما هو عليه من اضطراب احواله من معامليه وعياله قد بقيت في نفسه حسراتها واقتطع دون امانيه فلم ينلها فيقول له ملك الموت مالك نجرع غصصك؟ قال : لا اضطراب احوالي واقتطعت لي دون آمالي، فيقول له ملك الموت وهل يحزن عاقل من فقد درهم زائف واعتياض الف الف ضعف الدنيا؟ فيقول : لا - فيقول ملك الموت فانظر فوقك فينظر فيرى درجات الجنان وقصورها التي يقصر دونها الاماني فيقول ملك الموت : تلك منازلك ونعمتك واموالك واهلك وعيالك ومن كان من اهلك ههنا وذريتك صالحاً فهم هنالك معك افترضي بهم بدلاً مما ههنا فيقول بلى والله ثم يقول انظر فينظر فيرى محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلياً (عليه السلام) والطيبين من آلها في اعلى عليين فيقول او تراهم هؤلاء =

لِيُطْمِئِنُّوهُمْ عَلَى اسْتِقَامَتِهِمْ فَيَزِدَادُوا قَوَامَةً عَلَى قَوَامَةٍ ، ثُمَّ « وَنَحْنُ أَوْلِيَاءُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » لَا تَفِيدُهُمْ بِشَارَةً إِلَّا أَنْ تَكُونَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا « وَفِي الْآخِرَةِ » لَتَكُونَ زَادَهُمْ فِي مَسِيرِهِمُ الشَّاقَّ الطَّوِيلَ ، فَلَا يَخَافُوا مُسْتَقْبَلَهُمُ الْآخِرَى ، وَلَا يَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَهُمْ فِي الْأُولَى ! أَمْ إِنْ بِشَارَةِ الْمَلَائِكَةِ دَرَجَاتٍ بِمَخْتَلَفِ التَّنَزُّلَاتِ كَمَا اسْتِقَامَةُ الْمُؤْمِنِينَ دَرَجَاتٍ ، فَقَدْ يَرَوْنَهُمْ وَيَسْمَعُونَهُمْ كَالرَّعِيلِ الْأَعْلَى وَهُمْ الْأُئِمَّةُ الْهَدَاةُ ، أَوْ يَسْمَعُونَهُمْ وَلَا يَرَوْنَهُمْ كَمَنْ حَذَى حَذْوَهُمْ مِنَ الْمُخْلِصِينَ ، أَوْ يَلْهَمُونَ دُونَ سَمَاعٍ وَرُؤْيَا كَالْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَسِّطِينَ ، فَمَهْمَا كَانَ تَنْزَلُهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ بِرُؤْيَا وَسَمَاعٍ ، فَلِكُلِّ فِي حَيَاتِهِ مُنْزَلٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ حَسَبَ قَابِلِيَّاتِهِ ، فَلَيْسَ مِثْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى مَكَانَتِهِ - مَنْ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ نَزْوُهُمْ عَلَى الْعَتَرَةِ الطَّاهِرَةِ (١) مَهْمَا شَمَلَتْهُ الْبَشَارَةُ الْمَلَائِكِيَّةُ بَيْنَ مَنْ اسْتَقَامُوا ، وَمَا أَظْنَهُ تَشْمَلُهُ وَقَدْ تَنَحَّى عَنْ نَصْرَةِ الْإِمَامِ الْمُعَصُومِ سَيِّدِ الشَّهَدَاءِ عَلَيْهِ آلَافُ التَّحِيَّةِ وَالثَّنَاءِ .

= ساداتك وائمتك هم هناك جلاسك وأنا سلك فيها ترخصي بهم بدلاً من تفارقي هنا ؟ فيقول . بلى وربي
فذلك ما قال الله عز وجل « إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا »
فما امامكم من الأحوال فقد كفيتموها ولا تحزنوا على ما تخلفونه من الذراري والعيال فهذا الذي شاهدتموه
في الجنان بدل منهم وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون وهذه منازلكم وهؤلاء ساداتكم اناسكم
وجلاسكم .

(١) المصدر ٥٤٦ ح ٣٨ اصول الكافي عن ابي عبد الله (عليه السلام) انه قال : بينا
ابي جالس وعنده نفر اذ استضحك حتى اغرورقت عيناه دموعاً ثم قال : هل تدرون ما
اضحكني ؟ قال : فقالوا : لا - قال : زعم ابن عباس انه من الذين قالوا ربنا الله ثم
استقاموا فقلت له : هل رأيت الملائكة يا بن عباس تخبرك بولايتها لك في الدنيا والآخرة
من الامن من الخوف والحزن ؟ قال فقال : ان الله تبارك وتعالى يقول « انما المؤمنون
اخوة » وقد دخل في هذا جميع الامة فاستضحكت ثم قلت : صدقت يا بن عباس ...
اقول : لعل تصديقه (عليه السلام) قول ابن عباس تصديق لاصل دخوله في الآية دون
رؤية الملائكة وسماهم التي هي الدرجة العليا من تنزلهم .

ومهما كان أجل المصاديق لَمُتَّزَلِ الملائكة مكاناً هم الأئمة وزماناً هو الموت ، ولكنه لا يمنع شموله كل المستقيمين منذ استقاموا حتى الموت ويوم النشور ، أياماً ثلاثة يعيشونها بهذه البشارة المشرفة ، وفي الحق « ربنا الله » إذا قيل بحق يحمل كلما يتوجب على العبد تجاه الله ، إذ تشمل التربيات الإلهية كلها دونما استثناء ، ولا يمكن الإستقامة في « ربنا الله » اللاتقة لهذه البشارة إلا أن تعني « قالوا » قولاً نابغاً عن علم ، نابغاً بإيمان ، قالقولة الخالية عنها خاوية لا تحمل الإستقامة فيها إلا خواء على خواء !

ثم الإستقامة تحمل بعد قوامة العلم والإيمان استدامة العمل الصالح الذي يتبعهما ، فالقول « ربنا الله » ثم استقاموا » يتبى مثلث العلم والإيمان والعمل الصالح بمراتبها .

وهذه البشارة تحمل كلا السلب والإيجاب جزاءً من ربك عطاءً حساباً عن « ربنا الله » فإنها « لا إله إلا الله » سلباً بسلب وإيجاباً بإيجاب . فسلبها « ألا تخافون ولا يحزنون » خوفاً عما يأتي وحزناً على ما أتى ، وإيجابها « وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون .. » ! ف « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » هي زادهم من بدتهم إلى معادهم « فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢ : ٣٨) « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢ : ١١٢) « ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٣ : ١٧) !

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ .. ﴾ .

الولاية هنا المحبة والنصرة المساندة على ضوء ولاية الله ، فللملائكة تأثيرات جليلة وخفية في الأرواح البشرية المستقيمة على « ربنا الله » بإلهامات ومكاشفات في مختلف المقامات والمكانات حسب القابليات والدرجات ،

سورة فصلت / آية ٣١- ٣٤ ٧٧

وكما للشياطين القرناء للكافرين إلهامات لأوليائهم حسب الدرجات ظلمات بعضها فوق بعض .

هذه الولاية الملائكية وتلك الشيطانية في الحياة الدنيا سوف تبقى في الآخرة أظهر وأقوى ، حيث التعلقات الحائلة هناك زائلة ، فالولاية في بروزها وتأثيرها تظل دون غطاء ووطاء نائلة .

﴿ .. وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ (٣١) .

لكم فيها ما تشتهون ولكم ما تطلبون ، جمعاً بين ما تسرون من طلباتكم وما تعلنون .

﴿ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (٣٢) فكما قدمتم لله في حياتكم الدنيا مرضات الرب كلها ، كذلك الغفور الرحيم يجيب إلى طلباتكم كما تشتهون وتدعون في الحياة الأخرى .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣٣) .

علّ الواو قبل « عمل وقال » للحال فتعني حال أنه عمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ، فمن أحسن قولاً منه ؟ ف « الذين قالوا ربنا الله » هم القائلون « إنني من المسلمين » ولما « استقاموا » فهم ممن « عمل صالحاً » فلما استكملوا في تبّي حق الإسلام لأنفسهم ، من ثمّ لهم وعليهم أن يكونوا « ممن دعا إلى الله » فهو الأحسن قولاً ممن سواه ، ولا أحسن منه قولاً فيمن سواه .

ووجه آخر أن الواوين للعطف ، ف « عمل صالحاً » في سبيل الدعوة إلى الله وكما أصلح به نفسه « وقال إنني من المسلمين » الحقيقين جهاراً دون

تقية ولا ستار ، فإسلامه جاهر قولاً وعملاً فدعوة إلى الله ، وهذه هي الدعوة الحققة التي ما لها من فواق .

والمعنيان عليهما معنيان ويقتضيهما أدب اللفظ وعلو المعنى ، فهناك عمل صالح وإنني من المسلمين قبل الدعوة وهما من شروط الدعوة ، ثم عمل صالح وقول في طريق الدعوة وهما زاد الدعوة في سبيلها الشاق الطويل ، وقد زُود الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أفضل من غيره من الدعاة إلى الله وأحسن ، بقول وعمل صالح قبل الدعوة ومنذ ترعرع ، ومع الدعوة حتى لاقى ربه ، فمن أحسن قولاً منه .

إن كلمة الحق حينئذ أحسن كلمة تقال ، لكنها مع العمل الصالح الذي يصدقها ويصعدها ، ومع الإستسلام الذي تتوارى معه الذات والذاتيات والإنيات وحب الظهور وكل شيء ، فتصبح الدعوة خالصة لله ، ليس فيها للداعية شأن إلا الدعوة .

والنهوض بتلك الدعوة البارة في مواجهات إلتواءات النفوس البشرية واستكباراتها ، إنه أمر عظيم ، وأعظم منه الداعية الذي لا يهدف في دعوته إلا الله ، تناسياً لنفسه ورغباته وكل شيء إلا الله .

إنه يعارض السيئات ليزيلها ، ولا تستوي الحسنات ولا السيئات ، فقد يقتضي صالح الدعوة أن يدفع بالتي هي أحسن السيئة دون مجابهة بمثل كما يفعلها غير الصالحين :

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣٤) « ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون » (٢٣ : ٩٦) .

ترى ما هو موقع « ولا » بين الحسنه والسيئة ؟ فهل إنها مزيدة لتأكيد

النفي حيث الإستواء لا يكتفي بمفرد ، ولها نظائر « ولا الظلمات ولا النور » (٣٥ : ١٩) « وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور » (٣٥ : ٢٢) .

أم انها للنفي ، نفياً لاستواء جنس الحسنة بأفرادها و جنس السيئة بأفرادها ؟ فهو بأخرى نفياً للإستواء بين قبيل الحسنة والسيئة ! ولو أن تأكيد النفي يبرر الزيادة في « لا » فلماذا لم تزد فيها هو أولى : « لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة » (٥٩ : ٣٠) « قل لا يستوي الخبيث والطيب » (٥ : ١٠٠) ولا سيما أن « ولا الظلمات ولا النور » كمثال واقعة بين الممثل أو مثال أولى « وما يستوي الأعمى والبصير » وهو أخرى بتأكيد النفي ، وعمل الإستواء المنفي في « ما يستوي الأحياء ولا الأموات » ايضاً هو بين الأحياء أنفسهم ، وبين الأموات ، ثم النفي بين الأحياء والأموات ، وبين الحسنة والسيئة هو نفي الاستواء بينهما بطريق أولى .

أم إنها لتأكيد النفي بين الحسنة والسيئة وللنفي بين مصاديق الحسنة ومصاديق السيئة ؟

قولة الزيادة زيادة من القول ، والنفي ثابت إذ تقتضيه « لا » والجمع أولى فإنه أجمع وأحل ! فإذ لا تستوي الحسنة في أفرادها ، ولا السيئة في أفرادها ، فلا ينحصر دفع السيئة بسيئة أخرى ، فقد تكون سيئة تدفع بحسنة فـ « إدفع بالتي هي أحسن السيئة » وقد تكون سيئته لا تدفع إلا بسيئة فلا مجال إذا لدفعها بحسنة ، فالمعاند المكذب بآيات الله ، الذي لا يرجى هداه ، ولا تصد هواه ، لا تدفع سيئته بحسنة ، بل « جزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » (٤٢ : ٤١) .

فالعفو في موضع الإصلاح دفع للسيئة بالحسنة ودرء لها « ويدرءون

بالحسنة السيئة» (١٣ : ٢٢ و ٢٨ : ٥٤) والعفو فيها لا يُصلح بل ويفسد هو سيئة بدل كونها حسنة ، ف «لا تستوي الحسنة» في مواردنا ، وكذلك السيئة التي تُدفع بحسنة ، والتي تدرء بأية حسنة «لا تستوي السيئة» كذلك في مواردنا ، ف «جزاء سيئة سيئة مثلها» لا تعم مواردنا ، لاختلاف السيئات ، و «من عفا وأصلح فأجره على الله» لا تعم لاختلاف الحسنات ، والسيئة التي تُدفع بحسنة خير من حسنة لا تُدفع سيئة بل وتزيدها ، فلأنه «لا تستوي الحسنة ولا السيئة» ف «ادفع بالتي هي أحسن» ما أمكن الدفع ، وإلا ف «جزاء سيئة سيئة مثلها» !

ثم الدفع بالتي هي أحسن ليس إلا عن موضع القدرة ، فلئن أحسن العدو موضع الضعف إخترم ولم يحترم ، ونفس الدفع يلمح إلى شريطة القدرة ، حيث العاجز لا يدفع ، لا بالتي هي أسوء ولا الاحسن ، فإنه ضعيف على أية حال ، «ادفع... فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» .

هنالك دفع للسيئة وهو واقع بالتي هي أحسن وإن بقي العدو على عداؤه كامناً ، وليس «انه ولي حميم» إنما «كأنه ولي حميم» يندفع عن ظاهر عداؤه وإيذاؤه كولي حميم ، وقد يدفعه إلى مرحلة «ولي حميم» فالإصلاح درجات كما الإفساد درجات ، إذا دفعت بالأحسن ، بالفعل ينقلب الهياج والغضب إلى وداعة وسكينة ، والتبجح إلى حياء ولينة ، وأنت ما دفعت إلا بكلمة طيبة ، ونبرة هادئة ، وبسمة حانية أمأهيه من التي هي أحسن حسب ما يقتضيه علاج الواقعة ، طريقة مثل وحكمة عليا تُدفع واقعة السوء بها ، وقليل هؤلاء الأعداء الذين يظلون على عدائهم وجاء تلکم الواجهة الوجيئة والخلق العظيم ، اللهم إلا عداً عريقاً عميقاً ممن لا يرجى ولايته وحمته على أية حال ، والهدف الرئيسي من التي هي أحسن دفع السيئة ، وإن بقيت العداة في باطنها ، ثم إزالة العداة ، ثم اجتلاب الحمة ، وأما إذا دفعت

سيئة بسيئة أم زاد يزداد عدوك هياجاً ، فيخلع حياته نهائياً إذ يتفلسف زمامه فأخذته العزة بالإثم .

إن تلك السماحة مع القدرة على انحصارها في حالات الإصلاح وهي في الأغلبية الساحقة شخصية ، إنها بحاجة إلى تصبر ومعرفة وعطوفة ودراية زائدة وتلقية إلهية : -

﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٣٥).

صبر من الله وحظ عظيم من الله هما جناحان لذلك الدفع العظيم :
« وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يُلْقَاهَا إِلَّا الصابرون » (٢٨ : ٨٠) ومن أعظمهم الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) : « وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » (٢٧ : ٦) ولقد لقاء الله والمحمدين من آل الطاهرين الصبر العظيم والحظ العظيم ، فكانوا يواجهون الأعداء بكل حنان ما أمكن ومن ثم غضب الحليم .

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

هنا « حظ عظيم » في تنكير التعظيم بعد « الذين صبروا » توحى بعظمة ذات أبعاد : صبر وحظ ذي بعدين من العظمة، وما أعظمه العظيم في ميزان الله ، وما أكرمه من يُلْقَاهُ من عند الله ، وفي الحق هم القلة القليلة من سابقين وأصحاب اليمين : « من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

ومن أعظم الحظ العظيم الخلق العظيم « وإنك لعل خلق عظيم » وقد يتبناه علم عظيم ومعرفة واسعة وسماحة فاسحة وتصبر عظيم .

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣٦)

« وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً » (١٧ : ٥٣) والنزغ هو الدخول في أمر لا فساد ، فإذا قلت التي هي أحسن دفعا للبيئة بالحسن لم يكن هناك مدخل للشيطان ليجعل السوء سوائى أم يبقى على سوء ، « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ » حين يفلت منك فالت ، وهكذا يكون دور الشيطان أن يدخل في الأمور لإفسادها ، فهناك « فاستعذ بالله » من نزغه « إنه هو السميع » استعاذتك وندائك « العليم » حاجتك واستدعائك .

الغضب قد ينزغ فلا يتصبر صاحبه على إساءة ، أما إذا من نزغات في مختلف الحالات مهما كنت صبورا حليماً إلا من عصمه الله ، فإذا نزغك نزغ « فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم » وصيغة الاستعاذة هنا « أستعذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » .

« وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » (٣٧) .

« لا تسجدوا .. » نهي مؤكد انحصاراً للمسجود له في الله وإنحصاراً عما سواه ، سواء أكان المسجود له هو الشمس والقمر كما هنا ، والخطاب موجه الى الساجدين لهما ، ام سواهما من أصنام وطواغيت أم أولياء وملائكة كرام ، ولأن السجود لغير الله تسوية له بالله وهو ضلال مبين ، و « الذي خلقهن » إشارة إلى سبب المنع وسعة المنوع بدليل الجمع « خلقهن » الشمس والقمر وسواهما من خليقته .

ثم و « إن كنتم إياه تعبدون » تعليق على عبادتهن ، فالعابد لله ليس ليعبد خلق الله ، ولا سيما « إن كنتم إياه .. » ترمي إلى التوحيد ، والسجود لغير الله ينافي التوحيد .

وكضابطة توحيدية كل تسوية لغير الله بالله إشراك بالله ، في معرفة

وعقيدة ، أم فعلة وقولة ، أم آية حالة على آية حال ، مهما اختلفت دركات ذلك الإشراك .

والسجدة هي صورة عبادة ، فإن كانت لغير الله بنية العبادة وسيرتها فمن أسفل دركات الإشراك بالله ، وإن كانت صورة دون سيرة وهي أحيانية وإنما احتراماً للمسجود له ، فمن أدنى دركاته ، وإن كانت مستمرة فعوان بين ذلك ، وذلك الثالث على اختلاف دركاته مشترك في الشرك ! ﴿ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ بِالْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ (٣٨) .

ليس الكون قاحلاً عمن يسبحون له وله يسجدون ، « فإن استكبروا » عن عبادته وسجوده ، إلى مسجود الشمس والقمر وهما آيتان من آياته ، إلحاداً فيها بافراط « فالذين عند ربك » عندية القرب مكانة ربوية لا مكاناً ، من ملائكة وإنس وجان ، سابقين أو مقربين ، فإنهم عند ربك ، لا « الله » فليس عند ذاته أحد ، ولا « رب العالمين » حيث الربوية العامة ليست بذلك الزلفى ، بل « عند ربك » بتلك الربوية القمة التي أنت فيها بأعلى قمة « يسبحون له » لا سواه « بالليل والنهار » في كل وقت لحد أصبحت ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم وخطراتهم تسييحاً لله « وهم لا يسمون » : لا يملكون من هذه الكثرة الكثيرة ، وإنما يسمون لو يغفلون .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣٩) .

« ومن آيات » قدرته على إحياء الموتى مسرح الأرض الخاشعة الخامدة القاحلة حيث تحيي بإنزال الماء فتربو وتهتز ، فمن ذا الذي يُريها ويهزها بعد خشوعها إلا الله « إن الذي أحياها لمحيي الموتى » وبأحرى « إنه على كل شيء قدير » .

فاذا كان إحياء الارض لانتفاع الأحياء فضلاً من ربك عطاءً حساباً ،
فإن في إحياء إنسان الأرض لانتفاعه بما قدم ، وجزاءه بما ظلم أم ظلم ،
إن في ذلك لعدلاً بعد فضل ، فواقع الحياة المكرورة المتتابعة للأرض
الخاشعة يوقع بأحرى واقع الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ،
وكما الله ينزل على خاشعة الأرض نازلةً من ماء السماء إحياء لها
للأحياء ، كذلك الله ينزل على خاشعة الأبدان نازلة الأرواح من سماء
الرافة والعدالة وهو أحق وأحرى .

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ
فِي آيَاتِنَا لَا يَحْفَونَ عَلَيْنَا أَفَلَا يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ
مَنْ يَأْتِي بِنُورٍ أَمِنَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ
وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ
لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ
وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا

لَوْلَا فَصَّلَتْ ءَايَاتُهُ ۚ ءِ انْجَمِي ۖ وَعَرَبِي ۖ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ
 وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ اُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾
 وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا
 كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَلَٰئِنْهُمْ لَفِي شَكٍّ
 مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ اَسَاءَ
 فَعَلَيْهَا ۖ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ * اِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ
 السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ اُكْمِهَا وَمَا تُحْمَلُ مِنْ
 اُنثَى وَلَا تَضَعُ اِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ اَيْنَ شُرَكَاءُى
 قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مِمَّا مِنْ شَيْءٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّجْبِئٍ ﴿٤٨﴾ لَا يَسْمَعُ
 الْاِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ۚ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ
 قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَٰكِنْ اَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ

لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ
إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا
أَنعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَغْرَضَ وَثْقًا يَّجَانِبُهُ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ
الشَّرُّ فَدُودُ دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ
عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ۖ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ
بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ
يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيقَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ
أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ
أَمَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٤٠).

اللُّحْدُ حفرة مائلة عن الوسط، فالإلحاد هو الإمالة عن الوسط الحق إلى
حفرة إفراط أو تفريط، و « آياتنا » تعم التكوينية كسائر الآيات الدالات
على الله بما فيها آيات النبوات وحملتها، والتدوينية كسائر كتابات الوحي بما
فيها القرآن، فالإلحاد في تكوينية الآيات السائرة هو إمالتها عن كونها آيات
كأنها لا تدل على الله تفريطاً فيها، أم إشراكها بالله كأنها له أنداد إفراطاً
في شأنها، وفي التكوينية الخاصة كما الإفراط في أسماء الله تحويراً لها وتحريفاً
عن معانيها المعنية، أم اختلاقاً لأسماء لم يسم بها نفسه « والله الأسماء
الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا
يعملون » (٧ : ١٨) والتفريط في « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي
وهذا لسان عربي مبين » (١٦ : ١٠٣) والإفراط فيه أنه منه دون الله ! وفي
كيان الرسل وآياتهم المعجزات إفراطاً كما في عيسى وعزير من بعضهم
وتفريطاً كما في سائر المرسلين من آخرين، وقد يكون إفراط الإلحاد في آيات
الله من حصائل التفريط فيها وكثير ما هو، فمن أبصر إلى آيات الله
مستقلات دون اعتبار بها تفريطاً فيها، فقد أفرط فيها أن يجعلها أنداداً لله
تعالى، ومن أبصر بها بصرته لمعرفة هي أسمى فلا تفريط إذاً ولا إفراط،
فإنهما من حصائل الإبصار إليها دون الإبصار بها وكما يروى عن الإمام علي
(عليهم السلام) في شأن الدنيا، « من أبصر بها بصّرتة ومن أبصر إليها
أعمته ».

ثم الإلحاد في كتابات الوحي منه لفظي كالتحريف بزيادة هي الإفراط
أم تقيصة هي التفريط، وقد فعلوهما في التوراة والانجيل، ولم يستثن عن
الإلحاد فيه هكذا إلا القرآن كما تستثنيه الآية التالية، ومنه معنوي يعمه
حيث التحريفات المعنوية في القرآن سائرة في كل زمان ومكان.

هنا « لا يخفون علينا » تهديد لهم أول أنه عليهم رقيب عتيد ،
 بجزاءهم « يلقى في النار » ثم تهديد ثان نهياً شديداً بصيغة الأمر « إعملوا
 ما شئتم إني بما تعملون بصير » فقد بدء التهديد ملفوفاً - يخيف « لا يخفون
 علينا » فهم مكشوفون لعلم الله ، مأخوذون بما يلحدون في الله مهما غالطوا
 والتوا وحسبوا أنهم مفلتون من يد الله كما قد يتفلتون من حساب الناس !
 وثم صراح التهديد « أفمن يلقى في النار . . » وفي النهاية لفظة أخرى
 علها أقوى منها « إعملوا ما شئتم . . » أتراهم يغلبون آيات الله في هذه
 الإلحادات ولكيلا تبقى حجة بالغة على الناس ؟ كلاهما فعلوا ما افتعلوا ،
 فإن الله يحافظ على آيته الأخيرة الخالدة « القرآن » تداوماً لحجة الله البالغة
 على الناس وتدليلاً على ما فعلوه في الزبر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ^(٤١) لَا يَأْتِيهِ
 الْبَاطِلُ مِنْ يَمِينٍ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ^(٤٢) .

« ان الذين كفروا بالذكر » الأخير ، كل الذكر وهو القرآن العظيم ،
 كفراً في مختلف دركات الإلحاد في آياته « لما جاءهم » وقد خيل إليهم أنه
 كسائر الذكر ، فبإمكانهم كل تحريف فيه وتجديف ، « وإنه لكتاب عزيز »
 غالب على كل إلحاد فيه أياً كان « لا يأتيه الباطل » من أي مبطل « من
 بين يديه ولا من خلفه » لأنه « تنزيل من حكيم حميد » !

أترى ما هو الخبر عن هذا المبتدء ؟ علّه محذوف مستفاد من « يلقى في
 النار » للذين يلحدون في آياتنا حيث الإلحاد في القرآن هو من أبرز
 مصاديقه وأحقها إلقاء في النار ، فـ « ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم »
 إلحاداً فيه « يلقون في النار » فإنهم كفروا به حال « وإنه لكتاب
 عزيز . . » .

ذكر عزيز ، هو تنزيل من حكيم حميد ، كيف يُغلب بمن يريد فيه إلحاداً ، فلو تطرّق إليه التحريف بزيادة أو نقصان لقضي على الذكر في تاريخ الرسالات ، ولكان ذكر الله مغلوباً لا يُتصّر له ، ولم يكن الله حكيماً في تنزيله ولا حميداً ، فإن في الحفاظ على الذكر الأ خير حفاظاً على سائر الذكر ، وفي تحريفه - وقد حرف قبله سائر الذكر - تحريف لشرعة الله ككل ، وقضاء على حجة الله البالغة بأسرها .

إن في صيانة القرآن عن التحريف صيانة لسائر كتب السماء ، وحجة بالغة دامغة على المتمسكين بها على تحريفها عن جهات أشراعتها ، ودافع لهم إلى التفتيش عن شرعة غير محرفة يلجئون إليها^(١).

إنه «الذكر» الذي يحمل معه كل ذكر في كتابات السماء ، فيحفظه تحفظ وبضياعه تضاع «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» (١٥ : ٩) تأكيدات تسع لا مثل لها في سائر الذكر ولا أي من حقايق الدين الحق بأصوله وفروعه ، ولأنه ضمان له بأصوله وفروعه .

«ولأنه لكتاب عزيز» تأكيدان لعزة الكتاب كما الله منزله عزيز ، عزيز من عزيز يُغلب ولا يُغلب ! إنه عزيز في لفظه ومعناه ، عزيز في حكمه ومغزاه ، عزيز في مبتدئه ومنتهاه ، لا يذل ولا يُغلب مهما تربصوا له الدوائر ، عزة في مثلث الزمان بطوله وعرض المكان ، «لا يأتيه الباطل» مهما هاجمه المبطلون «من بين يديه» وهي كل كتابات الوحي فضلاً عن سواها ، وكل رجالات الوحي فضلاً عن سواهم ، بل هي مصدقة له كما هم ، وهو مصدق لما بين يديه ، وهذا تعبير دائب في سائر القرآن عما نزل

(١) راجع كتابنا «المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية».

قبله من كتاب بما بين يديه^(١) وعلمه لأنه ينظر إليها نظرة تصديق ، إذ ليس بدعاً من الكتب ، كما أن وسوله ما كان بدعاً من الرسل ! « مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه » (٥ : ٤٨) إذا فالأصل في « ما بين يديه » ما نزل قبله .

ومما بين يديه ما كان حال نزوله من كتب وأشخاص ، فهو يشمل الماضي والحال ، فـ « من خلفه » إذا يخص الإستقبال ، فهو في صيانة أهمية في مثلث الزمان عن أية دائرة سوء من الإنس والجان .

أترى لماذا « لا يأتيه الباطل » دون « المبطل » والآتي إياه إبطالاً له وإعطالاً مبطل له وليس فقط الباطل ؟

لأن المبطل ، المحاول لإبطاله ، قد أتاه ويأتيه على أية حال ، ولكنه لم يستطع ولن أن يبطل ، فـ « لا يأتيه الباطل » مهما أتاه المبطل أو يأتيه ، إبطالاً لمعجزته بما يفوقه أو يوازيه ، أو فصلاً لحجته بما يناوئه ويعاديه ، أو تحريفاً وتجديفاً بنقيضه عنه أو زيادة فيه ، أماذا من باطل في ألفاظه ومعانيه ، في تأليفه وتركيبه ، فلا تعلق به الشبهة من طريق المشاكلة ، ولا الحقيقة من جهة المناقضة ، فهو الحق الخالص الواجب الذي لا يشوبه شائب ولا يلحقه طالب ، فلا يأتيه الباطل مهما أتاه المبطلون ! فالشيطان

(١) كما في ٢ : ٩٧ - ٣ : ٣ - ٥ : ٤٨ - ٦ : ٩٢ - ١٠ : ٣٧ - ١٢ : ١١١ - ٣٤ : ٣١ - ٣٥ : ٣١ - ٤٦ : ٣٠ وفي نور الثقلين ٤ : ٥٥٣ ح ٦٧ - القمي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى : « ان الذين كفروا بالذكر . . يعني القرآن : لا يأتيه الباطل من بين يديه قال لا يأتيه الباطل من قبل التوراة والانجيل والزبور ولا من خلفه اي لا يأتيه من بعده كتاب يبطله وفيه عن المجمع روى عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليه السلام) في معنى الآية ليس في اخباره عما مضى باطل ولا في اخباره عما يكون في المستقبل باطل بل اخباره كلها موافقة لمخبراتها .

والإنسان لا يقدر أن ينقصا منه حقاً أو ينتقصاه، ولا يزيها فيه باطلاً ويفتغلاه .

فأي كتاب في مثلث الزمان وأي إنس أو جان وأي تقدم في علم في مستقبل الزمان ، ليس ليبطل حجته أو ينقصها أو ينقصها ، والكتائبان في كل زمان تدويناً وتكويناً بجوابانه ويؤيدان ، لأنه الإمام وسواه المأموم ، وهو العزيز وسواه تعزیز له أم لا يوازیه ، لأنه الذكر العزيز . . . تنزيل من حكيم حميد ، والمتدبر في القرآن يللمس منه هذه الحقيقة الخالصة ، من نصه وظاهره وإشارته ، يمجدها في كل بساطة ويسر حقاً ناصعاً فطرياً يخاطب أعماق الفطرة ويطبعها ويؤثر فيها عجيب التأثير .

اترى هذا « لا يأتيه الباطل من خلفه » ؟ فما هو اتيان الباطل من بين يديه وليس المبطل إلا في حال أو استقبال ؟ من اتيانه الباطل مما بين يديه تفوقه على القرآن في لفظه أو معناه أو مغزاه وليس ، ومنه إخباره بكذبه كما القرآن يكذب كل ما يأتيه معه أو من بعده لأنه خاتمة الوحي ، ولا مبطل له في كتابات السماء فضلاً عن سواها ، بل تصدقه^(١) كما يصدقها ، تصادقاً فائقاً كالتصادق فيمن جاء بها .

فالقرآن في صيانة ذاتية وخارج الذات من كافة الجهات والجنابات ، حق ناصع ناصح ، خالص لائح ، فهو المرجع الوحيد في كل شارد ووارد ، لا ينوبه نائب ولا يشوبه شائب ، « لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً » .

(١) راجع كتابنا « رسول الاسلام في الكتب السماوية » نجد فيه نصوصاً من تصديق الكتب السماوية للقرآن ونبيه .

كتاب الله العزيز هو المخرج عند المخرج والمرج لا سواء ^(١) ومثل القرآن ومثل الناس كمثل الأرض والغيث، بينما الأرض ميتة هاملة ثم لا يزال ترسل الأودية حتى تبلر وتنبث ويتم شأنها ويخرج الله ما فيها من زيتها ومعاش الناس، وكذلك فعل الله بهذا القرآن والناس ^(٢) و « إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أحب إليه من شيء خرج منه » ^(٣) وإنه المهيم على الكتب كلها وإنه حق من فاتحته إلى خاتمته .. ^(٤).

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٦٦ - اخرج ابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال قيل لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اوسئل ما المخرج منها فقال كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

(٢) الدر المنثور ٥ : ٣٦٦ - اخرج ابن مردويه عن ابن سعد لا احسبه إلا اسنده ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : مثل القرآن ..

(٣) المصدر - اخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الاسماء والصفات عن عقبة بن عامر ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تلا هذه الآية فقال : .. وفيه اخرج البيهقي عن ابي ذر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .. بشيء افضل .. وفيه اخرج عن عطية بن قيس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ما تكلم العباد بكلام احب الى الله من كلامه وما اتاب العباد الى الله بكلام احب اليه من كلامه بالذكر قال بالقرآن .

(٤) عيون اخبار الرضا في باب ما كتبه الرضا (عليه السلام) للمؤمن في محض الاسلام وشرايع الدين وفيه : والتصديق بكتابه الصادق العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد « وانه المهيم .. نؤمن بحكمه ومتشابه وخاصة وعامة ووعدته ووعدته وناسخه ومنسوخه وقصصه واخباره لا يقدر أحد من المخلوقين أن يأتي بمثله .

وفيه بسنده عن محمد بن موسى الرازي قال حدثني ابي قال ذكر الرضا (عليه السلام) يوماً القرآن فمظم الحجة فيه والآية المعجزة في نظمه قال : هو حبل الله المتين وعروته الوثقى وطريقته المثل المؤدي الى الجنة والمنجى من النار لا يخلق على الازمة ولا يفت على =

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ
وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٤٣).

قيلات على الرسائل وحملتها طول التاريخ الرسالي هي كلها ويلات متناسقة مع بعض ومتشابهة ، وشريطات مكرورة تُدار من حماق الطغيان والجهالات على أصحاب الرسائل ، كلها كانت الرسالة أقوى ، ودعايتها أصرض وأنبي ، كانت القيلات عليها أوسع وأشجى ، ولأن هذه الرسالة السامية تجمع الرسائل كلها وزيادة ، فالقيلات عليها تجمع تلكم القيلات كلها « ما يقال لك » يا حامل الرسالة الأخيرة « إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » وقد قيل عليهم كل قيل ، فلتصبر نفسك على كل قيل « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك » « فإنك بأعيننا » مهما كان مرساهم « ولتصنع على عيني » فـ « بأعيننا » تجمع جماع الرقابات حفاظاً على رسالتك ، لأنها محطة القيلات .

« إن ربك لذو مغفرة » يغفر قيلات عليك سترأ لها وسداً عليها فلا يأتيها الباطل بما يطلون ، وكما « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » كذلك ليغفر لك كل باطل يأتيك من بين يديك ومن خلفك ، إذ لا يسطع على إبطال حجتك ، وإغراقك في لجثتك .

ثم هو « لذو مغفرة » لمن تاب معك أو يتوب « وذو عقاب أليم » لمن يصبر في إبطال امرك .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيَّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ

= الألسنة لأنه لم يجعل لزمان دون زمان بل جعل دليل البرهان والحجة على كل انسان « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

عَلَيْهِمْ عَمَى أُولَئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٢٦﴾.

« ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ، كذلك سلكناه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به حتى يَرَوْا العذاب الأليم » (٢٦ : ٢٠١) .

آيتان في سائر القرآن تفصحان عن النخوة العربية وجاه وحي القرآن أن لو كان أعجمياً لزادوا في النكران ، مما يدل على مدى شقوتهم وتصلبهم في قوميتهم لحد يجعلونها أصلاً وحتى لصرح الإيمان ، فأولئك ينادون من مكان بعيد ، لتباعدهم عن طريق الرشد ، وإعراضهم عند دعاء الحق ، كأنهم من شدة إلتوائهم والذهاب بأسماعهم والإنصراف بقلوبهم - ينادون من مكان بعيد ، فالنداء غير مسمع لهم ولا واصل إليهم ، ولو سمعوه لفضل عنهم فهمه للصدم المنفرج بينهم وبينه ، إذ فصلت قوميتهم بينهم وبين سماع الحق والخضوع لديه ، وحتى حين نزل عليهم القرآن عربياً فضلاً عن جعله أعجمياً إذ قالوا « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » ! فما هم بصاغين الله لا عربياً ولا أعجمياً .

والأعجمي من العُجمة خلاف الإبانة ، والإعجام هو الإبهام ، والأعجم من في لسانه عُجمة عربياً كان أم سواء ، ومنه قيل للبهيمة عجاء ، ولصلاة النهار عجاء ، إذ لا يجهر فيها بالقراءة ، وسميت الحروف المفردة معجمة لأنها لا تدل على ما تدل عليه الحروف الموصولة .

فالأعجمي بصورة عامة هو اللغة التي لا تفهمها ، من بهيمة فهي أعجمية ، أم فارسية امآذا من لغات لست تفهمها ، أم وعربية لا تعرفها ، فكل لغة بالنسبة لمن لا يعرفها أعجمية ، فاللغات كلها أعجمية لغير أصحابها ، عربية لأصحابها ، وكما يعبر التوراة عن القرآن العربي بين العبرانيين أنه بلغة لكناء أعجمية كالنص التالي :

﴿إِنَّمَا يُوْرَةُ دَعَاةٍ وَإِنَّمَا يَأْيِنُ شُمُوعَاهُ غِغْمُوْا لِيْ مَحَالِلَٓ عِيتِيْمِيْ
مِشَادَايِمِٓ﴾^(٩) كِي صَوْلَا صَا وَصَوْلَا صَاوْ قَوْلَا قَاوْ قَوْلَا قَاوْ زَعِيْرُ شَامْ زَعِيْرُ
شَامْ^(١٠) كِي بَلْعَجِي شَافَاهُ وَبِلَاشُونْ أَجْرَتْ يَذِيْرُ إِلْ هَاعَامْ هَذِهِ^(١١).

لمن ترى يعلم العلم ولن يفقه في الخطاب اللفظومين عن اللب
المفصولين عن الثدي^(٩) لأنه أمر على أمر أمر على فرض على فرض ثم فرض
على فرض هنا قليل وهناك قليل^(١٠) لأنه بلهجة لكنا بشفاه أعجمية ويلسان
غير لسانهم يكلم هذا الشعب^(١١)

والأعجمي على ضربين ، ضرب أول ما فيه عجمة نسبة ككل لغة لا
تعرفها ، وضرب آخر ما فيه إيهام وإجمال وهو لغتك إما بلكنة في لسان
ناطقها ، أم غرابة في نظمها ونسجها كالقائل : ما لكم تكأكتم كتكأكؤكم
على ذي جنة افرنقوا عني .

وكانهم تطلبوا إليه أن ينزل لهم قرآناً أعجمياً^(٢) في أي بُعد من
العجمة ، كسائر تطلباتهم الجاهلة الهراء فجاء الجواب : « ولو جعلناه قرآناً
أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته . . »

هنا لهم اعتراضان إثنان « لو جعلناه قرآناً أعجمياً »^١ « لولا فصلت
آياته » حيث أجملت فلا نفهمها كما يجب ، والتفصيل هو الإفصاح عن
المعنى كما هو الآن في القرآن ، فخلافه أعجمي أي كان ولا سيما إذا كان
بغير لغة القرآن ، ولكنه « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » !

(١) راجع كتابنا (رسول الاسلام في الكتب السماوية) نجد فيه تفصيل هذه البشارة بشأن
القرآن ، وهذا النص نقلناه عن كتاب اشعياء النبي حسب الاصل العبراني .

(٢) الدر المنثور ٥ : ٣٦٧ - اخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير قال قالت
قريش لولا انزل هذا القرآن أعجمياً وعربياً فأنزل الله « قالوا لولا فصلت آياته : أعجمي
وعربي وانزل الله تعالى بعد هذه الآية بكل لسان حجارة من سجيل .

٢ «اعجمي وعربي» والأعجمي هو الكتاب لو جعل أعجمياً ، والعربي هم العرب ، يستنكرون ويتناكرون أن يجعل كتاب شرعتهم بغير لغتهم لا لشيء إلا لأنهم عرب ، يتأنفون غيرهم وغير لغتهم ، ويتأنفون لأنفسهم ولغتهم ، فبالإمكان أن تترجم كل لغة بلغتهم لو كان القرآن بغير لغتهم ، وكما سائر المكلفين المرسل إليهم بشرعة القرآن ، يستعجمون لغة القرآن فإنها غير لغتهم ولكنهم لا يتأنفون ، فهم بين من يتعلم لغة القرآن ، أو يتعلم من عارفها فيتفهم بذلك القرآن ، وكما ترى الرعيل الأعلى من الأدباء العرب هم من غير العرب .

إن كتاباً كالقرآن ، الموجه إلى العالمين كافة ، لا بد أن ينزل بلغة من اللغات عربية كانت أم أعجمية ، ولكنها العرب هم الذين يتنكرون لو جعل قرآناً أعجمياً .

لذلك ترى الجواب ألا منعة هنا إلا الالامان ، حيث الإيمان يجد سبيله إلى شريعة القرآن بآية لغة كان : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » أيا كان لغتهم « والذين لا يؤمنون » وإن كان بلغتهم « في آذانهم وقرو وهو عليهم عمنى » كما قالوا « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »!

« أولئك ينادون من مكان بعيد » نداء يوم الدنيا إذ فصل بينهم وبين هدى القرآن كفرهم البعيد ، فكأنهم « ينادون من مكان بعيد » وهم قريبون إلى المنادي وقريبون إلى لغة النداء، ولكن بعدهم العداة فهم يعاد عن النداء ! ومن ثم « ينادون من مكان بعيد » يوم الأخرى ، حيث المنادي الملائكي لا يقربهم ، فيناديهم من بُعد ترذيلاً لمكانتهم ، والمنادي الإلهي يناديهم من بعيد كمنادى رذيل لا يُعبأ به .

وقد تكون حكمة نزول القرآن باللغة العربية أنها أفضل اللغات

وأعربها ، وأنهم مبتدء الدعوة فلتكن بلغتهم ، وأنهم قومٌ لئد ليسوا يتقبلوا قرآناً بغير لغتهم ولا يُقبلوا إليه !

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (٤٥).

« كلمة سبقت من ربك » تربية لهم على ضوء تربيتك ، فإنها الميزان لكل العالمين ، أتراها هي « ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » (٧ : ٢٧) ونحن نرى عذابات الإستتصال تترى في المكذبين بآيات الله طيلة التاريخ الرسالي ، فلماذا قضي عليهم دون قوم موسى !

هنا « قضي بينهم » والإستتصال قاض عليهم ، فإنما القضاء بينهم إزالة للإختلاف بخارقة مارقة تجلي لهم الحق عياناً بعد بيان ، وتلجئهم إلى الإيمان بعد شك قاصد مريب ، ولكنها الدار دار ابتلاء وامتحان ، وليست دار فصل وحسبان ، إذا يلذهم واختلافهم في خوضهم يلعبون ، وفي غيهم يترددون .

ثم الشك منه مريب وهو أشد منه لا يريب ، فهم يظهرون شكهم بمظهر المريب ، ثم وليس العمل الصالح لصالح الرب ، إلا لأنفس الربويين يوم الدنيا ويوم الدين « وما ربك بظلام للعبيد » أن يسير على غير الصالح ثم يحاسب عليه ، ظلماً ذا بعدين يجعل من ربك ظلاماً للعبيد !

صحيح أن من أساء تعدياً على من سواه فقد أساء على من سواه ، ولكن المحور الرئيسي في ردة فعله ليس إلا المسيء نفسه ، وكما العمل الصالح على سواه .

فالإساءة والإصلاح غير المتعديين هما لزام المسيء والمصلح دون سواهما ، والمتعدي منهما فيه ضعفٌ لها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فصاحبه هو

الأصيل في فعله وافتعاله ، ثم الله لا نصيب له من خيره أو شره ، فـ « الله هو الغني وانتم الفقراء » .

﴿ إِلَيْهِ يَرُدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَذْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ (٤٧)

علم الساعة مردودٌ إليه ، محفوظ لديه ، لا يعدوه إلى سواء حتى رسل الله ، فإذا سُئلوا عنه ردوا علمه إليه ، وليس فقط علم الساعة ، بل « وما تخرج من ثمرات » من أوعيتها الأكمام ، « وما تحمل من أنثى » نباتية أم حيوانية أم إنسانية أماهيه « ولا تضع » حملها « إلا يعلمه » .

هنا « من ثمرات » و « من أنثى » تستغرق الكل من كل دونها استثناء ، أنها بحیطة علمية آلهية ولا تسامى ، مهما علم العالمون شيئاً ضئيلاً من هذه وتلك .

وذلك توحيد لربوبية العلم والقدرة « ويوم يناديهم » إذ تقطعت الأسباب وحارت دونه الأبواب « أين شركائي ؟ » الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، « قالوا ءاذنأك » إعلاماً وإعلاناً « ما منا من شهيد » لا هنا فأنت أنت الله الواحد القهار ، ولا يوم الدنيا مهما خبطنا وأخططنا .

وهنا « منا من » ضاربة إلى عمق بعيد من سلبية الإستغراق ، فلا أحد منا يشهد أن لك شركاء ! وهنالك :

﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوا مَا لَهُمْ مِنْ حَیْصٍ ﴾ (٤٨)

فهناك ظهور الحقائق ، فليضل الشركاء المختلقون ، فذواتهم هناك موجودة ، وصفاتهم مفقودة ، وذلك ضلالهم والضلال عنهم ، أم وذواتهم

مُخْبِرَةٌ لِّتَرْذُلَهَا ، اَللّٰهُمَّ اِلَّا الْاَوْلِيَاءَ الَّذِيْنَ اتَّخَذُوا اللّٰهَ شُرَكَاءَ .

ولماذا هنالك « ظنوا » واحتمال المحيص لهم ساقط بما يرون من عذاب الله ؟ عليهم لنكرانهم الشهداء من ناحية ، ولسة المصلحة الرحيمية لله من أخرى ، قد يخلد بخلدهم أن لهم « من محيص » فـ « ظنوا ما لهم من محيص » .

﴿ لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤْسَ قَنُوطٌ ﴾ (٤٩) .

« لا يسأل الانسان ، ولا يمل » من دعاء الخير « أن يدعو طلباً في حال وفعال وقال ، أو يُدعى له ، فدعاء الخير يعم دعاءه الخير بنفسه أم دعاء غيره له بالخير ، وسواء عنده أن يدعو ربه أم سواه ، بل قد يفضل عليه سواه ، ولما يئأس عن سواه يدعو مخلصاً ولكي يحصل على مناه .

فكل ما يراه خيراً يكسح في طلبه كدحاً بكل صنوف الدعاء ، ولكنه « إن مسه الشر فيؤس قنوط » كأن لم يكن هناك خير ، ففي لسة من شر ينسى كل خير قبله كأن لم يعطه من ذي قبل *يوم ربي*

مجرد مس الشر يقنظه عن كل خير مأمول ، وهو رسم دقيق واقع صادق للنفس البشرية لاغترارها الكادح بالسراء ، وجزعها بمس الضراء .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (٥٠) .

وما أحقه في قوله الخواء « هذا لي » نكراناً أنه لله ومن الله ، دونما استحقاق له من رحمة الله ، فإن كانت لك فلماذا سلبت عنك فأنت يؤس قنوط ، ثم الدنيا ليست دار جزاء يجزى فيها أهل الحق برحمة ، فحتى لو كنت منهم فـ « هذا لي » غلطة ثم « وما أظن الساعة قائمة » ثانية « ولئن

رجعت الى ربي « ثالثة ، فهل أنت بثالثك المنحوس تستحق رحمة ربك ،
والمؤمنون لا يستحقون ؟

وهنا في « ربي » اختصاص لربوبيته تعالى بنفسه كأنه ليس رباً لسواه ،
وفي « إن لي للحسنى » تأكيدان اثنان أن له حسنى الحياة ، ولماذا هذه
الإشراكة بالله ، ونكرانه يوم لقاء الله ، إذا فالموحدون المؤمنون هنالك
يحرمون ، وهؤلاء الغباوى يُكرمون ؟ « تلك إذا قسمة خيري » ١ .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَدُو
دَعَاءٍ عَرِضٍ ﴾ (٥١) .

وهذه حالته الغفلانة الرديئة إلا من هداه الله .

﴿ قُلْ أَزَايْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي
شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (٥٢) .

فهلاً يكون ذلك احتمالاً يستحق الإحتياط ، فماذا أخذتم لأنفسكم
من وسائل الإحتياط ، فإن لم يكن القرآن من عند الله فنحن وإياكم شرع
سواء ، لا يضرنا ما صمنا وصلينا ، ولا يفعلكم متعة الحياة الدنيا .

وأما إن كان من عند الله كما تدل عليه دلائله « ثم كفرتم به » فمن
أضل منكم حيث عشتم في شقاق بعيد .

وذلك دليل عند فقدان الدليل ، أم تعنت خائقي أمام الدليل ، لا
ينكره حتى المجانين ، فالأخذ بالحائطة طريقة العقلاء ، حيث الإحتياط طريق
النجاة ، كلما كان المحتاط له أهم فالاحتياط له أتم واعظم .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ
يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٥٣) ألا إنهم في مزية من لقاءه ألا إنه
يُكَلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ (٥٤) .

هنالك آيات ترى بعين الفطرة والعقل والحس أماذا من جوارح

وجوانح ، فلا حاجة إلى إرائتها ، وآيات أخرى غامضة يريها الله بما يبين في كتاباته وألسنة أنبيائه أم إلهامات غيبية ، وهي حالة حالية وماضية على أية حال ، فما هي الثالثة التي « سنريهم » ؟ وتبين الحق في القرآن لزام كل مكلف على أية حال ، وإلا لم تكن حجته بالغة على كل حال !

ضمير الغاب في « أنه » هو الله العزيز وكتابه العزيز ، و « آياتنا » تعم التدوينية القرآنية والتكوينية الكونية ، ولأن « في أنفسهم » تعم دواخل نفوسهم ، وإياهم فيما بينهم ، ف « في الآفاق » تعم خوارج نفوسهم ، والخارج عما بينهم ، ف « نفوسهم » تخص الدواخل ، « وانفسهم » تعمها وما بينهم .

صحيح أن بصر العين وبصيرة العقل والفطرة كافية لتبني أصل الإيمان بالله وكتابه ، ثم الإرائة الإلهية تزيد إيماناً على إيمان : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » وهدى على هدى : « والذين اهتدوا زاد هم هدى » إلا أن لكل مستقبل من الزمن إشراقة تبين وإرائة فوق إرائة ، هي من عوامل تبين الحق في زاوية ثالثة للذين اهتدوا ، ومن الأسباب القاطعة القاصعة لتبينه للذين جحدوا بها ، كالأخبار المستقبلية ، فوقوعها كما أخبر عنها إرائة مستقبلية ، وكالتقديرات العقلية والعلمية الناصعة التي تُرى عياناً ما لم يكن يُرى من ذي قبل إلا بعين البصيرة ف « إن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن » .

فالتقدمات العقلية والعلمية هي من الآيات الأنفسية الأولى ، فأفاقيتها هي الكشف العلمية التي تكشف - دوماً - النقاب عن وجه كتاب التكوين حيث تُجاوب كتاب التدوين .

والإنتصارات الإسلامية هي من الأنفسية الثانية كفتح مكة وغلب الروم الكتابيين على المشركين : « ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من

بعد غلبهم سيفلبون . في بضع سنين» وقد حصل ، أماذا من غلبات وانتصارات وسواها من ملاحم أخبر عنها القرآن « فأراهم الآيات في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » (١) .

والإنهزامات لغير المسلمين هي من الآفاقية الثانية لهم، وقد يجمعها خير جمع وأفضله: « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض .. » (٥٥: ٢٤) حيث يعز أوليائه ويذل اعداءه، آفاق فائقة للذين آمنوا ، باثقة للذين كفروا .

فالمسلمون وسواهم من الناظرين إلى القرآن يعيشون دوماً آيات الله تدويناً وتكويناً في الأفاق وفي أنفسهم ، حيث يريهم الله إياها ، فهما يبينان لنا الحق في الله ، والحق في كتاب الله في مثلث التبيين - أم لاقل تقدير - في زاوية أولى، ومن ثم ثانية لتبين الحق أمام الطالبين ، وإذ لم يكف « أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » (٢) .

مركز تحقيق كامبوز علوم إسلامي

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٥٥ ح ٧٣ في كتاب الاحتجاج روى عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسن بن علي (عليه السلام) قال : ان يهودياً من يهود الشام واحبارهم قال لعلي (عليه السلام) فان هذا موسى بن عمران قد ارسله الله الى فرعون واره الآيه الكبرى قال له علي (عليه السلام) : لقد كان كذلك ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ارسله الله الى فراعنة شقى مثل ابي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة وابي البختري والنضر بن الحارث وابي بن خلف ومنبه ونبيه ابني الحجاج والى الخمسة المستهزئين الوليد بن المغيرة المخزومي والعامر بن وائل السهمي والاسود بن عبد يغوث الزهري والاسود بن المطلب والحارث ابن الطلائة فأراهم الآيات في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق .

(٢) الواو هنا عطف على مثل ما ذكر حيث يصلح لان يكفي بربك اراءة لآياته في الأفاق وفي أنفسهم .

إن شهادته على كل شيء كما في آيات عدة كهذه^(١) هي حضوره علمياً وقيومياً وتلقياً لأعمال وحالات ، وحضوره تربوياً ، فربوبيته ناصعة في كل شيء و « على » هنا تشهد أن شهادته تعالى عالية محيطه هي لزوم ذوات الأشياء كيفما كانت وأنى وأين ، منذ خلقت وحتى القيامة والفناء لما يفنى !

و « ربك » حيث تعني التربية الإلهية القمة ف « على كل شيء شهيد » هي في قمة الشهادة المحيطة علواً فيها علمياً وقيومياً وتلقياً وتدليلاً له عليه ، وهذه الشهادة المربعة دائبة طول الزمان وعرض المكان لكل إنس وجان .

و « العبودية جوهره كنهها الربوبية فيما فقد من العبودية وجد في الربوبية وما خفي في الربوبية أصيب في العبودية قال الله « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » أي موجود في غيبك وحضرتك^(٢) .

ومن تبين الحق في الله وفي القرآن وفي كل حق ما يُريه من آيته العظمى وحجته الكبرى الحجة القائم المهدي من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٣) .

(١) « وانت على كل شيء شهيد » ٥ : ١١٧ « ان الله على كل شيء شهيد » ٢٢ : ١٧ « وهو على كل شيء شهيد » ٣٤ : ٤٧ « والله على كل شيء شهيد » ٥٨ : ٦ و ٨٥ : ٩ « ان الله كان على كل شيء شهيداً » ٤ : ٤١ و ٣٣ : ٥٥ - وبالنسبة للأعمال : « والله على ما تعملون شهيد » ٣ : ٩٨ « ثم الله شهيد على ما يفعلون » ١٠ : ٤٦ .
(٢) مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) .

(٣) نور الثقلين ٤ : ٥٥٥ ح ٧٤ في روضة الكافي عن الطيار عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : خسف ومسح وقذف قال قلت « متحاربين لهم » ؟ قال : دع ذا ذاك قيام القائم وفيه عن علي بن ابي حمزة عن ابي بصير عن ابي عبد الله (عليه السلام) =

وهكذا يتجاوبان ويتناظران كتاب التدوين القرآن وكتاب التكوين أيّا كان على طول الخط منذ نزل القرآن حتى القيامة الكبرى ، تجاوباً في رؤية وإرائة « آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » ؟

« ألا » حذارهم حذار « إنهم » غارقون « في مرية من لقاءه » هنا ويوم يقود الأشهاد « ألا » تنبهاً وحضوراً « إنه بكل شيء محيط » كما هو على كل شيء شهيد ، إحاطة في مربع الشهادة، وشهادة في مربع الإحاطة. لا مفلت عنه ، ولا مناص عن لقاءه !

أترى بعد ذلك كله أن « هم » في سنريهم تخص الحاضرين ؟ كلا إنه يعمهم والذين يلحقون بهم من خلفهم وإلى يوم الدين ، يعيشون إرائة الآيات الأفاقية والأنفسية تدوينية وتكوينية ! ومن المستقبل المعني في « سنريهم » عند الموت وعند النشور ، لمن عمي عن آيات الله رغم رؤيتها وإرائتها ، فلا أحد إلّا وقد يُرى آيات الله في الأفاق والأنفس « حتى يتبين لهم أنه الحق » ! .

قال سألكه عن هذه الآية قال : نريهم في انفسهم المسخ ونريهم في الأفاق انتقاص الأفاق عليهم فيرون قدرة الله عز وجل في انفسهم وفي الأفاق قلت له « حتى يتبين لهم انه الحق » ؟ قال : خروج القائم هو الحق عند الله عز وجل تراه الخلق لا بد منه .





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ عسق ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ
 يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
 وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ
 الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ دُونِهِ أُولَٰئِكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ حَافِظُ
 عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا
 إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا
 وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۖ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ
 فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ

يَدْخُلُ مَنْ يَسْأَلُ فِي رَحْمَتِهِ ۖ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٥٨﴾

هنالك حواميم سبع تترى تلو بعض ، ثالثتها هذه ، وتزيد على الست الأخرى « عَسَق » وكلها مكية ، تتلو حواميمها ذكر الكتاب إنزالاً وتنزيلاً بيناً ومبيناً ، إلا هذه ، حيث تذكر مطلق الوحي أو الوحي المطلق إلى هذا الرسول والذين خلوا ، كما ويعقبه دون فصل كتاب التكوين إيجاء بتجاوب الكتاين ، وتلائمهما كما هما مع الحواميم .

ترى وما هو السر في تتابع الحواميم السبع المكية وإختصاص ثالثتها بـ « عَسَق » ؟ الله أعلم حيث يجعل رسالته ۖ ١ ومهما يكن من شيء فلتعني « عَسَق » هنا زائداً عما عنت « حم » في الست الأخرى ، وعمل من الزائد ما يوحيه « وإلى الذين من قبلك » أو « وعلم كل شيء » في « عَسَق » ٢ فـ

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٥٧ في تفسير علي بن ابراهيم « حم . عَسَق » هو حروف من اسماء الله الأعظم المقطوع يؤلفه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام (عليه السلام) فيكون الاسم الأعظم الذي اذا دعي الله به اجاب ، حدثنا احمد بن علي واحد بن ادريس قال حدثنا محمد بن احمد العلوي عن العمركي عن محمد بن جمهور قال : حدثنا سليمان بن سماعة عن عبد الله ابن القاسم عن يحيى بن ميسرة الخثعمي عن ابي جعفر (عليها السلام) قال : سمعته يقول : حم عسق عدد سني القائم صلوات الله ۖ

« كذلك يوحي » إجمالاً عن الوحي كله ، أم ماذا ؟ ، والحروف المقطعة في كل سورة إذا كانت عدة تجمع كـ « المر - كهيعص » وكيف فصلت هنا « حم » عن « عسق » اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ! .

أو ترى أن « كذلك » : الوحي البعيد البعيد في مكانته ومحتده ، إشارة إلى ما بعدها من الشورى أو القرآن كله ؟ كما في « ذلك الكتاب لا ريب فيه » ؟ ولكن الإشارة إلى ما مضى أخرى منها إلى ما يأتي ! وما أُوحي إلى الذين من قبله ليس كمثله الشورى أو القرآن كله اللهم إلا في أصل

عليه وقاف جبل محيط بالدنيا من زمردة خضراء فخرصة السماء من ذلك الجبل وعلم كل شيء في « عسق » وفي تفسير البرهان ٤ : ١١٥ بإسناده عن ابن عباس قال : حم اسم من أسماء الله عز وجل وعسق علم على تفسير كل جماعة وتفاق كل فرقة ، وفيه في معاني الأخبار بإسناده إلى سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه : وأما حم عسق فمعناه الحكيم المثبت العالم السميع القادر القوي . وفي تفسير البرهان ٤ : ١١٥ بإسناده عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : حم - حتم وعين - عذاب . وسين - سنون كسفي يوسف . وقاف - قذف ومسح يكون في آخر الزمان منه بالسفياي واصحابه وناس من كلب ثلاثون ألف يخرجون معه وذلك حين يخرج القائم (عليه السلام) بمكة وهو مهدي هذه الأمة .

أقول : ليس لنا أن نتأكد بشيء من هذه المعاني المروية في روايات آحاد ، كيف ولا نصدق تفسيراً للكتاب المفصل إلا ما وافقه أو ثبت وروده قطعياً عن أهل بيت القرآن ، فبأن نحتاط في تفسير صفوة القرآن أخرى وأوجب ، ورواياته آحاد ومتضاربة ، فلا نصدق إلا ما يصرح أو يلوح به القرآن أو ثبت وروده عن أهله الخصوص المعصومين (عليهم السلام) .

وقد نصدق طرفاً من « علم كل شيء في « عسق » اعتباراً بالآيات التي تليها ولا سيما « كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك » أن « حم عسق » يرمز إلى الوحي كله ، مانزل من قبل وفي هذا ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا . ثم « تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن . . » لعلها توحى بتفطير ما توحى « حم عسق » كما في دولة المهدي (عليه السلام) .

الوحي دون شاكلته ومراتبه ومادته ، حيث القرآن يفوق سائر الوحي في هذا المثلث .

أو أن « كذلك » تشير إلى « حَم . عَسَق » في وحيها الخاص بالرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أن النبأ الذي تحمله أوحى إلى الذين من قبله كما أوحى إليه .

أو أن « كذلك » تعني أمثال هذه الحروف المقطعة التي هي رموز تخص أصحاب الوحي - لا خصوص حم . عسق - ؟ ولا نرى في سائر كتابات الوحي هكذا وحي مقطوع ! إلا أن يعني أصله الموحى إليهم دون كتبه في كتاباتهم .

أو أنه إشارة إلى أصل الوحي في بُعد يعم سائر الوحي لسائر المرسل إليهم دون خصوص المرسلين ، لا الوحي الثنائي الذي هو وحي في وحي « حَم . عَسَق » ؟

أو أنه يعم الجميع . فـ « كذلك » الذي يوحى إليك ربك في الشورى وسائر القرآن يوحى إلى الذين من قبلك ، وحي كسائر الوحي في السنة الرسالية كأصل مهما اختلفت مراتبه كيفية ومادة أم ماذا ؟ : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » (٤ : ١٦٣) فالدين الوحي واحد في الكيان مهما اختلفت الشرايع إليه شكلياً وفي علو الكيان ، لحد قد يعتبر سائر الوحي الأصيل إلى سائر أولي العزم من الرسل وجاء الوحي القمة المحمدي وصية : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . . . » (٤٣ : ١٣) وكثيرة هذه الآيات التي تبرز مشاركة غير مشاكسة بين مدارج الوحي ، اللهم إلا بيمزة الكمال القمة في خاتمة الوحي .

و « كذلك » مثل « حَم . عَسَق » من الوحي الخاص المنحصر في

أصحاب الوحي : المنحسر عن سواهم « يوحى إليك وإلى الذين من قبلك » مهما لم تثبت هذه الرموز في كتاباتهم وثبتت في القرآن .

فالوحي منه ذو بعد واحد كالمجرد عن الألفاظ مثل ما أوحى من محكم القرآن على قلب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلة القدر ، أو ذو بُعدين ثانيهما بُعد الألفاظ المفصلة كالقرآن المفصل ، أو ذو أبعاد ثلاثة ثالثها الحروف التلغرافية المقطعة ، فإنها مثلث الوحي : أصل المعنى - أصل اللفظ - ورمز اللفظ ، و « كذلك » ككَلَّ أو كَبَعَض « يسوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » .

وكما أن الآية توحى بعامة الوحي إلى عامة أصحاب الوحي بمختلف مدارجه ، فقد تعلَّله الأسماء الخمسة الحسنى التي تليها : « وهو ١ - العزيز ٢ - الحكيم ٣ - له ما في السماوات وما في الأرض ٤ - وهو العلي ٥ - العظيم » فهذه الخماسية المجيدة تعلل موجهة الوحي الرسالي إلى عامة المرسلين .

فبعزته يوحى إذ لا صَادُ يَصْدَهُ « والله غالب على أمره » (١٣ : ٢١) والوحي من مظاهر العزة الإلهية حيث يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ، والعزة الملكية بارزة في عزة وحيه إلى أعزّة من خلقه ليعزز حكمه عليهم .

وبحكمته لم يوح إلى عامة المكلفين ، حيث القلوب أوعية وخيرها أوعاها ، فلا وحي إلّا إلى أوعاها ، ثم بحكمته أوحى إلى كل قلب أوعى قَدَر وعيه وحاجة الموحى لهم ، المرسل إليهم أم ماذا ؟

ولأن « له ما في السماوات وما في الأرض » اختصاصاً للملكية والمالكية الحقّة الحقيقية العامة للكون كله ، فهو هو الموحى لتدبيره كله تشريعاً كما هنا وتكويناً كما « وأوحى في كل سماء أمرها » (٤١ : ١٢)

وكل سماء تشمل فيما تشمل كل أرض من السبع ، والأمر الموحى في الكل يعم التدبير تكويناً وتشريعاً .

ولأنه « العلي » في عزته وحكمته وملكيته ومالكيته ، فلا ينال من دونه إلا ما منحهم ، فهم لا يملكون حياً إلا ما أوحى « كذلك يوحى . . . » .

ولأنه « العظيم » فيها وفي علوه فليعل وليعظم وحيه، وليعز وليحكم وحيه، وليملك ويسيطر وحيه على الموحى إليهم والموحى لهم .

هنالك تتقرر وحدة الوحي في أصله ، ووحدة مصدر الوحي ، فالموحى هو الله العزيز الحكيم الملك العلي العظيم ، ووحدة الموحى إليهم على مدار الزمن « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله . . . » الوحي المثلث الوجدوي ، قصة بعيدة المدى ، قرية الهدى ، ضاربة في أعماق الزمن وأطواءه ، متشابكة الحلقات وليست متشاكسة ، في مناهج ثابتة الأصول مهما اختلفت الفروع .

فالله واحد، والرسالة واحدة، والأمة واحدة : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون » (٢٣ : ٥٣) .

﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَخَطَّزْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥) .

إن لتفطر السماوات من فوقهن موقع في القيامة الكبرى بما يفطرها الله : « إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انشثرت . . . » (٨٢ : ٢) حيث العلي العظيم يقضي بذلك التفطر ، ومن قبلها ومنذ خلقت موقع للتفطر « تكاد » كما هنا ، وحين خلقها موقع حيث فطرت من المادة الأم :

« فاطر السماوات والارض » (٦ : ١٤) فقال لها وللارض أئتما طوعاً أو كرهاً قالتا اتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات . (٤ : ١٢) .

وتفطر السماوات حيث تكاد هو بين الواقعين : تعميراً وتدميراً ، ثم وهو بين العلو والعظمة الإلهية : « وهو العلي العظيم » وبين الإتحاذ من دونه ولياً : « والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم » كما « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً لداً . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً . إن كل من في السماوات والارض الا آبي الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدداً » (١٩ : ٩٤) .

والفطر هو الشق ، شقاً إلى الخلق كما شق السماوات والارض من المادة الأم .

والمادة الأم شقها لا من شيء إلا إرادته ، أو شقاً إلى الخراب « إذا السماء انشقت » فهناك فطر الإيجاد والتعمير ، وهنا فطر الإعدام والتدمير ، ويختص الأخير بالانفطار التفطر^(١) كما الأول بالفطر^(٢) حيث الأولان تقبل لفعل الفطر التدمير ، والأخير هو هو الفطر للإيجاد أو التعمير .

ثم و « تكاد السماوات » هنا قد تعني اقتراب الساعة فيها تعنيه من الحالة الكائنة بين فطرها وتفطرها ، وإن كانت لا تعني إلا الثانية في آيتها الثانية ، وكيف لا تكاد تنفطر من فوقهن ! والعظمة الإلهية من ناحية ، واتخاذ أولياء من دونه من أخرى ، تقتضي أن تنفطر قبل قيامتها ، لولا أن « الملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض » و « ان الله هو

(١) كما « السماء منفطر به » (٧٣ : ١٨)

(٢) ك « فاطر السماوات والارض » ١٢ : ١٠١ و ١٤ : ١٠ و ٣٥ : ١ و ٣٩ : ٤٦ و ٤٢ : ١١ .

الغفور الرحيم » « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى . « (١٦ : ٦١) « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة .. « (٣٥ : ٤٥) .

وكما للعظمة الإلهية- وأن دعوا للرحمن ولداً ومن دونه أولياء-موقعها في « تكاد السماوات يتفطرن » كذلك للوحي الإلهي المعلل بخماسية الأسماء الحسنی وأخراها « العظيم » أن يفطر القلوب ويقلبها غيرها ، فـ « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (٥٩ : ٢١) فيا لقلوبنا من قساوة لا تتخشع وتتصدع من خشية الله ! .

ولماذا هنا « يتفطرن من فوقهن » وفي مريم « يتفطرن » دون فوقهن ؟ علّه لان تفطرها في مريم « أن دعوا للرحمن ولداً » وهنا إضافة إليها ، العظمة الإلهية من فوقهن ، وعظمة الوحي تكويناً وتشريعاً من فوقهن « وأوحى في كل سماء أمرها » (٤١ : ١٢) ، شاملاً لسماء الدنيا حين تشمل أرضنا ، حيث الوحي قول ثقيل أيا كان وأيان « إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً » (٧٣ : ٥) فهاتان الفوقيتان مع « أن دعوا للرحمن ولداً » تسبب أن « تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن .. » !

ثم « من فوقهن » كما تعني فوقية العظمة والوحي الإلهي ، تعني كذلك نفس الفوقية السماوية أنها تتساقط بأجواءها وأجرامها .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾^(٦) .

إن ولاية التشريع والتكوين المستفادة من هذه الآيات الخمس وأشباهها في سائر القرآن ، هي خاصة بالله كسائر الولايات الإلهية ، ولا تعدوه إلى سواه ، فإنها ولاية ذاتية هي لزام ألوهيته وربوبيته ، ثم ولا يولي رسله

وأوليائه إلا ولاية بلاغ الشرع ، والأولوية في المرجعية الروحية السياسية ، كما يحددها سبحانه ويتخذهم أولياء لخلقهم ، فلا ولاية ذاتية أبداً كان لمن سواه ، ولا غيرها إلا بجعله .

فمن يتخذ من دون الله أولياء : ولاية إلهية من دون الله ، أم جعلية من دون إذن الله « الله حفيظ عليهم » على هؤلاء المتخذين فكرتهم وفعلتهم الخاطئة وسوف يحاسبهم عليها ، وعلى الأولياء الزور الطواغيت حيث ادعوا أو قبلوها ، وعلى الأولياء الأوثان وهؤلاء ، فالله حفيظ عليهم بولاية التكوين والتقدير ، فكيف يتخذون من دون الله أولياء ؟ « وما أنت عليهم (هؤلاء هؤلاء) بوكيل » : أن تمنع الطالب والمطلوب من فعلته وحالته وكالة تكوينية ، وإنما لك رسالة بلاغية عذراً أو نذراً .

فهنا « الله حفيظ عليهم » إنذار واحتجاج ما أخصرهما وأجملهما ، فالحفاظة الإلهية على من اتخذوا من دونه أولياء حفاظة أنفسية حيث هم في حفظ الله وإن يشاء يذره من دون حفظ فيتهدرون ، وحفاظة على أعمالهم السيئة حيث تشهد عليهم يوم يقوم الأشهاد . وهذا إنذار لأولاهم وأخراهم ، ثم هو حفيظ على المتخذين من دونه أولياء ، لولا حفظه لهم لم يظلوا في كونهم وكيانهم فكيف يتخذون أولياء ذاتياً من دون الله أنداداً ، أم جعلياً في سائر الولايات إلا التكوينية والتشريعية ، فالحفيظ عليهم كما يحفظ كونهم كذلك يحفظ كيانهم ، فولاياتهم غير الإلهية ليست إلا بإذن الله فكيف يتخذون من دون الله أولياء ؟ وإذا كانوا طواغيت جمع عليهم الإنذار والإحتجاج .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (٧) .

« وكذلك » البين المبين من آيات كما هنا وفي سائر القرآن « أوحينا

اليك قرآناً عربياً ، يعرب بفصيح آياته وبلغها لأعلى القمم عن أعلى القيم التي تقوم وتقيم المكلفين على صراط مستقيم ، واضحاً لا تعقيد فيه ولا ريب يعتريه « لتندر أم القرى ومن حولها » :

تري ما هي أم القرى ومن هم من حولها ؟

أم القرى هي مكة المكرمة^(١) وهل إن من حولها هي القرى العربية من شبه الجزيرة، حيث الحول هو القرب الدائر مدار الأصل ؟ أم وسائر القرى العربية من الجزيرة وسواها المتصلة بها ، المجاورة لها ؟ وعربية القرآن بمعنى اللغة تشمل العرب عامة من حول أم القرى أم البعيدة المنفصلة عنها ! أم ان حولها تشمل كل القرى في هذه المعمورة ؟ وكيف تشمل غير العربية منها ووحى القرآن عربياً لتندر أم القرى ومن حولها لا يحمل إنذار غير العربي ، وإن حل وشمل فلا اختصاص لإنذاره بقرى هذه المعمورة !

أم لا ذا ولا ذاك ولا .. فعربية القرآن لا تعني خصوص اللغة حتى تختص باصحابها ، وإنما تعني وضوحها بين اللغات وعلى حدّ تعبير باقر العلوم في تفسير « عربي مبين » : يبين الأكسن ولا تبينه الألسن - حيث يعرب دون تعقيد وقصور عن أعماق المعاني وأعضلها : (علم الله النازل إلى المكلفين أجمعين) بأوضح بيان وأجمله .

هنا لسان عربي مبين، وهناك لغة « وهذا لسان عربي مبين » (١٦ :

(١٠٣)

« نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » (٢٦ : ١٩٥) « فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً

(١) الدر المنثور ٣ : ٢٩ - اخرج ابن مردويه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : أم القرى مكة . اقول وتقر عليك احاديث بهذا المعنى تحت الأرقام ١ - ٢ و ٤ - في الصفحة الآتية .

لداً ، (١٩ : ٩٧) « فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » (٤٤ : ٥٨)
فاللسان هو لغة البيان واللغة أعم من البيان واللا بيان : « وما أرسلنا من
رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو
العزیز الحكيم » (١٤ : ٤) ولسان قومه ، غير لغة قومه ، وإنما ما يعرب
عن الحق دون أي خفاء ، لحد يفهمه كل مكلف حيث التعبير عربي مبین
واضح لاتعقيد فيه .

ولأن اللغة العربية أعرب اللغات وأوضحها ، لذلك سميت عربية ،
ثم الله أنزل هذا القرآن بأفصحها وأبلغها كما يفهمه كل متفهم ليكون
الإنذار والتبشير به شاملاً لا تبقي حجة ولا تذر .

فكما القرآن حكم عربي لا يختص بالعرب : « وكذلك أنزلناه حكماً
عربياً .. » (١٣ : ٣٧) : حكماً واضحاً لا تعقيد فيه تفهياً تعقلاً وتوافقاً
للعقل والفطرة والحياة ككل ، ثم وتطبيقاً على الطول التاريخي والعرض
الجغرافي ..

كذلك هو قرآن عربي لعلكم تعقلون وتعلمون : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً
لعلكم تعقلون » (١٢ : ٢) « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم
يعلمون » (٤١ : ٣) « قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون » (٣٩ :
٢٨) حيث لا عوج فيه تعبيراً وإعراباً عن الحق ، ولا معنوياً ولا في أية
ناحية من نواحي البلاغ .

كما وأن الإعراب إظهار الحالة الأدبية للكلمة ، والأعراب هم أهل
البدو الظاهرون المتكشفون حيث لا تظلمهم إلا السماء أم ماذا ؟ غير
البنیان في المدن - فـ « الأعراب أشد كفرةً ونفاقاً » (٩ : ٩٧) لا تعني من
يتكلم بهذه اللغة ، وإنما من يعيش في البوادي ، حيث البعد عن مراكز
التمدن الإسلامي يجعلهم بعيدين عن الإسلام فهم أشد كفرةً ونفاقاً وأجدر

الآ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

ثم « القرى » هي كافة المجتمعات من سائر المكلفين من الجنة والناس أجمعين أم من ذا ؟ في كافة المدن الأرضية^(١) والسمائية دون استثناء ، وأما هي مكة المكرمة زادها الله شرفاً .

ان الكعبة المشرفة هي أول بيت وضع للناس : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين » (٣ : ٩٦)^(٢) والله تعالى بك الأرض ومكّتها من مكة حيث حركها من حيث هي كنقطة أولى

(١) في تفسير البرهان ٤ : ١١٥ القمي قال قال : ام القرى مكة لأنها أول بقعة خلقها الله من الأرض لقوله : ان أول بيت وضع للناس ..

اقول : ان امية الرسول من جهات عدة منها انه من ام القرى، ومنها انه لم يقرأ ولم يكتب قبل النبوة ، وان كان أقرأ القراء وكتب الكتاب بعدها « ما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك اذا لارتاب المبطون » والروايات التي تكذب النسبة الاخيرة انما تعني بعد النبوة لا قبلها كما في تفسير البرهان ١ : ٥٤١ باسناده عن علي بن حسان عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : قلت له ان الناس يزعمون ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكتب ولا يقرأ ؟ فقال : كذبوا لعنهم الله أنى يكون ذلك وقد قال الله عز وجل : هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ... فكيف يعلمهم الكتاب والحكمة وليس يحسن ان يقرأ ويكتب ؟ قال : قلت فلم سمي الامي ! قال : نسب الى مكة وذلك قوله : لتنذر ام القرى ومن حولها - فام القرى مكة فليل : امي لذلك .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٥٧ عن تفسير علي بن ابراهيم القمي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر (عليه السلام) في قوله عز وجل « لتنذر ام القرى - مكة - ومن حولها : سائر الأرض ! اقول : وهذا بيان لأوسط المصاديق لـ « من حولها » كما فسرت باقرها « الطائف » في رواية أخرى رواها العياشي عن علي بن اسباط قال : قلت لأبي جعفر (عليهما السلام) لم سمي النبي الأمي ؟ قال : نسب الى مكة وذلك من قول الله : لتنذر ام القرى ومن حولها - وام القرى مكة ومن حولها الطائف (تفسير البرهان ٤ : ٥٤٠) وفي الدر المنثور ٣ : ٢٩ - اخرج جماعة عن ابن عباس في تفسير « من حولها » قال : يعني ما =

لحراكها^(١) : « والارض بعد ذلك دحاها » (٧٩ : ٣١) « والارض وما طحاها » (٩١ : ٦)^(٢) .

ثم الأرض هي ايضاً أم لسائر الكرات لسبقها في خلقها عليها
بمرحلتين : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً
أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في
كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز
العليم » (٤١ : ١٢) .

فمكة المكرمة من الناحية التكوينية هي أم القرى ، ثم وكذلك من
الناحية التشريعية حيث الشرعة الإسلامية هي أم الشرائع وتلك أطفالها
المتطفلة عنها وإن كانت قبلها ، فهي هي المركز الرئيسي للرسالات الإلهية
أولاً وأخيراً ، وهي الركيزة القوية المتينة الدائمة للرسالة الإسلامية طول
الزمان وعرض المكان ، ومن أمة الرسول أنه من أم القرى^(٣) وأن
رسالته أم الرسالات كلها ولكل القرى

مركزها في كل عصر

= حولها من القرى الى المشرق والمغرب .

(١) في عيون الاخبار والارشاد للديلمى ان شامياً سأل علياً (عليه السلام) عن مكة
المكرمة لم سميت مكة ؟ فقال (عليه السلام) : لأن الله مكَّ الأرض من تحتها اي
دحاها . وفي رواية اخرى عنه (عليه السلام) : فلما خلق الله الأرض دحاها من تحت
الكعبة ثم بسطها على الماء .

(٢) القمي عن الباقر (عليه السلام) قال : أم القرى مكة ، سميت أم القرى لأنها أول
بقعة خلقها الله عز وجل من الأرض لقوله عز وجل : ان اول بيت وضع للناس للذي
ببكة مباركاً ...

(٣) في تفسير البرهان ٤ : ١١٥ محمد بن الحسن الصفار عن احمد بن محمد عن البرقي
عن جعفر بن محمد الصيرفي قال : سألت ابا جعفر محمد بن علي الرضا (عليه السلام)
قلت له : لم سمي النبي الأمي - الى ان قال : وانما سمي الأمي لانه من اهل مكة ومكة =

ولان « القرى » جمع محلّ بلام الإستغراق ، فهي تستغرق القرى المكلفة بهذه الشريعة العالمية في كافة أنحاء العالم بأرضه وسماؤه ، « ومن حولها » لا تعني الحول القريب ، وإنما الحول من حيث التبعية الشرعية ، وهذا يتبع في حله ما تقرره الشريعة من حدود ، فـ « القرى » بجمعيتها الإستغراقية من ناحية ، والحول بكونه حول الأمّ من ناحية أخرى تدلان على هذه السعة العالمية في « من حولها » .

ومن المعروف والطبيعي أن من حول العاصمة في كل منطقة هم أتباع العاصمة وإن بعدوا عنها ، والأولاد هم حول الأم أياً كانوا ، فلا تعني الحول هنا وهناك المكان القريب من الأم والعاصمة ، وإنما التبعية للأصل مهما كان المكان قريباً أو بعيداً ، والرسالات الإلهية في القرى ليست إلا في أمها : « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا » (٢٨ : ٥٩)

فأم القرى هي العاصمة الوحيدة للرسالة الإسلامية العالمية - : رسالة إلى الناس كافة : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً . » (٣٤ : ٢٨) « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض ... » (٧ : ١٥٨) وليس الناس فحسب بل والجنة أيضاً : حيث تذكر مع الإنس أم وحدها في نطاق الرسالات الإلهية في عشرات من الآيات^(١) ثم ولا الجنة والناس فحسب بل والعالمين أجمعين :

= من أمهات القرى وذلك قول الله في كتابه : لتنذر أم القرى ومن حولها، وفيه عن القمي قال قال : أم القرى مكة سميت .

(١) ونماذج من هذه الآيات البيّنات كالتالية : « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ... » (٦ : ١٣٠) « ولقد فرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ... » (٧ : ١٧٩) « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ... » (١٧ : ٨٨) « وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم =

« تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » (٢٥ : ١)
 « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (٢١ : ١٠٧) « إن هو الا ذكر للعالمين .
 لمن شاء منكم أن يستقيم » (٨١ : ٢٨) فوحي القرآن ضارب إلى
 الأعماق في طول العالم وعرضه ، من حضر ومن بلغته دعوته أياً كان
 وأيان : « وأوحى اليّ هذا القرآن لأنذرکم به ومن بلغ » (٧ : ١٩) وأم
 القرى هي المركز الرئيسي والعاصمة الوحيدة الوطيدة الخالدة لهذه الرسالة
 والدعوة الاخيرة ، فالجنة والناس أجمعون ، والعالمون أجمعون أياً كانوا وأيان
 تشملهم هذه الدعوة العالمية دوغماً استثناء ، وهم كلهم من « من حولها » .

إذاً فآية أم القرى - وهي الآية الأم في التعريف بسعة هذه الرسالة -
 إنها تعتبر مكة المكرمة المركز الرئيسي للرسالة المحمدية (صلى الله عليه وآله
 وسلم) حيث صدرت وانتشرت عنها هذه الدعوة المباركة وعلى طول
 الزمن ، والقرى هي المجتمعات العالمية والمكلفة في شتى أرجاء الكون ، في
 هذه المعمورة أم سائر المعمورات في الأنجم ، وهي كلها « من حولها »
 حيث الحول تعني هنا ما يناسب عمومية القرى المستفادة من مستغرق الجمع
 فيها ، ولو أن « من حولها » يخص القريب منها دون الجمع ، لكانت القرى
 هي هذا البعض فقط لا الجمع ، فالمعنى : لتتذر أم بعض القرى ! ..

إذاً فدعوة الأم ورسالتها تشمل القرى كلها وإلا لم تكن من قراها ،
 والقرى هم العالمون أجمعون حيث الله ربهم أجمعين : « الحمد لله رب
 العالمين » (١ : ٣) إذاً فالخارجون عن هذه الدعوة إدعاءً وتعتاً هم
 خارجون عن الناس إلى النسناس ، وهم خارجون عن العالمين الأحياء ،

من الجن والانس انهم كانوا خاسرين » (٤١ : ٢٥) « واذا صرفنا اليك نفرأ من الجن
 يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين » (٤٦ :
 ٢٩) « قل اوحى الي انه استمع نفر منالجن فقالوا انا سمعنا قرأنا عجباً . يهدي إلى الرشـد
 فآمنابه .. » (٧٢ : ١) .

المتخلفون عن ربوبية الله ! وكما أن مكة أم القرى تكويناً وتشريعاً ، كذلك الرسول الأقدس وأخرى ، حيث القلوب قرى وأما ومركزها الأصيل عبر الرسائل وإلى يوم القيامة هو القلب المحمدي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهنا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يبدء بإنذار نفسه واصطناعه بالقرآن ، ثم سائر القلوب من سائر المكلفين ، خوضاً في أغوار البحار المتلاطمة من كافة المكلفين لينجي الغرقى : « يا أيها المزمّل . قم الليل . . ان لك في النهار سبحاً طويلاً » : فبقيام الليل والترتيل يعد نفسه نهراً للمسبح الطويل ! . .

ثم وهنالك شهادات كتابية تصدق ما شاهدنا في آية « أم القرى » ففي الأصل الانقلوسي من نبوت هيلد « مُحَمَّدٌ . . كَلِيلِيَا » : محمد هو الكل - في كله : « في رسالته ودعوته ، كما في صفاته أم ماذا من محمدياته ؟ .

وفي الأصل العبراني من فرع توراني : حَكِّي النبي « وَهَرِ عِسْتِي إِتْ هَغُويِمَ وَبَاثُو حَمْدُتْ كَالْ هَغُويِمَ وَمَلُوتِي إِتْ هَيْتْ هَزْه كَابُودْ آمَرْ يَهُوَاهُ صِبَاثُوتْ » :

اهيُج كل الامم ويأتي محمد كل الامم ومرغوبهم واملاً هذا البيت من الجلال هذا امر رب الجنود .

وفي انجيل برنابا الحوارية : (٩٦ : ٨) أجاب يسوع : لعمر الله الذي تقف بحضرتي نفسي إني لست مسياً الذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلاً : بنسلك أبارك كل قبائل الأرض .

وبركة هذا النسل المبارك مصرحة في الأصل العبراني من التورات : تكوين (١٧ : ٢٠) « وَلِشَمْعِيلَ شِمْعَتِيخَا هَيْتْ بَرُخْتِي أَوْتُو وَهِيْفَرْتِي أَوْتُو وَهِيْرَبْتِي أَوْتُو يَمْتُدْ يَمْتُدْ شِنِيمَ عَاسَارَ نَسِيْتِمَ يُولَدْ وَنَتِيُو لَغُويَ غَادُلْ » : « ولاسماعيل سمعته : (إبراهيم) ها أنا أباركه كثيراً وأثمه كثيراً وأثمره

كثيراً وأرفع مقامه كثيراً بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) واثنى عشر إماماً يلداهم إسماعيل وأجعله أمة كبيرة . . أبارك العالم بهم ^(١)

« لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير » ^(٢) عطف الإنذار الثاني إلى الأول يوحى بأنه غيره، فما هو الإنذار بغير يوم الجمع ؟ إن هنا نذارة ليوم الفرق الدنيا وأخرى ليوم الجمع الأخرى وكما البشارة تعمهما ، إذ ليس الدين - فقط - ينحو نحو الإصلاح للأخرى حتى يختص إنذاره وتبشير به ، بل وينتدء بالأولى وينتهي إلى الأخرى، حيث الأولى مزرعة الأخرى، وانتفاع الزارع أو خسارانه يعمهما ، . . وقد يعني الإنذار الأول - فيما يعني - إنذار المبدء قبل المعاد ، أو أن الإنذار الأول يعمهما كليهما، فلأن الثاني أهمهما يختص هو بالذكر دون الأول ، حيث النكبات الدنيوية تتحمل بطيئات شهواتها الحاضرة ، ولكنها الأخرى صارمة لا تحمل بطيئات شهوات ، فالإنذار لها هي هي الأصل وللأولى الفرع .

ثم الجمع « يوم الجمع » يحوي جموعاً عدة : جمعاً لأجزاء كل إنسان وعظامه : « أحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه » (٧٥ : ٣) وجمعاً للخلائق المكلفين : « هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين » (٧٧ : ٣٨) وجمعاً بين الرسل الأشهاد والمرسل إليهم المشهود عليهم : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم » (٥ : ١٠٩) ولكي يفتح ويحكم بينهم : « قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم » (٣٤ : ٢٦) ثم جمعاً لأصحاب الجحيم في الجحيم : « إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً » (٤ : ١٤) وكما يجمع أصحاب الجنة فيها : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار » (٣٣ :

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد تفاصيل هذه البشارات .

وبالجمع بين العمال وأعمالهم ، بينهم وبين كتبهم وشهودهم ، حتى يحقق الجمع بين كل عمل وجزاءه . . : « لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير » .

ثم الإنذار كت تحقيق وإن كان مرحلياً من حيث التطبيق منذ العشيرة الأقربين : « وأنذر عشيرتك الأقربين » (٦ : ٢١٤) إلى قوم لُذ وهم الألداء من العرب : « لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لُذاً » (١٩ : ٩٧) وإلى من بلغ : « لأنذرکم به من بلغ » (٦ : ١٩) ثم إلى العالمين أجمعين : « تبارك الذي نزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً » (٢٥ : ١) .

ولكنها الإنذار بالقرآن ككل ليس مرحلياً ، بل « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم » (٦ : ٥١) « لتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به » (٦ : ٩٢) . والمؤمن بالآخرة لا يُحصر في أم القرى والقريبة منها ، بل ويعم كل من سبيله الإيمان أيًا كان وأيان .

ثم في المرحلة أيضاً إنما يترحل الإنذار من عشيرته إلى قومه اللد أياً كانوا ، لا في القرى المجاورة لأم القرى ، فلا العشيرة الأقربون محصورون فيها ، ولا القوم اللد مخصوص بها ، فالأقرب الأخرى في الإنذار هم الأقربون قرابة لا مكاناً ، ثم الألداء الأشداء تعتاً ومكانة لا مكاناً ، ولا تصريحاً أو إشارة في القرآن أن الأقرب مكاناً أخرى وأقرب في الدعوة .

ثم ولإنذار مرحلياً وسواء - كما سبق - موضع في الأولى وآخر في الأخرى كما في طيات آياته^(١) ثم وكذلك التبشير ولكن الإنذار يحتل الموقع

(١) والاكثريّة الساحقة من آياته تنحو منحى الأخرى لأنها أخرى وأكثر تأثيراً ، وقليل منها يخص الأولى وثالثة تعمها .

الأعلى والركيزة الأولى في الدعوات الرسالية، فإن حمله على التقوى أقوى من التبشير، فكثير هؤلاء الذين لا يهمهم ما يبشرون به من نفع ويهمهم ما ينذرون به من ضرر، ودفع الضرر أولى من جلب النفع، والجمع أخرى !

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَةِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾^(٨).

ماذا تعني وحدة الأمة المستحيلة بما توحيه « لو » ؟ أوحدة تشريعية في شرعة وهي الشرعة الكاملة الأخيرة أن يكلف المكلفين عامة بهذه الشرعة منذ آدم إلى الخاتم ؟ فـ « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (٥ : ٤٨) .

أم وحدة في ضلالة كما هم قبل البعثة : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه فهدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » (٢ : ٢١٣) أم وحدة في هداهم تكوينياً « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » (٦ : ٣٥) جمعاً لهم على الهدى والعصمة^(١) دون اختيار ؟ فهو انتقاص حيث الإختيار في الإهتمام إكمال وليس كذلك الإضطرار .

أم يجمع من لا يهتدي بسوء الإختيار إلى من يهتدي بحسن الإختيار ، أن يجبر الاولين على الهدى ؟ وهذه تسوية بين المتقين والفجار ! : « أم نجعل

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٥٩ في تفسير علي بن ابراهيم في الآية قال : لو شاء ان يجعلهم كلهم معصومين مثل الملائكة بلا طباع لقدر عليه ولكن يدخل من يشاء في رحمته ..

المتقين كالنصارى» (٣٨ : ٢٨) ثم ولا اكراه على الهدى «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً فأنْتَ تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين . وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون» (١٠ : ١٠٠) «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» (١١ : ١١٨) «وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين» (١٦ : ٩) .

أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم» (٤٥ : ٢١) . وحدة في الثواب أو العقاب في الأخرى على اختلاف في الهدى والضلال في أولاهم ! أم يُجبر الكلُّ على الضلال حتى من يختار الهدى لولا الإجبار ، فهذا إدخال من النور إلى الظلمات لمن يهتدي لولا الإجبار ، ثم تسوية ظالمة بين المهتدي والضال ، وكذلك أية تسوية بين الناس تكويناً أو تشريعاً في ضلال أو في هدى في الأولى أو الأخرى ، كل ذلك بين انتقاص وظلم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وقد تعني آيتنا إحالة كافة هذه الوحدات .

ولماذا قوبلت «الظالمون» بـ «من يشاء» دون «العادلون» ؟ .. لأن «من يشاء» يعم العادلين والقاصرين وغير المكلفين أو يسامح عنهم من الأطفال والمجانين والمستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، «فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً» فالعذاب يخص الظالمين ، والرحمة تعم العادلين وغير المكلفين والذين يحق العفو عنهم منهم وقد سبقت رحمته غضبه ، فالغضب قضية العدل وهو محدد بحدود الظلم ما لم يصح العفو ، والرحمة قضية اللطف ، فهي واسعة ما لم تناف العدل .

ثم ولـ «من يشاء» هنا إيحاء آخر هو أن الرحمة الإلهية لأهلها ليست

مستحقة لهم واجبة على الله إلا أن يشاء الله وقد شائها ووعد: « كتب على نفسه الرحمة . . » ولكننا العدل مستحق لأهله واجب على الله بربوبيته ، دون إلزام من فوق إذ ليس عليه فوق ، وإنما بالوحيته وربوبيته :

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ

الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ

رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ

أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ

الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ

الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

* شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا

الَّذِينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ
إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ
يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ
بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ
مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ
بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ
كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ
يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَحْتُهُمْ دَاخِضَةٌ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٩).

تعني الولاية هنا - بما توحيه « هو الولي » - الولاية الخاصة الإلهية في التكوين والتدبير والتشريع أم ماذا ؟ فهذه الآية أخص من الأولى « والذين اتخذوا من دونه أولياء .. » وقد يكون التكرار هنا توطئة لبيان مصاديق هذه الولايات الخاصة من أن الله هو المرجع في كافة الاختلافات ، وأنه فاطر الأرض والسموات وليس كمثلته شيء في الأفعال والذات والصفات ، وأن له مقاليد الأرض والسموات يسطر ويقدر ، وأنه الشارع من الدين شرائع ..

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾^(١٠).

إن الاختلاف - أيًا كان - ومن أي يوم وآياتي لا مرجع فيه إلا الله ، فالشيء المختلف فيه يعم كل شيء ، فإن « من شيء » توحى باستغراق ، و « فحكمه إلى الله » تحصر الحكم الفصل فيه في الله وتحسره عن سوى الله : « إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبد إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١٢ : ٤٠) اللهم إلا رسول الله وأوليه الذي يحمل أمره عن الله : « يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً » (٥٩ : ٤) فالقاعدة في مثلث الطاعة هذه هي طاعة الله ، ثم الرسول وقد فصلت طاعته عن طاعته انفصال الفرع عن الأصل^(١) ووحد هذا الفرع مع فرعه « أولى الأمر

(١) كما في الآيات التالية : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا » (٥ : ٩٢) « قل =

منكم » كما وُحِّد ثانية في الرد إلى الرسول ، ثم جمعت الثلاث في طاعة الله « إن كنتم تؤمنون بالله ... » .

فهنا تُعنى من طاعة الله طاعته في كتابه، ومن طاعة الرسول طاعته في سنته ، ومن طاعة أولى الأمر طاعتهم في حمل السنة كما حَمَلُوا .

وقد توَّحَّد طاعة الرسول مع الله حين تعني مطلق الطاعة : « قل أطيعوا الله والرسول ... » (٣ : ٣٢)^(١) « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٤ : ٨) كما قد يوحد الحكماء : « وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون » (٢٤ : ٤٨) .

والحكم في آيتنا كأضرابها يعم التكويني والتشريعي في الأولى وفي الأخرى ، فكما الله هو الحاكم يوم الدنيا ، كذلك هو الحاكم يوم الدين : « أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » (٣٩ : ٤٦) « فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » (٢ : ١١٣) « والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » (١٣ : ٤١)^(٢) .

إذاً فلا حكم في أي خلاف إلا لله ، يستفاد متناً من كتاب الله ، وهامشاً وشرحاً من سنة رسول الله ، ثم لا حكم لسواه ، حيث الرجوع

= أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » (٤٧ : ٣٣) « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » (٦٤ : ١٢) « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم » (٢٤ : ٥٤) .
(١) كما في التالية أيضاً : « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » (٣ : ١٣٢) « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتشعلوا » (٢٠ : ٩٠) « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » (٢٤ : ٥٢) .

(٢) نور الثقلين عن تفسير القمي « وما اختلفتم فيه من شيء » من المذاهب واخترتم لانفسكم من الاديان فحكم ذلك كله الى الله يوم القيامة .

فيما اختلف فيه إلى غير الله لا يزيل الخلاف ، وقد يزيد خلافاً على خلاف ، حيث الحيلة العلمية والحكمة العالية والرحمة الواسعة خاصة بالله ، وهي هي التي تزيل الخلافات .

فالرجوع إلى القياسات والإستحسانات أم ماذا مما لم يأمر به الله أو نهى عنه رجوع إلى آجن ماجن ، كما الرجوع إلى من لا يتبني من الفقهاء في حكمه كتاب الله وسنة رسول الله رجوع إلى الطاغوت ، فلا حكم إلا لله ! .

إن كتاب الله هو المرجع الرئيسي في أي حكم وفي أية خلافاً ، يُتبنى في كل شارد ووارد ، يعرف به الغث عن السمين والخائن عن الأمين ، فما وافق كتاب الله هو وارد وما خالفه فهو وارد .

« ذلكم الله ربّي » ذلك المولى في التكوين وفي التشريع وفي كل شيء « الله » لكل شيء « ربّي » حيث رباني ما لم يرب أحداً من العالمين « عليه » لا سواه « توكلت » في أموري كلها « وإليه » لا سواه « أنيب » : رجوعاً إليه عما سواه ، وتوكلاً عليه دون من سواه ، توكلاً وإنابة في التكوين والتشريع سواء .

هذه الآية بما قبلها وما بعدها إلى الآية (١٦) تستعرض جذور الولاية الإلهية في التكوين والتشريع ، وأنه لا ند له ولا ضدّ فيها وفي سائر شؤون الألوهية ، اللهم إلا الدعوة إلى الله فهنا الولاية الشرعية لمن يصطفيه من عباده .

﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١١) .

آية عديمة النظير من محكم القرآن ترجع إليها ما تشابه منه في كيان

الألوهية ، تستأصل كل مماثلة بين الله وسواه ، في ذات او صفات او افعال ، تُبين خلقه عنه مباينة كينونة في ذات وصفة ، وأنه باين عن خلقه وخلقه باين عنه ، لا هو في خلقه ولا خلقه فيه .

فالمثل هو الشبيه ايّ كان وإن بعيداً شبيهاً واحداً في مليارات او اللآنهايات . فعالم الخلق أشباه في اشباح مهما اختلفت الصور والماهيات ، حيث المادة لزامها الذاتي التركّب والتغير والحركة والزمان ايّ كان وإيان ، والله مجرد عن المادة والماديات فلا يشبهها في ذوات او صفات ام ماذا إلا في مقام تحبير اللغات دون الحقيقة والذات ، فـ « سبحان من لا يُحد ولا يوصف ليس كمثله شيء وهو السميع البصير »^(١) « ليس كمثله

(١) نور الثقلين عن اصول الكافي سهل عن ابراهيم بن محمد الهمداني قال : كتبت الى الرجل (عليه السلام) ان من قبلنا من مواليك قد اختلفوا في التوحيد فمنهم من يقول جسم ومنهم من يقول صورة فكتب بخطه : سبحان ...

اقول : هنا العجب العجيب من التفسير الاثرية بين الفريقين ، من كثرة احاديث الشيعة الإمامية حول الآية كما نذكر طرفاً منها ، وقلة او عدم اثر من الاحاديث حول نفي المماثلة بين الله وخلق من السنة وهذا مما يحير العقول كيف لم يرووا ولا حديثاً واحداً يشابه آية نفي المثل عن الله تعالى ، سبحانه وتعالى عما يصفون !

وعن امير المؤمنين (عليه السلام) انه قال له رجل : اين المعبود ؟ فقال (عليه السلام) لا يقال له : اين ؟ لأنه أين الأينية ، ولا يقال له : كيف ؟ لأنه كيف الكيفية ، ولا يقال له : ما هو ؟ لأنه خلق الماهية . سبحانه من عظيم تاهت الفطن في تيار أمواج عظمتة وحصرت الأبواب عند ذكر ازيلته وتحيرت العقول في افلاك ملكوته .

وقال (عليه السلام) : اتقوا ان تمثلوا بالرب الذي لا مثل له او تشبهوه بخلق او تلقوا عليه الأوهام او تعملوا فيه الفكر وتضربوا له الأمثال او تنعتوه بنعوت المخلوقين فان لمن فعل ذلك ناراً .

وعن الإمام الرضا (عليه السلام) من شبه الله بخلق فهو مشرك ومن وصفه بالمكان فهو كافر ..

شيء» وان كان له مثل ، وكل شيء مثل له من أدنى وأعلى : « والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم » (١٦ : ٦) « وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » (٣٠ : ٢٧) فمثله مستحيل ذاتياً وجعلياً ، ومثله كافة الكائنات جعلياً على درجاتها وكما يعنيه الحديث القدسي (عبيدي أطعني حتى اجعلك مثلي ..)^(١) وهذا من المثل الأعلى الذي يحصل بالعبودية ، فمن المثل لله ما هو حاصل بأصل الخلق ، فإنه الآية . وفي كل شيء له آية تدل على أنه صانع ، ومنه ما يحصل في تكامل الخلق بما يسعى كالعبودية ، فإنها جوهرة كهنها الربوبية ، أن العبد يصل في مراتب العبودية والمعرفة إلى درجة يرى بفقره غنى الله ، وبجهله علم الله ، وبعجزه قدرة الله ، فالكنه المعرفي للعبودية عرفان الربوبية .

هذه الآية تنفي أية مماثلة بينه وبين خلقه إستغراقاً لهذا النفي دون إبقاء ، وقد يعني ما تعنيه « خارج عن الحدين حد التعطيل وحد التشبيه » : موجود لا كوجوداتنا ، قادر لا كقدراتنا ، عالم لا كعلومنا ، حي لا كحياتنا ، فالخلق بذاته وأفعاله وصفاته كله صفات سلبية عن ذاته وأفعاله وصفاته تعالى ، فلا توجد ذاته ولا صفاته الثبوتية في خلقه أياً كان ، فـ « إذا كان الشيء من مشيئته فكان لا يشبه مكوّنه »^(٢) وعلى الخلق أن

= وعن علي بن أبي حمزة قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) سمعت هشام بن الحكم يروي عنكم أن الله جل وعز جسم صمدي نوري معرفته ضرورة يمن بها على من يشاء من خلقه ، فقال (عليه السلام) : سبحان من لا يعلم كيف هو الا هو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير لا يُحَد ولا يُحَس ولا يُحَس ولا يُدركه الحواس ولا يحيط به شيء لا جسم ولا صورة ولا تحفيظ ولا تحديد .

- (١) فمن يقرأ « مثلي » فهو جاهل بمحكم القرآن ، ومن يتردد فيه وفي « مثلي » يتجاهل بمحكم القرآن واليكمل احاديث حول عدم التشبيه ماضية وآتية
(٢) مصباح الشريعة خطبة مروية عن امير المؤمنين (عليه السلام) .

يعرفوا « ليس كمثله شيء » كما عليهم عرفان وجوده ووحدته - لعل شق يجمعها : فساد الخلق وإبطال الربوبية ، لو لم يُعرف بعدم المثل ^(١) ولا شيء فيه من جوهرية الله شيء ^(٢).

وترى أن الله شيء تنفى عنه مماثلة كل شيء ؟ . أجل إنه شيء لا كالأشياء : « قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم . . » (٦ : ١٩).

(١) نور الثقلين عن عيون اخبار الرضا (عليه السلام) في باب العلل التي ذكر الفضل بن شاذان في آخرها انه سمعها من الرضا (عليه السلام) مرة بعد مرة وشيئاً بعد شيء : فان قال : فلم وجب عليهم الإقرار بأنه ليس كمثله شيء ؟ قيل : العلل : منها ان يكونوا قاصدين نحوه بالعبادة والطاعة دون غيره غير مشتبه عليهم امر ربهم وصانعهم ورازقهم ، ومنها انهم لو لم يعلموا انه ليس كمثله شيء لم يدروا لعل ربهم وصانعهم هذه الاصنام ورازقهم هذه الاصنام التي نصبها لهم آباؤهم والشمس والقمر والنيران اذا كان جائزاً ان يكون عليهم مشتبه ، وكان يكون في ذلك الفساد وترك طاعته كلها وارتكاب معاصيه كلها على قدر ما يتناهى من اخبار هذه الارباب وامرها ونهيها ، ومنها انه لو لم يجب عليهم ان يعرفوا انه ليس كمثله شيء لجاز عندهم ان يجري عليه ما يجري على المخلوقين من العجز والجهل والتغير والزوال والفناء والكذب والإعتداء ومن جازت عليه هذه الاشياء لم يؤمن فناءه ولم يوثق بعدله ولم يحقق قوله وامره ونهيه ووعدته ووعيدته وثوابه وعقابه وفي ذلك فساد الخلق وإبطال الربوبية .

وفي البحار ٣ : ٢٨٧ عن الأماي للشيخ الطوسي بسند عن محمد بن سماعة قال : سأل بعض اصحابنا الصادق (عليه السلام) فقال : اخبرني اي الاعمال افضل ؟ قال : توحيدك لربك ، قال : فما اعظم الذنوب ؟ قال : تشبيهك الخالقك .

(٢) البحار ٣ : ٣٩٢ عن رجال الكشي بسند عن يونس بن بهمن قال قال لي يونس : اكتب الى ابي الحسن (عليه السلام) فاسأله عن آدم هل فيه من جوهرية الله شيء ؟ قال : فكتب اليه فاجاب (عليه السلام) : هذه المسألة مسألة رجل على غير السنة ، فقلت ليونس فقال : لا يسمع ذا اصحابنا فيبرؤون منك ، قال : قلت ليونس يبرؤون مني او منك ؟!

إنه شيءٌ بحقيقة الشيئية وخلقه شيءٌ بمجازها اللاحقيقية ، والشيءُ الله-هو لا سواء-خالق للشيء المألوه: « قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » (١٣ : ١٤) إذا يجوز أن يقال الله شيءٌ، أن تخرجه عن الحدين حد التشبيه وحد التعطيل^(١) أو ترى إذا كان الله شيئاً لا كالأشياء، فهل يصح القول (إنه جسم لا كالأجسام)^(٢) أقول : كلا ! حيث الشيء منه جسم ومنه مجرد عن الجسم ، فهو شيءٌ لا كالأشياء يعني شيءٌ مجرد

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٦١ ح ٢٩ عن التوحيد باسناده الى الحسين بن سعيد قال : سأل ابو جعفر (عليه السلام) يجوز ان يقال الله انه شيء ؟ فقال : نعم تخرجه ...
(٢) البحار ٣ : ٢٩٢ عن ابي الصديق ابن الوليد عن الصفار عن ابن معروف عن علي بن مهزيار قال : كتبت الى ابي جعفر الثاني (عليه السلام) جعلت فداك اصلي خلف من يقول بالجسم .. فكتب : لا تصلوا خلفهم ولا تعطوهم من الزكاة وابروا منهم براً الله منهم .

وفيه ٣٠٢ ح ٣٧ باسناده عن محمد بن حكيم قال وصفت لابي ابراهيم (عليه السلام) قول هشام الجواليقي وحكى له قول هشام بن الحكم انه جسم فقال : ان الله لا يشبه شيء ، اي فحش او خناء اعظم من قول من يصف خالق الاشياء بجسم او صورة او بخلقة او بتحديد واعضاء تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وفيه ٣٠٥ ح ٤٣ عن عبد الملك بن هشام الخياط قال قلت لابي الحسن الرضا (عليه السلام) اسألك جعلني الله فداك قال (عليه السلام) : سل يا جلي عماذا تسألني فقلت جعلت فداك زعم هشام بن سالم ان الله عز وجل صورة وان آدم خلق على مثال الرب فيصف هذا ويصف هذا أومات الى جانبي وشعر رأسي وزعم يونس مولى آل يقطين وهشام بن الحكم ان الله شيء لا كالأشياء وان الأشياء بائنة منه وانه بائن من الأشياء وزعموا ان اثبات الشيء ان يقال : جسم فهو جسم لا كالأجسام شيء لا كالأشياء ثابت موجود غير مفقود ولا معدوم خارج عن الحدين حد الابطال وحد التشبيه فباي القولين اقول ؟ قال : فقال ابو عبد الله (عليه السلام) اراد هذا الاثبات وهذا شبه ربه تعالى بمخلوق تعالى الله الذي ليس له شبه ولا مثل ولا عدل ولا نظير ولا هو بصفة المخلوقين لا تقل بمثل ما قال هشام بن سالم وقل بما قال مولى آل يقطين وصاحبه ...

سرمدي لا كالأشياء المادية الحادثة ، ولكننا الجسم أياً كان يشبه سائر الأجسام في الجسمانية تركيباً وتغيراً وحركة وزماناً ، وإن اختلف عنها في العوارض غير الأولية ، فـ « جسم لا كالأجسام » لا تنفي عنه المماثلة في أصل الجسمانية وإنما في البعض من ماهياتها .

ثم ترى لماذا « كمثله » لا « مثله » ؟ فهل إن الكاف زائدة ؟ ولا زائدة على المثل في القرآن البالغ آياته (٧٥) وإن كانت على المثل في (١٣) من (٦٣) حيث المعنيان يختلفان ! فهذه قولة زائدة ان الكاف هنا زائدة ! .

أم تعني ما تعنيه الوارد على المثل من المشابهة ؟ إذا فهي تعني نفي أية مشابهة عن مثله تعالى لا عنه نفسه ، إثباتاً لنِدِّ له مثله ، ونفياً عن مماثلة أي شيء لمثله ! وقد يجاب ان هناك حقيقة وافتراساً ، فالحقيقة هي انتفاء المشابهة في هذا البين ، والإفتراس أنه لو كان له مثل فلا مثل لمثله ، ولكنه ليس له مثل ، مبالغة في انتفاء المثل ، حال أنه لو كان له مثل واحد لجاز تعدد الأمثال ، والآية في نفيها كمثله تحيل هذا الجائز على افتراض أن يكون له مثل (١) .

أو أن الكاف تأكيد من وجه آخر لنفي المثل ، فـ « ليس مثله شيء » إنما تنفي واقع المماثلة ، التي قد يظن أنها المماثلة التامة فلا تنفي غيرها ، وموقف الكاف استئصال أية مماثلة بينه وبين كل شيء ، أن لا مثيل له ولا ناقصاً كواحد أو كسر لغير النهاية في مليارات أو اللآنهايات من كيانه سبحانه .

وعلى الجمع بين الوجهين أجمل ، مع العلم أن الكاف ليست زائدة على أية حال .

(١) كما يقال فلان لا مثيل لظله وان لم يكن له ظلٌ نفياً مبالغاً لأية مماثلة ، مستاصلاً كافة جذورها .

وضمير الغائب في « كمثلته » وإن كان راجعاً إلى الذات ، ولكنه ذات فاطر الأرض والسموات بما فطر وجعل وذرء ، فكما ليس كمثلته شيء في ذاته كذلك ليس كمثلته شيء في صفاته ذاتية وفعلية ، فنفي المماثلة عن ذاته وفعاله ، نفى مضاعف عن صفات ذاته ، فصفات الذات هي عين الذات ، فهي إذاً في حكم الذات ، وصفات الفعل صادرة عن صفات الذات ، فنفي المماثلة فيها نفى - بأحرى - عن صفات الذات .

« فسبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين » : سبحانه عما يصفون من صفات لم يصف به نفسه ، وسبحانه من صفات وصف به نفسه وهم يعنون بها مثل ما يعنون في أنفسهم « إلا عباد الله المخلصين » حيث يصفونه بما وصف به نفسه ، قاصدين جهة السلب المعلومة ، وتاركين جهة الإثبات المجهولة ، فهم يسبحونه بحمده دون أن يحمده ناظرين إلى جهات الإثبات بالحيلة أو الإشارة العلمية ، فليس للخلق من صفات الله الثبوتية إلا أنه « خارج عن الحدين وحد التعطيل وحد التشبيه » . ف « للناس في التوحيد ثلاثة مذاهب : نفى وتشبيه وإثبات بغير تشبيه ، فمذهب النفي لا يجوز ، ومذهب التشبيه لا يجوز لأن الله لا يشبهه شيء ، والسبيل في الطريق الثالثة : إثبات بلا تشبيه »^(١) : « خارج عن الحدين حد التعطيل وحد التشبيه » .

ف « لا له مثل فيعرف بمثله »^(٢) حيث « حد الأشياء كلها عند خلقه إياها إبانة لها من شبهه وإبانة له من شبهها »^(٣) ف « لا يخطر ببال أولى الروايات خاطرة من تقدير جلال عزته لبعده من أن يكون في قوى المحدودين لأنه خلاف خلقه »^(٤) أنه « غير معقول ولا محدود ، فما وقع

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٦١ ح ٢٨ من كتاب التوحيد بإسناده إلى محمد بن عيسى بن عبيد الله أنه قال قال الرضا (عليه السلام) : ..

(٢ - ٣ - ٤) المصدر عن كتاب التوحيد خطب ثلاث لعلي (عليه السلام) .

وهمك عليه من شيء فهو خلافه لا يشبهه شيء ولا تدركه الأوهام كيف تدركه الأوهام وهو خلاف ما يُعقل وخلاف ما يُتصور في الأوهام إنما يتوهم شيء غير معقول ولا محدود^(١).

فالقول إن لنا وجوداً كما الله موجود ، فهذه مماثلة في الذات ، ثم لنا صفات العلم والقدرة والحياة كما الله ، ثم لنا أفعال كما الله أفعال ، مهما اختلف الخلق عن الخالق في الكمال والنقص ، إلا أن المماثلة كائنة وإن في شيء من ذات أو صفات أو أفعال ؟ إنه هُراء جارقة وهرطقة خارقة !

حيث إن هذه مماثلة في التعبير ، وأما المعبر عنه هنا وهناك ففي غاية المباينة ، فلا يُعنى من « الله واحد » إلا أنه أحدي المعنى والإنسان واحد ثنوي المعنى : جسم وعرض وبدن وروح ، فإنما التشبيه في المعاني لا غير^(٢) كما لا يُعنى من « الله موجود » وجود كوجود الخلق فإنه تشبيه في الذات ، وإنما يُعنى : أنه ليس بمعدوم ، ثم لا نفهم من وجوده شيئاً ، وكذلك علمه وحياته وقدرته ، فلا نفهم منها إلا تنفي الجهل والموت والعجز ، لا النفي المطلق ، فلا تعني وجوده وصفاته فيما نفهم إلا أنه « خارج عن الحدين حد التعطيل وحد التشبيه » .

.. « وهو السميع البصير » : سميع لا بآلة بصير لا بأداة ، خارج عن تصرف الحالات « سميع لا بأذن ، بصير لا ببصر »^(٣).

(١) المصدر بإسناده إلى عبد الرحمن بن أبي نجران قال : سألت أبا جعفر الثاني عن التوحيد فقلت : اتوهم شيئاً ؟ فقال : نعم غير معقول ..

(٢) البحار ٣٠ : ٣٠٤ في جواب سؤال اليهودي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

(٣) نور الثقلين ٤ : ٥٦١ ح ٣٠ في عيون الاخبار في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) من الاخبار في التوحيد حديث طويل يقول فيه (عليه السلام) : « قلنا إنه سميع لا يخفى عليه اصوات خلقه ما بين العرش إلى الثرى من الذرة إلى أكبر منها في برها =

فالأيات التي تحمل صفات إلهية تُشابهها صفات خلقية تتجرد عما
للخلق إلى ما يخص الخالق كالسميع - البصير - على العرش استوى أم
ماذا؟

وأما التي تحمل صفات إلهية خاصة فلا مثل لها في التعبير من صفات
الخلق ، كالسرمدى - الأزلي - عليمٌ قدير بكل شيء أم ماذا؟
وكذلك التي تحمل صفات خلقية لا تُشابه الإلهية ولو في التعبير
كالماشي - الراكض - الأكل - الشارب أم ماذا؟

إن الصفات من النوع الثاني والثالث لا تُشابه فيها من الخالق للخلق
ولا من الخلق للخالق ، وإنما النوع الأول هي المتشابهة من الصفات التي
لا بد من تجريدتها عما لا يليق بساحة الربوبية : فيا « إلهي تاهت أوهام
المتوهمين ، وقُصِرَ طَرَفُ الطارفين ، وتلاشت أوصاف الواصفين ، واضمحلت
أقاويل المبطلين عن الدرك لعجيب شأنك أو الوقوع بالبلوغ إلى علوك ،
فأنت الذي لا تتناهى ولم يقع عليك عيون بإشارة ولا عبارة ، هيئات ثم
هيئات يا أولي يا وحداني يا فرداني ، شمخت في العلو بعز الكبر ، وارتفعت
من وراء كل غورة ونهاية بجبروت الفخر »^(١).

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ
يَكُلُّ شَيْءٌ عَالِمٌ﴾^(٢)

= وبحرها ولا يشتبه عليه لغاتها فقلنا عند ذلك : سميع لا باذن ، وقلنا : انه بصير لا
يبصر ، لأنه يرى اثر الذرة السمحاء (السوداء) في الليلة الظلماء على الصخرة السوداء
ويرى ديبب النمل في الليلة الدجنة (الظلمة) ويرى مضارها ومنافعها واثر سفادها
وفراخها ونسلها فقلنا عند ذلك : انه بصير لا كبصر خلقه .
(١) البحار ٣ : ٢٩٨ - التوحيد للصدوق عن الإمام الحسن بن علي بن محمد (عليه
السلام) انه قال : إلهي ...

آية نفي المثل تتوسط آية المقاليد وآيات الولاية في التكوين والتشريع ، فالمماثلة المنفية لا تختص بالذات وصفات الذات ، بل وصفات الفعل كلها من ولاية وحكم وخلق ورزق أم ماذا ، فالمماثلة منفية عن صفات الفعل كما عن الذات وصفات الذات .

والقلد هو القتل فالقلاد آلة القتل وسببه ، فالمقاليد هي وسائل وآلات القتل والتطويق ، من علم وقدرة وحكمة محيطية بالسموات والأرض كأنها قلادة لعنق الكون لا تدعه يتلفت شماساً دون حراس واكتراس .

له هذه المقاليد لا لسواه . فـ « الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل . له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون » (٢٩ : ٦٣) . . . مقاليدها غيباً وشهادة كمفاتيحها : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر . . » (٦ : ٥٩) ومن فروع هذه الخطة الربانية « يسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم » . تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

ليس بسط الرزق وقدره بمحاولة زائدة أو ناقصة منا فحسب ، ولا جزافاً دونما حكمة من الله ، فرب محاول كثيراً لا يُسط في رزقه ، ورب محاول قليلاً أو معاقل يرزق كثيراً ، وإن كان يُرزق كل قدر سعيه ، ولكن الرزق المبسوط هو فوق قدره ، ومن قدر عليه رزقه يُوتاه قدر سعيه ، أو وأقل منه حين تقتضي الحكمة ، فلا تسوية في الرزق مهما كان السعي سواء أو لا سواء : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير » (٤٢ : ٣٧) فالله يقبض لحكمة ويبسط لحكمة : « والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » (٢ : ٤٥) « الله يسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع » (١٣ : ٣٦) « أو لم يروا أن الله يسط الرزق لمن يشاء

ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ، (٣٠ : ٣٧) « قل إن ربي يسط
الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، (٣٤ : ٣٦) و
« إنه بكل شيء عليم » :

فمحاولة التسوية التامة وإزالة الطبقة المالية أم ماذا ، إضافة إلى أنها
خلاف العدل حيث الاستعدادات فالمساعي فالاستحقاقات ليست على
سواء ، إنها خلاف الإرادة والحكمة الإلهية فلا تكون ! .

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا
وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى
الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ
يُنِيبُ ﴾ (١٣).

هذه الآية توحد الدين الحق وتحمس الشرائع إليه ، وفي الحق إنها
تحقق حقائق عدة عديمة النظير أو قليلته في الذكر الحكيم .

منها أن دين الله واحد والشرائع إليه خمس ، وقد توحىه « ... لكل
جعلنا منكم ^(١) شرعة ومنهاجاً . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن
ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما
كنتم فيه تختلفون » (٥ : ٥٤) ^(٢) وقد يعبر عن الدين بالأمر حيث الدين

(١) « منكم » هنا كافة المكلفين طوال تاريخ الرسالات لا الأمة الإسلامية إذ ليست لها
إلا شرعة واحدة هي الاسلام .

(٢) ان الدنيا دار بلاء وابتلاء والدين ابتلاء ، واختلاف الشرعة ابتلاء ، وعلى المسلم
الله في هذا البين ان يستسلم لشرعة الله دون ان يتأقل الى ما تعود عليه من شرعة عنصرية
أو إقليمية أم ماذا ! « فاستبقوا الخيرات » وهي شرعة الله الجديدة بعد التي مضت ،
استبقوا في الحصول عليها تسابقاً في تصديقها دون تباطؤ ، كما وهي داخل الشرعة ان
تسابقوا في تعلم خيراتها والتأدب بها والتخلق والتطبيق ونشرها ، « الى الله مرجعكم =

هو الطاعة وهي إلتزام الأمر : « وآتيناهم بنيات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون . ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » (٤٥ : ١٨) كما وفيما يهدد وينذّر بالمشرّكين يربط آية شرعة من الدين بإذن الله : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ... » (٤٢ : ٢١) . وفي آية الشرعة تشريف هؤلاء الخمسة من الرسل الذين دارت عليهم الرّحى وكما في آية الميثاق : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً » (٣٣ : ٨) وهؤلاء هم أولوا العزم من الرسل : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » (٤٦ : ٣٥)^(١).

وقد سبقت إلى هذه الوحدة الجزئية الإشارة في مطلع السورة : « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » إذ كانت إجابة إجمالياً إلى وحدة المصدر والصادر ووحدة المنهج والناهج والإتجاه في الدين كل الدين ، وهنا يفصل ما أجمله من قبل .

« شرع لكم من الدين ما وصى ... » توحى فيما توحى أن هذه الشرائع الخمس مثل بعض مصدر ، وكذلك صادراً ، في الجدور وكثير من الفروع ، فالشرعة الإسلامية هي شرعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى مهما اختلفت في ظواهر طقوس أم ماذا ؟ . حقيقة الأصل الواحد والنشأة

= جميعاً ، فالله واحد ودينه واحد والرسالة لهذا الدين الواحد واحدة وأنتم أمة واحدة مهما اختلفت الشرائع إلى هذا الدين الواحد .
(١) راجع ج ٢٦ من الفرقان ص ٧٣ تفسير آية أولي العزم .

الضاربة في أعماق الزمان واصوله، فكل من حملة الشرائع الخمس إمتداد رسالي لما سلفه، وكما أن الكل لهم شرائع من دين واحد، إذا فقيم يتقاتل ويتضارب أتباع كل شرعة مع الأخرى أو ومع شركائها في نفس الشرعة، ولماذا لا يتضام الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التي تحملها رسالة واحدة إلى إله واحد، وأخيراً لماذا لا يجتمع الكل تحت الراية المحمدية التي تشمل الدين كله والشرائع كلها؟ وهي هي الراية التي قدم لها ولرفعها الأربعة الأولون؟ ١.

فهناك دين وأمر واحد، وهنا وهناك شرعة وشرعة إلى خمس من الدين الأمر، فلأن الله واحد فدينه وأمره واحد ورسائله كذلك واحدة والمكلفون كذلك أمة واحدة لهذه الرسالة الواحدة مهما اختلفت قشور وصور من شرعة وجاء شرعة: «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم. وإن هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون. فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون. فذرهم في غمرتهم حتى حين» (٢٣: ٥٧).

إن الشرعة هي الطريقة الواضحة البينة حيث توصل متشرعها إلى غايته القصوى وهي دين الله وأمره، أمره والإهتمام به، وكما الدين هو الله ومن الله كذلك المشرع الشرعة إليه هو الله، وكما اختلاف العبادات أم ماذا صورياً في شرعة واحدة ينحو منحى هذه الشرعة، كذلك الاختلاف بين شرعة وأخرى لا ينحو إلا منحى دين واحد هو الأم للشرائع كلها، فمهما اختلفت الصور ضرورة أو ابتلاء فالجنود واحدة هي الطاعة لأمر الله.

وترى من هم المخاطبون في «شرع لكم» أ هم الحاضرون زمن الوحي؟ وهم شريحة قليلة من المكلفين طوال الزمن! وليست الشرعة منهم

إلى سواهم ! فإنما هي للعالمين ، إذا ف « كم » هم أم القرى ومن حولها دون اختصاص بالحاضرين ، وإنما الخطاب صادر من مصدر رب العالمين ، فوارد - كقضية حقيقية - مورد العالمين أجمعين ، ضارباً إلى اعماق الزمان والمكان أياً كان منذ بزوغه إلى يوم الدين .

ثم ولماذا « شرع » المفرد الغائب - لله - و « لكم » الحاضر للعالمين ؟ علّه لأن وحي الشرع غائب عن العالمين ، وأما العالمون فعليهم الحضور علمياً وعقائدياً وأخلاقياً وتطبيقياً للوحي الشرع ، فهو غائب الصدور وحاضر الوجود ، ثم ولأن في خطابهم دون الآخرين تشریفاً للأمة المحمدية على الأمم بما أن شرعتهم برسولهم أشرف من سواها وسواه .

وإذ توحى غيبة الفعل « شرع » بغياب الوحي ، فهل توحى « وصى » به نوحاً ؟ أن وحي الشرعة إلى نوح كان وحياً غائباً عنه ؟ فكيف إذا هو نبي ! .

إن الغيبة هنا غير الغيبة هناك ، ففي « شرع لكم » غيبة الوحي حقيقة إذ لم يوح القرآن إلى العالمين دوناً وسيطاً ، وأما في « ما وصى به نوحاً » فوحي حاضر إلى قلب نوح (عليه السلام) ولكنه لبساطته أمام سائر الوحي إلى الأربعة الآخرين ، وعلوّهم دونه ، كأنه من غائب الوحي ، كما وأن سائر الوحي وجاء الوحي إلى محمد كأنه ليس وحياً وإنما هو وصية حال أن الكل وحي حيث الكل أنبياء عظام عليهم دارت الرحي .

هنا نستوحي من مثلث التعبير : « ما وصى - والذي أوحينا إليك - وما وصينا » درجات ثلاث لوحي الشرعة إلى أولى العزم الخمسة ، فأوسطها أعلاها وأولاهها أدناها^(١) وآخرها أوسطها .

(١) تمتاز صيغة التعبير عن الوحي إلى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) على نوح بميزات =

في سائر القرآن حيث يذكر الوحي إلى أصحابه الخصوص إنما يؤتى بصيغة الوحي حيث المقصود أصله دون درجاته بالقياس إلى بعض : «إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبوراً . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً» (٤ : ١٦٣) حيث جمع بين سائر الوحي إلى سائر المرسلين لأن المقام مقام استعراض أصل الوحي إلى أصحابه لا التفاضل فيه .

وأما آية الشريعة حيث تبين الشرائع الخمس إلى أولي العزم الخمسة فهي تستعرض في إشارات مراتب الوحي ، فتعبر عن وحي القرآن بالوحي ، ثم عن سائر الوحي إلى الأربعة الآخرين بالوصية .

فالوصية هي التقدم إلى الغير بما يعمل مقترباً بوعظ ، وهي لم تستعمل في سائر القرآن في الوحي اللهم إلا بدائياً كما أوحى إلى المسيح في المهد صبيّاً : «وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً» (١٩ : ٣١) حيث المسيح لم يكن حينذاك نبياً وإنما نبيء بهذا ذوداً عن أمه الطاهرة وبشارة

• اربع :

- ١ - «الذي» بدلاً عن «ما» دلالة على ضخامة الوحي على محمد دونه على نوح .
 - ٢ - حضور الوحي في «إليك» وغيابه في «وصي» .
 - ٣ - جمعه في «أوحينا» وإفراده في «وصي» .
 - ٤ - لفظة الوحي في «أوحينا» والوصية في «وصي» .
- كما تمتاز صيغة الوحي على الثلاثة الآخرين عن نوح بالجمع والحضور في «أوحينا» وإن كان حضور «نا» أوفى من حضور «إليك» فيمتاز إذاً وحي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) على الثلاثة بـ «الذي» «أوحينا» «إليك» حضوران في أوحينا إليك إضافة إلى الوحي والذي .

بنبوته الآتية ، إذا فهذه الوصية كانت وحياً قبل الرسالة ، وعلها كما أوحى إلى أم موسى أم ماذا ؟ .

هذا ! ثم اللهم إلا آيتنا هذه حيث قارنت بين الوحي على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) - وهو في أعلى القمم - وبين الوحي إلى سائر أولي العزم من الرسل ، فعبرت عن الأول بالوحي « الذي أوحينا » وعن الثاني بالوصية « وصى - وصينا » إجماعاً بمدى البون بين الوحيين ، وكما عبر عن الوحي على أولهم « نوح » (عليه السلام) بالمفرد الغائب وعن الآخرين بالجمع الحاضر إجماعاً بالبون بين هذين أيضاً كما بينهما وبين الأول .

« شرع لكم . . أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » إنه ما شرع هذه الخمس حتى تشجعوا متفرقين ، وإنما « أن اقيموا الدين » بكل شرعة في دورها « ولا تتفرقوا فيه » ف « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً . . ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات . . » (٥ : ٥٤) فلكل شرعة دور يجب على المكلفين كافة إتباع الشرعة الحاضرة ، لا متابعة الغابرة تعوداً عليها أو تعصباً عنصرياً أم ماذا ؟ فإن إقامة الدين في كل دور هي إقامة طاعة الله في أمره الحاضر ، في شرعته الحاضرة ، فالتصليب على الغابرة عصيان للأمر وتضييع للدين .

فالتفرق في الدين : إلى هود ونصارى ومسلمين راحة للمشركين ، حيث يرونا أمثالهم في تفرق الدين ، متضادين متفرقين أيادي سبا كما هم ، و « كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » من وحدة الدين !

وترى المخاطبون في « اقيموا الدين » هم المسلمون ؟ وهم مسلمون لا يتفرقون ! أم هم عامة المكلفين ؟ فإقامتهم للدين أن يقيموه في شرعته ، أن يتبع الكل في كل دور شرعته الواحدة ، فالترسب على شرعة سابقة نكراناً للأحققة تضييع للدين الأمر والطاعة ، فإنها الآن في الشرعة الحاضرة دون

الغابرة ف « إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين اوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » (٣ : ١٩) وقضية التسليم لأمر الله وطاعته السليمة هي الإجتماع على شرعة حاضرة للدين دون اختلاف .

فليس إقامة الدين في إقامة أصوله، والفروع متشجرة ، حيث الدين يعم الأصول والفروع ، فعلى المكلفين عامة أن يقيموا الدين كله في الشرعة الحاضرة : أن يتضام الجميع تحت راية واحدة : نوح ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد صلوات الله عليهم اجمعين ، ولا يتفرقوا في الدين ، حيث التفرق في الشرائع تفرق في الدين الطاعة الى المعصية .

« كبر على المشركين ما تدعوهم اليه » يا محمد ! من وحدة الدين ودينك الموحد بين صفوف المكلفين ، سواء أكانوا مشركين وثنيين أم كتابيين متحيزين : « .. ولا تكونوا من المشركين . الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون » (٣٠ : ٣٢) .

كبر على المشركين الأولين أن ينزل عليك القرآن ولا ينزل على رجل من القريتين عظيم ! كبر عليهم ان ينتهي سلطان الشرك المفرق الى سلطان الإسلام الموحد ! : « اجعل الآلهة الها واحداً إن هذا لشيء عجاب » (٨٨ : ٥) .

كبر عليهم القول : إن آباءهم ماتوا على ضلالة الجاهلية فأخذتهم العزة بالإثم !

ثم كبر على المشركين الآخرين ، على المتعصبين المتعتين من أهل الكتاب، أن ينزل هذا الدين على رجل إسماعيلي ، لا اسرائيلي ، فتضمحل السلطات الاسرائيلية العنصرية ، والسلطات المسيحية القومية أم ماذا .

ولكن رغم اولاء وهؤلاء وأضرابهم « الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي

إليه من ينيب» وقد اجتنبى محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) واصطفاه لهذه الرسالة السامية ، وليفتح الطريق الأخيرة والشرعة الأبدية الى الدين المتين ، ويهدي به الله من ينيب .

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّمَّا مَرَّبَ بِهِ ﴾ (١٤).

« وما تفرقوا » في الدين : ابراهيمين - هوداً - نصارى أم ماذا - رغم وحدة الدين : الأمر والطاعة « إلا من بعد ما جاءهم العلم » بوحى الكتاب أن كل شرعة بعد أخرى هي شرعة من ذلك الدين ، تتفق مع بعض في جذور واحدة ، والشارع لا يرتضي في كل دور من الخمس إلا شرعة واحدة .

فما تفرق الذين أوتوا شرعة من الدين إلا بغياً بينهم ، اللهم إلا القاصرين الأتباع منهم : « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة » (٩٨ : ٤) « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » (٦ : ١٥٩) .

إن التفرق في الدين شريك وتمزق من سنة المشركين ، والواجب الجماهيري لعامة المكلفين إقامة الوجه للدين فطرة وشرعة « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون » (٣٠ : ٣٢) .

إن دين الفطرة ودين الوحي الشرعة متجاوبان في ثلاثم تأم ، فالتحزب في شرعة الدين تخلف عن دين الفطرة ودين الله : دين

التكوين ودين التدوين المكتوبين بقلم الربوبية الصادقة ، إذا فهو في الحق
شرك برب العالمين ! .

وإذا كان التفرق في شرائع الدين شركاً رغم تفرقها في قسم من
طقوسها ، فليكن التفرق في شرعة واحدة ، تشجراً في مذهبيات وتشاجراً
فيها رغم وحدة الشرعة ، ليكن هذا التفرق إلحاداً إذا كان بغياً :
« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . (١٠٣) . ولا تكونوا كالذين
تفرقوا واختلفوا من بعد ما جائهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم »
(٣ : ١٠٥) .

فهناك تفرق عن دين الله شركاً أو إلحاداً في الله ، ثم تفرق في دين
الله تحزباً في شرعة وشرعة هوداً أو نصارى أم ماذا ، ثم تفرق في شرعة الله
كما تفرقوا في كل شرعة ، فاليهود إلى فرق والنصارى إلى فرق والمسلمون
إلى فرق ، وكل هذه التفرقات محكومة في ميزان الله .

إن للدين حملة أولين ومتحملين آخرين ، وفي الأثرية الساحقة يختلف
تفرق الآخرين عن الأولين ، فالحملة الأولون - في الأكثر - لا يختلفون
ويتخلفون إلا بغياً بينهم : ظلماً قاصداً بالنسبة لبعض في شرعة ، أو لآخرين
في شرعة أخرى ، حسداً بينهم وظلماً للحقيقة ولأنفسهم ، حيث تفرقوا
أيادي سبا تحت تأثيرات الأهواء والشهوات .

« ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى : « ولكم في الأرض
مستقر ومتاع إلى حين » (٣ : ٣٦) « لقضي بينهم » بما تفرقوا ، أن
يُهلكهم بعذاب الإستئصال ، وفيما أهلك قروناً ليس لمجرد الاختلاف ،
وإنما للتطرف في الترف والتخلف عن شرعة الله لحد لا يتحملة المجتمع .

هم أولاء حملة أولون عليهم ما عليهم ولهم ما لهم ، ولكنها المتحملون
الآخرون « الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب » !

اولئك اختلفوا على علم و يقين بغياً بينهم ، ثم الذين ورثوا الكتاب اختلفوا على شك مريب ، ولا يصدق هذا الفرق بين الأولين والوارثين إلا في كتابات الوحي قبل القرآن ، حيث حرفها الأولون على علم ، فتفرق فيها الوارثون على شك مريب ، وهو المسنود إلى ما يعتبر كحجة^(١).

فالتفرق الحاصل عن شك مريب أهون ضلالاً من التفرق عن شك غير مريب أو عن علم ، وإن اشتركت في ضلال ، ولكن ابن ضلال من ضلال ! ثم التفرق الحاصل قصوراً دون تقصير لا عن علم ولا شك كما يحصل عند المجتهدين إذا كان عن اجتهاد صحيح يتبنى الكتاب أصلاً والسنة فرعاً ، هذا التفرق ليس محظوراً ولا يفرق حيث الكل يستنبطون أحكام الله من كتاب الله وسنة رسول الله ، (صلى الله عليه وآله وسلم) للمصيب أجران وللمخطيء اجرٌ واحد ، فلا عليهم ولا لهم أن يتباغضوا ، وإنما عليهم التشاور لكي ينقصوا من الخلافات ثم يرجع من سواهم إلى الأكثر بعد التشاور ، كمرجعية واحدة هي الأكثرية بين المتشاورين .

وآية التفرق إنما تُنذد بالتفرق بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ثم الذين ورثوهم فهم في شك مريب ، وأما العلماء الربانيون المسلمون فهم لا يجتهدون على شك مريب ولا تخلفاً عن علم بغياً بينهم ، وإن كان بين من يجتهد مقصرون حيث لا يستندون كما يجب إلى كتاب الله ، وفيما تعودوا على ترك الكتاب اعتماداً على الأقوال والروايات فأصبحوا قاصرين في الرجوع الى كتاب الله فهم أيضاً مقصرون في قصورهم تشملهم على أقل

(١) الشك المريب ما يجعل الانسان في ريب بما فيه من مشكك في ظاهر الحجة كآيات توراتية او انجيلية دخيلة او محرفة بحسبها وارث الكتاب من الوحي ، والشك غير المريب ما لا يستند الى حجة مشككة ، كشك المتجادل العارف بالحق مثل الاولين .

تقدير « وإن الذين أوردوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب » إذا لم تشملهم - ولا سمح الله - « وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » !

وإن العقيدة هي الصخرة الصماء الصلبة التي يقف عليها صاحبها ، فلا مأخذ لها إلا قاطع البرهان دون شك مريب أو غير مريب ، ولا يزعزعها أقاويل الأولين أم من ذا من القائلين .

المسلمون الذين يعيشون الوحي الأخير، القرآن العظيم، أولئك هم دوماً من الحملة الأولى، إذ لا تحرف في القرآن ولا في حرف أو نقطة أو اعراب أم ماذا، فقد جاءهم علم خالص وحجة بينة كافية شافية لا تدع لهم مجالاً لشك مريب أم غير مريب ، ولا لأي تفرق فيما الحجة من الكتاب قاطعة لا ريب فيها ، ولو أنهم تبنا القرآن كأصل أصيل لزال الكثير من خلافاتهم ولكن ! ...

﴿ فَلِلذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١٥).

آية يتيمة عديمة النظير تأمر صاحب هذه الرسالة السامية إلى الدعوة والإستقامة كما أمر ، وإلى عشرة كاملة من ناهي وأوامر هامة تتبناها الرسالة الإسلامية كأصول الدعوة : ١ - دعوة ٢ - واستقامة ٣ - وتركاً فيها لأهواءهم ٤ - « وقل آمنتم » ٥ - « وأمرت » ٦ - « الله ربنا .. » ٧ - « لنا أعمالنا .. » ٨ - « لا حجة بيننا .. » ٩ - « الله يجمع .. » ١٠ - « وإليه المصير » !

وقد تشبهها آية أخرى في أصل الإستقامة إضافة إلى من تاب معه

وتركاً للبعض من هذه العشرة قضية الشركة كما أضيفت أمور أخرى لنفس القضية:

« فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعلمون بصير .
ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله أولياء ثم
لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن
السيئات ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين »
(١١ : ١١٥) .

« فلذلك » : لأجل ذلك التفلك العارم بين الأمم ، والتحزبات المفرقة
في شرعة وشرعة ، وكذلك في نفس كل شرعة رغم أن الله واحد والدين
واحد والشرعة واحدة كما الرسالة ، لذلك « فادع » إلى وحدة الدين
والشرعة ، وشرعتك هي الدين كله ، وهي كل شرعة من الدين قبلك ،
وإنها شرعة القرآن « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من
حكيم حميد » (٤١ : ٤٢) « فلذلك » يا قائد القيادة الجديدة الحازمة الحاسمة
المديدة .. « فادع » إلى هذه الوحدة العريقة الرفيقة الضاربة إلى أعماق
الزمن « واستقم » في هذه الدعوة الوطيدة دون لفتة إلى الاهواء المصطرعة
حولك وحول دعوتك الموحدة اعلاناً بجديد الايمان بتقديم الدين المتين
الذي شرعه الله للنبيين اجمعين .

ولأنك النبيون أجمع حيث تجمع كافة النبوات ، وأن هذه امتهم أمة
واحدة ، فالمكلفون أجمع أمتك أمة واحدة « فلذلك فادع واستقم كما
أمرت » .

هنالك دعوة تجمع دعوات الرسالات كلها ، فاستقامة في هذه الدعوة
تجمع الإستقامات كلها ، كما أن نبوتك تجمع النبوات كلها ، وشرعتك هي
الدين كله ، وهي الشرائع كلها ! .

﴿ فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ﴾ إذ هي تهري إلى هوة الخلافات والتحزبات المذهبية ، إلى شفا جرف الهلكات ، لذلك فادع : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » (١٦ : ١٢٥) « لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعل هدى مستقيم » (٢٢ : ٦٧) « ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذا أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » (٢٨ : ٨٧) .

هنا يمنع شرعته عن كيان الشرك أن يقول : أنا على شرعتي وأنتم على شرايعكم إبقاءً على التحزبات المذهبية - لا ! وإنما هذه الدعوة دعوة إلى توحيد الأمم أن يتضاموا تحت راية واحدة .

١ - ٢ ﴿ فادع واستقم ﴾ أطلب القوام : لزوم المنهاج القائم دون عوج وعرج ، طلباً من ربك أن يقيمك كما أمر ، ومن الأمم أن يستقيموا كما أمر ، دون مؤاربة ولا مسايرة ولا أنصاف حلول ، ومن استقامتك « أن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين » (١٠ : ١٠٥) « فاقم وجهك للدين القيم » (٣٠ : ٤٣) ف « إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم » (٨١ : ٢٨) حيث الإستقامة في هذه الدعوة والداعية والمدعوة ، إنها كيانها وقوامها ، دون أن يحرفها حارف أو يحرفها جارف « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم » :

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٤٦ : ١٣) « . . . تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياءكم في الحياة الدنيا وفي

الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نُزِّلًا من غفور رحيم . ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين » (٤١ : ٣٣) .

لقد أمرت الأمم قبلئذ « أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » فلم يأتهموا إلا قليلاً ، ثم الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يؤمر أخيراً أن يحقق هذا الأمر « واستقم كما أمرت » ومن ثم « ومن تاب معك » فقد حُمِّل هو ومن معه تحقيق هذه الرسالة الموحدة وقد حقق كما حُمِّل في دعوته الصارمة ، وعلى الذين معه حمل هذه الرسالة حتى يحققوها كما وسوف تتحقق في الدولة المباركة المهدوية عليه آلاف التحية والسلام .

ولقد كانت هذه الرسالة الجمة الهامة جِلاً عليه ثقيلاً لحيد وقال : شمروا فما روي ضاحكاً^(١) وكما يروي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) : « شيبتي هود وأخواتها » والشورى كبيرة أخواتها حيث تخصه آيتها بالإستقامة إذ قيل له (صلى الله عليه وآله وسلم) : لم ذلك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ! فقال : لأن فيها « فاستقم كما أمرت »^(٢) ولم يذكر ومن تاب معك وإنما « كما أمرت » فهي في الشورى أعلى منها في هود ، ولن تطبق الأمة الإسلامية تحقيق الإستقامة التي أمر بها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا على حدها ، لأنها الخروج من كافة المعهودات ، والقيام بين يدي الحق على حقيقة الصدق المطلق لتحقيق كافة الرسالات ولُبِّها في العالمين .

(١) الدر المنثور ٣ : ٣٥١ - اخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن (رضي الله عليه) في قوله تعالى « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك » قال : شَمَرُوا . . اقول : فإذا هو شمر بعد نزول هذه الآية المشتركة بينه وبين من معه فما كانت اذا حالته لما نزلت آية الاستقامة الخاصة به (صلى الله عليه وآله وسلم) ! .

(٢) تفسير روح البيان للحقي ج ٨ ص ٢٩٩ .

الدخول في أمر الله - لا سيما إذا كانت الرسالة العليا - هو طبعاً صعب ، ولكننا الإستقامة فيه أصعب فإنه التمكن في المأمور به لحد يصبح المأمور راسخاً فيما أمر به غير محتمل الزوال ولا الخمول ، وحتى يصبح هو هو الأمر والإستقامة في الأمر كما أمر. وقد روي « ما نزلت آية كانت أشق على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من هذه الآية »^(١) حيث تحمل إثباتات ونفياً : ٣ - ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ وإنما هوى واحدة هي هدى الله : « قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين » (٦ : ٥٦) « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير » (٢ : ١٢) « .. إنك إذا لمن الظالمين » (٢ : ١٤٥) « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » (٢٣ : ١٧١) .

٤ - ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ دون فرق في هذا الإيمان وإنما في التطبيق، حيث الكتاب الأخير يحتل دور التطبيق فلا يبقى بما أنزل قبله إلا إيمان وتصديق ، رداً لإيمان العالمين كلهم إلى أصل واحد ، ورداً على المفرقين بين الله ورسله : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً . أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً » (٤ : ١٥٣) .

فالرسول يؤمن هكذا إيمان ، ويأمر الأمم أن يؤمنوا هكذا إيمان : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله .. » (٢ : ٢٨٥) « قولوا آمنا بالله وما

(١) تفسير بيان السعادة ج ٢ ص ٣٤٢ .

أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما أمتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » (٢ : ١٢٨) .

٥ - ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ « لأعدل » تعني كلا العدل والعدل ، فقد أمرت لاجعلكم عدل بعض في هذه الدعوة الموحدة ، كأسنان مشط على سواء ، دونما ترجيح لجماعة على آخرين ، وكذلك أن اعدل بينكم بحكم عدل .

ف « بينكم » حيث توحى إلى بينونات في هذه الأمم ، يؤمر الرسول أن يدعو عدلاً وبحكم عدلاً لكي يزيل هذه البينونات فيجعلهم أمة واحدة ، فإياها من دعوة عادلة عاقلة لا تتبنى عنصرية أو قومية أو طائفية أو إقليمية أم ماذا ، اللهم إلا « صبغة الله » ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » (٢ : ١٢٨) .

إنها تسوية بين كتب الله إيماناً، وتسوية بين عباد الله دعوة إلى هذا الإيمان .

٦ - ﴿ الله ربنا وربكم ﴾ لا أرباب متفرقون لكي نفرق هنا وهناك وإنما هي إعلام عام ربوبية واحدة فعبودية واحدة ، فنحن كلنا كعبيد سواء في هذه الربوبية الواحدة : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فاقوا شهدوا بأننا مسلمون » (٣ : ٦٤) . . . ويعد إعلان الربوبية الواحدة تعلن فردية التبعة :

٧ - ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ لا ينفعنا صالح أعمالكم ولا

يضرنا طالح أعمالكم، وكما لا تنفعكم أو تضركم أعمالنا، فليست هذه الدعوة الموحدة لنا تجارة أو لكم خسارة، وإنما «سلام عليكم»: «وقالوا لنا أعمالنا ولكن أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين» (٥٥: ٣٨).

إنها ليست دعوة استثمارية لصالح هذه الشرعة الأخيرة أو رسولها والمشرعين لها، وإنما هي بسط الرحمة الإلهية وذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم، «إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون» (٣٦: ١١٣) «وما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء» (٦: ٥٢).

٨- ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ وترى وما هي الحجة المنفية في هذا البين؟ وهذه كلها حجج إلهية على هؤلاء الإنعزالين!

أقول: إنها قد تعني بعد هذه الحجج الموحدة للدين، التي سلفت، حيث أزال البينونات، فلم تبقى حجة لازمة لإزالة البين إلا بُيِّنَتْ فـ «لا حجة بيننا وبينهم».. أم وتعني حجة - بعد ذلك - تبين وتفرق.. فبأية حجة نتفرق أيادي سبا إلى مسلمين وهود ونصارى، فقد استجيب الحجة الموحدة لمن استسلم لله وأسلم وجهه لله، فلم تبقى - إذاً - حجة إلا داحضة: «والذين يحاجون في الله من بعدما استجيب له حجتهم داحضة».. فـ «لا حجة بيننا وبينكم» تنفي الحجة الحقة، سواء المثبتة لهذه الوحدة وقد تمت، أو المفرقة فليست اللهم إلا داحضة! أم ولا حجة بيننا وبينكم تثبت رجاحة شرعة على شرعة حيث الكل شرائع الله من دين واحد لله، أم ولا خصوم بيننا وبينكم، ولماذا نتخاصم والوحدة لائحة، اللهم إلا أن يتخاصم داعي الوحدة الدينية دعاة التفرقة.

٩- ﴿الله يجمع بيننا وبينكم﴾ إله واحد يجمعنا بجمع واحد في صعيد واحد بحساب واحد، «قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا وهو

الفتاح العليم» (٣٤ : ٢٦) «قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة» (٤٥ : ٢٦) «يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن» (٦٤ : ٩) وكما «الله - هناك - يجمع بيننا وبينكم» إنه ربنا جميعاً ف «إنا لله وإنا إليه راجعون». إنه يجمع بيننا وبينكم ليوم الجمع التغابن كما جمع بيننا وبينكم هنا ليوم الفرق والتعاون، جمعاً في دينه وشرعته ، وسوف يفتح بيننا فيما كنا فيه مختلفين وهو الفتح العليم .

١٠ - ﴿وإليه المصير﴾ إليه وحده لا شريك له ، لا إلى أرباب متفرقين ، ف «إنا لله وإنا إليه راجعون» شرعة واحدة - سير واحد - إله واحد ومصير واحد فقيم إذاً نتباغض ونتعارض ؟

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦).

الحجة هي الدليل القاصد لإثبات أمر أو إبطاله ، والمحاجة هي تبادل الحجة وتضاربها، فقد تكون حقاً بالتي هي أحسن عن علم وحلم ، أو تكون باطلاً فيما ليس لهم به علم : «ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم» (٣ : ٦٦) .

والمحاجة في الله قد تكون في كونه أو توحيده وكيانه ، أو وحيه وشرعته : «قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون» (٣ : ١٣٩) «فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أتوا الكتاب والأمين ءأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد» (٣ : ٢٠) .

هنا توحى «من بعد ما استجيب له» أن المحاجة كانت في شرعة الله الأخيرة ، واعتبرت الإستجابة الصادقة له حجة قاطعة لا مرد لها ولا حاجة

معها إلى حجة أخرى ، لا مثبتة حيث ثبتت بالإستجابة ، ولا نافية فإنها عند ربهم داحضة .

وترى أن استجابة جماعة لشرعة هي برهان أنها إلهية ؟ فلتكن كل شرعة حقّة وإلهية ! أم لهذه الإستجابة شروط ومقومات ، فما هي مقوماتها حيث كانت في الشرعة الأخيرة فلا محاجة - إذاً - إلا وهي داحضة ؟ ! .

ولأن الدحض هو الزلق، فالحجة الداحضة هي الزالقة ، الضعيفة غير الثابتة ولا متماسكة ، الواطئ الذي تضعف قدمه فيزلق عن مستوى الأرض ولا يستمر على الوطاء ، وداحضة بمعنى مدحوضة بنفسها أنها تدحض نفسها بنفسها لضعف سنادها وهاء عمادها ، فهي هي المبطلة لنفسها من غير مبطل غيرها ، لظهور أعلام الكذب فيها وقيام شواهد التهافت عليها ، وإنما اطلق تعالى إسم الحجة عليها وهي شبهة واهية لاعتقاد المدلي بها أنها حجة ، وتسميته لها بذلك في حال النزاع والمناقلة حيث يوردها موردها مورد الحجة ، ويسلكها طريقها ويقيمها مقامها .

حجج داحضة :

من حجج اليهود والنصارى أن التوراة أو الانجيل متفق عليه بينهم وبين الذين أسلموا ، والقرآن مختلف فيه ، فليأت المسلمون لוחي القرآن ببرهان دوننا حيث الإستجابة للتوراة والانجيل تجمعنا دون القرآن .

فيقال لهم : إن هذه الحجة داحضة : باطلة زائلة في ميزان الحق لا تستحق إلفات نظر ، نسألهم أولاً ما هي ماهية الإتفاق بيننا وبينكم في الكتابين ؟ ألأننا كلنا نؤمن بآله واحد ، فاستجابتكم لكتاب سابق من الله بآيات صدقه وبينات رسوله تحملنا على تصديقه ، فعليكم كذلك تصديق القرآن لاستجابتنا له بآيات كمثلها أو هي أخرى وأهدى سبيلاً ، إذاً فحجتهم داحضة !

أم لأن القرآن المستجاب لنا ببيانات صدقه القاطعة يحملنا على تصديق الكتابين دون حجة أخرى ، حيث الحجة المصدقة لها ليست فيهما ، فإنها منفصلة عنها وهي معجزات موسى وعيسى حيث تحمل من شاهدها بتصديق كتابيهما ، إذاً فاستجابة حجة القرآن هي التي تحملنا على تصديق الكتابين فكيف تنقلب حجة علينا تتطلب حجة أخرى بعد المتفق عليها ولا حجة لنا إلا هيه ، إذاً فحجتهم داحضة .

ثم القرآن لا يحملنا إلا على تصديق الكتابين المبشرين به وبنبيّه : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون . قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً . . . فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلمكم تهتدون » (٧ : ١٥٨) ، « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (٢ : ١٤٦) . . . الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » (٦ : ٢٠) . ١

إذاً فلا نشارككم في تصديق الكتابين دون شروط ، وإنما نصدق الذي بشر بنبينا ويكتابه ، إذاً فحجتهم داحضة^(١) .

ثم الذي يستندون إليه في استجابتهم لتورات أو انجيل ليس إلا معجزات من الرسلين شهدا من حضرها دونهم ، وإنما استجابوهم دون حجة حاضرة ، وإنما لحسن الظن بأسلافهم ، والكتابان محرفان لا حجة فيهما وحتى قبل التحرف إذ لا معجزة فيهما ، فهذه إذاً استجابة فاشلة ، ولكننا المسلمون يستجيبون دعوة القرآن لأنه معجزة بنفسه وهو أوضح

(١) وفي حوار بين الإمام الرضا (عليه السلام) وجاثليق عظيم النصارى

برهان لرسالة رسوله ، فقد استجابوا وعلى مر الزمن لوحي القرآن بحجة حاضرة غير محرفة ، إذا فحجة اليهود والنصارى داحضة زائلة عند ربهم ، إن في اثبات وحي الكتابين أو في رد وحي القرآن ، فلما استجيبت دعوة القرآن بحجته الحاضرة لم يكن نكرانهم لما استجيب له إلا كفراً بالله وآياته ، إذا ف « حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد » !

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ
أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَبِئْسَ لَبِيعُوا بِعِيدِ ﴿١٨﴾
اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ
الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي
حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ
فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ
مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ

بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ
 مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ
 عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي
 يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ
 لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن
 يَفْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَّهٗ فِیْهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن
 يَشَأِ اللَّهُ يُخْثِمِ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ
 الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ
 الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ
 وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الْصَّالِحِينَ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ * وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ
لَبَغَّوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزَّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ
بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ
بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ
قَرِيبٌ ﴾ (١٧).

تري أليس الكتاب هو الميزان فكيف يردف به الميزان ؟ أم هو ميزان
ثان ؟ لقد ذكر الميزان هنا وفي الحديد عدلاً للكتاب « وأنزلنا معهم الكتاب
والميزان ليقوم الناس بالقسط .. (٥٧ : ٢٥) ومن ثم ميزان موضوع في
الرحمان مع رفع السماء « والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا في
الميزان » (٥٥ : ٩) (٢).

فهناك ميزان هو القرآن ، أصلاً يرجع إليه كل ميزان حتى نبوة نبي

(١) راجع ج ٢٧ الفرقان ص ١٧٠ حول آية الميزان .

(٢) المصدر ص ١٨ - ٢٠ حول آية الميزان .

القرآن ، ثم ميزان فيه وفي السنة المحمدية يعرف بهما معارف القرآن ، ومن ثم ميزان متصل به كيئاناً منفصل عنه كوناً للتعرف الى القرآن وتطبيقه وتأسيس دولته : هو نبي القرآن (صلى الله عليه وآله وسلم) وخلفاءه المعصومون (عليهم السلام) والعلماء الربانيون ، ومن قبل ميزان الفطرة والعقل والعلم يعرف بها وحي القرآن وأهل بيت القرآن^(١) ، وميزان العدل والقسط حيث يكرسهما القرآن ، ويكرسان لتطبيق القرآن في الاولى ، وللحساب يوم يقوم الحساب قسطاً وعدلاً وكتاب الاعمال وكتاب الاعمال وقلب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وقلوب المحمديين المعصومين الطاهرين : (عليهم السلام) : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (٢١ : ٤٧) موازين متصلة كيئاناً بالقرآن مهما كانت منفصلة كوناً عن القرآن ، حيث القرآن هو الأصل في الميزان ثم الفروع هي سائر الميزان .

وقد يعني الكتاب هنا جنس الكتاب قرآناً وما قبله من كتاب ، فمن الميزان إذاً المعجزات التي تثبت وحي الكتاب كما سوى القرآن ، وأما القرآن فهو أم المعجزات كما هو أم الكتاب .

و « بالحق » هنا تبيّن موقف الكتاب أنه يصاحب الحق ، وأن نزوله بسبب الحق تبياناً وتطبيقاً للحق ، ثم الحق في الكتاب الأخير ثابت لا ينسخ ، فهو حق مطلق مطبق مهما كان الحق في كل كتاب قبله لردح من الزمن غير مطلق .

« وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ » :

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٦٨ في تفسير القمي في الآية قال : الميزان امير المؤمنين (عليه السلام) والدليل على ذلك قوله عز وجل في سورة الرحمن (والسماء رفعها ووضع الميزان قال : يعني الإمام » .

(يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً) (٣٣ : ٦٣) (ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً) (١٧ : ٥١) إن «لعل وعسى» ترجّ في ظرف الشك ، ظناً دون علم ، ف «إنما علمها عند الله» في الأحزاب بيان لحالة الشك في أنها متى ؟ أقرب أم بعيد ؟ ثم «لعل» فيها وفيها هنا و «عسى» في الأسرى ترجّ في قربها يخرجها عن الشك إلى وشك اليقين وأشرافه بأنها قريب ، وما يدريه إلا من أدراه كل ما دراه من وحي الرسالة أنه قريب ، كما وأدراه أخيراً بقربها : (إنهم يرونه بعيداً . ونراه قريباً) (٧٠ : ٦) قريباً في واقعها كقربها في ميزان الفطرة والعقل والعلم والعدل لزمن بعيد أم قريب وكل آت قريب . «لعل وعسى» هنا وهناك لا تعني ترجّي الله ، وإنما ترجّي الرسول بما أدراه الله ، ومن ثم العلم حيث أتم ترجّيه ، وعلّ «لعل وعسى» فيما يؤمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هنا أن يقول مماشاة مع خصومه الناكرين ليوم الدين .

تري ما هو المأخذ هنا في قرب الساعة حيث الوسط هو زمن نبي الساعة ؟ هل هو بداية الخلقة ؟ والساعة الحساب الجزاء لا تعني أي كائن ! أم بداية خلقة المكلفين من النسل الأخير جنا أو إنساناً أو أياً كان فإنه موضوع هذا البيان ؟ ولا يخصهم يوم الجمع مهما خصهم هذا البيان ! أم هم المكلفون أجمع بمن فيهم هذا النسل الأخير ؟ وقد يقربنا أن الخطاب موجه إلى هذا الأخير ، ثم لا يجدينا قرب الساعة إذا كان المبدء بداية خلق المكلفين ، إذ لا نعلمها - وإن على وجه التقريب - حتى تفيدنا أن الساعة قريب ، فلتكن الساعة أقرب إلى نبي الساعة منه إلى بداية النسل الأخير

(١) تأتي الساعة في ٤٨ موضعاً تعني القيامة إلا «ساعة العسرة» و «ساعة من غار» و «ما لبثوا غير ساعة» و «لا تستأخرون عنه ساعة» ف ٤٤ موضعاً تعني القيامة .

من الإنس ، حيث الجن موقفه كمن سلف من أنسال لا يدرى متى خلقوا .

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ (١٨) .

يستعجلون بها حيث لا تحس قلوبهم هولها فلا يحومون حولها إلا هزواً لو أنها آتية فمق ؟ ولماذا لا تأخذنا « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده .. » (٢٢ : ٤٧) .

وأما الذين آمنوا فهم « مشفقون منها » ولأن الإشفاق هي العناية المختلطة بخوف حيث يحب المشفق المشفق عليه ويخاف ما يلحقه تقصيراً منه لا من المشفق عليه ، إذا فهم لا يستعجلونها بل قد يستأجلونها ليتهايئوا لها حيث « يعلمون أنها الحق » .

ثم العناية قد تربو الخوف كأنه لا خوف ! « إنا كنا في اهلنا مشفقين » (٥٢ : ٢٦) أم الخوف يربوها كان لا عناية : « ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم » (٤٢ : ٢٢) « ووضِعَ الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه » (١٨ : ٤٩) أو الخوف يربوها وهي موجودة : « فأين أن يحملنها وأشفقن منها » (٣٣ : ٧٢) أم هما سيات حيث الخوف والرجاء يتساويان كما هنا « والذين آمنوا مشفقون منها .. » وفي أضرابها : « والذين هم من عذاب ربهم مشفقون » (٧٠ : ٢٧) ضروب أربعة من الإشفاق تشارك فيها العناية والخوف .

ثم المستعجلون بها يمارون فيها ، ظلمات بعضها فوق بعض في نكرانها : « ألا » فانتبهوا « إن الذين يمارون في الساعة » جدالاً في حجج داحضة ، إنهم « لفي ضلال بعيد » : بعيد عن النجاة حيث أوغلوا فيه

معاندين متعتين ، وبعيد عن الفطرة والعقل والعلم والعدل ، فلا يماري في الساعة إلا من غرب عقله ، وحجبت فطرته ، وبرزت شقوته .

فالضلال القريب هو الضلال القاصر حيث يُرجى بوصول البينة زواله ، والضلال البعيد هو المقصر بعد تمام الحجة فلا يرجى إذا زواله ، حيث الممارات هي الجدال في الحق كأنه باطل فيه مرية ، ولكي يستأصل فلا تبقى له باقية .

« اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ » (١٩) .

اللطيف هو صاحب اللطف الدقيق الذي لا يعزب عن علمه وقدرته وحيطته شيء والله لطيف في ذاته حيث لا تدركه الأبصار ، ولطيف بعباده حيث يدرك الأبصار ، ولأن اللطيف بعباده عليم بهم خبير لم يوصف اللطيف فيما وصف إلا بالخبير^(١) ولأنه « هو العليم الحكيم » (١٢) : (١٠٠) .

إنه « يرزق من يشاء » لأنه « لطيف بعباده » والرازق اللطيف حيث يعلم الحاجة والمصلحة فيلطف قد لا يكون قوياً على مُرامه عزيزاً ، ولكنه « هو القوي العزيز » فعلمه بعباده وعطفه وقوته وعزته تجعل رزاقته تامة لا جَوْل لها دون أن يمنع مانع منه أو سواه ، فلا بسط الرزق لمن ييسط له لمزيد اللطف والقوة والعزة ، ولا من قُدِرَ عليه رزقه لنقصان هنا أو هناك ، وإنما كُلُّ لكل حسب الحكمة ، والرزق يعم المعنوي منه كالرسالة وولاية الأمر بالامامة^(١) والمادي منه كسائر النعم غير الروحية .

وترى ما هي الرباط بين آية اللطف وما قبلها من آية الساعة وما

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٦٨ في اصول الكافي عن ابي بصير عن ابي عبد الله (عليه السلام) قلت : الله لطيف بعباده يرزق من يشاء ؟ قال : ولاية امير المؤمنين ؟

بعدها من حرث الدنيا والآخرة ؟ .

هي أن الساعة الحساب الجزاء هي قضية اللطف القوة العزة ، وكذلك إيتاء حرث الدنيا لمن يريد لها ، وزيادة الحرث لمن يريد الأخرى :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ (٢٩: ٦٤) .

تشبيه عجيب وتمثيل مصيب ، فحرث الآخرة والدنيا هو كدح الكادح لثواب الآجلة وحطام العاجلة ، حيث الحارث المزدرع إنما يتوقع عاقبة حرثه فيجني ثمار غراسه ويفوز بعوائد ازدراعه .

إن الدنيا بما يُسمى فيها مزرعة قد تعنى لها نفسها أو تُعنى للآخرة « فالدنيا مزرعة الآخرة » ولذلك يتقدم هنا « حرث الآخرة » رغم تقدم الدنيا بحرثها في نقدها على الآخرة ، فـ « إن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون » (٢٩: ٦٤) .

إنما الدنيا زرع « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » فمن كان يريد منه حرث الآخرة يزد الله له في حرثه ولا يحرمه دنياه كما يصلح لآخرته ، ومن كان يريد منه حرث الدنيا يؤث منها ، شيئاً مما أرادها لا كلها ، وما له في الآخرة من نصيب .

فانظر إلى طلاب حرث الآخرة والأولى تكشف عن الحماسة الكبرى في إرادة حرث الدنيا ، وهو آت لا محالة لمن أرادها أو لم يردّها ، فلكل نصيبه من حرث الدنيا وفق المقدّر له في حكمة الله ثم يبقى حرث الآخرة خالصاً لمن أرادته وعمل له « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً » ومن أراد الآخرة وسعى لها

(١) للاطلاع على تفصيل البحث راجع آية العاجلة في الأسرى .

سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً . كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً » (١٧ : ٢٠) « من كان يريد الدنيا وزيبتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » (١١ : ١٨) .

من طلاب حرث الدنيا نجد أغنياء وفقراء ، ومن طلاب حرث الآخرة نجد فقراء وأغنياء ، وأين فقراء من فقراء وأغنياء من أغنياء ، فكل ذلك محسوب حسب أسباب الرزق المتعلقة بالأوضاع العامة والإستعدادات الخاصة ، وإن كان الأغنياء في طلاب الدنيا أكثر من طلاب الآخرة ، وترى كم عمق هذا الحمق الذي يمحصر الهم في إرادة حرث الدنيا ويحصره عن إرادة حرث الآخرة ؟

إن الزيادة في حرث الآخرة مزيد رحمة من الله لطلابها في تقواهم والتسوية أو النقيصة في حرث الدنيا كذلك مزيد رحمة على العباد « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض » (٤٢ : ٢٧) وترك لتأييد أهل الدنيا في طفواهم .

ثم وإرادة حرث الدنيا قد تكون بعمل الآخرة فهي أردأ وأنكى وأضل سبيلاً : ف « من أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب ومن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدنيا والآخرة »^(١) و « إن المال والبنين حرث الدنيا والعمل الصالح حرث الآخرة وقد يجمعهما الله لأقوام فاحذروا من الله ما حذرکم من نفسه وإخشوه خشية ليست بتعذير واعملوا

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٦٩ - ح ٥٢ عن اصول الكافي بسند عن أبي عبد الله (عليه السلام) .

في غير رياء ولا سمعة^(١) و « من كانت نيته الدنيا فرق الله عليه أمره وجعل الفقر بين عينيه ولم يأت من الدنيا إلّا ما كتب له ومن كانت نيته الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة^(٢) » وقد قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : « بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة والنصر والتمكين في الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب^(٣) » قال تعالى : « ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلّا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك^(٤) ».

ولما يصل أمير المؤمنين علي (عليه السلام) إلى هذه الآية يبكي ويقول : « اللهم إني أسألك إجابات المختبين وإخلاص الموقنين ومرافقة الأبرار واستحقاق حقائق الإيمان والغنيمة من كل بر والسلامة من كل إثم ورجوت رحمتك والفوز بالجنة والنجاة من النار^(٥) ».

(١) المصدر ح ٥٤ بسند خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) وقال : أما بعد - إلى أن قال - : ...

(٢) مجمع البيان وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) :

(٣) الدر المنثور ٦ : ٥ - أخرج أحمد والحاكم وصححه وابن مرفويه وابن حبان عن أبي بن

كعب أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال :

(٤) المصدر - أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال : تلا

رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من كان يريد حرث الآخرة ... ثم قال : يقول

الله : ابن آدم ...

(٥) أخرج ابن النجار في تاريخه عن رزين بن حصين قال : قرأت القرآن من أوله إلى

آخره على علي بن أبي طالب (عليه السلام) فلما بلغت الحواميم قال لي قد بلغت عرائس

القرآن فلما بلغت اثنتين وعشرين آية من حم عسق بكى ثم قال : اللهم ... =

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢١).

إنما الدين كله لله ، والشارع من الدين كله هو الله ، لا شريك له لا في الدين ولا في شرع الدين ، وإنما المرسلون حملة دين الله وشرائعه ، ومبلغوا شرعة الله ومؤسسوا دولته تطبيقاً لها وذوداً عن ساحتها وسماحتها .

تري ما هو موقف « أم » هنا وهي لعطف الإعراض ؟ .. قد يكون المعطوف عليه مما يلي : أليسوا هم بحاجة إلى شرعة من دين الله إذ لا يعبدون الله وإنما أوثانهم وطواغيتهم ؟ أم هم شرعوا لأنفسهم من الدين ما أذن الله أو ما لم يأذن به الله ؟ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ وشركائهم هم الذين اتخذوهم شركاء لله فهم إذا شركائهم لا شركاء الله .

ليس من المعقول أن الدين الطاعة لله، ثم يشرع من دينه من سواء دون إذنه ، تدخل عارماً طاغياً في طاعة الله ، ويكأن الله لا يملك شرعة من دينه فشركائهم شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله !

فالله وحده هو الشارع لعباده من دينه وطاعته ، فإنه مبدئهم ومبدعهم والكون كله ، يدبره بالنواميس التكوينية والتشريعية سواء ، وليست الحياة البشرية إلا ترساً صغيراً في عجلة هذا الكون الشاسع الواسع ، فليتحكمها شرعة تتمشى مع تلكم النواميس وتمشي الإنسان إلى قمم الكمال المعدة له في هديه ، فكيف يشرع من دين الله من سوى الله ، أولاية على الله ؟ وهو الولي الحميد ! أم حيلة على النواميس ومتطلبات الحياة ؟ ولا يحيطون

= اقول : هذه الآية حسب ما عندنا هي العشرين ولعله (عليه السلام) حسب البسملة آية ثم آية أخرى في هذا البين آيتين فاصبحت هذه الآية الثانية والعشرين .

بأنفسهم علماً ! أم ماذا .

مع وضوح هذه الحقيقة لحد البدهة فمن حماقة والبلاهة المحاولات الطائفة لسنّ القوانين لإدارة شؤون الأفراد والجماعات حتى من أعقل العقلاء وأعدل العدول ، وحتى المرسلين ، فما هم بمشرعين من الدين ، إنما هم رسل يحملون شرائع من الدين شرعها الله ، ثم لا تدخل لهم في أية كبيرة أو صغيرة .

وليس لمن يستنبط إلا استنباط التشريعات الجزئية المتجددة مع حاجيات الحياة ، على ضوء القرآن والسنة الرسالية والرسولية ، دون سنّ لأي صغيرة أو كبيرة من عند أنفسهم ، وإنما استنباط واجتهاد لأهله على شروطه .

هكذا تدخل عارم في شرعة الله مما لم يأذن به الله يحق له القضاء الصارم من الله « ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم » : كلمة التأجيل لأجل إلى الساعة ، دون تعجيل قبل الساعة .

يوم الدنيا ليس يوم الفصل وإنما هو يوم الأخرى : « هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون (٣٧ : ٢١) » « إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين » (٤٤ : ٤٠) « هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين » (٧٧ : ٣٨) « إن يوم الفصل كان ميقاتاً » (٧٨ : ١٧) .

كلمة الفصل تحمل ميقات يوم الفصل ، والإمهال والتأجيل ليوم الفصل ، كما تحمله آيات الإمهال والتأجيل إلى يوم الفصل ، حيث يقضي بينهم ويفصل فريق في الجنة وفريق في السعير « وإن الظالمين لهم عذاب أليم » وهؤلاء من أظلم الظالمين حيث يتدخلون في ولاية الله بعد إشراكهم بالله : أن شرع لهم شركائهم من الدين ما لم يأذن به الله .

﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

ترى الظالمين وجِلين ما كسبوا على عناية علَّهم ينجون وهو واقع بهم ، لا جزاءه انتقاماً ، بل إن ما كسبوا هو واقع بهم وقورع الشاهد القارع، حيث الأعمال والأقوال تشهد شهادة ذاتية عينية على عاملها ، ومن ثم وقوعاً لحقائقها التي تبرز يومها ولا يظلمون نقيراً ، حيث ينقلب عذاباً لا مخلص منه ولا محيد .

هؤلاء الظالمون المشفقون بما كسبوا، ومن ثم مؤمنون مشفقون «والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات» كما قدموها بما كسبوا وعند الله مزيد « لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » (٥٠ : ٣٥) عما يشاءون ، « وهم فيها اشتبهت أنفسهم خالدين » (٢١ : ١٠٢) « وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » (٤٣ : ٧١) « ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون » (٤١ : ٣١) .

« ذلك » من روضات الجنات ولهم ما يشاءون عند ربهم « وهو الفضل الكبير » ! فهناك جنات هي لسائر أهل الجنة ، وهنا روضات الجنات وهي البقاع الشريفة المتميزة فيها للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لا الذين « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » (١٠٢ : ٩) .

وترى ان ثواب الجنات بروضاتها ليس عن استحقاق فلا يجب على الله حتى يكون فضلاً كبيراً ؟ أقول : نعم وكلاً .. كلاً حيث الإيمان وعمل الصالحات لا يرجعان بفائدة إلى الله إلا إلى العاملين فلا استحقاق لأجر ، ونعم : حيث « كتب على نفسه الرحمة » ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة ، فقد فرض على نفسه الفضل ، حيث لا أصل الفضل واجب عليه ولا كبيره ، فهو فضل على فضل .

﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٢٣).

بشارة عظمى بعطية كبرى لعباد الله المؤمنين الصالحين ، أتى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يسألهم على عنت الدعوة بوعثائها وأعبائها والبشارة بعقبائها في أولائها وعقبائها ، يسألهم عليه أجراً ؟ ..

« قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ » !

وهذه سنة الله الدائبة في رسله ألا يسألوا المرسل إليهم أجراً ، ولا جزاءً ولا شكوراً ، لا مادياً ولا معنوياً ، فأجرهم مضمون لهم عند الله ، وهم ليس لهم أجورهم « أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون » (٥٢ : ٤٠) .

مركز تحقيق كامبوتر علوم إسلامي

وهكذا نسمع الرسل منذ نوح يواجهون الأمم بأمر الله بالقول : « وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين » (٢٦ : ١٠٩) وهود (١٢٧) وصالح (١٤٥) ولوط (١٦٤) وشعيب (١٨٠) ومن قبلهم وبينهم وبعدهم من المرسلين : « اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون » (٣٦ : ٢١) كعامة المرسلين وحتى يوصل وبأحرى إلى خاتم المرسلين : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » وليست هذه المودة - أياً كان - أجراً وإن كانت بصيغة الأجر : « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد » (٣٤ : ٤٧) فهو إذاً أجر لا يرجع بفائدة إلا لهم في سبيل الإيمان بربه : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً » (٢٥ : ٥٧) بعد قوله : « وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً » لا تاجراً تتعامل ببلاغ الرسالة ، والصيغة

المجردة في سلبية الأجر سارية دون تكلف : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين » (٣٨ : ٨٨) « أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون » (٥٢ : ٤٠) ؟ « وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين » (١٢ : ١٠٤) .

آيات ثلاث تنفي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) سؤال الأجر كاستمرارية للسنة الرسالية ، وثلاث أخرى تُعالج موقف المودة في القربى أنها ليست في الحق أجراً وإنما « هو لكم » وسبيل إلى ربكم ، ودخول إلى مدينة علم الرسول من أبوابها المقررة لكم .

إذاً فلتكن المودة في القربى لصالحهم كمسلمين ، وسبيلاً إلى رب العالمين ، فلتكن مودة في أبواب مدينة علم الرسول ، واستمرارية لرسالة الرسول ، لا مودة في أقرباءه بسبب القرب سبيلاً أو نسبياً أم ماذا من القربات التي لا يحسب لها حساب في ميزان الله .

ومن المعلوم دون ريب أن وجهة الخطاب هم المؤمنون المبشر لهم بروضات الجنات حيث آمنوا وعملوا الصالحات ، دون الظالمين المشفقين مما كسبوا ، إذ الناكرون لأصل الرسالة لا يعقل طلب الأجر منهم جزاء لهذه الدعوة وهم ناكروها حتى يقول « لا أسألكم عليه أجراً » ثم يطلب منهم بدل الأجر مودتهم له (صلى الله عليه وآله وسلم) وهم اللذ أهداه حيث يسب ألفتهم .

ثم هل من المعقول سؤال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) المؤمنين برسالته أن يودوه في قرابته منهم ، وليسوا هم كلهم من قرابته ، ولم يكونوا يعادونه بعد الإيمان حتى يطلب وده نفسه لقرابته ! أم ماذا من تاويلات عليلة .

إن القربى هنا كما تقول آياتها ليست إلا القربى التي تقرهم المودة فيهم

إلى الله زلفى : « إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً » فإنما هي لهم لا له : « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم » إذا فهم الأقربون إلى بيت الرسالة المحمدية « علي وفاطمة والحسن والحسين » تنزيلاً^(١) و « التسعة

(١) الدر المنثور ٦ : ٧ - اخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية قالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم ؟ قال : علي وفاطمة وولداهما ورواه مثله أحمد بن حنبل في مسنده عن ابن عباس عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) والثعلبي في تفسيره بسند صحيح عنه وإبراهيم الحموي من أعيان علماء السنة بسنده عنه وأبو نعيم صاحب حلية الأبرار بسنده عن الأعمش عن سعيد بن جبيرة عنه والمالك في كتاب الفصول المهمة عنه وصاحب المناقب الفاخرة في العترة الطاهرة بسنده عنه - كل ذلك يرويه ابن عباس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

وفي إحقاق الحق ج ١٤ : ١٠٦ - اخرج مثله جماعة من اعلام القوم منهم العلامة ابن المغازلي في مناقبه ص ١١٢ مخطوط عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ومنهم الحسكاني في شواهد التنزيل ج ١ : ١٣٠ ط بيروت بعدة طرق أخبرني الحاكم الوالد . . . وأخبرني أبو بكر السكري . . . وأخبرنا أبو عبد الله الشيرازي . . . وحدثني أبو حازم الحافظ من أصل سماعه . . . وأخبرنا أبو نصر المفسر . . . وأخبرنا محمد بن عبد الله الرزجاني . . . وحدثنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ وأخبرنا أبو سعد ابن علي . . . ومنهم العلامة الحضرمي في وسيلة المال ص ٦٦ نسخة الظاهرية بدمشق، ومنهم العلامة الشيخ عبد القادر الشافعي السندجي في تقريب المرام في شرح تهذيب الأحكام ص ٣٣٢ مطبعة الأمرية ببولاق ، كل ذلك عن ابن عباس أم غيره عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) « هم علي وفاطمة وولداهما » .

وفي المصدر عن العلامة الحسكاني في شواهد التنزيل ج ٢ : ١٤٢ باسناد متصل عن علي (عليه السلام) قال : فينا في « ألم حم » آية انه لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن ثم قرأ « لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » ورواه أيضاً مصبح بن هلقام عن عبد الغفور =

= فاسنده الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ١ وروى مثله العلامة باكثر الحضرمي في وسيلة المال ص ٦٥ نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق من طريق ابي حيان والواحدى عن علي بعين ما تقدم .

واخرج ابو نعيم والديلمي من طريق مجاهد عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا اسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى - ان تحفظوني في اهل بيتي وتودوهم بي، واخرج سعيد بن منصور عن سعيد بن جبير إلا المودة في القربى قال : قربى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وروى ما يعنيه من ان القربى قربى رسول الله وآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في الجمع بين الصحاح الستة عن ابن عباس وعلى بن الحسين بن محمد الاصبهاني في كتاب مقاتل الطالبيين في خطبة للحسن بن علي (عليه السلام) بعد استشهاد ابيه (عليه السلام) انا ابن من فرض الله مودتهم في كتابه حيث قال : ومن يقترب حسنة نزد له فيها حسناً والحسنة حبنا اهل البيت، والمالكي عن السدي عن ابن مالك عن ابن عباس عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الحسنة هنا هي مودة آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وابن المغازلي الشافعي في كتاب المناقب بسنده عن الحكم بن طهير عن السدي مثله ، اخرجه كله في علي وفاطمة والحسين وفي قربى رسول الله وآل محمد واهل البيت السيد هاشم البحراني في كفاية الخصاص ص ٣٩٥ - ٣٩٦ - الباب ٧٢ ، ثم اخرج من طريق اهل البيت (عليهم السلام) انهم هم والائمة (عليهم السلام) كلهم اثنين وعشرين حديثاً وكما المخرج من طريق اخواننا سبعة عشر حديثاً وكما اخرج في البرهان ونور الثقلين احاديث متواترة في هذا المعنى فراجعها .

واخرج ابن جرير عن ابي الديلم قال : لما جيء بعلي بن الحسين (عليه السلام) اسيراً فاقم على درج دمشق قام رجل من اهل الشام فقال : الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم فقال له علي بن الحسين (عليه السلام) اقرأت القرآن ؟ قال : نعم - قال : اقرأت ألم حم ؟ قال : لا - قال : اما قرأت : قل لا اسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى ؟ قال : =

= فانكم لأنتم هم ؟ قال : نعم ورواه مثله الثعلبي في تفسيره عن أبي الديلم مثله ويسند آخر عن أم سلمى مثله وفي تفسير البرهان ٤: ١٢٦ ح ٢٥ الثعالبي بسند متصل عن أبي الديلم مثله .

وينقل الألويسي في تفسيره روح المعاني ج ٢٥ ص ٣٢ شعراً في حب آل البيت عن الإمام الشافعي قائلاً : وانا اقول قول الشافعي الشافعي العي :

يا راكباً قف بالمحصب من منى واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا قاض الحجيج الى منى فيضاً بساكن خيفها والناهض
ان كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الشقلان اني رافضي
وفي مجمع البيان باسناده الى القاسم الحسكاني مرفوعاً الى أبي امامة الباهلي قال : قال رسول
الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الله تعالى خلق الانبياء من اشجار شتى وخلقت انا
وعلي من شجرة واحدة فانا اصلها وعلي فرعها وفاطمة لقاحها والحسن والحسين ثمارها
واشيعنا اوراقها فمن تعلق بعصن من أغصانها نجا ومن زاغ عنها هوى ولو ان عبداً عبد
الله بين الصفا والمروة الف عام ثم الف عام حتى يصير كالشن البالي ثم لم يدرك محبتنا كبه
الله على منخره في النار ثم تلى « قل لا اسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى » .
وفي الدر المنثور ٦١: ٧ واخرج الترمذي وحسنه وابن الانباري في المصاحف عن زيد بن
ارقم قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اني تارك فيكم ما ان تمسكتكم به
لن تضلوا بعدي احدهما اعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض
وعترتي اهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما، وفيه اخرج
الترمذي وحسنه والطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال قال رسول الله
(صلى الله عليه وآله وسلم) : احبوا الله لما يخلوكم به من نعمه واحبوني لحب الله واحبوا
اهل بيتي لحبي واخرج البخاري عن أبي بكر الصديق قال : ارقبوا محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم)
في اهل بيته، واخرج ابن عدي عن أبي سعيد قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)
عليه وآله وسلم) : من ابغضنا اهل البيت فهو منافق .

المعصومون من ولد الحسينؑ تأويلاً، وكما أخرجه زهاء اثنين وخمسين من فطاحل إخواننا^(١) وكثير من أصحابنا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله

= وينقل الفخر الرازي في تفسيره الكبير عن صاحب الكشف انه يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : قوله « من مات على حب آل محمد مات شهيداً الا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له ، الا ومن مات على حب آل محمد مات ثائباً ، الا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الايمان ، الا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير ، الا ومن مات على حب آل محمد يزف الى الجنة كما تزف العروس الى بيت زوجها ، الا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان الى الجنة ، الا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ، الا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، الا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله ، الا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً ، الا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة .

اقول : ثم يعلق الفخر الرازي على هذا الحديث قوله : لا ولا شك ان فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب ان يكونوا هم الآل ، وايضاً يختلف الناس في الآل قيل هم الاقارب وقيل هم أمته فان حملناه على القرابة فهم الآل وان حملناه على الامة الذين قبلوا دعوته فهم ايضاً آل فثبت ان على جميع التقديرات هم الآل واما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل فمختلف فيه .

(١) منهم احمد بن حنبل في صحيحه والطبري في تفسيره بثلاثة اسانيد والحاكم في المستدرک والزخشي في الكشف وخطب خوارزم في مقتل الحسين وابن الاثير في جامع الاصول والرازي في تفسيره وابن بطريق في العمدة وابن طلحة في مطالب السؤل والكنجي في كفاية الطالب بسندين والبيضاوي في تفسيره والطبري في ذخائر العقبى بسندين والنسفي في تفسيره والحموي وصاحب المناقب الفاخرة والنيسابوري في تفسيره وابو حيان في البحر المحيط وابن كثير في التفسير بسندين والهشمي في مجمع الزوائد والمهايمي =

= الهندي في تفسير تبصير الرحمان وابن حجر العسقلاني في الكافي الشاف بثلاثة اسانيد وابن صباغ المالكي في فصول المهمة والسيوطي في الدر المنثور بثلاثة اسانيد وفي الاكليل بتسعة اسانيد وفي احياء الميت باربعة اسانيد وابن همام في حبيب السير وابن حجر في الصواعق المحرقة بثلاثة اسانيد والخطيب الشريفي في السراج المنير والبركري في الأربعين والمير محمد صالح الترمذي في مناقب مرتضوي والمحل في الحقائق الوردية والمولى حسين الكاشفي في روضة الشهداء وفي المواهب والشرابي في الانحاف بثلاثة اسانيد والصبان في اسعاف الراغبين من (٣) والشوكاني في فتح الغدير (٦) والألوسي في روح المعاني (٤) وارجح المطالب والقندوزي في ينابيع المودة (٨) والبرزندي والطبراني وابن حنبل في المناقب وابن ابي حاتم في التفسير والحاكم في المناقب والنيسابوري في الوسيط وابن جرير في جامع البيان والحقاني والشبلنجي في نور الابصار والسيد صديق حسن خان في هداية السائل في ادلة المسائل^(٢) والحضرمي في رشفة الصادي والتونسي في السيف المسلول والحداد في القول الفصل (١٧) والخوارزمي في مقتل الطبري في ذخائر العقبى هؤلاء الفطاحل رووا عن رسول الله (صل الله عليه وآله وسلم) نزول آية ذوي القربى في الخمسة الطاهرة (عليهم السلام) .

وفي ملحقات الاحقاق ٩ : ٩٢ يستدرك ما اخرجه في ٣ كما هنا بقوله ومنهم الثعلبي في الكشف والبيان والخواجه محمد پارما البخاري في فصل الخطاب على ما في الينابيع ٣٦٨ والبدخشي في مفتاح النجا ١٣ والقندوزي في ينابيع المودة ١٠٦ والطبراني في المعجم الكبير ١٣١ وابو نعيم الاصبهاني في نزول القرآن مخطوط والزنجشري في تفسيره ٣ : ٤٠٢ والامر تسرى في ارجح المطالب ٦٢ والحضرمي في القول الفصل ١ : ٤٨٢ وعبد الكافي الحسيني في السيف اليماني المسلول ٦٤ والخوارزمي في مقتل الحسين ٥٧ والطبري في ذخائر العقبى ٢٥ وابن تيمية في منهاج السنة ٣ : ٢٥٠ والتفتازاني في شرح المقاصد ٢ : ٢١٩ والقسطلاني في المواهب اللدنية ٧ : ٣ و ١٢٣ والعسقلاني في الكاف الشاف ١٤٥ ومحمد صديق حسن خان ملك بهوپال في فتح البيان ٨ : ٢٧٠ والسيوطي في =

وسلم) لأنهم أبواب مدينة علمه وهم الثقل الثاني : عترته، وهم خلفاءه في أمته ، كما تواترت بذلك الروايات من طريق الفريقين ، مهما يهرف الهارفون ويخرف الخارفون في اختلاق روايات تناقضها أو تأويلات ، حيث القرآن هو الميزان لا سواء ، وهنا « المودة في القربى » لا « للقربى » ولا « مودة القربى » حيث القربى جعلوا مكاناً للمودة ، أن تتمكن المودة فيهم كسبل إلى الله ، لا مودتهم والمودة لهم لكي يتخذوا أصولاً وأهدافاً ، لا ! وإنما

= احياء الميت ١١٠ والمبيدي في شرح ديوان امير المؤمنين مخطوط والخضرمي في رشفة الصادي ٢٢ والشبراوي في الاستحقاق ٥ و ١٣ والشافعي في المناقب ٧٠ مخطوط والامر تسرى في ارجع المطالب ٥٧ والبديخي في مفتاح النجاة ١٢٢ مخطوط والبلخي في ينابيع المودة ٢٦١ والادريسي في رفع اللبس والشبهات ٨ والقاضي بهجت افندي في تاريخ آل محمد ٤٤ والتهاني في الشرف المؤيد ٧٢ وفي الانوار المحمدية ٤٣٣ والساعاتي في بلوغ الاماني المطبوع ذيل الفتح الرباني ١٨ : ٢٦٥ وابن حنبل في فضائل الصحابة ٢١٨ مخطوط وفي مسنده على ما في الينابيع والزغشري في تفسيره ٣ : ٤٠٢ والخوارزمي في مقتل الحسين ١ و ٧٥ والرازي في تفسيره ٢٧ : ١٦٦ وابن بطريق الحلبي في العملة ٢٣ والكنجي في كفاية الطالب والشافعي في مطالب السؤول ٨ والبيضاوي في تفسيره ٤ : ١٢٣ والنسفي في تفسيره ٩٥ والحموي في فرائد السمطين والنيسابوري في تفسيره ٢٥ : ٣١ وابو حبان في البحر المحيط ٧ : ٥١٦ وابن كثير في تفسيره ٤ : ١١٢ والبيهقي في مجمع الزوائد ٩ : ١٠٣ والكوكبي في تفسيره تبصير الرحمن ٣ : ٢٤٧ والصباغ في الفصول المهمة والسيوطي في تفسيره ٦ : ٧ وفي اكليله ١٩٠ وفي احياء الميت ١١٠ وخواندمير في حبيب السير والترمذي في المناقب المرتضوية ٤٩ والكاظمي في المواهب ٢ : ٢٤٣ والشبراوي في الاتحاف ٥ والطبراني في المعجم الكبير وابن ابي حاتم في تفسيره والحاكم في المناقب والواحدي في الوسيط وابو نعيم في حلية الأولياء والزرندي في نظم درر السمطين وابن حنبل في المناقب والحقاني في فلك النجاة والطبري في جامع البيان وعبد الكافي الحسني في السيف المسلول ٩ والحداد في القول الفصل .

هم السبل إلى الله والأدلال على مرضات الله ، إذاً فليس واجب المودة هنا « إلا المودة في القربى » حيث توصلكم إلى الله .

إن « القربى » هي مؤنث الأقرب كما وهي مصدر - وبطبيعة الحال - هي بمعنى الأقربى ، ولا تخلو في سائر القرآن عن كونها فعل التفضيل أو مصدره^(١) ولا تجدد القربى مجردة عن « ذي - ذوي - أولي » إلا هنا ، حيث الأقربى الرسالية هي المعنية دون ذويها وأوليها ، ولذلك قال « في القربى » لا « للقربى » أو « القربى » .

فحاصل المعنى من المودة في القربى هو المودة في القربى إلى الرسول كمدينة علم الرسالة ، فإلى الله حيث الرسالة تكرر ككل إلى الله : « .. إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً » فكانوا هم السبل إليه والمسلك إلى رضوانه .

فليست القربى إذاً - فقط - أقربى الرسول إلى الله ممن سواه وإن كانت تشملها كأصل ، ولكننا المودة في القربى إنما تكون لهم كسبيل كاملة إلى الله إذا اتخذوا إلى مدينة علمه سبيلاً هي أبوابها : « ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً . يا ويلقى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً » (٢٥: ٢٩) .

فالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو أفضل السبل إلى الله ، فالسبيل مع الرسول ليس هو الرسول وإنما سبيل مع الرسول إلى الله ، هل لأن الرسول لا يكفي سبيلاً إلى الله حتى يثنى بسبيل معه ؟ أم إن السبيل معه هو القرآن ؟ والقاتل : يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، لا ينقصه إلا

(١) كما في ستة عشر موضعاً من « ذي القربى » و « ذوي القربى » و « أولوا القربى » و « ذا قربى » و « أولى قربى » .

سبيلٌ مع الرسول ، وأما الرسول والقرآن فهما توأمان ، حيث الإيمان بأحدهما إيمان بالآخر ، والقرآن هو الدليل لرسالته ، فكيف يتخذ الرسول سبيلاً دون القرآن ، فالسبيل هنا ليس هو الرسول ولا القرآن ، وإنما هو سبيل إلى رسول القرآن . وقرآن الرسول فإلى الله ، وليس إلا « المودة في القربى » : الأقربين إلى الرسالة ، فإن مودتهم - لأنهم أبواب مدينة علم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) - تتبع اتخاذهم سبيلاً مع الرسول وكما تواتر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) : « أنا مدينة العلم وعلي بابها ».

ثم ولا تعني القربى - وبأخرى - أقربية الرسول إليهم^(١) ولا أقربيتهم إليه ، لو تعني قرابة نسبية أم ماذا من غير الرسالية ، فإنها ليست لهم ولصالحهم في اتخاذهما سبيلاً إلى ربه ، على أن المخاطبين وهم المؤمنون برسالته آمنوا به لرسالته وهي قربى روحية فهي أقرب وأحرى في المودة من القربى غير الروحية الرسالية .

فالمودة في القربى - التي لها صلة بأجر الرسالة وليست به فإنها لهم ، وهي ممن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً - إنها ليست هي الرسالة حيث

(١) كما في الدر المنثور ٦ : ٦ - اخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي لقراي منكم وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم - اقول وهذا خلاف المستفاد من القربى كما عرفناها من الآية وخلاف النقل المتواتر عن ابن عباس نفسه وخلاف اجماع اهل البيت (عليهم السلام) .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٧٨ ح ٨٥ في روضة الكافي باسناده عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : وقال لاعداء الله اولياء الشيطان .

صدقوها ، وليست أجراً لنفسها ، اللهم إلا تعرفاً سليماً إلى الرسالة واستمرارية لها وليس إلا بـ « المودة في القربى » عترته (صلى الله عليه وآله وسلم) الأقربون إليه في معرفة الرسالة وحملها .

هنالك مودة في الرسالة تجعلهم يتعلمون من الرسول ويطيعونه كما يستطيعون حسب ما يودون رسالة الله ويحبون الله : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » (٣ : ٣١) وهذه المودة تتطلب مودة السبل إلى الرسالة ومدينة علم الرسول ، وليست إلا « المودة في القربى » حيث تقربهم إلى الرسول فإلى الله زلفى ، ثم لا نجد قربي إلا هيه ، اللهم إلا واهية ، إلا قربي الله وليست لغير المعصومين اللهم إلا سبلاً إلى الله ، وهم السبيل الأعظم والصراط الأقوم ، وهم أهل بيت النبوة ، وموضع الرسالة ، ومهبط الوحي ، ومعدن الرحمة ، وهم الدعوة الحسنى ، وحجج الله على أهل الدنيا والآخرة والأولى ، وهم الدعاة إلى الله ، والأدلاء على مرضات الله ، والمستقرين في أمر الله والتأمين في محبة الله .

في الحق إن المودة في القربى ليست أجراً للرسالة ، وإنما هي طلب المزيد من تصديق الرسالة بالمودة في الملاصقين الأولين بالرسالة ، ودأً تحملهم على ملازمتهم في الأخذ عنهم أهل البيت ، فأهل البيت أدرى بما في البيت .

فلأن الأجر هو أجر الرسالة لا أجر محمد إلا كرسول ، فلتكن المودة في القربى هي في قربي الرسالة : من هو أقرب إليها من بيت الرسالة ، ثم وهو لهم كمؤمنين بالرسالة وهو ممن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ، لا قرب محمد كسائر البشر إليهم ولا قربهم إليه ، فإن المودة في هذا القرب وذاك ليست إسلامية ولا تمت بصلة لرسالته أم ماذا ؟

ثم المودة في قرباه إليكم ليست إلا له لا لهم « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم » كذلك هي والمودة في قرباهم إليه ليست اتخذ سبيلاً إلى الرب اللهم إلا قربى الرسالة ، سبيلاً إليها فإلى الله وهي الأئمة من عترته (صلى الله عليه وآله وسلم) .

فلئن قلت لا قربى أقرب من قربى الله فلتكن هذه المودة في قربى الله « أن تتقربوا إليه بطاعته »^(١) ؟ قلنا : كما المودة في طاعة الله تحملكُم عليها ثم قربى بها إلى الله ، كذلك المودة في الأدلاء إلى الرسول فإلى الله ، فلولا معرفة الرسول والرسالة كاملة لم تعرفوا طاعة الله حتى تقربكم إلى الله زلفى « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً » فلو كان السبيل إلى الرب هي الطاعة المعروفة لكل أحد فكيف يسألهم المودة فيها كأجر الرسالة ، فإنما هذه سبيل جديدة يعرفها لهم حيث هم يعلمونهم ما خفي عنهم وعزب عن علمهم فهم أبواب مدينة علم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

« ومن يقترب حسنة » تصديقاً للرسالة الإلهية ، وتذرعاً بالمودة في القربى إليها فإلى الله زلفى ، أم ماذا من حسنة عقائدية أو عملية ؟ « نزد له فيها حسناً » حسناً على حسنة نوراً على نور « إن الله غفور » حيث التقصير والقصور في اقتراف حسنة لمن استغفر وأتاب « شكور » لمن يقترب حسنة ، ولمن يتوب بعد السيئة وقد « يبدل الله سيئاتهم حسنات » (٢٥) : (٧) .

ولقد كانت هذه الآية الغرة اليتيمة تذكرة لهم أمام مشهد روضات

(١) الدر المنثور ٦ : ٦ - أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه من طريق مجاهد عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية : قل لا أسألكم على ما أتيتكم به من البينات والهدى أجراً إلا أن تودوا الله وأن تتقربوا إليه بطاعته .

الجنات وحرية المشيآت فيها ، وهي حصيلة الدعوة الرسالية الصعبة الملتوية ليل نهار ، ذكرى أنه لا يسألهم على هذا أجراً إلا المودة في القربى وهي لهم ، وإلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً .

لقد كان الاستثناء منقطعاً معنوياً حيث المودة هذه لم تكن أجراً ، وإن كان متصلاً لفظياً حيث سماها أجراً وما هي بأجر ، ثم وليس مجرد عدم تناول الأجر بل ويتناولون هم أجراً وزيادة « ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ... » ! ثم ومن بعد الأجر زيادته غفراً وشكراً .

فخصيصة هذه المودة أنها ليست أجراً له ، وهي لهم ، وهي السبيل إلى ربهم ، وليست القربى أشخاصاً ، وإنما هي الأقربى إلى الرسول رسالياً وإلى الله بعد الرسول معرفياً وعبودياً ، المتمثلة في الأئمة من عترته المعصومين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحَقِّقُ الْحَقَّ يَكَلِّمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٢٤) .

هذه الآية لا تمت بصلة لآية الأجر إلا كونها موضع ريبة لجماعة من المسلمين ، كما القرآن كله عند الناكرين ، قوله في الجوا الإسلامي الذي لم يسلم تماماً عن الانحراف ممن ثقلت عليهم المودة في القربى^(١) حيث قلبها

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٧٦ ح ٨٢ في تفسير علي بن ابراهيم بسند عن محمد بن مسلم قال : سمعت ابا جعفر (عليه السلام) يقول في قول الله عز وجل : قل لا اسألكم عليه اجراً .. الى ان قال : ففرض الله عليهم المودة في القربى فان اخذوا اخذوا مفروضاً وان تركوا تركوا مفروضاً قال : فانصرفوا من عنده وبعضهم يقول : عرضنا عليه اموالنا فقال لا - قاتلوا عن اهل بيتي من بعدي وقالت طائفة : ما قال هذا رسول الله وجموده وقالوا كما حكى الله عز وجل : « ام يقولون افترى على الله كذباً » - فقال عز وجل : « فان يشاء الله =

بعضهم الى العداوة كما عادوا النبي كالمنافيين، وآخرون مذبذبون عوانٌ دون عناد ولا وداد إلا مودة كسائر المسلمين أو هي أعلى دون أن تتخذ إلى الرب سبيلاً ، ثم قليل منهم متعهدون .

ثم قوله لغير المسلمين إن القرآن ككَلِّ مفترى على الله ، « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله » (١٠ : ٣٨) . . فأتوا بعشر سور مثله مفتريات « (١١ : ١٣) . . إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون » (١١ : ٣٥) . . إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً » (٤٦ : ٨) .

أو أن بعضه مفترى كالمودة في القربى عند البعض من المسلمين ، أم ماذا من غير المرغوب عندهم حيث يقولون : « إئت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي . . » (١٥ : ١٠) والجواب الحاسم هنا وفي الحاقة : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا عنه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين . وإنه تذكرة للمنتقين » (٤٩) .

و « أم » هنا عطف إعراض عما لا يستحق الذكر كان كذب الله « أم

= يجتم على قلبك « قال : لو افتريت « ومع الله الباطل » يعني : يبطله « ويحق الحق بكلماته » يعني بالائمة والقائم من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) « انه عليم بذات الصدور » .

وفي الدر المنثور ٦ : ٧ - اخرج الطبراني والخطيب من طريق أبي الضحى عن ابن عباس قال : جاء العباس الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : انك تركت فينا صفائن منذ صنعت الذي صنعت فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا يبلغوا الخير أو الايمان حتى يحبوكم .

يقولون افترى على الله فهناك مفترون على الله الكذب من غير
رسل الله ، وهم مفضوحون إذ لا حجة لهم - فيما يفترون - باهضة ، إلا
داحضة ، وهم لا يصدّقون في صدقهم على الله دوغما رسالة إلهيه أم ماذا ،
فكيف يصدّقون في فريتهم على الله .

وأما أن رسولا صادق الرسالة بآياته يفترى الكذب على الله ، ثم الله
يستمر في رسالته دون أن يأخذ منه بيمين القدرة ويقطع عنه وتين الرسالة ،
فهذه خيانة إلهية ان يأتمن الخائن في رسالته ، وإضلال في موقف الهداية .

فـ « إنه عليم بذات الصدور » لا يرسل ويأتمن الخائن ، ولو أرسل من
تتاق منه الخيانة فليختم على قلبه ، قلباً لقلب الرسالة ولسانها وأحوالها
وآياتها إلى غيرها ، حسماً لمادة الخيانة ، ثم قلباً إلى غير الايمان جزاء بما
خان .

وسنة الله دائبة على محو الباطل وإحقاق الحق أياً كان ومن أي كان ،
فهلا يمح الباطل من رسول الحق ، وهلا يحق الحق في رسول الحق ؟ أجل :
« ويمح الله الباطل » بكلماته « ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات
الصدور » .

علمه بذات الصدور لا يدعه يرسل الحقنة ، ولو أرسل فلأنه يعلم
موضع الخيانة يختم على قلب الخائن ، ولأنه يعلم الحق والباطل ككل ،
« يمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته » ودلالاته .

فما كان الله ليخفى عليه ما يدور بخلد الرسول قبل أن يرسله أو
يقول ، فكيف بما بعده « إنه عليم بذات الصدور » !

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ
مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ
فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿ (٢٦) .

و « هو » لا سواه « الذي يقبل التوبة عن عباده » فلماذا القنوط من رحمته واللجاج في معصيته أو اللجوء إلى سواه ، فباب التوبة مفتوحة على مصراعها لمن تاب إلى الله ، وقبول التوبة لمن أرادها . أن يتوب الله على العاصي ليتوب إلى الله ثم يتوب الله عليه ليقبلها عنه : « ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » (٩ : ١١٨) « وأرنا مناسكنا وتب علينا » (٢ : ١٢٨) والتوبة الصالحة هي بعد الإستغفار : « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه » (١١ : ٣) ومن بعد التوبة الإيمان والإهداء والعمل الصالح : « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه » (٥ : ٣٩) « وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » (٢٠ : ٨٢) .

وقد تنتهي التوبة إلى الاجتناب كما في آدم : « وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتنبه ربه فتاب عليه وهدى » (٢٠ : ١٢٢) فقد عصى فتاب إلى الله فتاب الله عليه ثم هداه هدى ثانية بعدما اهتدى في توبته ثم اجتنبه بالرسالة .

« ويعفو عن السيئات » وترى العفو هنا عن السيئات بتوبة ؟ وقبول التوبة يشملها أم دون توبة فكيف هو ؟ إن السيئات هي ما دون الكبائر ، والعفو عن السيئات دون توبة موعود شريطة اجتناب الكبائر : « إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً » (٤ : ٣١) فمقترف الكبائر والسيئات دون توبة لا تعفى عنه السيئات دون توبة .

« ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات » الله فيما دعاهم إلى دينه والتوبة إليه كما « ويستجيب » الله دعاءهم وتوبتهم « ويزيدهم » في استجابتهم إياه واستجابته إياهم « من فضله » وأما « الكافرون » فد لهم عذاب شديد « إذ لم يستجيبوا لربهم فلا يستجيبهم ربهم » ولهم عذاب شديد .

وقد تعني التوبة هنا-والإستجابة فيما تعني-توبة من تقوّل عليه أنه افترى آية القربى على الله كذباً واستجابته^(١).

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدْرِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾^(٢٧). ولكن :

«يسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً» (١٧) :
(٣٠) ف «إن الانسان ليطغى . أن رآه استغنى» (٩٦ : ٧) .

فلأنه تعالى بعباده خير ما هي طبيعتهم ، وبصير إلى ما تصير حالتهم لو بسط في رزقهم ككل ، لذلك جرت سنته على أن ينزل من رزقه لهم بقدر : كمية معينة معينة ، وهندسة خاصة مقضية، من سعة وقدر وعوان بين ذلك .

فغزارة الحياة الأخرى للمؤمنين أن رزقهم كما يشتهون ولدى الله مزيد

(١) نور الثقلين في المجمع. وذكر ابو حمزة الثمالي في تفسيره حدثني عثمان بن سعيد بن عمير عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين قدم المدينة واستحكم الاسلام قالت الانصار فيما بينهم : نأى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فنقول له ان تعرك امور فهذه اموالنا تحكم فيها غير حرج ولا محذور عليك فأتوه في ذلك فنزلت « قل لا اسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى » فقرأها عليهم وقال : تودون قرابتي من بعدي فخرجوا من عنده مسلمين لقوله فقال المنافقون : ان هذا شيء افتراه في مجلسه اراد ان يذلنا لقرابته من بعده فنزلت « ام يقولون افترى على الله كذباً » فارسل اليهم فتلاها عليهم فبكوا واشتد عليهم فأنزل الله « وهو الذي يقبل التوبة عن عبادة » الآية فارسل في اثرهم فبشرهم وقال : ويستجيب الذين آمنوا - وهم الذين سلموا لقوله .

مصلحة لهم إذ لا تنازع هناك ولا طغوى وبغى حيث يُخرج أضغانهم فهم صالحون .

ونزارة الحياة الدنيا بجانب تلك الغزارة لحد لا تحسب بشيء ، هذه النزارة مُهندسة مقدرة لهم بقدر ، فإن الخبير البصير يعلم أن عباده كهؤلاء البشر لا يطبقون الرزق إلا بقدر ، فهم صغار لا يملكون التوازن حيث هم في بلاء الأرض ، فسيبقى فيضه المبسوط بغير حساب لمن ينجحون في محنة الدنيا وابتلاءها ، وقد يسط هناك لمن لا ينجحون ويبغون بسنن أخرى حاكمة على هذه السنة . كسنة تعجيل العاجلة لمن كان يريد لها دون الأجلة توفية الجزاء فيها : « من كان يريد الدنيا وزيتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » (١١ : ١٨) .

وسنة الإستدراج والإملاء : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدي متين » (٧ : ١٨٢)

فسنة الإصلاح ككل بتقدير الأرزاق ، سنة ابتدائية عامة تتبنى صالح المجموعة ، وسنة الإستدراج وتوفية الجزاء ، سنة هامشية خاصة لمن يستحقونها .

ففي حديث قدسي : « إن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم ولو صححته لأفسده وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده وذلك اني أدبر عبادي لعلمي بقلوبهم » (١) .

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٧٩ - عن مجمع البيان روى انس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن جبرئيل عن الله : .

ف « لو فعل لفعلوا ولكن جعلهم محتاجين بعضهم إلى بعض واستعبدهم بذلك ولو جعلهم أغنياء لبغوا ولكن ينزل بقدر ما يشاء مما يعلم أنه يصلحهم في دينهم ودنياهم إنه بعباده خير بصير^(١) .

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا وزينتها فقال له رجل يا رسول الله أو يأتي الخير بالشر؟ فقال إن الخير لا يأتي بالشر وإن مما ينبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم إلا آكلة الخضر فإنها أكلت حتى امتلأت خاضرتها فاستقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت ، وإن المال حلوة خضرة ، ونعم صاحبها المسلم هو أن وصل الرحم وانفق في سبيل الله ومثل الذي يأخذه بغير حقه كمثل الذي يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيداً يوم القيامة^(٢) .

وفي نص آخر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) جواب آخر هي هذه الآية « ولو بسط الله الرزق .. » ثم استمر في جوابه (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٣) .

مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

-
- (١) المصدر في تفسير علي بن ابراهيم في الآية عن الصادق (عليه السلام) .
 (٢) الدر المنثور ٦ : ٨ - اخرج احمد والطيالسي والبخاري ومسلم والنسائي وابو يعلى وابن حبان عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (صلى الله عليه وآله وسلم) فرأينا انه ينزل عليه السائل وجوابه - فسكت عنه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا يكلمك فسرى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فجعل يمسح عنه الرخصاء فقال : اين السائل فرأينا انه حمد فقال : ...
 (٣) المصدر اخرج ابن جرير عن قتادة في الآية ذكر لنا ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ...

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ
الْحَمِيدُ ﴾ (٢٨) .

الغيث هو ما يُغيث العطاش نشاطاً بعد فتور الى نعاش ، إن روحياً
فأنبل وأحرى ، وإن جسياً عن كبد حرى ، فهو المغيث هنا وهناك لا
سواه ، « من بعدما قنطوا » عن ريّ، ودخلوا في غيٍّ « وينشر رحمته » بغيث
يغيث جسماً أم روحاً « وهو الولي » الذي يلي من أمر عباده ما لا يليه إلا
هو ، ولا يقدر عليه إلا هو ، ف « هو الولي الحميد » حميداً في ولايته دون
قصور ولا تقصير .

« ومن آياته » في ولايته الحميدة الرحيمة « خلق السماوات .. » :



وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيْهِمَا
مِّنْ دَآءٍ ۚ وَهُوَ عَلٰى جَمْعِهِمْ اِذَا يَشَآءُ قَدِيْرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا
اَصْبَحْكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِىْ مَا كَسَبَتْ اَيْدِيْكُمْ وَيَعْفُو عَنْ
كَثِيْرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا اَنْتُمْ بِمُعْجِزِيْنَ فِى الْاَرْضِ وَمَا لَكُمْ
مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيْرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ
الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْاَعْلَمِ ﴿٣٢﴾ اِنْ يَشَآءُ يُسَكِّنِ الرِّيحَ

فَيُظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٤﴾ أَوْ يُوقِنَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ
كَثِيرٍ ﴿٣٥﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ
مِنْ مَخِصٍ ﴿٣٦﴾ فَآ أَوْتَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَنَعُ الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ
وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا
لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ
يَنْتَصِرُونَ ﴿٤٠﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۚ فَمَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَأُجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَلَمَنْ
أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ۚ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٢﴾

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ
 فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾
 وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾
 وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ ۚ وَتَرَى
 الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّنْ
 سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِّنَ
 الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِّنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ ۚ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ
 الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ
 مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ
 فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ
 يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ ۚ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّنْ مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم

مِنْ نَكِيرٍ ۝٤٧ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۚ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ
مِنْ رَحْمَةِ فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ۝٤٨ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا
وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ۝٤٩ أَوْ يَزْوَجُهُمْ ذُكْرَانًا
وَأُنثَىٰ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠
* وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ
حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ۚ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥١ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ
أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ
جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ ۚ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ

لَتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ
الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (٢٩).

آية غرة بين الغرر ، تأتي بملاحم غيبية لم تسطع البشرية حتى الآن أن تتطلعها فتطلع عليها ، رغم سبرها الأغوار العميقة الواسعة في أرجاء الكون بالأسفار الجوية وسواها من وسائل حديثة ، فلم تسطع إلا على اشراف مما تحمله هذه الآية القصيرة من غرر : *التي*

- ١ - إن في السماوات دواباً كما في الأرض : هذه أم سائر الأرض من السبع ، كما في السماوات السبع - ٢ - ومنها عقلاء كإنسان هذه الأرض - ٣ - والله سوف يجمع بين عقلاء السماوات والأرض !!! .

أسرار مستسرة لم ينفذ إلى طبيعتها أحد ، فضلاً عن التطلع إلى إنشائها وكيفياتها ، فكل المحاولات العلمية التي بذلت للبحث عن حياة في السماء حتى النباتية ، فضلاً عن أحياء فيها حيوانية أم إنسانية أم ماذا إنها أغلقت دونها الأبواب ، وانحسرت عندها الأسباب ، حيث انقلب البصر إلى أهلها خاسئاً وهو حسير .

إنسان الأرض لم يحط علماً لحد الآن بدواب الأرض وهو ساكنها

وماكنها ، فكيف له التطلع إلى السماء ليرى ساكنها وماكنها ، اللهم إلا أن يُطْلِعَهُ إله الأرض والسماء كما في هذه الآية وأضرابها ، حيث تبث فيهما من دابة بعد خلقها ، ثم تجمعهما هنا وليوم الجمع في هذه اللمحة اللامعة ، فيشهد القلب مشاهد ثلاثة أو أربعة قبل أن ينتهي اللسان من آية واحدة قصيرة من الذكر الحكيم ! .

وماذا تعني دابة السماوات والأرض ؟ ... إن الدب - لغوياً - مشي خفيف ، والدابة وهي المبالغة فيه ، تعني الماشية فوق الخفيف ، وأرض مدبوبة : كثيرة ذوات الدبيب فيها ، فالدابة - إذاً - حيوان يمشي على أرض ما في أرض أم سماء : « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير » (٢٤ : ٤٥) .

إذاً فكل دابة تمشي ، فلا تطير في جو الأرض : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ... » (٦ : ٣٨) ولا في جو السماء كالملائكة : « والله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون » (١٦ : ٤٩) وهذه الآية تكفي نصاً على أن الدابة لا تشمل الملائكة ، وتأخر الملائكة هنا ذكراً على تقدمها شأناً علّه للإطاحة باحتمال تخصص الدابة بالأرض .

وفىما تُطلق الدابة تعني كل دابة في الكون ، بثاً لها كما هنا ، أو أخذاً بناصيتها : « وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » (١١ : ٥٦) أو خلقاً لها من ماء مشياً على بطن أو رجلين أم أربع (٢٤ : ٤٥) أم قضاء عليها كلها لولا أجل مسمى بظلم ناسها : « ولو يوآخذ الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى » (١٦ : ٦١) أم رزقاً لها حيث لا تحمل رزقها : « وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها

ولياكم ، (٢٩ : ٦٠) .

اللهم إلا بقرينة قاطعة تحصرها بالأرض : « وما من دابة في الأرض ... » (٦ : ٣٨ و ١١ : ٦) « فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ... » (٢ : ١٦٤) هذه الأرض أم كل السبع إلا بقرينة تخصها : « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته » (٢٢ : ١٤) « وإذا وقع عليهم القول أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » (٢٧ : ٨٢) .

ف « ما بث فيها » هنا وفي أضرابها تدلنا على وجود دواب في السماوات كما في الأرض ، أترى أن فيها دابة الإنسان حيث يمشي على رجلين أم ماذا كما في الأرض ؟

أجل ! لمكان « هم » في « جمعهم » هنا حيث ترجع إلى ذوي العقول دون « ها » فإنها لغير ذوي العقول ، وقد يكون من « هم » ناسٌ « ولو يوأخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى » (١٦ : ٦١) فحيث لا مرجع هنا للضمير « عليها » فلترجع إلى الدنيا كلها من أرضها وسماها ، كما وهما تذكيران بآيات قبلها « وله ما في السماوات والأرض وله الدين واصباً ... » (٥٢) فالناس المأخوذون هنا لولا أجل مسمى هم ناس السماوات والأرض ، ودليلاً ثانياً إن دواب السماوات لا تؤخذ بما ظلم ناس الأرض ، فأخذ الدابة بما يظلم الناس أخذ لما ينفع الناس مع الناس .

وقد تعني آية الحج من ثالث الثلاثة في المساجد كثيراً من ناس السماوات والأرضين : « ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ... » (١٨) ف « من في السماوات والأرض » من

ملائكة أو إنسان أم أية دابة أم من ذا؟ « والشمس والقمر » وغيرهما من نجوم السماء « والجبال والشجر » من الأرض والسماء . « والدواب وكثير من الناس » فيهما اختياراً « وكثير حق عليه العذاب » تكوينياً واضطراباً .

وإذا السجدة هنا تعم ذوي العقول وسواهم ففي النحل يخصهم دون سواهم : « والله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » (٥٠) حيث تتأخر الملائكة الساجدة لكي تعم الدابة الساجدة السماوات والأرض « وهم لا يستكبرون يخافون . . . !

ثم الدابة العاقلة بين دواب السماء قد تكون إنساناً يمشي على رجلين أم ماذا ؟ فلا مشاحة في الأسماء ، أم تكون أياً كان من العقلاء من جان أمن ذا ، فالعالمون في آياتهم دليل على فرقة ثلاثة بعد الإنس والجان - لأقل تقدير - قضية أقل الجمع .

ففي (٧٣) موضعاً من أي الذكر الحكيم يأتي العالمون والعالمين جمع العالم وهو العاقل ممن سوى الله ، نعرف من هذا الجمع عالم الإنس والجن ولا نعرف ثالثاً أم زاد إلا إجمالاً من آية البت والبعض من آيات الدابة وآيات العالمين : كـ « رب العالمين » و « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » (٣ : ٣٣) مما يدل على أفضلية هؤلاء المرسلين على مرسلي الجن وسائر العالمين ، كما القرآن ورسوله : « إن هو إلا ذكر للعالمين » (٦ : ٩٠) ذكراً ورسالة لعامة المكلفين ورحمة : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٢١ : ١٠٧) ونذارة : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » (٢٥ : ١٠) .

وقد تدلنا روايات عدة على مدن سماوية كما يروى عن الإمام علي (عليه السلام) : « هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في

الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمودين من نور طول ذلك العمود في السماء مسيرة مائتين وخمسين سنة^(١).

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) في كل واحدة من السماوات السبع خلقاً كثيراً وكذا في ما بينها^(٢).

وكما عن الرسول الأقدس (صلى الله عليه وآله وسلم) : « رأيت في السماء السابعة ميادين كميادين أرضكم هذه^(٣) فالميادين كميادين أرضكم والمدائن مثل التي في الأرض والخلق الكثير والبقاع الكثيرة والمساكن الطيبة ، كل ذلك تؤيد أن «هم» في آية البث تعني وجود عقلاء في السماوات كما في الأرض وكما تدلنا متظافر الروايات^(٤).

(١) تفسير علي بن ابراهيم القمي عن ابيه عن ابن ابي عمير عنه (عليه السلام) .

(٢) بحار الأنوار عن كتاب مثنى ابن الوليد الحافظ عن ابي بصير عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

(٣) البحار عن الفخر الرازي بأسناده عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

(٤) وعن الصادق : « ان الله تعالى خلق بقاعاً كثيرة ومساكن طيبة فخلق مغربكم هذا تسعة وثلاثون مغرباً ، مدينة تشرق فيها الشمس وتغرب وهي مملوءة من خلق عقلاء يتمتعون بمعرفة الله ونعمته لم يدنس ساحتهم اثم ولا خيرة لهم عنه .

وعن باقر العلوم (عليه السلام) : « ان وراء شمسكم هذه اربعون عين شمس بين كل واحدة اربعون سنة وفي كل منها خلائق كثيرون لا يدرون هل خلق الله آدم ام لا ، وان وراء قمركم هذا اربعون قمرأوبين كل واحدة اربعون سنة فيها خلائق كثيرون لم يطلعوا على خلق الإنسان ولقد المهمهم الله كمثل النحل غريزة سنن المعيشة (تفسير القمي) . وفي مجمع البحرين نقلاً عن الفخر الرازي في جواهر القرآن عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الله ارضاً بيضاء تسير الشمس فيها ثلاثين يوماً وسعتها ثلاثين اضعاف ارضنا .

= وروى الشيخ ابو الليث السمرقندي (٣٧٣ هـ) في كتابه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم)
مثله بزيادة ان هذه الأرض مليئة من الأحياء .

وفي بحار الانوار وبصائر الدرجات عن الإمام الصادق (عليه السلام) ان وراء أرضنا
هذه أرض بيضاء نورها منا يعيش فيها خلق يعبدون الله ولا يشركون به احداً .
ويروى المفيد في الاختصاص عن الإمام الصادق (عليه السلام) ان علياً (عليه السلام)
سار الأرضين السبع ثلاث خربة واربع عامرة . وروى مثله في بصائر الدرجات ،
وعن الإمام الباقر (عليه السلام) مثله في ذو القرنين .

ويروى الصفار في البصائر عن الإمام الباقر (عليه السلام) ان صاحبكم يركب الصعب
ويرقى في السماوات السبع والأرضين السبع خمس عوامر واثنان خربتان .
وفي زيارة العاشور « فلقد عظمت بك الرزية وجلت في المؤمنين والمسلمين وفي اهل
السماوات واهل الأرضين اجمعين .

ويروى الصدوق في كتاب التوحيد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان لسائر
الأرضين السبع سكنة وقرء : « خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن » .

وفي البحار عن السرائر باسناده عن بريدة الأسلمي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) في
حديث المعراج : يا علي ! ان الله اشهدك معي سبع مواطن - الى ان قال - في الوطن الثاني
اتاني جبرئيل فاسرى بي الى السماء ... فكشط لي عن السماوات السبع والأرضين السبع
حتى رأيت سكانها وعمارها وموضع كل ملك منها فلم أر شيئاً من ذلك الاوقد رأيت كما
رأيت .

اقول : ليس السكان والعمار هنالك من الملائكة فانهم لا يمشون في الأرض : « قل لو
كان في الارض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً »
(٩٧: ١٧) .

وفي البحار (٦ : ٥٠٧) عن ابي بصير عن الصادق (عليه السلام) ان جبرئيل احتمل
رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - الى ان قال في حديث المعراج - .. ثم صعد =

وترى ان استعمال «هم» احياناً في غير ذوي العقول بمحسنات مجازية ، يهدم صرح دلالتها على ذوي العقول دون قرينة كما قيل^(١) .
 كلاً ، وإنها ضابطة لغوية أن «هم» أياً كان لا تعني إلا ذوي العقول ، أو هم مع غيرهم من غير ذوي العقول قضية التغليب ، اللهم إلا بقرينة قاطعة تصرف «هم» عنهم إلى سواهم، ولا نجد هذا الأخير إلا في « وكل في فلك يسبحون » (٣٦ : ٤٠) حيث السباحة العاقلة هكذا تسمح لإرجاع ضمير العاقل إلى هذه السابحات، إذ تسبح دون فتور ولا اصطدام وأعقل من العقلاء ، حيث تسبح بأمر خالق العقلاء !

ثم ونجد الجمع بين العقلاء وسواهم في آيات : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون » (٦ : ٣٨) فـ «هم» راجع إلى « دابة » إذ تشمل العقلاء وسواهم ، وكذلك « من » في آية النور « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من .. من .. من » فإن « كل دابة » تشمل الإنسان وسواه من دابة عاقلة وسواها ، فليكن موصوله موصول ذوي العقول .
 إذا ففي السماوات دواب عاقلة وسواها وكما في الأرض « وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » :

فهل إن هذا الجمع يعني جمعهم يوم الجمع ؟ ويوم الجمع لا يخص

= هي إلى السماء السادسة فإذا فيه خلق كثير يموج بعضهم في بعض ، ثم صعد بي إلى السماء السابعة فإذا فيه خلق كثير وملائكة .. وفيها الكروبيون .

وفيه عن مثق بن وليد الخياط عن الصادق (عليه السلام) قال : في كل من السماوات السبع خلق وبينها خلق ، قلت : وكيف الأرض ؟ قال : سبع أرضون في خمس منها خلائق وليس في الآخرين .

(١) القائل هو العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان .

العقلاء كما تدلنا آية الأنعام «ثم إلى ربهم يحشرون» : كل دابة ، ولم يستحقوا هنا ضمير العاقل إلا لأنهم أمم أمثالنا في الأولى ومن ثم يحشرون يوم الأخرى !

أم يخص الجمع يوم الدنيا في أسفار جوية متقابلة بين عقلاء الأرض والسماء ؟ فلأنه جمع بعد البث ، وأنه جمع للبعض من المجموعين ليوم الجمع^(١) فليكن في الأولى ، أم نجمع بين الجمعين ، في الأولى للعقلاء وفي الأخرى لكل دابة .

فقد جمعت هذه الآية على اختصارها ملاحم غيبية من وجود دواب في السماوات كما في الأرض، ولزامها الماء والكلاء والهواء حيث تتبنى حياة الدواب ، ومن عقلاء الدواب إنساناً أم من ذا ، وإن الله سوف يجمع بين عقلاء السماوات والأرض ، هل في تسافر إلى بعض بالسفن الفضائية فيجتمعان بين السماوات والأرض ، أم يسبق إنسان الأرض إنسان السماء إلى السماء أم إنسان السماء إلى إنسان الأرض ؟ لا ندري !

وترى الأوامر التشريعية خاصة بأرضنا هذه أم تعم كافة العقلاء المكلفين في أرجاء الكون ؟ .. في بحث مسبق عن الآية «لتنذر أم القرى ومن حولها ..» عرفنا أن الرسالة الإسلامية تشملهم كلهم كما الرسالات التي قبلها ، وفيها يروى عن الإمام الرضا (عليه السلام) «فأما صاحب الأمر فهو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والوصي بعد رسول الله قائم على وجه الأرض فإنما يتنزل الأمر إليه من فوق السماء من بين السماوات والأرضيين»^(٢).

(١) حيث الجمع هناك يخص الدابة بل والطير والملائكة وغيرها من غير الدابة .

(٢) رواه علي بن إبراهيم القمي عن أبيه عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا =

وقد يعنيه ما يرويه ابن عباس « سبع ارضين في كل ارض نبي كنيكم
وآدم كآدم ونوح كنوح وابراهيم كابراهيم وموسى كموسى وعيسى
كعيسى »^(١).

إن وجود الحياة العاقلة وسواها في سائر العوالم قد يكون من الواضح
وفي صورة مبهمة قبل أن يدل عليه دليل الوحي أم دليل علمي آخر ، فمن
البعيد كل البعد انحصار الحياة في هذه الكرة الصغيرة الهزيلة ، ثم لا حياة
في بليارات من الكرات ا .

نظرة ثانية إلى الآية :

« ومن آياته » آيات علمه ورحمته وقدرته ، وآياته الدالة على أن هذا
القرآن نازل بعلمه ، وآياته الدالة على وجوده أم ماذا من دلالات بينات :
« خلق السماوات والأرض » جنس الارض الشامل لسائر السبع^(٢).

« وما بث فيها من دابة » : « أخلقاً ثم بثاً لما خلق ؟ أم بث الخلق
أن خلق في كل ما خلق ؟ .. إن بثه تعالى يعمهما ، وقد يشهد الواقع

= (عليه السلام) حول الآية « الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ينزل
الأمريئهن » قلت : نحن على ارض واحدة ؟ قال : نعم .

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٣٨ - اخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي
في الشعب وفي الاسماء والصفات عن أبي الضحى عن ابن عباس في قوله : « ومن الأرض
مثلهن » : ...

اقول : راجع ج ٢٨ من الفرقان ص ٤١٨ - ٤٢٤ تفسير الآية « ومن الأرض مثلهن » .
(٢) قد يطلق الأرض ويراد بها هذه الأرض بقرينة تصرفها عن جنسها ، او تطلق ويراد
بها جنسها الشامل للسبع ، كما الساء قد تعني جو الأرض ، او السماء الأولى او السماوات
السبع كلها ، كما السماوات تعني السبع .

المللموس عندنا أنه بث الخلق ، إذ لم نر خلقاً هنا يصعد إلى السماء ! ولكنها الآية بمضيها تعني ماضي البث « وما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم .. » (٥١: ١٨) فضلاً عن أن يلمسوا بث الخلق أم بشأ لما خلق - اللهم إلا أبا البشر وأمه حيث القرآن يبطهما إلى الأرض - لا بثهما بعد خلقهما ، أو يقال : اسكتوا عما سكت الله عنه ، اللهم إلا أن كل دابة تحتاج جواً يناسبها ، فإنسان الأرض لا يسطع الحياة على القمر أم ماذا ، فأحرى بالبث أن تعني هنا بث الخلق .

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (٣٠).

المصيبة في الأصل هي الرمية التي تصيب الهدف ، ثم اختصت بالنائبة ، إعتباراً أنها ليست رمية من غير رام ، وهذه الآية تختص كل نائبة بما كسبت أيديكم ، وإن كانت من عند الله، فإنها من أنفسكم ، يرميكم بنصلكم الذي كسبتم ، إذا فهي رمية قاصدة برام عادل وأن الله ليس بظلام للعبيد .

مركز تحقيق كتاب علوم إسلامي

هناك فرق بين الحسنة والسيئة أن الحسنة من الله ومن عند الله ، ولكنها السيئة هي من أنفسكم ثم من عند الله : « ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله » (١١ : ٦٤) « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً . ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك .. » (٤ : ٧٩) .

وترى إذا كانت المصيبة الداهية هي بما كسبتها ورمتها أيدي المصابين بها جزاءً بما كسبت ، فكيف تلائم كون الدنيا دار عمل والأخرة دار جزاء ؟ .

والجواب : أن الدنيا دار عمل ككل ويُجزى فيها أحياناً ، والآخرة دار جزاء ككل ، ومصائب الدنيا قد تمحو من سيّات أو تحذّر أصحابها من عقوبات « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا » (٣ : ١٦٥) أو أنها إصابة استتصال لسيّات موبقات لا تُحمل حيث لا تحملها الحياة الجماهيرية : « فأصابهم سيّات ما عملوا وحقّ بهم ما كانوا به يستهزءون » (١٦ : ٣٤) « فأصابهم سيّات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيّات ما كسبوا وما هم بمعجزين » (٣٩ : ٥١) .

ذلك ولكن الله ليس ليصيب الذين كسبوا السيّات بكل ما كسبوا ، فقد « يعفو عن كثير » هنا حتى يستوفيها في الأخرى ، أم « يعفو عن كثير » إذا اجتنبوا كبائر ما ينهون عنه : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيّاتكم » (٤ : ٣١) ثم الإصابة ببعض ما كسبوا إنذاراً عليهم كيلا يتورطوا .

وترى هؤلاء المسيؤون نصيبهم بعض ما كسبوا فما بال المعصومين يصابون بما لم يكسبوا ، وما بال غيرهم من الصالحين يصابون فيما تصاب جماهير بينهم عصاة ، أو من يصابون في سبيل الله جرحاً أو قتلاً أو تشريداً أم ماذا ؟ .

الجواب : أن « كم » في « ما أصابكم » وفي « بما كسبت أيديكم » قد تعني الجمع وجاء الجمع ، في فتنه ومصيبة « لاتصين الذين ظلموا منكم خاصة » (٨ : ٢٥) فيما كسبت أيدي الظالمين هم يصابون مع غير الظالمين ، أولاء لهم رحمة وهؤلاء عليهم نقمة ، فقد أصابتكم مصيبة بما كسبت أيديكم ، فليست إذا داهية ومصيبة من الله دون رامية ، فالظالمون يرمون وهم يصابون مع غير الظالمين ، فـ « كم » في الرامية أخص من « كم » في المصابين ، ثم الذين يصابون في سبيل الله ليس الله ليجرحهم أو

يقتلهم بسيئاتهم، وإنما هم يصابون بسيئات الظالمين الصادين عن سبيل الله، فـ «كم» في «ما كسبت أيديكم» هم الرامية الظالمون، وفي «ما أصابكم» هم المرميون المظلومون، أولاء لهم ما لهم، وهؤلاء عليهم ما عليهم، فـ «إن الله يخص أوليائه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب»^(١) أو يقال إن إصابة البريئين أيضاً هي بما كسبت أيديهم من حسنات، فقد تكسب اليد حسنة يمانعها السيئون، وهذه الممانعة والمطاردة نتيجة طبيعية في هذه الحياة الدنيا، وعلى الذين يصابون مظلومين الدفاع الصارم ما أمكن «والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون» (٤٢ : ٣٩) والتصبر على المصيبات في سبيل الله : «ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها...» (٥٧ : ٢٢) وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون» (٣ : ٥٧) «واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور» (٣١ : ١٧) «فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا» (٣ : ١٤٦) «الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرع» (٣ : ١٧٢) «الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم» (٢٢ : ٣٥) .

فقد يصيب الإنسان داهية في جماعة بما رماه البعض منهم ، أو تصيبه بما رماه نفسه ، أو تصيبه في سبيل الله بما يرميه الصاد عن سبيل الله ، وقد تشمل كلها «وما أصابكم من مصيبة...» على اختلاف درجات الدلالة .

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨١ ح ٩٨ عن الكافي بإسناده عن علي بن رثاب قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن هذه الآية «أرايت ما أصاب علياً وأهل بيته (عليه السلام) من بعده أهو بما كسبت أيديهم وهم أهل بيت طهارة معصومون ؟ فقال : إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يتوب إلى الله ويستغفر في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب إن الله يخص... وعن قرب الاسناد عن عبد الله بن بكير مثله إلى - من غير ذنب .

وانها أرجى آية للمؤمنين الذين يرجون رحمة الله ف « ما أصابك من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فيما كسبت أيديكم والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه » (١) فذلك للمخاطبين المؤمنين .

وانها انكى آية للذين لا يرجون رحمة الله حيث تنبّههم ببعض ذنوبهم ويعفو هنا عن كثير ومن ثم العذاب الأليم .

ثم قد لا تشمل الآية المعصومين (عليهم السلام) (٢) أو تشمل بخفاء

(١) الدر المنثور ٦ : ٩ - اخرج احمد وابن راهويه وابن منيع وعبد بن حميد والحكيم والترمذي وابو يعلى وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن مردويه والحاكم عن علي بن ابي طالب (عليه السلام) قال : الا اخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : وما أصابكم ... وسأفسرها لك يا علي : ... وفيه اخرج جماعة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : والذي نفسي بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا نكبة حجر ولا عشرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عنه اكثر واخرج مثله جماعات آخرون .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٨٠ ح ٩٥ في تفسير علي بن ابراهيم قال الصادق (عليه السلام) لما دخل علي بن الحسين (عليه السلام) على يزيد نظر اليه ثم قال له : يا علي ! ما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ، فقال علي بن الحسين (عليه السلام) كلا ! ما هذه فينا نزلت ، إنما نزل فينا : ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، فتحزن الذين لا نأسى على ما فاتنا من امر الدين ولا نفرح بما آوتينا .

اقول : انما تحوّل الإمام (عليه السلام) إلى هذه الآية لأنها اوسع دلالة على الإصابات الظالمة غير المستحقة وأما آية « ما أصابكم .. » فلا يبلغ تفهمها مثل يزيد ، والرواية (٩٨) دليل شمول الآية لهم بما بينت وبيّنا .

« ويعفو عن كثير » بالنسبة لهم انه يصد كثيراً من كيد الظالمين عليهم فما تصيبهم هي قليل من كثير .

إن اصابات المؤمنين خير لهم وحظوة ، تنبيهاً في الدنيا وعفواً عن كثير في الدارين فـ « ما عاقب الله عبداً مؤمناً في هذه الدنيا إلا كان أحلم وأجود وأعجد من أن يعود في عتابه يوم القيامة .. » (١)

ومهما يكن من أمر فالمؤمنون المسيئون هم أظهر مصاديق هذه الآية - إذا فـ « توقوا الذنوب فما من نكبة ولا نقص رزق إلا بذنب حتى الخدش والكبوة والمصيبة ، فما زالت نعمة ولا نصارة عيش إلا بذنوب اجتروحوها إن الله ليس بظلام للعبيد ، ولو أنهم استقبلوا ذلك بالدعاء والإنابة لما نزلت ، ولو أنهم إذا نزلت بهم النقم وزالت عنهم النعم فزعو الى الله عز وجل بصدق من نياتهم ولم يهنوا ولم يسرفوا لأصلح لهم كل فاسد ولرد عليهم كل صالح » (٢).

وهذه سطوة إلهية على البر والمسيء والفاجر تطهيراً للحياة عما يقضي عليها ، وسنة إلهية للدعاة إلى الله تصبراً على ما يصيبهم في سبيل الله ، فالإصابات إذا هي خيرات وألطف خفية إلهية تصلح الحياة (٣) ولا راد لها

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨٠ ح ٩٤ في تفسير علي بن ابراهيم عن الاصبغ بن نباته عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال : اني سمعته يقول : اني احذثكم بحديث ينبغي لكل مسلم ان يعيه ثم اقبل علينا فقال : ... ثم قال : وقد بيتي الله عز وجل المؤمن بالبليّة في بدنه او ماله او دله او اهله ثم تلا هذه الآية « وما اصابكم ... » .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٨٢ ح ١٠١ في كتاب الخصال فيما علم امير المؤمنين (عليه السلام) اصحابه من الأربعمئة باب مما يصلح المسلم في دينه ودنياه : توقوا ... والمصيبة قال الله تعالى : « وما اصابكم ... » واطفوا بالعهد اذا عاهدتم « فما زلت ... »

(٣) المصدر ح (١٠٥) عن اصول الكافي عن ابي السامة عن ابي عبد الله (عليه السلام) =

إلا الله :

﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٣١).

لا أنتم : أهل الأرض بمعجزين الله في الأرض في تخلفاتكم عن حكم الله ، حيث لا نصير إلا أنفسكم دون مس من كرامة الألوهية ، ولا أنتم بمعجزين الله إذ يصيبكم ببعض ذنوبكم ، وما لكم من دون الله من ولي يلي أموركم ولا نصير ينصركم وجاء الإصابتة الإلهية ، فأين يذهب هذا الدليل الحقير إلا أن يلتجئ إلى الولي النصير .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (٣٢) إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حَافِظٍ (٣٥).

إن الجوار المنشآت في البحر كالأعلام من آياته ، فإنها له : « وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام » (١).

والجوازي جمع الجارية ومنها « الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس » (٣ : ١٦٤) ومنها الجارية في البحر المحيط : « إنا لما طغى الماء

= قال : سمعته يقول : تعوذوا من سطوات الله بالليل والنهار قال : قلت وما سطوات الله ؟ قال : الاخذ على المعاصي وح ١٠٤ عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : ما من نكبة تصيب العبد الا بذنب وما يعفو الله اكثر وعنه (١٠٦) قال : ان العبد ليذنب الذنب فيزوي عنه الرزق .

(١) راجع تفسير الآية في ٢٧ : ٣٢ - الفرقان « وله الجوار » .

حملناكم في الجارية » (٦٩ : ١) ومنها الكواكب الجارية في الفضاء أم ماذا : « فالجاريات يسراً » (٥١ : ٣) ومنها الطائرات الجارية في خضم البحر السماوي ومنها ما لا نعلمها ..

« ومن آياته » هنا « الجوار في البحر » الماء - لا الفضاء « كالأعلام » فإن سكن الرياح إنما يركد جوارى البحر دون الفضاء ، فإنه يساعد على جريها كما يراد دون التظام بصدامها .

إن لجريان الرياح دخلاً حيوياً في جريان الجوار في البحر ، إن يشأ الله يسكن الرياح فيظللن الجوارى على ظهر البحر رواكد لا تجري ، فماذا يصنع الإنسان الضعيف الضعيف إذاً على ظهر البحر ؟ « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » آية القدرة الإلهية في الرياح وجراكه برحمته ، وسكونه بنقمته ، فليصبر الساكن نظرة الرحمة ، وليشكر الجاري لواقع الرحمة .

وترى أن القرآن يواجه فقط المكلفين زمن الجوارى التي تجري بالرياح ، حتى ينذر بسكونه ركوذها على ظهر البحر ؟ .. كلاً ! وإنما يأتي بعامل جراكها الطبيعي الذي لا صنع للإنسان فيه ، وقد يأتي بما يشمله وسواه مما كان أو هو كائن أم سوف يكون : « ويخلق ما لا تعلمون » (١٦ : ٨) فالفلك تجري بأمر الله « وسحر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره » (١٤ : ٣٢) « ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله » (١٧ : ٦٦) وبنعمته « ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » (٣ : ٣١) .

فليست الرياح - فقط - من نعمة الله ، بل الكون كله من نعمة الله ، فلجري الجوارى في البحر نعم سابقة وعلى مر الزمن : (الرياح) ونعم سابقة بعدها من بتروا أم ماذا ، وقد تشمله الآيات لكل صبار شكور ، حيث التصبر في محاولة دائبة لاستكشاف نعم الهية ينتج طاقات أخرى

للسفن الجارية .

ثم قد تشمله « أو يوقعهن بما كسبوا » حيث الإيلاق : الإهلاك، ليس من مخلفات سكون الريح فركودها على ظهره أو يقل وعلى فرض بعيد ، وهو كائن في نفاد سائر الطاقات التي يخترعها الإنسان لجريها أم ماذا ؟ من غرقها في خضم البحر الملتطم ، بريح عاصف ، أم تصارعها في عراك الريح دون بتروك ولا وسائل أخرى تهديها بها الرياح أم ماذا من أسباب الهلاك « بما كسبوا » المهلكون أم سواهم « ويعف عن كثير » مما كسبوا دون تعجيل ، وإنما تأجيلاً إلى يوم الحساب ، أم عفواً للذين يستحقونه فلهم محيص عن كثير « ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص » :

ثم « كل صبار شكور » كما نجدتها في أربع^(١) كيف يقترن فيها صبار بشكور ؟ إن الصبر هو على الإبتلاء، والشكر على النعماء، وهما قوام النفس المؤمنة المطمئنة في الضراء والسراء ، تصبر في محنة البحر أم ماذا نظرة النعمة ، ويشكر في نعمته مخافة النعمة .

« فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » (٣٦) .

آيات أربع - هذه والثلاث التي بعدها ، تحمل صفات عشر للصالحين ، من إيمان وهو الركيزة الأصلية - والأولى وه الذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون « هي الأخرى، وبينهما متوسطات ثمان ومن أهمها سابعها : « وامرهم شورى بينهم » ! .

فهنا إيمان بالرب وتوكل على الرب يحافظان الإنسان في معترك الحياة الدنيا بمتاعها ، فهنا التوكل على الله بعد الإيمان بالله هو للإبقاء على الإيمان والاستزادة فيه .

(١) كما هنا وفي لقمان (٣١) وإبراهيم (٥) وسبأ (١٩) .

وكيف نعلم ما لنا عند الله ؟ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من أحب أن يعلم ما له عند الله فليعلم ما لله عنده »^(١).

« فما أوتيتم من شيء » تشمل كل شيء لنا : من أنفسنا وما أوتيت ، في ذاتنا، أم منفصلة عنها مربوطة بها حيث تملكها^(٢) ، كل ذلك « فمتاع الحياة الدنيا » ترى وماذا تعني « متاع » و « الحياة الدنيا » فهل لها صلة بالحياة الأخرى « وما عند الله خير وأبقى » فلتؤخذ ذريعة للوصول إليها ، أم هما تطاردانها فتطردان فلماذا أوتينا إياهما ؟ .

المتاع هو كل ما ينتفع به ويتمتع على وجه ما، اما بنفسه « ولكم في

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨٣ ح ١١٠ في محاسن البرقي عنه عن الحسين بن يزيد النوفلي عن اسماعيل بن زياد السكوني عن أبي عبد الله (عليه السلام) عن آبائه (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

(٢) ان قال قائل ان المخاطبين في « ما أوتيتم » هم المؤث لهم فما يؤث لهم هو غيرهم ضرورة اختلاف المؤث والمؤث له، وأن الإيتاء بحاجة طبيعية إلى المؤث له ؟

فالجواب : ان المخاطب في الإيتاء التكويني لا يجب له كون قبل الإيتاء كما في سائر التكوين « انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون » فقوله فعله وهو كلمة التكوين ، حيث التكوين قد يعني ايجاد ما لم يكن ، او تحويل الكائن إلى حالة او ماهية أخرى ، ولا يتعلق بالمستحيل ذاتياً ومصلحياً، حيث الأول ليس شيئاً والثاني شيء لإمكانية وجوده ذاتياً واستحالته مصلحياً ، فالشيء المتعلق للتكوين والقدرة الإلهية قد يكون كائناً فتكوينه تحويله، وهذا هو الشيء الحقيقي ، وقد يمكن تكوينه ذاتياً ومصلحياً فهو شيء باعتبار ما يؤول ، وهو المعنى في الآية التكوين « إذا اراد شيئاً . . » أي أراد تكوينه ، وكذلك المعنى في آية الإيتاء « فما أوتيتم من شيء . . » فمن المؤث هم المخاطبون ومنه ما لهم من نعم أنفسية وأفاقية ، ثم المستحيل الذاتي ليس شيئاً حتى يتعلق به القدرة والله على كل شيء قدير، والمستحيل لا شيء .

الأرض مستقر ومتاع إلى حين» (٢ : ٣٦) فهو إذاً متاع الغرور : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (٣ : ١٨٥) فالمغتترون به باغون على أنفسهم : « إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا » (١٠ : ٢٣) .

أم هو متاع للمعاملة المزايدة تجارة رابحة لن تبور : « فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » (٩ : ٢٨) قليل يُجْزَى به كثير « وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع » (١٣ : ٢٦) « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى » (٤ : ٧٧) .

والحياة الدنيا قد تعني أدنى الحياة العقلية لنا وهي هي دنواً إلينا ، أم تعني الأفعال من البدائية الرذيلة وهي هي لمن أبصر إليها وأخلد إلى شهواتها ، وقد تعنيها كما هنا « فما أوتيتهم من شيء فمتع » بمعنييه « الحياة الدنيا » كذلك الأمر ، نتمتع بها مبصرين بها نتذرعها إلى « ما عند الله » فإنه « خير وأبقى » فإذا كان متاع الحياة الدنيا باقياً بقاء عمرك ، أم بقاء الدنيا ، فما عند الله أبقى ، وإذا كان فيه خيراً فما عند الله خيراً منه حين نتذرعه إلى ما عند الله « خير . . . للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » فبإيمانهم يجعلونه متاعاً في الآخرة ، ويتكفلهم على الله يوفقون في هذه المهمة .

فمهما كان متاع الحياة الدنيا خيراً للمؤمنين المتوكلين على ربهم ف « ما عند الله » جزاء عما قدموا من متاع قليل « خير وأبقى » .

وكما الإيمان الصالح ليس إلا بالله وحده ، كذلك التوكل فيه ليس إلا على الله وحده ، كما يوحي به تقديم الجار « على ربهم يتوكلون » فالإيمان بالرب يقتضي التوكيل في تداومه، أن يكون على الرب ولكي ينجح الإيمان ويُفلح المؤمن .

وترى لماذا التوكل على ربهم بعد الإيمان بربهم بدل العمل الصالح

الذي هو لزام الإيمان في سائر القرآن ؟ .

هنا التوكل وليس الإتكال ، فالإتكال بعد الإيمان أن يبقى المؤمن صفر اليد عما يقتضيه الإيمان ، ولكنها التوكل بعد الإيمان يقتضي تكريس كافة الطاقات للحفاظ على الإيمان وتداومه والإستزادة فيه وتطبيقه ، ثم الإستنجاد بالله وللتوكل عيه إعانة له على ما يقصر أو يقصر ، إذاً فالتوكل بعد الإيمان هو عمل الإيمان ويزيد .

إنه ليس بعد الإيمان بالرب إلا التوكل على الرب في عقيدة الإيمان وعمله ، ثم تبني الحياة الإيمانية على اجتناب كبائر الإثم والفواحش ... :

﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (٣٧).

إن اجتناب كبائر الإثم والفواحش هو ضمان إلهي في تكفير السيئات : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً » (٤ : ٣١) وشرط آخر في هذه السبيل « وإذا ما غضبوا هم يغفرون » فكما الله يغفر السيئات كذلك المؤمنون يغفرون سيئاتهم بعضهم لبعض دون توبة ، ويغفرون كبائرهم بعضهم لبعض بتوبة فـ « المؤمن مرآة المؤمن » و « من كظم غيظاً وهو يقدر على إمضائه حشا الله قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة ومن ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا غضب حرم الله جسده على النار »^(١) وإنه « خير خلائق الدنيا والآخرة »^(٢).

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨٣ ح ١١١ في تفسير علي بن إبراهيم القمي في الآية قال أبو جعفر (عليه السلام) من كظم غيظاً ...

(٢) المصدر ح ١١٢ في اصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبة ، ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة : العفو =

والفواحش افحش واكبر من كبائر الاثم فاجتنبها لزام الايمان والتوكل على الرب .

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٣٨).

بعد الإيمان بالله فالتوكل على الله واجتناب كبائر الإثم والفواحش والغفران إذا ما غضبوا ، بعد هذه الخطوات الخمس إلى الله يأتي دور الاستجابة لربهم و . . لأنهم لم يستجيبوا لربهم وحتى الآن ؟ إذا فما هذا الإيمان بإيمان بما فيه جانبان إيجابيان وسلبات ثلاث « آمنوا . . يتوكلون - يجتنبون . . وإذا ما غضبوا . . ؟ ! » .

إن الاستجابة للرب هنا هي المكيئة المتينة التي لا عوج لها ، فكثير هؤلاء الذين يؤمنون وعلى ربهم يتوكلون، وكبائر الإثم والفواحش يجتنبون وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، ولكنهم بعد لم يستجيبوا بكيانهم ككل لربهم ، إلا أن يستجيبوا حقاً تداوماً لما استجابوا : « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجرٌ عظيم » (٣ : ١٧٢) « للذين استجابوا لربهم الحسنى . . » (١٣ : ١٨)

= عن ظلمك وتصل من قطعك والإحسان إلى من أساء إليك وإعطاء من حرمك و ١١٣ عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : الندامة على العفو أفضل واليسر من الندامة على العقوبة وح ١١٤ عن سيف بن عميرة حدثني من سمع أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاه وح ١١٥ عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من أحب السبيل إلى الله عز وجل جرعتان : جرعة غيظ تردّها بعلم وجرعة مصيبة تردّها بصبر وح ١١٦ عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : كان علي بن الحسين (عليه السلام) يقول : انه ليعجيني الرجل ان يدركه حلمه عند غضبه .

٢١٨ الجزء الخامس والعشرون

استجابة لا تقف لحد العقيدة ومظاهر من الأعمال الإيمانية وإنما التي تحيي : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » (٨ : ٢٤) .

هنا على محور الاستجابة لربهم يأتي دور إقام الصلاة أولاً كصلة عريقة بين المستجيب وربّه ، ثم أمر جماعي لصالح المسلمين : « وأمرهم شورى بينهم » حفاظاً على كيانه ، ومن ثم « مما رزقناهم ينفقون » في كلتا الصلتين الإلهية والبشرية ، تكريساً لكافة الإمكانيات .

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ .

آية لا ثانية لها في القرآن كله إلا ما تأمر الرسول أن يشاورهم في الأمر : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » (٣ : ١٥٩) فهذه في شورى الرسول معهم وتلك في شوراهم فيما بينهم وأين شورى من شورى ؟ ! .

ليست مشاورة الرسول إياهم في الأمر إلا تشجيعاً لهم وتدريباً لحاجتهم إليه كمعلم يشاور ، لا حاجة منه إليهم فإنه كرسولٍ وحىٍ كله فكيف يشاور غيره فيتبعهم ؟

ونص الآية « فإذا عزم » يرجع الأمر إليه في النهاية كما البداية ^(١) وكما قال (صلى الله عليه وآله وسلم) حين نزلت هذه الآية :

(١) نور الثقلين ١ : ٤٠٥ ح ٤١٤ في تفسير العياشي احمد بن محمد عن علي بن مهزيار قال : كتب الي ابو جعفر (عليه السلام) ان سل فلاناً ان يشير علي ويشير لنفسه فهو يعلم ما يجوز في بلده وكيف يعامل السلاطين فان المشورة مباركة قال الله لنبيه في محكم كتابه . . . وشاورهم في الامر . . . فان كان ما يقول مما يجوز كنت أصوّب رأيه وان كان غير =

= ذلك رجوت ان اضعه على الطريق الواضح ان شاء الله « وشاورهم في الأمر » يعني الإستشارة .

وفي النسائي قسامة ٤٠ « ان النبي استشار الناس » وفي حم ٣ - ٢٤٣ « استشار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الأسارى يوم بدر » أقول : ولا تعني استشارته إياهم إلا ما تعنيه استشارة الله إياه (صلى الله عليه وآله وسلم) كما في حم ٥ / ٣٩٣ : « ان ربي تبارك وتعالى استشارني في أمي » .

وفي سنن الترمذي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا كانت امراءكم خياركم واغنياءكم سمحاءكم واموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير من بطنها .
وفي الوسائل ٨ : ٢٢٤ عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) استرشدوا العاقل ولا تعصوه فتندموا ، وفيه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لما سئل عن الخزم ما هو ؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) مشاورة ذو الرأي وأتباعهم . وفيه ٨ : ٤٠٩ عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لا مظاهرة أوثق من المشاورة ولا عقل كالندير .

وفي النهج الخطبة ٢١٤ عن الإمام علي (عليه السلام) فلا تكفوا عن مقالة بحق او مشورة بعدل .

وفي الوسائل ٨ : ٤٢٩ في وصيته (عليه السلام) الى ابنه محمد بن الحنفية : اضمم آراء الرجال بعضها الى بعض ثم اختر اقربها من الصواب وابعدها من الارتياب قد خاطر بنفسه من استغنى برأيه ومن استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ .

وعنه (عليه السلام) واستشر العاقل من الرجال الورع فإنه لا يأمر إلا بخير وایاك والخلاف فان في مخالفة الورع العاقل مفسده في الدين والدنيا .

وهن الامام زين العابدين في الحقوق الخمسين : واما حق المستشار فان حضرك له وجه رأي جهدت له في النصيحة واشرت عليه بما تعلم انك لو كنت مكانه عملت به وذلك لیکن منك في رحمة ولین فان اللین يؤنس الوحشة وان الغلظة یوحش موضع الانس وان =

« أما إن الله ورسوله الغنيان عنها ولكن جعلها الله رحمة لأمتي من استشار منهم لم يعدم رشداً ومن تركها لم يعدم غياً » (١).

ان الرسول يحكم بين الناس بما اراه الله : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً » (٤ : ١٠٥) ولا يعني الحكم بينهم - فقط - أحكام العبادات والعلاقات الشخصية وإن كان يشملها ، ولكن « بين الناس » تلمح او تصرح بالأحكام الجماعية ، سياسية ، أمّاذا ، إذا فاحكامه بين الناس كلها بما أراه الله ، فهل هو بعد بحاجة إلى ما أراه الناس ؟ .

كل ما يقوله الرسول أو يفعله وحي يوحى « وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى » (٥٣ : ٤) وإذا كانت صناعة فلك نوح بأعين الوحي وفيها نجاة الأبدان ، أفليست إذا صناعة الأمة الإسلامية بقيادة حكيمة بأعين الوحي وفيها نجاة الأبدان والأرواح : « فإوحينا إليه أن

مركز تحقيق كامبوتير علوم إسلامي

= لم يحضرك له رأي عرفت له من تثق برأيه وترضى به لنفسك دللته عليه وإرشدته اليه فكنت تأله خيراً ولم تدخر نصحاً ولا حول ولا قوة الا بالله واما حق المشير عليك فلا تتهمه فيما وافقك عليه من رأيه اذا اشار عليك فانما هي الآراء وبصرف الناس فيها واختلافهم فكن في رأيه بالخيار اذ اتهمت رأيه فاما تهمته فلا تجوز لك اذا كان عندك ممن يستحق المشاورة ولا تدع شكره على ما بدا لك من إشخاص رأيه وحسن رأيه وحسن وجه مشورته فاذا وافقك حمدت الله وقبلت ذلك من اخيك بالشكر والارصاد بالمكافأة في مثلها ان فزع اليك ولا قوة الا بالله ، الوسائل ٨ : ٤٢٦ وعنه (صلى الله عليه واله وسلم) ما يستغني رجل من مشورة ومن اراد امراً فشاور فيه وقضى هدي لأرشد الامور وفي النهج باب الحكم الرقم ٣٢١ قال وقد اشار ابن عباس على الامام علي ما لم يوافق رأيه : لك ان تشير علي وأرى فإن عصيتك فاطمني .

(١) كتاب الشورى بين النظرية والتطبيق ص ٣٠ .

«أصنع الفلك بأعيننا ووحينا» (١٧ : ٨٦).

وكيف يتبع الرسول رأى الشورى تاركاً رأى الوحي و«إن أتبع إلا ما يوحى إلي ..» (١٠ : ١٥) «قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» (٧ : ٢٠٣).

ثم وكيف يكون للمؤمنين التقدم بين يدي الله ورسوله «يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله» (١ : ٤٩) «وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون» (٢٨ : ٦٧) «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً» (٢٣ : ٣٦).

ثم وما هي المصلحة في إرجاع أمر المسلمين إلى الشورى وبينهم الرسول والوحي متواتر يقضي كل حاجة ، فلماذا يكلف حامل الوحي أن يستوحي المؤمنين في الأمر، هل في أمر الرسالة؟ وهو وحي يوحى ! أم أمر المرسل إليهم؟ ويكفيهم أمر الرسالة ! أو أمر الأحكام؟ «إن الحكم إلا لله» (٦ : ٥٧) أم أمر القيادة السياسية وهو ما أراه الله ! .

فلا شورى يتخذ الرسول رأياً وإنما تشير الشورى لمن بعد الرسول والوحي منقطع كما يروى عن علي (عليه السلام) : قلت يا رسول الله الأمر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يسمع منك فيه شيء؟ قال : اجمعوا له العابد من أمّتي واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأي واحد^(١) فهنا جمع للعابد من الأمة ، أن يجعلوا أمرهم شورى بينهم ،

(١) الدر المنثور ٦ : ١٠ - أخرج الخطيب في رواة مالك عن علي رضي الله عنه قال : ... اقول : هنا الرسول ناظر الى مجموعة المسلمين حيث ليس بينهم واحد من المعصومين ، فليس يشمل واجب الشورى بين العابدين من امة الاسلام زمن الأئمة المعصومين كما لا يشمل زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

شورى جماهيرية تجمع العابد من أمة الاسلام لكي يتشاوروا في المشكوك حكمه ، ولا يعني العابد القشري المتقشف ، وإنما الذي يعيش عبادة الله وطاعته ، ويتبنى شرعة الله في حياته علمياً وعقائدياً وأخلاقياً وعملياً أم ماذا .

فليس كل مسلم أهلاً للشورى في الأحكام شرعية أو سياسية ، وإنما الواجب على الجماعة المسلمة انتخاب النخبة العابدة ولكي يتشاوروا فيما يختارون من أمر الأمة .

ثم « وأمرهم » يبحث عنها في أمرين : « هم » و « أمرهم » أما « هم » ، فهم المؤمنون أجمع بسند الإيمان ، وشورى بينهم هو أوضح سبل الإيمان ، فلا يعني إلا أمر الإيمان .

وأما « أمرهم » فهل تعني شيئهم فإنه من معانيه ؟ ولا يحصل له شيئاً أياً كان !

أم « أمرهم » وجاءت بينهم ؟ وليس إلا لأولي الأمر ، ولا يختص أمرهم بالأمر فإنه يعم النهي والأمر ! وليس فيه شورى .

أم « أمرهم » في ولاية الأمر ؟ وهو تضيق لأمرهم دون دليل ، مهما كان من أمرهم وأهمه ! .

أم « أمرهم » هو فعلهم في جانحة وجارحة ، شخصية أم جماعية ؟ وليس كل فعلهم بحاجة إلى شورى بينهم ! فمنه الواضح الذي لا غبار عليه ، ومنه ما يتضح بتأمل دون حاجة إلى شورى ، ومنه ما لن يتضح على أية حال ، ولا مجال في هذه الثلاث للشورى .

ثم ومنه الغامض المختلف فيه بينهم ، من أمور شخصية أم جماعية ، سياسية ، وسواها ، فلأن المؤمن غير المعصوم - أياً كان - ليس مطلقاً في

العلم والعرفان فليستعن بالشورى الصالحة ، ومن أهم الأمور الإيمانية انتخاب النخبة الصالحة لقيادة الأمة في كل مجالاتها ، ومنها أحكام القيادة المختلف فيها ، سواء السياسية منها والأحكامية ، فإنها من أصدق مصاديق « أمرهم » حيث يتطلبان « شورى بينهم » فلا أمر لهم هكذا إلا شورى بينهم، كما هو قضية الحصر في « وأمرهم شورى بينهم » فالأمر الذي يمضي دون شورى ليس إلا إمراً وغياً .

و « الشورى » من شار العسل : إستخرجه من الوقبة واجتناه ، وأشرني على العسل أعني ، والمشور : عود يكون مع مستشار العسل ، فحُصالة الشورى الإسلامية هي العُسالة المستخرجة من وقبة آراء النخبة الصالحة .

وترى الشورى مصدر الشور ، مثل الرجعى ؟ أو هو الأمر الذي يتشاور فيه إسماء لمادة الشور ؟ أم هي فعل من الأشور صفة للمراجعة أو الحوار ، ف « أمرهم-حوار-شورى » يستشيرون بعضهم البعض عن له رأي في حوار متواصل شورى كأفضل وأحسب ما يكون، ولكي يتبع من الأقوال أحسنها : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » (١٨:٣٩) إذا فأمرهم لا يتخطى « شورى بينهم » أن يستبد أحدهم برهانه ، أو يستقل برهانه ، وإنما الشورى والشورى فقط هي سبيل المؤمنين في معتركات الآراء الحيوية .

ترى وما هو أمرهم الشورى ؟ هل هي الأمور الشخصية ، أو الجماعية ، أم هما ؟ قد تعنيهما «أمرهم» حيث تعني الجميع والمجموع ، وهي لكان « هم .. بينهم » نص في المجموع ظاهر في الجميع .

وما هو « أمرهم » حيث يتطلب إيمانهم أن يكون شورى بينهم ؟ إنه ولاية أمر السياسة والديانة ! حيث الأمر منه الإمارة ، ومنه فعلهم، وطبعاً لا كل فعلهم وإنما المشكوك صوابه ونجاحه ، يزيمون شكه بشورى بينهم

حيث يتبناها العلم والإيمان على ضوء القرآن والسنة ، فليس كل أمرهم شورى ، فمعه ضروري الصواب لا يحتاج إلى شورى ، وإنما أمرهم المشكوك صوابه بعد الإيأس عن الحصول على صوابه من مصادره ، هذا الأمر شورى بينهم .

فالشورى إذا سبيل المؤمنين ومن أفضلها فيما لا سبيل إليه قاطعاً - لتبين الحق ، لا سيما في الأمور الجماعية الإسلامية - إلا بالشورى الصالحة ، سواء أكان أمر الولاية الإسلامية من المرجعية الدينية والسياسية ومن سائر الأمور، ومن أهمها أمر الفتوى في معترك آراء الفقهاء ، فعليهم إزالة المفاصلات أو تقليلها بالشورى بين الرعييل الأعلى منهم ، ولكي يُحصل على الوحدة بينهم، أو يؤخذ برأي الأكثر منهم ، فاتباعه هو اتباع الأحسن .

هذا النص على مكنته يتبنى حياتاً جماعية متراصة في دولة كريمة إسلامية تدير شؤونها الشوراآت الصالحة بين من لهم آراء صالحة ، لكل حقل أهله ولكل أهل حقله ، أن يجعلوا أمرهم في حوار بالتي هي أحسن لكي يستخرجوا رأياً صائباً ثاقباً ليس فيه خطأ أو يقل .

ولكي يتأدبوا بأدب الشورى ويتدربوا فيها يؤمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على عصمته « وشاورهم في الأمر » تدريباً لهم فيما عليهم كسبيل دائبة لا حَوْلَ عنها والرسول فيهم ، فكيف إذا غاب عنهم وذووه المعصومون ، فهم إذا بأمس الحاجة إلى الشورى .

والروايات القائلة أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) شاورهم في بعض الأمور فترك رأيه إلى آراء الاكثرية أمأهيه ، إنها مخالفة لعقلية الوحي الحافلة لكل المصالح الجماهيرية، الكافلة لحاجيات الأمة ومطالبهم كما تخالف نصوصاً من الكتاب والسنة .

و « امرهم شورى بينهم » تصبغ الحياة الإسلامية بهذه الصبغة المتكاملة المتكافلة لصالح المسلمين ، كطابع مبتكر ليس له مثيل ، حيث المشاركون في الشورى ليس في كل أمر كل من يشهد الشهادتين ، وإنما « العابد من أمتي » على حدّ تعبير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لكي يشير فيما يستشار بما عرفه من عقلية إسلامية أم ماذا .

فالشورى طابع ذاتي للجماعة المؤمنة ، وسمة مميزة لهم ، وسبيل إيماني يسلكونها في حياتهم « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » (٤: ١١٥) .

ليس يعني « وأمرهم شورى بينهم » إلا أمرهم ولا شغل إلا شورى ، وإنما الأمر الذي فيه يتحIRON ، ويتخIRON لصوابه بعد قصور العقليات الفردية ولا سيما في الأمور الجماعية ، يتخIRON « شورى بينهم » استخراجاً لصالح الرأي من وقبة الآراء ، كما يُستخرج العسل من وقبته فيصبح خالصاً دون خليط ، كذلك الأمر في الشورى الصالحة .

والشورى في أمور المسلمين درجات ، شورى لصالح الجماعة المسلمة ، وللدولة الإسلامية ، وشورى لصالح الأفراد ، وتلك ممتازة عن هذه وأهم منها أهمية الجماعة على الفرد ، وفي القسمين لا شورى في الضروريات المتفق عليها ، وإنما فيها تختلف فيه الفتيا لاختلاف الاستنباطات عن أدلتها ، أحكاماً شرعية أم سياسية، أصلية أم في شاكلة تطبيقها ، فليس الشكل الذي تتم به الشورى مصبواً في قوالب جديدة لا تتغير ، وإنما يُترك للصورة الملائمة لكل زمان وبيئة ، كما النظم الإسلامية كلها ليست أشكالا جامدة .

في الشورآت الفردية إنما يستشار المؤمن^(١) الأخصائي فيما يستشار ،

(١) في د - ادب ١١٤ عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : المستشار مؤتمن =

وفي الجماعة انما يتشاور الجماعة المعنية العارفة بما يُتشاور فيه ، ثم يؤخذ بالأكثر رأياً فإنه أحسن قولاً ، ولا تعني الأكثرية في الكمية هنا إلا دعماً للكثرة الكيفية .

فللشورى ضوابط عدة تجمعها « العابد من أمي » كما في حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث يتبني طاعة الله وعبادته في الشورى، أن تكون على خبرة وعقلية وعلم واطلاع وأمانة واضطلاع^(١) « لا ظهير كالمشورة^(٢) إذا » كما أنها تكسر الظاهر إذا لم تتوفر فيها شروطها .

= وفي المجمع روي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما من رجل يشاور احداً إلا هدي الى الرشد (٥ : ٥٨٤ نور الثقلين) .

(١) وفي الدر المنثور ٦ : ١٠ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من اراد امراً فشاور فيه وقضى هدي لأرشد الامور وقال سليمان بن داود (عليه السلام) لابنه يابني ! عليك بخشية الله فانها احسانة كل شيء يا بني لاتقطع امراً حتى توامر مرشداً فانك اذا فعلت ذلك رشدت عليه يا بني عليك بالأول فان الاخير لا يعدله .

وفي سفينة البحار ٧١٨ عن الصادق (عليه السلام) : لا تستشر السفلة في امرك واياك والخلاف فان خلاف الورع العاقل مفسدة في الدين والدنيا وقيل لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما الحزم ؟ قال : مشاورة ذوا الرأي وأتباعهم وعن الصادق (عليه السلام) ما يمنع احدكم اذا ورد عليه ما لا قبل له به ان يستشير رجلاً عاقلاً له دين وورع وقال : ان المشورة لا تكون إلا بحدودها فمن عُرف بحدودها وإلا كانت مضرتها على المستشير اكثر من منفعتها له فاوّلها أن يكون الذي يشاوره عاقلاً ثانيها ان يكون حراً متديناً ثالثها ان يكون صديقاً مواخياً والرابعة ان تُطلع به على سرّك فيكون علمه به كعلمك بنفسك ثم يستر ذلك ويكتمه فانه اذا كان عاقلاً انتفعت بمشورته واذا كان حراً متديناً جهد نفسه في النصيحة لك، واذا كان صديقاً مواخياً كتم سرّك اذا أطلعت عليه وإذا أطلعت على سرّك فكان علمه به كعلمك تمت المشورة وكملت النصيحة .

(٢) نهج البلاغة ح ٥٤ وفي ح ١١٣ لا ظهير اوثق من المشاورة .

وإذا كانت المشورة في أمور شخصية بحاجة إلى هذه الضوابط ، ففي الأمور الجماعية أحق وأحرى .

فالشورى في الفتيا الأحكامية تقتضي الرعييل الأعلى من أهل الفتوى حتى يحاوروا في جد واجتهاد وقوة وسداد للحصول على رأي واحد فأحسن ، أو أكثرية فحسن . فاتباعها إذاً إتباع للقول الأحسن ، فلا يصلح إتباع رأي واحد وإن كان أفضلهم .

كما الشورى في الفتيا السياسية تتطلب ذلك الرعييل من أهلها على ضوء الكتاب والسنة ، وهم نواب المجلس النيابي للشورى الإسلامية .

وبما أن الزمالة بين الدين والسياسة عريقة جوهرية أم هو هي وهي هو ، فعلى الرعييل الأول أن يكونوا ساسة وإن لم يصبحوا بتلك المثابة ، وإن كان الإخصائيون في السياسة الإسلامية لهم الأولوية من الأخصائيين في الفتيا الأحكامية ، فيحكم - إذاً - الفقهاء فقهاء والساسة سياسياً على رعاية الفقهاء الأحكاميين فد العلماء حكام على الملوك والملوك حكام على الناس . وكما نرى في طالوت إذ بعثه الله ملكاً على بني اسرائيل لقيادة الحرب على رعاية نبي لهم .

ترى ومن ذا الذي يعرفهم فيعرفهم للجماعة المسلمة ، من أولاء وهؤلاء حيث يجمعها « العابد من أمي » ؟ طبعاً إنهم العارفون من المسلمين في كل من الحقلين « اجمعوا له العابد من أمي » وكيف يجمعون ؟ طبعاً بالشورى بينهم « واجعلوه » : هذا الجمع « بينكم شورى » والمخاطبون - بطبيعة الحال - هم العارفون ميزانية العلم والتقوى في الرعييلين على اختلاف مراتبهم .

إن معرفة التقوى السياسية والتقوى السياسي لا تتطلب أكثر من لمس للسياسة الإسلامية وإخلاص إيماني ممن يتتبعونه ، فنواب المسلمين في

مجلس الشورى الإسلامية هم نخبة سياسة إسلامية ، يجعل المسلمون ككل أمرهم شورى بينهم ، ثم هم يجعلون أمور المسلمين شورى بينهم .

ولكن معرفة التقوى العلمية بحاجة إلى ارتحال مراحل من علم الدين يميز بها الغث عن السمين ، فالرعيل الأعلى من أهل الفتوى هم نخبة يتجها أهلها أم أهل العلم أجمع .

هذان من أهم الأمور الإسلامية التي يجب أن تحصل بالشورى الصالحة ، حيث يتبينان الخلافة الإسلامية في حقل الفتوى والسياسة فتديران أمور الدولة الإسلامية وتدبرانها .

ثم المسؤوليات الجماعية الأخرى في هذه الدولة المباركة أيضاً تكون « شورى بينهم » لكل حقل أهل ، فوزير الصحة لا ينتخبه إلا الأطباء المسلمون العارفون بشؤون الصحة ومتطلبات الوزارة فيها ، كما وزير التربية والمالية والدفاع أم من ذا ؟ فلكل شورى خاصة تصلح لانتخاب نخبها للحصول على بلغتها دون مرجح لا يدري أي من أين .

ولماذا الشورى والشورى فقط تتبني أمرهم ، وفيهم الأعاض من فقهاءهم وهم خلفاء الرسول والأئمة من عترته (عليهم السلام) ، فبايديهم إذا إزمة الأمور ؟ .

هناك في حل الأمور أبعاد أربعة : ١ - الوحي الرسالي ، وهو مختص بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) - ٢ - العلم الرسالي وهو خاص بأئمة أهل البيت (عليهم السلام) - ٣ - وحي الشورى في الرعيل الأعلى من الخلفاء العامين للرسول والأئمة - ٤ - الفتاوى الخاصة لكل من هؤلاء .

نحن نعيش زمن انقطاع الوحي وخلافة العصمة ، فهل نأخذ بفتوى واحد من ذلك الرعيل : الأعلام الأورع الأنقى الأشجع الأبصر أم من ذا ؟

والتعرّف إلى شخصية هكذا غير يسير، وقد يكون من المستحيل ، أولاً
تجتمع عليها الآراء ، وبذلك تنقسم عرى الوحدة الإسلامية ، وإذا عرفت
وتوحدت الكلمة في اتباعها ، فلا يخلوا هذا العبقرى من أخطاء ، وعلينا
أن نزيلها أو نقللها بالشورى ، حيث الطاقات المتداخلة المتشاورّة أقرب إلى
الصواب ، وهي أحسن قولاً ، كما وتؤخذ القيادة الروحية السياسية في أهل
الشورى ، حيث البعد الثانى فيها هو الأخذ بالأكثر ، فعلى المسلمين أجمع
اتباعه ، وإن كانت القلة من أهلها لا يتبعونها إلا في الأحكام الجماعية
السياسية أم ماذا ؟ .

فكل أمر ينزل بالمسلمين بعد زمن الوحي وزمن حملة الوحي ، ما لم
ينزل فيه قرآن في نصه ، ولم يُسمع من الرسول بخصوصه ، فليجمع
المسلمون العابد من أمة الإسلام بشورى عامة ، حتى يحل العباد المنتخبون
مشكلة هذا الأمر بـ « شورى بينهم » : حيث تقرّبهم إلى الحق زلفى ،
وتنوب مناب عقلية العصمة شيئاً كثيراً

ولان ضمير الجمع في « شورى بينهم » راجع إلى « الذين آمنوا وعلى
رهبهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم
يغفرون . والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة . . » فإنما الشورى الصالحة
لأمرهم بين من يحمل هذه المواصفات الخمس ، وهم النخبة الصالحة من
شورى الأمة الصالحة ، ثم وهؤلاء الأكارم ينتخبون فيما بينهم الرعيل الأعلى
من فقهاء الأمة ، الأحسن رأياً وقولاً حيث هم أفضل فقهاً وعدلاً وفضلاً .
ثم وهؤلاء ينتخبون فيما بينهم رئيس الشورى وقائد الأمة ، شورى ثالثة هي
سلالة الآخرين ، ثم هناك الشورات المتواصلة على رعاية القائد المنتخب
لتقرير مسير الأمة ومصيرها أحكامياً وسياسياً دون أن يستبد القائد برهان
القيادة لفقدان العصمة .

ولا موقع للأكثرية في ميزان الحق ، إلا الأكثرية بين الأقلية الصالحة .
 فإن « أكثر الناس لا يعلمون » (٧ : ١٨٧) و « لا يشكرون » (٢ : ٢٤٣)
 و « لا يؤمنون » (١١ : ١٧) و « لا يعقلون » (٦ : ٣٧) و « يجهلون »
 (٦ : ١١١) و « وما يتبع أكثرهم إلا ظناً » (١٠ : ٣٦) و « وما يؤمن أكثرهم
 بالله إلا وهم مشركون » (١٢ : ١٠٦) و « وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين »
 (٧ : ١٠٢) و « ولكن أكثرهم للحق كارهون » (٤٣ : ٨٧) و « فأب أكثر
 الناس إلا كفوراً » (١٧ : ٨٩) و « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن
 سبيل الله » (٦ : ١١٦) و « وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم
 لفاسقين » (٧ : ١٠٢) .

إذا فالشورى الصالحة ليست إلا بين الأقلية الصالحة العالمة الشاكرة
 العاقلة المؤمنة المتبعة علماً العادلة المحبة للحق الهادية المتعقدة ، وجميعها الفقيه
 الزاهد البصير الخبير .

« وما رزقناهم ينفقون » إنفاقاً في هذه السبيل وكل سبيل الله ، إنفاقاً
 لعقلياتهم وتجربياتهم ، أفكارهم وعلومهم ، أموالهم وكل ما يملكون من
 طاقات ذاتية أو منفصلة ، ولكي يحلوا مشاكلهم التي لا حول عنها ولا مرجع
 معصوماً لها .

إن مكية آية الشورى - ولم تكن هناك دولة إسلامية ولم تخلد بخلد أحد الا
 الرسول - وإن المسلمين يعيشون الرسول ، وحضر أمرهم في « شورى بينهم » -
 تدلنا على مدى أهمية الشورى ، حيث تعم الحيوية الإسلامية في كل عصر
 ومصر ، ومهما كان في غنى عنها زمن قيادة العصمة ، ولكن عليهم التدريب فيها
 فقد نرى الشورى في شاكلتها ونتائجها في أبعاد أربعة .

١ - يستشير المختار في رأي صائب لكي يحصل على الرأي المختار

دون خطاؤكما يُستشار المعصوم^(١)، او قليل الخطاه كما يستشار غيره .

- ٢ - يشاور المعصوم غيره ليدله على خطاؤه ويرشده الى صوابه ، ويتليه كيف يفكر وكيف يحصل على الحق ، ولكي تصبح الشورى سنة دائمة للمسلمين، وعقلية منفصلة لهم تساعد عقلياتهم الذاتية ، ولكي تتبع فكرتهم فتنبغ بالتقاء الآراء واصطكاكها ، كما أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « وشاورهم في الأمر » ولا رأي مطاعاً فيها إلا رايه وعزمه: « فاذا عزمتم فتوكل على الله » .

- ٣ - يتشاور من هم على سواء أو كاد ، ولكي تجتمع عقلياتهم على ركيزة واحدة ، إزالة لأخطاء وخلافات ، فتوحيداً للرأي أم تقريراً للآراء ، وأخيراً إذا بقي اختلاف أخذاً بأكثرية الآراء ، حين تدل على أقربية الرأي إلى الحق ، فلا مكانة للعدّة إلا إذا دلت على عدّة ، ولا نفضل الأكثر عدّة هنا إلا لدلالته على الأكثر عدّة، فإذا تساوى الفريقان عدّة نفضل الأقوى رأياً وهو الذي فيه الأقوى رأياً ، وحتى إذا اختلفا عدّة قد نفضل الأقل لو كان فيه الأعلّم الأعقل ، وهكذا نتابع القول الأحسن ، وفي الأكثر هو مع الأكثر حيث المتشاورون أضراب .

- ٤ - يتشاور من ليسوا على سواء ، ليفيد الأقوى من دونه كما ويستفيد من دونه .

(١) تفسير البرهان ٤ : ١٢٨ علي بن ابراهيم القمي قال قال في اقامة الإمام « واقاموا الصلاة وامرهم بشورى بينهم » اي يقبلون ما امروا به ويشاورون الإمام فيما يحتاجون اليه في امر دينهم كما قال الله « ولوردوه الى الرسول والى اولى الامر منهم لعلهم الذين يستنبطونه منهم » .

اقول : « بينهم » لو خص بشورى الإمام كان حق التعبير وامرهم ان يشاوروا . . ولكنها لشمولها كافة الشورا آت الأربع فالجامع بينها هو « بينهم » .

والشورى فيما سوى الأولى بحاجة إلى تحضير قبلها، أن يفكر أهلها قبلها فيما يتشاورون، ثم بالشورى يتفاوضون ويستنجدون.

وحُصالة البحث في حقل الشورى أنها سبيل دائبة هي لزام الإيمان فيما لم يتبين رشده بوحى أم سواه، من أحكام شرعية أم سياسية، ومن انتخاب النخبة في كل حقل، يُتَبَنَّى في كل ذلك العقلية الإسلامية في كاملها بكافة الجهات، ولكي يحصل بالشورات الإسلامية ركامات من العقليات المجتنتات من وقباتها، من عسيلات الآراء حيث تستخلص من مزيجات لا تصلح.

فلا شورى في انتخاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة بعد الرسول حيث الإنتصاب بوحى الله يغني عن الإنتخاب، ولا في الأحكام الضرورية شرعية وسياسية، حيث الشورى ضرورة عند الإضطراب، وإنما الشورى في انتخاب النخبة التي تتشاور فيما تختار فيه الأمة الإسلامية وهم « العتيد من أمي » ثم هم يتشاورون فيما يصلح الأمة ويخرجها عن الحيرة، حيث يوضح الحق جماهيرياً ويوحد كلمة المسلمين على القول الأحسن، دون تفرد واستبداد.

فالشورى تنوب مناب ما نخسره من غياب العصمة، فلإنها إجتهد متراصّ دائب يجعل من المسلمين مفكرين متفاوضين في أفكارهم، دون أن يظلوا أجساداً بلا ارواح لا يفكرون ولا يتدبرون.

فكما العصمة في القيادة صالحة ضرورية لتبني أساس الإسلام، كذلك الشورى النائبة عن العصمة حيث تسد عن كل نائبة، هي أيضاً صالحة لاستمرار الحيوية البنائة الإسلامية، غير الجامدة.

فحين ما نخسر قيادة العصمة زمن الغيبة، نربح بديلها إستمرارية عصمة الشورى حين تعصمنا عن التمزق والإنزلاق، وتقليلاً من أخطاء

القيادة غير المعصومة ، ثم لا يضر الأمة الإسلامية أخطاءها القليلة وجاء عوائدها الكثيرة، ومن أهمها صراع العقليات الإسلامية وسباقها على ضوء الكتاب والسنة والسياسة حيث تصنع أمة صارمة متكاملة غير جامدة .

وكما نرى القرآن المبين - على بيانه النور المتين- يُخَرِّضنا على التدبر في آياته ، ولكي نستنبط من خفياته ، سبراً لأغواره ، ولكي نحصل بكل جد واجتهاد ، على ما أسره ، دون أن يوضح لنا كل شيء وضح النهار ، كيلا تبطل عقولنا ، أو تجمد أفكارنا ، بل نكون دائبين في التدبر والتفكير، ولكي يصنع أمة لها حيويته البنائة ، في استقلاليتها وقوامتها ، قائمة على سوقها على ضوء القرآن والسنة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) .

فعصمة القرآن ثم السنة القاطعة تعصم المسلمين عن التفلت والانحراف ، إذا عاشوا القرآن في شورى دائبة من النخبة العابدة ، دونما استبداد واستقلال فاستغلال الكتلة المؤمنة ، وإنما الشورى والشورى فقط تكفل تلك الحيوية المجيدة المستغنية عن كل شارد ووارد، حضوراً لمختلف شعوب المسلمين في مصالحهم الجماعية ، أخذاً لأزمتهم بأيديهم ، فلا يحكمهم إلا الله ومن يحكم بحكم الله ، ف« إن الحكم إلا لله » ! .

فلنكرس طاقاتنا كلها للشورآت المتواصلة عبر زمن غيبة القيادة المعصومة ، ولكي نقوم على سوقنا ونحيا حياة طيبة سلمية إسلامية ، لا استسلامية تقليدية ذليلة .

وترى إذا كانت الشورى هي المرجع زمن الغيبة الكبرى فما هو موقف ولاية الفقيه ؟ .

أقول: إن ولي الأمر أيضاً هو منتخب الشورى يرأسها على ضوء الشورى، وهو يلي أمر المسلمين ولاية محددة بها دون استقلال له فيما يرتأيه ، فقد يتفق رأي الشورى أو أكثريتها المطلقة على واحد من أهلها ، فهو الذي يرأسها ، أم يتفقون أو أكثرهم على أكثر من واحد، إذا فحصيللة الشورى هي شورى

الولاية والقيادة .

إنَّ ولي الأمر - واحداً أو أكثر - هو الذي يحكم ، لكننا الحكم ليس إلا بالشورى ، حيث تجبر الأخطاء الطارئة لشخص أو اشخاص يُؤلون أمور المسلمين ، دون استقلال لاحد ولا استبداد برأى .

إتباع الأحسن هو سبيل المؤمنين حيث يبشرهم الله ويأمرهم « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » (٢٩ : ١٨) .

أترى أن رأي الواحد غير المعصوم أحسن ، مهما كان أعلم ممن سواه ، أم الأكثرية من الرعيل الأعلى نتيجة الشورى ؟ لا ريب أنها الأحسن فاتباعه قضية اللب والهداية الإلهية .

أترى إذا تساوا أعضاء الشورى في فريقين اثنين فاي الفريقين أولى بالإتباع ؟ هنا الأولوية للفريق الذي فيه القائد بميزة القيادة، وأنه هو الذي ينظر إلى الأصلح بحال الأمة عند تضارب الآراء، فعل المؤمنين - ككل - الشورى العامة لانتخاب النخبة الصالحة لانتخاب أعضاء الشورى ، وليكونوا الأمثل بين الأمة والأمثال فيما بينهم للحصول على الرأي الأحسن ويكون في العدد الأكثر عند التضارب دلالة على الأحسن والأقرب إلى الحق .

ثم على هؤلاء انتخاب القائد الرئيسي للشورى ، فان اتفقوا على رأي وإلا فالأكثر عدداً ، وإلا فالفريق الذي فيه القائد لأن فيه الرجاحة عند تساوي العدد، وهكذا تسير الشورى مصيرها إلى انتخاب الأحسن فالأحسن لتقليل الأخطاء فالقيادة الأصلح لصالح الأمة « ومما رزقناهم ينفقون » إنفاقاً لكافة الطاقات والإمكانات الصالحة لهذه القيادة المباركة على ضوء الكتاب والسنة .

وإذا مات منهم واحد أم سقط عن الصلاحية فأمر الإنتخاب البديل إلى سائر أعضاء الشورى .

ثم الشورى القيادية بحذاقها ليست لها الولاية المطلقة على الأمة فلهم أن يُحَظَّطُوا ، ولا أولوية إلا ترجيحاً لصالح المجتمع على صالح الأفراد إذا تعارضاً ، كما ولا ولاية لهم على الفقهاء .

وهنا أصلاً أصيلان ، أصالة الولاية لكل مؤمن بالنسبة للآخرين ، بمعنى المحبة والنصرة والمعاودة ، وأصالة عدم الولاية بمعنى الأولوية على النواميس الخمسة إلا في مقام الضرورة ، وهي ضرورة الحكم وفرض القرارات الحاكمة لرئيس الدولة الإسلامية على الجماهير المسلمة ترجيحاً لصالح الجماهير على الأشخاص ، وأما الأشخاص على الأشخاص فلا ضرورة ولا ولاية ولا سيما على أشخاص الفقهاء ، إخصاصاً لهم عما هم عائشوه .

مركز تحقيق كتاب التوبة والعتق

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ (٣٩).

ليس البغي : التجاوز إلى غيرك - فقط - محظوراً ، بل وكلملك التصبر عليه دون انتصار محظور .

حيث الظلم والإنظام كلاهما من المحظورات في شرعة الله ، وهكذا مظلوم هو مع ظالمه في النار .

وترى ألا تناحر بين صفتي المؤمنين ، هذه « وإذا ما غضبوا هم يغفرون » ؟ الغضب قد يكون يبطل فالفقر عنده صفة الإيمان ، أو يكون بحق حيث بغى عليه ، فإنما البغي بغيان ، بغى يُعفى أثره إذا غفرت وهو الغفر المصلح : « ... فمن عفا وأصلح فأجره على الله » وغفر

يفسد حيث لا يتحملة المؤمن لإيمانه كأن يفترى عليه وهو يسكت ، ظلماً بنفسه ، أم سكوناً عن حقه وحق الغير إذ يسكت ، ظلماً ذا بعدين ، فالإنتصار إذاً من صفات الإيمان ، كما الغفر حين يصلح من صفات الإيمان .

آيات ثلاث تأمر بالإنتصار بعد الظلم ، هذه والتي بعدها : « ولئن انتصر بعد ظلمه . . » وفي الشعراء « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا بعدما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » (٢٢٧) وكما الله ينتصر لهم إلا ابتلاءً « ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم » (٤٧ : ٤) « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » (٣٠ : ٤٧) .

وذا لها من آية مكية تنبئ الإنتصار في البغي والمؤمنون في مكة ما كانوا يستطيعونه أبداً ، فهي ذات دلالة لصفة أساسية في المؤمنين : عدم التصبر على الظلم والتخاذل أمام الظالم حسب المستطاع ، وإن كانت هناك في مكة فترة مقتضية للتصبر ، ولكنها مقتضية بعد ردح قصير ، ثم المؤمنون لا يتصبرون .

لقد كانت هناك اعتبارات في العهد المكي تقتضي سياسة المسالمة والصبر ، مع تقرير الطابع الإسلامي غير الإستسلامي لهم : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » .

فالإنتصار البناء ، صداً عن تفشي الظلم يتبناه الإسلام كأصل من أصول الحياة الإيمانية ، سواءً كان البغي عليك أم سواك أم على جبهة أو جماهير من المسلمين ، لأن أنفوس المسلمين نفس واحدة بعضها من بعض ، فلم يقل « والذي إذا أصابه البغي هو ينتصر » وإنما « أصابهم . . ينتصرون » لتشمل الجميع والمجموعة ، أن ينتصر المؤمن لمظلوم غيره كما

ينتصر لنفسه ، وأن ينتصر الفرد للجماعة كما تنتصر الجماعة للفرد ،
فالانتصار عند البغي صفة الإيمان جماعات وفردى .

إن الانتصار لإزالة البغي أو مكافاته ضابطة عامة لكل من بُغي عليه ،
ولكن حسب ما يقتضيه العدل ، والعفو خير إن كان في محله وليس العفو
المصلح أو الصالح غير المفسد إلا في البغي على الأشخاص ، وأما البغي
على الدين أو جموع أهل الدين فلا عفو فيه ، وحتى إذا تاب الباغي اللهم
فيما أصلح وبين أنه بغي ، ولا يعني الانتصار عند البغي إلا صدأ عن
البغي ، ممن بغي عليه ومن تتناول أيدي البغي عليه لولا الانتصار .

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤٠).

هنالك قضية العدل مماثلة بين سيئة وجزاءها في كل شيء ، ولا يصلح
العفو عن المسيء إلا إذا أصلحه ويصد عن ظلمه ، وإذا « فأجره على
الله » (١) وأما العفو المفسد أن يتجرء المسيء على ظلمك ، أو تتناول يده
على سواك ، فهذا العفو ظلم على نفسك وسواك « ان الله لا يحب
الظالمين » وكما اذا اعتديت على المسيء اكثر مما اساء ، انه جزاء ظالم « ان

(١) الدر المنثور ٦ : ١١ - اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى
الله عليه وآله وسلم) اذا كان يوم القيامة امر الله منادياً ينادي ألا ليقيم من كان له على
الله اجر فلا يقوم الا من عفا في الدنيا وذلك قوله « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » وفي
نقل آخر زيادة « فيقال لهم ادخلوا الجنة باذن الله » واخرج ابن مردويه والبيهقي عن ابي
هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ينادي مناد يوم القيامة لا يقوم
اليوم احد الا من له عند الله يد فيقول الخلائق سبحانك بل لك اليد فيقول بل من عفا =

الله لا يحب الظالمين » وانما عدل : « جزاء سيئة سيئة مثلها » « من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها » (٤٠ : ٤٠) « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » (١٦ : ١٦) او فضل : « فمن عفا واصلح » دون ظلم مُفْرِط او مُفَرِّط .

آية الجزاء ترسم ضابطة عادلة عامة في كافة الموازين ، فالمماثلة بين السيئة وجزائها قاعدة لا تستثنى ، اللهم إلا عفواً فيما يصلح ، أم لا يصلح ولا يفسد ، فهما إذاً من الفضل والأفضل ، وأما ان تربوا جزاء سيئة عليها ، فهذه الرتبة ظلم من أيّ كان وأياً كان وأيان ، إذا فكيف يُفترى على أرحم الراحمين أنه يجازي بعض العصاة دون نهاية في الآخرة ،

= في الدنيا بعد قدرة، وينفس السند عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال موسى بن عمران (عليه السلام) يارب من اعجز عبادك عندك قال من اذا قدر عفا، واخرج احمد وابو داود عن ابي هريرة ان رجلاً شتم ابا بكر والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جالس فجعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يعجب ويتسم فلما اكثر رد عليه بعض قوله فغضب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقام فلحقه ابو بكر فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يشتمني وانت جالس فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت ؟ قال : انه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان فلم اكن اقعد مع الشيطان ثم قال يا ابا بكر نلت من حق ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها الله الا اعز الله بها نصره وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة الا زاده الله بها كثرة وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة الا زاده الله بها قلة .

وفي نور الثقلين ٤ : ٥٨٥ ح ١٢٣ - الكافي العدة عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عليكم بالعفو فان العفوا يزيد العبد الا عزاً فتعافوا بعزكم الله و ١٢٤ في كتاب الخصال عنه (عليه السلام) قال : ثلاث من كن فيه فقد استكمل خصال الايمان من صبر على الظلم وكظم غيظه واحتسب وعفى وغفر كان ممن يدخله الله الجنة بغير حساب ويشفعه في مثل ربعة ومضر .

وهل هناك مماثلة بين سيئة محدودة في زمن محدود وأثر محدود من مسيء محدود، وبين سيئة لا محدودة من إله غير محدود؟ وأدنى المماثلة بين سيئة وسيئة مماثلة النهاية في سيئة محدودة في الكيف والأثر وإن لم يكن في الكم والزمن.

جزاء سيئة سيئة مثلها عدلاً، وسيئة دونها أو عفو وإصلاح فضلاً ورحمة، فإذا يأمرنا الله تعالى بالعفو عن السيئة إصلاحاً أم جزاءها المثل عدلاً فكيف يجازي هو ظليماً أن يغفد بسيئات أهلها إلى غير نهاية، وما هذا إلا كذب مفترى « سبحان الله عما يصفون » ١ .

ثم المماثلة بين السيئة والجزاء والسيئة المجازي بها لا تقتضي إلا اعتداءً بالمثل، وليست هي اعتداء، وأما إذا كانت سيئة بنفسها دونها استثناء فلا، فمن ضربك تضربه كما ضرب مراعياً كتمه وكيفه، وأما من زنى بحليلتك فليست جزاءه أن تزني بحليلته، وإنما هي الحد المحدد له في الشرع، والضابطة العامة هي أن السيئات المتعدية التي لا حد لها في الشرع تجازى بمثلها من أسوء إليه، إذا لم يكن الجزاء محرماً، وأما المحرمة كمثّل اللواط والزنا والسباب والإضلال أم ماذا فلا، وقد توحى « فمن عفى » أن السيئة هنا تعني ما تقبل العفو من أسوء إليه، فلا تشمل إذاً مثل اللواط والزنا والإضلال، وإن شملت مثل القتل والسباب أم ماذا؟ .

فإذا قال لك: أخزأك الله، تقول له مثل قوله: أخزأك الله، وإذا قال لك: أنت فاسق إهانة دون حجة، تقول له: أنت فاسق جزاءً بحجة...

وأما إذا قذفك بما يوجب الحد، فليس لك أن تقذفه حيث يوجب

الحد ، وإنما جزاءه الى الله حيث سن حداً للقذف ، وكما إذا زنى أو لاط
أم أساء سيئة من أضرارها مما يوجب الحد فجزاءه إلى الله فيها حد.

فلا تعني مماثلة سيئة سيئة أنك حر أن تجازي أية سيئة بمثها ، وإنما
هي كضابطة ، فقد يجوز لك أن تجازي بمثها ، وقد لا يجوز فالله هو الذي
يجازي بما سن من حد أم ماذا ، ومن ثم فهي محددة بما يجوز العفو عنها .

﴿ وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ^(٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ
عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ^(٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَوَا غَفَرْنَا ذَلِكُمْ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ^(٤٣) .

ليس على المنتصر بعد ظلمه من سبيل ، سواء أكان انتصاره فرضاً أم
راجحاً أم - وعلى أقل تقدير - مسموحاً ، حيث الإنتقام أو الدفاع وجاه
الظالم حق مشروع على أية حال .

قد يكون الإنتصار بعد الظلم من واجبات الإيمان « والذين إذا أصابهم
البغي هم ينتصرون » فهناك الإنتصار والإنتصار فقط ، دون إنتظار فإنه
إحتضار واهتدار ، فحين يُظلم القرآن وشريعته ويُظلم شعبه ورعيته
فالإنتصار هنا واجب ذو بعدين ، والإنظلام والسكوت محرم ذو بعدين
وذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما
بأنفسهم ، (٥٣: ٨) فـ « حق من أساءك أن تعفو عنه ، وإن علمت أن
العفو يضر انتصرت » ^(١) كما والقائم (عليه السلام) ينتصر للإسلام ^(٢) .

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨٥ عن الخصال ١٢٥ في الحقوق المروية عن علي بن الحسين
(عليه السلام) . . . ثم يستدل بالآية « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من
سبيل » .

(٢) المصدر ١٢٧ في تفسير القمي بسند عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في الآية =

إن للمظلومين سبيلاً معبداً إلى الدفاع ولا سبيل عليهم ، والظالمون ما لهم من سبيل وإنما السبيل كل سبيل عليهم لتقطع عنهم سبيل الظلم والبغي ، « أولئك لهم عذاب أليم » في الدنيا انتصاراً عليهم من المظلومين ، وفي الآخرة من ملجأ المظلومين .

وفياً إذا لم يكن ترك الانتصار والتصبر على الظالم ظليماً ، وإنما صنعة حسنة ومحاولة لتوبة الظالم ، أو تخجيله حتى يكف عن ظلمه ، هنالك « ولن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور » .

ثم للانتصار مراتب عدة حسب المستطاع أقله « من دعى على من ظلمه فقد انتصر »^(٣) وأكثره الانتصار بالقتال ، وبينهما متوسطات .

ثم من الانتصار شخصي أن تكرر طاقاتك للذود عن الظلم ، ومنه جماعي أن تستعين بمن يعينك ، ولكل مجال حسب ما تقتضيه الحال .
إن الصبر على الظلم والغفر ليس إلا عند المقدرة على الانتصار

= « ولن انتصر بعد ظلمه » قال يعني القائم صلوات الله عليه وأصحابه « فأولئك ما عليهم من سبيل » والقائم إذا قام انتصر من بني أمية والمكذبين والنصاب هو وأصحابه وهو قول الله تبارك وتعالى « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق » .

وفي ملحقات الاحقاق ١٤ : ٤٩٣ العلامة السيد محمد بن رسول البرزنجي في « الاشاعة في أشرار الساعة » ص ٦٩ ط مصر قال : قوله « لن انتصر بعد ظلمه الآية - إشارة إلى الحسين بن علي (رضي الله عنه) وقيامه على يزيد وقتاله على حق إلى أن قتل هو وأهل بيته .

(٣) الدر المشور ٦ : ١١ - اخرج ابن أبي شيبة والترمذي والبزار وابن مردويه عن عائشة قالت قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من دعا ... » .

والجزاء ، حين يشعر ظالمك أنك تصبر وتغفر على قدرة فيستحي ، وأما أن تصبر على ظلمه مغلوباً عاجزاً فليس إلا تحاذلاً ، إذا فانتصر في دفع الظلم .

لا تخلو حال المظلوم أنه أقوى من ظالمه أو أضعف أو هما على سواء ، ففي الأولى على الأغلب « ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور » فإنه عفو على قدرة وهو يصلح ، اللهم إلا إذا أفسد ، وفي الثانية « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » حيث الصبر على الظلم تحاذل وتقوية للظالم اللهم إلا إذا أصلح ، والثالثة مورد الآيتين حسب إحدى المصلحتين ، وقد يكون الصبر راجحاً غير واجب كما يكون محرماً أو واجباً حسب مختلف الظروف والمقتضيات .

﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مَنْ بَعْدَهُ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (٤٤).

ولا يضل الله إلا من ضل ظالماً « ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » (١٤ : ٢٧) « كذلك يضل الله الكافرين » (٤٠ : ٧٤) « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » (٤٠ : ٣٤) « فليس الله ليضل من لا يضل فإنه ظلم » وما الله يريد ظلاماً بالعباد « (٤٠ : ٣١) « وما ربك بظلام للعبيد » (٤١ : ٤٦) .

وليس إضلاله تعالى من ضل دفعاً له إلى ضلال بعد ضلال ، وإنما ترك له يستمر في الضلال دون أن يوفقه لترك الضلال حملاً له عليه : « ويذرهم في طغيانهم يعمهون » (٧ : ١٨٦) ثم ختم على قلبه جزاء بما ختم حق إذا أراد أن يهتدي لم يكن له سبيل ، « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم

وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم» (٢ : ٧)، ترك أو ختم ثم لا دفع إلى ضلال .

الله هو الولي يلي أمور عباده ، فإذا يترك ولايته لمن يفضل فيضله « فما له من ولي من بعده » إذ لا هادي إلا الله .

« وترى الظالمين لما رأوا العذاب » وهم بين الموت والحياة « يقولون هل إلى مردء » إلى الحياة الدنيا « من سبيل » لنعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل : « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيها تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون . فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ لا يتسائلون » (٢٣ : ١٠٤) .

ثم « وترى الظالمين لما رأوا العذاب » إذ يدخلون الجحيم « يقولون هل إلى مرد من سبيل » : « وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نُعَمِّرْكُمْ ما يذكرفيه من تذكر وجئناكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » (٣٥ : ٣٧) .

﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾^(٤٥) وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴿^(٤٦) .

« وتراهم » الظالمين « يعرضون عليها النار » خاشعين من الذل « لا خشوع العبادة والطاعة من العز » ينظرون من طرف خفي « على بأس إلى أية بارقة للخلاص ولات حين مناص ، فالطرف منه جلي حين ينظر المتقون إلى رحمة الله وكما وعدوها ، ومنه خفي حين ينظر الظالمون الأيسون من رحمة الله وقد منعوها ، كما وينظرون إلى النار التي عرضوا عليها من طرف

خفي مَغْبَةً أَلَّا يَدْخُلُوهَا وَهُمْ دَاخِلُونَ وَلَا يَجْتَرُونَ أَنْ يَمْتَلِثُوا عَيْسُونَهُمْ بِهَا
فِيخْفُونَ طَرَفَهُمْ كَيْلًا يَرُوهَا وَهُمْ إِلَيْهَا دَاخِلُونَ ، فَإِنْ نَظَرَهُمْ نَظَرَ الْمُخَالَفِ
الذَّلِيلِ وَالْمُرْتَابِ الظَّنِّينَ ، فَهَوَ لَا يَنْظُرُ إِلَّا مُسْتَرْقِئًا وَلَا يَغْضِي إِلَّا مُشْفِقًا ،
مِنْ عَظِيمِ الْخِيفَةِ وَتَوَقُّعِ الْعُقُوبَةِ .

هَنَالِكَ تَتَهَاوَى كِبَرِيَّائُهُمْ إِلَى هَوَاتِ النَّارِ، إِيَّاسًا مِنْ خُلَاصٍ مَعَ كُلِّ
لَهْفَةٍ وَانْهِيَارٍ ، مِنْكَسِّي الرُّؤُوسِ وَالْأَبْصَارِ إِلَى جَهَنَّمَ يَصِلُونَهَا وَبِشِّ الْقَرَارِ .

وَتَرَى كَيْفَ لَهُمْ بِصَرَاحٍ يَنْظُرُوا مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ وَهُمْ عُمِيٌّ : « مِنْ
أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى »
(٢٠ : ١٢٤) عَلَيْهِ لَأَنَّ آيَةَ الْعَرْضِ تَعْنِيهِ قَبْلَ الْحُشْرِ فِي سَكْرَةِ الْمَوْتِ ، وَفِي
الْبَرْزَخِ ، أَوْ يَسْمَحُ لَهُ أَنْ يَنْظُرَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابًا فَوْقَ
الْعَذَابِ ، لِفَتْرَةٍ ، كَمَا يُحْشَرُ أَعْمَى عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ، أَوْ أَنْ حَشَرَهُمْ عَمِيًّا
لَا يَعْنِي إِلَّا حَشَرَهُمْ وَلِفَتْرَةٍ ، وَأَمَّا أَنْ يَضِلُّوا عَمِيًّا فَلَا وَكَمَا وَهْ نَحْشُرَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عَمِيًّا وَبِكَيْمًا وَصَبًّا (١٧ : ٩٧) وَلَوْ كَانُوا بُكَيْمًا وَصَبًّا
دَوْمًا فَكَيْفَ التَّخَاصُمُ : « إِنْ ذَلِكَ لَحَقَّ تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ » (٣٨ : ٦٨)
« قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ . تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » (٢٦ : ٩٦)
« ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ » (٣٩ : ٣١) .

« وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا » إِذْ هُمْ يَعْرَضُونَ عَلَى الْجَنَّةِ نَاضِرِينَ إِلَى أَهْلِ النَّارِ
وَمِنْهُمْ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ « إِنْ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ » إِذْ ضَلُّوا
« وَأَهْلِيهِمْ » إِذْ أَضَلُّوهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَإِيَّاهُمْ « يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وَهَذِهِ مَقَالَةُ الرَّسُولِ يَرُدُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ « . . قُلْ إِنْ
الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانِ
الْمُبِينِ » (٣٩ : ١٥) فَقَوْلُهُمْ يَوْمَ الْآخِرَى تَأْوِيلُ لِقَوْلِهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَسَلَّمَ) يَوْمَ الدُّنْيَا .

وترى هؤلاء الذين خسروا أنفسهم إذ هم ظلموا، فما بال أهلهم إذ يخسرونهم ؟ .. أهلهم هنا هم المخسرون وليسوا معهم خاسرين ، فإن كان أهلهم أمثالهم حيث اتبعوهم فقد خسروهم مع أنفسهم فهما معاً في الجحيم ، فهم إذا خاسرون أهلهم كما خسروا أنفسهم ، سواء أكانوا معهم أم مفترقين .

ثم القول الفصل الأخير من رب العالمين يصدق مقالة الرسول والمؤمنين : « ألا إن الظالمين في عذاب مقيم » يقيم معهم إذ يقيمهم فيه ، لا جَوْل لهم عنه وهم فيها قدمت أيديهم خالدون .

أو أنه ايضاً من مقالة المؤمنين خبراً له « إن الخاسرين » و « الذين خسروا . » وصفهم ، لا خبراً عنهم ، وقد يقربه عدم الفصل بـ « هم » بين الخاسرين الذين « فالمعنى أن الخاسرين الذين خسروا .. ألا إن الظالمين (وهم هؤلاء الخاسرون) في عذاب مقيم .. » والمعنيان عليهما معنيان حيث تتحملها الآية *مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي*

﴿ اِسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ (٤٧) فَإِنْ أَفْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فََرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿ (٤٨) .

الإستجابة للرب تمتد في الحياة الدنيا ما دامت قائمة « من قبل ان يأتي يوم لا مرد له من الله » مهما كان له مرد من نفسه حسب حسبانته ، وهو يوم البرزخ ومن ثم القيامة ، وهل يستجاب للرب قبل القيامة يوم البرزخ ؟ « كلاً إنها كلمة هو قائلها » وإنما هي قبل البرزخ ، وهل يستجاب له قبل الموت فينفع الإيمان حتى عند رؤية البأس ؟ كلا فيما لا مرد له من الله ، حيث الإيمان قشري خوف البأس ، « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده

وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون » (٤٠ : ٨٥) ونعم إذا كان حق الإستجابة والإيمان حيث له مرد من الله : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » (١٠ : ٩٨) فالمرّد المنفي أيام ثلاثة ، يوم البأس زمن التكليف فلا مردّ من استحقاق العقوبة إلى سواها ، ثم اليومان الآخران .

فواجب الإستجابة هو كونها في حياة التكليف ، حقاً حالة الاختيار ، لا جزافاً في نفاق أم خاويّاً عند رؤية البأس ، فما للمستجيب مردّ من الله قبل الموت وبحقها فالإجابة حاصلة والإيمان ينفع ، وإذا « لا مرد له من الله » فلا مرد له ممن سواه : « ما لكم من ملجأ يومئذ » تلجؤون إليه من دون الله « وما لكم من نكير » : منكم تنكرون عذابه أو تنكرون أسبابه ، حيث الأسباب بارزة يومئذ والعذاب لا محالة كائن ، ولا « من نكير » من سواكم ، ينكر عذابكم فإنه « يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه » (١١ : ١٠٥) .

« فإن أعرضوا » عن الإستجابة فلم يحفظوا أنفسهم عن الكفر إختياراً ، « فما أرسلناك عليهم حفيظاً » تكرههم على الإيمان إجباراً « إن عليك إلا البلاغ » إراءة الطريق ، لا الإيصال إلى المطلوب .

وحالة الإنسان الكفور النسيان « إنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها » شكوراً أو يظن أنه يحق لها « وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم » لا أيدينا « فإن الإنسان كفور » يكفر بالله وينسى رحمة الله ، فهو في الحالتين كفور ، وإن تظاهر حالة النعمة أنه شكور .

﴿ اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَلْقِ مَا يَشَاءُ وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئِنَّهُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ^(٤٩) أَوْ يَزُوجَهُمْ ذَكَرَانًا وَإِنِئِنَّهُ يُجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً

إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ .

.. لأن « الله ملك السماوات والأرض » لا سواه ، فبيده ملكوت كل شيء وناصيته لا سواه ، فهو « يخلق ما يشاء » دون ما يشاء سواه ، وما يخلق إناث وذكور كهبة لخلق في خلقه حيث الأولاد مظهر من مظاهر المنح والعطاء ، يقدم هبة الإناث على الذكور فـ « من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى »^(١) والناس يتقدمون إلى الذكور قبل الإناث ! « ويجعل من يشاء عقيماً » والعقم يكرهه كل الناس و « يهب لمن يشاء .. » توحى بأن الأولاد من هبات الله فكان الوالدين يملكانهم ، وهذه الآية هي مصدر ما اشتهر عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) « أنت ومالك لأبيك » و « إن أولادكم هبة الله يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور فهم وأموالهم لكم إذا احتجتم إليها »^(٢) .

فـ « ربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة من أمرهم سبحانه الله وتعالى عما يشركون » (٢٨ : ٦٨) فإذ يختار لك الذي له ملك

(١) الدر المنثور ٦ : ١٢ - اخرج ابن مردويه عن ابن عمران رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ... لأن الله قال : يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور . وفي نور الثقلين ٤ : ٥٨٧ عن تهذيب الأحكام بإسناده عن زيد بن علي عن آبائه عن علي (عليه السلام) قال : أتى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رجل فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إن أبي عمد إلى مملوك لي فاعتقه كهبة المضرة لي ؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : أنت ومالك من هبة الله لأبيك أنت سهم من كنانة « يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور .. » ويجعل من يشاء عقيماً « جازت عتاقة أبيك ، يتناول والدك من مالك ويدنك وليس لك أن تتناول من ماله ولا من بدنه شيئاً إلا باذنه » .

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٢ - اخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عائشة قالت قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

السموات والارض أنثى كهبة ومنحة ربانية فهل لك أن تردّها او تبغضها ؟
أو يختار لك ذكراً فهل لك أن تتبجح حيث لم يهبك أنثى ؟ أم إذا جعلك
عقياً حرماناً عن هبة الأولاد ذكراً وإناثاً فهل لك أن تغضب لماذا جعلك
عقياً ؟ كلا ثم كلا ! فإن هبات الله كلها مرضية والله يقدم هنا « إناثاً »
لكي يقضي على ثورة حمقاء : بغض الإناث ، ثم يقدم ذكراً لكي يفهمك
أنها في هبة الله على سواء « أرايت لو أن الله أوحى إليك أن أختار لك أو
تختار لنفسك ما كنت تقول ؟ (طبعاً) يا رب تختار لي ، فإن الله اختار
لك ... » (١).

وقد يختار الله أنثى هي مفتاح كل خير وبركة كما كانت فاطمة بنت
الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أم الأئمة النقباء النجباء ، كوثر عظيم
من كوثر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقد قال (صلى الله عليه
وآله وسلم) عن البنات « نعم الولد البنات ملطفات مجهزةات مؤنسات
مباركات مفليات » (٢).

مركز تحقيق كاميون علوم إسلامي

(١) وسائل الشيعة ج ١٧ ص ١٠٢ ح ٤ عن الحسين بن سعيد اللحمي قال : ولد
لرجل من اصحابنا جارية فدخل على ابي عبد الله فرآه متسخطاً فقال له ارايت ... ما
كنت تقول ؟ قال كنت اقول : يا رب تختار لي ثم قال : ان الغلام الذي قتله العالم
الذي كان مع موسى (عليه السلام) وهو قول الله عز وجل « فاردنا ان يبدلها ربهما
خييراً منه زكوة واقرب رهما » ابدلها الله عز وجل به جارية ولدت سبعين سنة .

(٢) المصدر ص ١٠٠ وفيه ١٠٢ ح ٣ عن الجارود بن المنذر قال قال لي ابو عبد الله
(عليه السلام) بلغني انه ولذلك ابنة فتسخطها وما عليك منها ريحانة تشمها وقد كُفيت
رزقها وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ابا بنات و..

وح (٥) محمد بن علي بن الحسين قال بشر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بابنة فنظر
الى وجه اصحابه فرأى الكراهة فيهم قال : فما بالكم ريحانة اشمها ورزقها على الله عز
وجل وكان ابا بنات .

وح ٨: عيون اخبار عن الحسن بن علي العسكري عن آبائه عن الصادق (عليه السلام) =

وترى « يهب لمن يشاء إنثاءً » تخص من يوهب - فقط - البنات « ويهب لمن يشاء الذكور » فقط - الذكور ؟ علّه نعم إذ تعني الهبة طيلة العمر ، ولكنها قلة قليلة ، أن يوهب الوالدان فقط بنات او كذلك البنين ! إلا أن « او يزوجهم ذكراً وأنثاً » تعني الكثرة الكثيرة ، أو أن « يهب لمن يشاء » تعني كل ولادة وولادة ، فقد تكون أنثى وقد تكون ذكراً وقد تكون توأمًا « ذكراً وإنثاً » ؟ علّ الآية تعنيها .

« أو يزوجهم » تعني يهب لهم زوجاً : « ذكراً وإنثاً » في ولادة أم ولادات .

وترى « ويجعل من يشاء عقيماً » يعني عقيماً ما ، وإن كان مانع ترفعه الدواء أو عملية أخرى ؟ وليس هذا عقماً لا هبة فيه ، حيث العقيم مانع ما حين يرزق ولداً كان من هبات الله فتشملة « يهب لمن يشاء ... » .

فهذا العقم هو عقم في العمق حيث لا علاج له ، ولا عادياً بعلاج ، ولا خارجاً عن العادة بمعجزة إلهية كما في أم اسحاق على حد قولها « عجوز عقيم » .

= ان رجلاً شكّا اليه غمه بيناته فقال : الذي ترجوه لتضعيف حسناتك ومحو سيئاتك فارجه لصالح حال بناتك اما علمت ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لما جاوزت سورة المنتهى وبلغت قضبانها واغصانها رأيت بعض ثمار قضبانها ائداء معلقة يقطر من بعضها اللبن ومن بعضها العسل ومن بعضها الدهن ومن بعضها شبه دقيق السميد ومن بعضها الشيباب (النبات) ومن بعضها كالنبق فيهبوى ذلك كله نحو الأرض فقلت في نفسي اين مقر هذه الخارجات ؟ فناداني ربي يا محمد ! هذه ابنتها من هذا المكان لاغلو منها بينات المؤمنين من امتك وبنهم فقل لأبائ البنات لا تضيقن صدوركم على بناتكم فاني كما خلقتهن ارزقهن .

ثم ترى لماذا « الذكور » بعد « إناثاً » معرفة وهي منكرة ؟ ومن ثم « ذكراناً وإناثاً » بعكسه ومنكرين ؟ .

تقدم الإناث هنا جبراً لتأخرهن عند الناس ، ولأنهن في كونهن مظاهر العطف الرباني أعطف، والهبة تقتضي في البداية أعطف العطف وكما يستلهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من هذا التقدم قوله « من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى لأن الله قال ... » .

وتعريف الذكور مجازة لمن يقدمونهم على الإناث أو للإشارة إلى واقع التقدم، وتأخير ذكرهم يقضي على هذا العرف الخاطئ أو للتعديل في تقدم وتأخر، ثم تقديم « ذكراناً » على « إناثاً » للتدليل على أنها سواء، أو جبراً لتقدم الإناث قبله، ولم يعرف هنا « ذكراناً » كيلا ينجيل إلى الذكور أنهم فوق الإناث كضابطة، أو لا يزعم أن في تقديمهم تقدم على « إناثاً » وبها من صيغة سائغة كأنها صاعقة تحرق التخيلات الجارفة الحمقاء حول الإناث بين هؤلاء الناس النسناس، ولقد كانوا يعتبرونهم حيواناً أو أدنى ، فقد رفعهن الله كما وضعن ، وسوى بين القبيلين إلا فيما يسعى « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾ (٥١) .

هنالك تكليم الله في مثلث لا رابع له ، فما هو تكليمه ، ومن ثم ما هو « وحياً » « أو من وراء حجاب » « أو يرسل رسولاً فيوحى بأذنه ما يشاء » ؟ فهل إن « من وراء حجاب » وحي كـ « وحياً » فكيف يقابله ؟ أم ليس وحياً فليكن بإرسال رسول فكيف يقابل « أو يرسل رسولاً » ؟ .

التكليم الإلهي :

إن التكليم الإلهي يعني فيما يعنيه الرباط العلمي وحياً إلى بشر ، كلاماً

إلى سمع أو معنى إلى قلب ، بواسطة أو دون وسيط ، بحجاب أو دون حجاب الآ حجاب ذات الألوهية حيث يستحيل ارتفاعه، لارتفاع ذات الألوهية وسموها عن أن يُدرك دون حجاب « فلا يُحس ولا يُحس ولا يُحس ولا يُدرك بالحواس الخمس » .

ليس كلامه بآلة في ذاته لساناً أم ماذا كمن سواه ، إنما هو إيجاء يحمل صوتاً أو معنى دون صوت ، يخلقه الله تعالى كسائر خلقه ، إلا أنه يختصه من يصلح من ملائكته ورسله دون سائر خلقه : « وقال الذين كفروا لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون » (١١٨ : ٢) . . وليس الله مكلم الذين كفروا لا في الدنيا ولا في الآخرة مهما كان مكلم المؤمنين في الآخرة : « ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم » (٣ : ٧٧) فلا تكليم إلهياً يوم الدنيا إلا مع المرسلين .

« ما كان لبشر » سلب للكيان البشري، يضرب إلى عمق الماضي أن يتحمل كلام الله مواجهة برؤية أو بسماع لفظة كنا يلفظ البشر فيسمع ، لا هذا ولا ذاك ، وإنما « وحياً أو . . » وجوه ثلاثة لا رابع لها وكلها كلام الوحي .

فالوحي وهو الإشارة في رمز قد يكون من أرقاه في أعلى القمم الممكنة ، وهو وحي دون حجاب ودون رسول ، إلقاء في قلب الرسول دون وسيط من شجرة كما أوحى بها إلى موسى ، أو كلام لفظي كما « كلم الله موسى تكليماً » أو حجاب المنام ، وإنما المعنى والمعنى فقط يلقي دون أي وسيط إلى قلب الرسول ، في حين ليس بين الرسول وبين الله أحد حتى نفسه حيث يتناسى حينه عنها ، ارتفاعاً لحجب الظلمة والنور إلا نور

الذات المقدسة حيث تبقى حجاباً لن يزول .

هنا لا يبقى حجاب للوحي إلا حجاب هو لزام ذات الألوهية لمن سواه^(١)، فهو وحي دون أي حجاب ممكن الكون والارتفاع ، وكما الوحي إلى الرسول الأقدس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلة القدر وليلة المعراج كان وحيّاً بلا حجاب ، حيث لا كلام ولا منام ولا شجرة أم ماذا ؟ ولا جبريل ولا حجاب نفس الرسول المقدسة النورانية ، حيث « لم يكن بينه وبين الله احد »^(٢) .

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨٧ ح ١٣٤ في كتاب توحيد المفضل بن عمر المنقول عن ابي عبد الله الصادق (عليه السلام) في الرد على الدهرية قال (عليه السلام) بعد ان ذكر الله عز وجل، والعجز عن ان يدرك فان قالوا : ولم استر ؟ قيل لهم ما يستتر بحيلة يُخلص إليها كمن يحتجب عن الناس بالأبواب والستور ، وانما معني قولنا : استتر انه لطف عن مدى ما تبلغه الاوهام كما لطف النفس وهي خلق من خلقه وارتفعت عن ادراكها بالنظر .

وفي كتاب التوحيد عن الرضا (عليه السلام) كلام طويل في التوحيد وفيه : لا تشمله المشاعر ولا تحجبه الحجاب فالحجاب بينه وبين خلقه لا متناحه مما يمكن في ذواتهم و . لإمكان ذواتهم مما يمتنع منه ذاته . ولافتراق الصانع والمصنوع والرب والمربوب والحاد والمحدود .

وفيه عن الرضا (عليه السلام) ايضاً كلام وفيه قال الرجل : فلم احتجب ؟ فقال ابو الحسن (عليه السلام) ان الحجاب على الخلق لكثرة ذنوبها فأما هو فلا تخفى عليه خافية في آناء الليل والنهار .

(٢) في التوحيد باسناده عن زرارة قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) جعلت فداك الغشية التي كانت تصيب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اذا نزل عليه الوحي ؟ قال فقال : ذلك اذا لم يكن بينه وبين الله احد ذاك اذا تجلى الله له - قال ثم قال : تلك النبوة يا زرارة واقبل يتخشع .

وفي امالي الشيخ باسناده عن ابن ابي عمير عن هشام بن سالم عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : قال بعض اصحابنا : اصلحك الله كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) =

ولم يسبق هكذا وحي لأحد من المرسلين ، ولا الملائكة المقربين ، لأنه يتطلب مقام «دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى» حيث لم يسطع الرسول إلى الرسل: جبريل (عليه السلام)، أن يعرج إلى معراج الرسول ولا بجسمه فضلاً عن روحه^(١).

هذا تكليم إلهي متحلل عن لفظية الكلام وعن أي وسيط ، ثم يأتي دور تكليمه «من وراء حجاب» ولا يعني الورا وراء مكانياً للمكلم ، وإنما الورا لكلامه الموحى إلى رسول ، سواء كان وراء الكلام اللفظ وهو أبسطه ، أم وراء النوم ، أم وراء شجرة كما لموسى، أم أي وراء هو حجاب ، وليس رسولاً للوحي ، وإن كان هو أيضاً من الحجاب ، إلا أن «أو يرسل رسولاً» يختصه بوحي بعد «وحيّاً أو من وراء حجاب» فلا يشملها هنا «حجاب» والوحيان يعنيان ما لا وسيط له رسالياً ، ومن ثم :

«أو يرسل رسولاً» إلى بشر «فيوحي» الرسول الملك إلى رسول البشر «بإذنه» : الله «ما يشاء» الله ، فالوحي الأصيل هو الله ، والوحي الملك هو رسول الوحي ، يشير في رمزي ما تلقاه من الله إلى الرسول البشري .

= (وسلم) يقول : قال جبرئيل وهذا جبرئيل يامرني ثم يكون في حال أخرى يغمى عليه ؟ فقال ابو عبد الله (عليه السلام) انه اذا كان الوحي من الله اليه ليس بينهما جبرئيل اصايه ذلك لثقل الوحي من الله واذا كان بينهما جبرئيل لم يصبه ذلك فقال : قال لي جبرئيل وهذا جبرئيل .

وفي الدر المنثور اخرج البخاري ومسلم والبيهقي عن عائشة ان الحارث بن هشام سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كيف يأتيك الوحي ؟ قال : احياناً يأتيني الملك في مثل صلصلة الجرس فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وهو أشده عليّ وحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول - أقول وهو أشده عليّ خاص بما يوحي إليه بواسطة ملك الوحي ، فان أشده ككل ما يوحي اليه دون وسيط .

(١) راجع الفرقان ج ٢٧ ص ٣٩٨ - ٤٠٥ من سورة النجم حول آية التدلي .

إن الوحي- حيث يحمل تكويناً أو تشريعاً- ليس إلا من الله ، سواء أكان رمزاً في التكوين : « يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها » أو في الغريزة : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون » (١٦ : ٦٨) .

أو إلهاماً يحمل حكماً خاصاً إرشادياً : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » (٢٨ : ٧) .

ومن ثمَّ الوحي التشريعي الذي يحمل أحكاماً شرعية للموحي إليه شخصياً، أم له ورسالة إلى جماعة قلوباً أو كثروا، أم إلى العالمين أجمعين .

و« يوحى بإذنه ما يشاء » حيث يحمل وحي التشريع من ملك الوحي بإذن الله ، آية يتيمة في القرآن كله ، على احتمال أن الموحي بإذنه هنا أيضاً هو الله ، حيث الآية تتبنى التكليم الإلهي في هذا المثلث البارع ، فليكن المكلم الموحي في ثالثه هو الله كما في الأولين .

إذاً « أو يرسل » الله « رسولاً » ملائكياً « فيوحي » بواسطته كحجاب يعقل « بإذنه » تعالى لا بإذن الملك أو الموحي إليه أو مسيراً في وحيه « ما يشاء » الله - لا ما يشاء الرسول الملك أو الرسول البشر « إنه عليّ » عن أن يواجه في كلامه بذاته ، أو يكلم غير رسله وأنبياءه « حكيم » يوحى بحكمة بارعة إلى كلِّ كما يحق له ويتحمل ، وكما يجب في رسالته .

لقد جمع لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بين مثلث الوحي : دون حجاب - ومن وراء حجاب المنام أو الكلام - وبواسطة جبريل ، ووحيه الأول دليل أن الآخرين لم يكونوا بحاجة منه إلى حجاب أو ملك ، وإنما هو تثبيت للمؤمنين حتى لا يقولوا فيه ما قالوه في المسيح (عليه السلام) : « قل نزل به روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى

للمسلمين » (١٦ : : ١٠٢) « وكان جبرئيل إذا أتى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قعد بين يديه قعدة العبد وكان لا يدخل حتى يستأذنه »^(١).

ولئن قلت : تنزيل جبريل لم يكن بمشهد للمؤمنين فكيف يصدقونه حتى يثبتوا على الإيمان أنه ليس كما قيل في المسيح (عليه السلام) ؟

فالجواب نجده من « الذين آمنوا » حيث يصدقونه - لإيمانهم - قوله : إن تنزيل القرآن بواسطة روح القدس .

أو قلت : هلاً كلم الله تعالى إبليس وكما في مواضع من خطابه له ، فهل يدخل في مثلث الوحي أم ماذا ؟ .

فالجواب : أن الآية تتحدث عن تكليمه لبشر دون أي كائن من جن وشيطان أم من ذا ؟ ثم قد يكون وحيه إلى إبليس من وراء حجاب الغضب والظلام دون حجب النور الذي كانت لرسول الله ، أو أنه لا يدخل في مثلث الوحي إذ لم يكن وحي رسالة وإنما وحي تنديد وتبكيث .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٥٢).

« وكذلك » الهمي يوحى ربك « وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً » « أوحينا إليك » والوحي إلى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) شمل هذا المثلث كله « روحاً من أمرنا » إن كان روح القرآن فمحكمه وما أوحى إليه ليلة القدر والمعراج أم ماذا « وحياً » ومفصله : « أو يرسل رسولاً » : « نزل به الروح الأمين . . » وعوان بين ذلك في المنام أم ماذا .

(١) علل الشرائع بأسناده عن ابن أبي عمير عن عمرو بن جريح عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ...

ام « كذلك » الذي يوحى من وحي الكتاب « أوحينا إليك روحاً من أمرنا » الروح القدس الرسالي الذي هو سند العصمة ولزام المرسلين وسائر المعصومين ، وكل منها روح من أمر الله وفعله ، لا صنع للموحى إليهم فيه ولا أمر ، اللهم إلا تحضيراً مستطاعاً لهم بتوفيق الله وجهودهم لكي يستأهلوا لنزولهما عليهم ووحيهما إليهم ، وحي التكوين : روح العصمة ، ووحى التشريع : روح الكتاب .

وقد يشملهما « كذلك » وكما في سائر القرآن ، فالروح القرآن وهو روح الأرواح كلها : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » (١٧ : ٨٥) وهي تشمل روح القدس أيضاً ، ولكن الروح المنزل هو القرآن : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون » (١٦ : ٢) اللهم إلا أن يعني التنزل التدريج الأرواح العدة التي تنزل عليهم واحداً تلو الآخر ، أو يشملهما معاً ، ثم الروح الملقى هو روح القدس ، وروح الكتاب النازل دفعة كالقرآن المحكم أم ماذا : « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » (٤٠ : ١٥) فالروح القدس الرسالي يتم الإنذار ويظم في الجو المنتظم ، وبكتاب السوحي يبلغ الروح القدس ، فلولا عصمة القرآن لم يكف الروح القدس ، ولولا لم تكف عصمة القرآن ، فالروحان متجاويان متناصران في الدعوة الرسالية المتحللة عن أية أخطاء .

وكما أن من وحي القرآن إلى محمد « وحياً » دون حجاب أو رسول ، كذلك وحي الروح القدس إليه دون وسيط ، فقد يلقيه الله كذلك أو « ينزل الملائكة بالروح من أمره » حيث يشمل روح القدس .

وقد يختلف « روحاً من أمرنا » عن « الروح من أمره » فـ « نا » حيث تلمح إلى جمعية الصفات تجمع - للموحى إليه في الروح الموحى - كتاباً

وروحاً قدسياً ، تجمع كافة الصفات والرحمات الإلهية ، عصمة فوق العِصْم ، وكتاباً فوق الكتب ، كما العصمة المحمدية وكتابه يجمعان ما بالإمكان أن يوحى من الله .

ثم الرسول الحامل لوحي الكتاب هو جبريل - روح القدس (٢ : ٨٧ و ٢٥٣ و ٥ : ١١٠) والروح الأمين (٦ : ١٩٣) والحامل لوحي العصمة : - الروح القدسي الرسالي في وحيه الوسيط - قد يكون هو أو الروح الذي ليس من الملائكة وهو يرأسهم ، فهو يحمل هذه الروح القدسية إلى المعصومين ، أنبياء وسواهم ، ويتنزل مع الملائكة ليلة القدر من كل أمر « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » (٩٧ : ٣) كما « يقوم الروح والملائكة لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » (٧٨ : ٣٨) و« تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (٧٠ : ٤) ، ولكنما الروح القدس النازل على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هو كمحكم القرآن نازلان عليه دون أي وسيط ، وحياً دون أي حجاب ، كما وأن قبض روحه (صلى الله عليه وآله وسلم) عند ارتحاله لم يكن بوسيط .

فهناك أرواح أربع من الله إلى رسل الله ، روحان ينزلان وحياً : روح القدس وروح الكتاب ، وروحان ينزلان وحياً : ١ - جبريل - روح القدس : الروح الأمين ، وسيطاً في وحي الكتاب ، ٢ - والروح وسيطاً في وحي الروح القدسي أم ماذا من أمر ، والرسول الأقدس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يتلقى وحي الروح القدسي دون أي وسيط ، كما قد يتلقى روح القرآن دون وسيط ، وقد يوحى إليه القرآن - كما في مفصله - بوسيط ، أو يلقي إليه ليلة القدر من كل أمر بواسطة الروح .

و« روحاً من أمرنا » هنا تشمل الروحين، وعلّ أظهرهما روح القرآن ، كما تلمح إليه « كذلك » والمع منه « ما تدري ما الكتاب ولا الإيمان »

فالروح القدسي ليس لزامه دراية الكتاب والايمان القرآني ، لأنه اعم ، وروح القرآن الموحى اليه لزامه الروح القدسي ، وقد يكون تفسيره روحاً من امرنا « هنا بروح العصمة تفسيراً باللازم او بمصداق خفي »^(١).

اللهم إلا ان تعني دراية الكتاب والايمان دراية اجمالية عنهما كما يحق للقيمة الرسالية ، ومن ثم تفصيل الكتاب ، فالروح القدسي بما يوحى اليه من محكم الكتاب يتقدم تفصيل الكتاب ، فـ روحاً من امرنا « يشملها أولاً الاول وثانياً الثاني ، وهما اللذان يتبينان الرسالة القدسية المحمدية كسائر الرسالات على شقي مراتبها .

ام يعكس الأمر فـ روحاً من امرنا « تعني أولاً الروح الرسالي لمكان « اوحينا » الضارب الى اعماق الماضي من زمن الرسالة ، فلا يعني إلا هذا الروح السابق وحيه على وحي الكتاب محكماً ومفصلاً ، ام وحي الكتاب محكماً ليلة القدر بعد بداية البعثة قرابة خمسين ليلة .

ثم « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » شاهد ثان أنه قبل هذا الوحي ما كان يدريهما ، ولو كان - فقط - روح القرآن المتأخر عن روح الرسالة فانه كان يدري ما الكتاب والايمان اجمالاً قبل وحي القرآن ، كما دراهما ليلة القدر أكثر ، ثم دوى تفصيلهما بنزول تفصيل القرآن ، اذ أفهوا روح الرسالة أولاً ومن ثم روح القرآن .

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨٩ ح ١٣٩ في اصول الكافي باسناده عن ابي بصير قال : سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله تبارك وتعالى : وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا ... قال : خلق من خلق الله عز وجل اعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يخبره ويسدده وهو مع الأئمة من بعده وفي ح ١٤٠ باسناده الى اسباط بن سالم قال : سأله رجل من اهل هيت وانا حاضر عن الآية فقال : منذ انزل الله عز وجل الروح على محمد ما صعد الى السماء وانه لفينا وفي معناها روايات عدة وفي بعضها انه من الملكوت .

وقد يعتبر الروحان واحداً كما هنا «روحاً من أمرنا» وفي الخبر «روح القدس فيه حمل النبوة»^(١) ولأنها متلازمان كلٌ يلازم زميله في حمل النبوة وتبني الرسالة .

وترى أن الرسول قبل هذا الوحي ما كان مؤمناً كما لم يكن يدري القرآن ؟ .

إنه كان مؤمناً منذ كان فطياً «ولقد قرن الله به من لدن كان فطياً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره»^(٢) .

ولكننا الإيمان درجات ، ولأن «الكتاب» هنا القرآن أم وسواه «والإيمان» على ضوء وحي العصمة الرسالية والقرآن ، فهو كبشر قبل الوحيين ما كان يدري ما هذا الكتاب ولا ذلك الإيمان ، على إيمانه العقائدي والعملي بما كان يسلكه الروح الأمين .

فما كان يدري هو من نفسه أو بآية دراسة وأرتياض ما القرآن ولا الإيمان القرآني «ولكن جعلناه نوراً . . .» .

(١) سفينة البحار ١ : ٥٣٧ زع ١٩١ ير عن المفضل عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال يا مفضل إن الله جعل للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خمسة أرواح روح الحياة فيه دب ودرج وروح القوة فيه نهض وجاهد وروح الشهوة فيه أكل وشرب وات النساء من الحلال وروح الإيمان فيه امر وعدل وروح القدس فيه حمل النبوة .

(٢) نهج البلاغة عن الإمام علي (عليه السلام) - راجع «شريعة محمد قبل الإسلام» في ج ٣٠ ص ٣٤٧ - ٣٤٨ الفرقان .

وفي الدر المنثور أخرج أبو نعيم في الدلائل وابن عساكر عن علي قال : قيل للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هل عبدت وثناً قط ؟ قال : لا - قالوا : فهل شربت خمرأ قط ؟ قال : لا - وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان وبذلك نزل القرآن «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان» .

أجل » وأنزل الله عليك الكتاب وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك كبيراً « (٤ : ١١٣) « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين » (١١ : ٤٩) .

لقد كان مؤمناً نبياً أم سواه قبل رسالته ، وما كان يعلم الكتاب قرآناً وسواه : « وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون (٢٩ : ٤٨) ما كان يتلوا ولا يخط بما أحال الله تعالى عليه قبل الوحي الرسالي » إذا لارتاب المبطلون « فعدم القراءة والخط لهذه الغاية كمال حيث يتبني قوام الرسالة .

وما كان يدري ذلك الإيمان الحاصل بوحي الروحين « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » (١٢ : ٢) .

فالإيمان هنا معروف معروف حسب المقام أنه إيمان خاص ، بحاجة إلى تعريف الوحي ، كما علم الكتاب بحاجة إلى الوحي ، دون أن يملك الرسول قبل رسالته هذا العلم أو يدري هذا الإيمان ! .

هنالك بالنسبة لإيمان الرسول قبل رسالته مفرط ومفرط ، قولاً أنه كان ضالاً لم يؤمن ، وآخر أنه كان يعلم ما أوحى إليه قبل أن يوحى ، والحق المستفاد من القرآن عوان بين ذلك^(١) .

« ولكن جعلناه » ما كنت تدري ولكن أدريناك بما « جعلناه » : روحاً

(١) واذ لم يكن الرسول ليعلم القرآن قبل وحيه فبأحرى لم يعلمه غيره ، فالروايات القائلة ان الإمام علي (عليه السلام) قرء سورة المؤمنون حين ولادته مزورة مقحمة تعني تفضيله على الرسول ، ونبوته قبل الرسول ! .

من أمرنا والكتاب والإيمان «نوراً» نهدي به من نشاء من عبادنا» هداية الدلالة والإيصال إلى الهدى، فخصوص الهداية الدلالة عام، والهداية الإيصال خاص به من نشاء « وهم من يشاؤون الهدى ويعملون لها » والذين اهتدوا زادهم هدى » (٤٧ : ٧) . « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » فقط هداية الدلالة دون إيصال تكويني إلى الهدى^(١).

وعلى الهداية الأولى هي الهداية بوحى الروحين ، ثم الثانية هي العامة وأين هدى من هدى ؟ .

﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ (٥٣).

لله صراطان، صراط الربوبية المختص بالله «وما من دابة إلا هو آخذ بماصيتها» إن ربي على صراط مستقيم » (١١ : ٥٦) وصراط العبودية المختص بعباد الله، حيث رسمه الله وخطه لعباده وجعل عليه الأدلاء اليه وأمرهم أن يدلوا العباد إليه «ألا إلى الله تصير الأمور».

شريعة الرسول قبل الاسلام ؟

ترى أن عمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) كان نبياً موحى إليه بشريعة تخصه قبل رسالته ؟ ١-أ- أم كان يسترشد فيها بأعظم ملك من ملائكة

(١) تفسير البرهان ٤ : ١٣٣ ح ٩ بإسناد عن جابر الجعفي عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول الله عز وجل : « ولكن جعلناه نورا نهدي من نشاء من عبادنا » قال : ذاك علي بن أبي طالب - أقول : عليه يعني روح القدس النازل على علي (عليه السلام) بعد الرسول ، كما القرآن يعلمه علي بعد الرسول فهو (عليه السلام) مزود بالروحين دون وحي إلا في روح القدس الذي هو مع الأئمة يسددهم كما كان مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

الوحي دون أن يوحى إليه ؟ أم كان متعبداً بالشرعة المحكّمة زمنه : شرعية التاموس التوراة حسب الانجيل ؟ يثّد التدليل-وحياً أم ماذا على مواضع التحريف والتجديف - ٣ - ؟ أم دون تدليل - ٤ - ؟ أم كان على شرعة إبراهيم: « إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي » - ٥ - (٣ : ٦٨) رغم أنها نسخت بشرعة التوراة والإنجيل ؟ فضلاً عن شرعية نوح ؟ أم لم يكن على أية شرعة وإنما على الفطرة الطاهرة التي فطره الله عليها - ٦ - أم كان ضالاً عن كل هذه الشرائع - ٧ - : « ووجدك ضالاً فهدى » (٩٣ : ٧) .

من المؤكد قرآنياً وفي السنة أن الله اصطفاه بين العالمين على العالمين أجمعين ، وفيهم - طول الأربعين - عباد الله المخلصون من اهل الكتاب الموحددين ، واصطفائه عليهم يتطلب - ولأقل تقدير - أنه كان مؤمناً كما هم ، وعاملاً بالشرعة المحكّمة زمنه كما هم ، ولكننا الإصطفاء يقتضي أنه كان بينهم أول المؤمنين والعابدين ، إضافة إلى تحضير رباني وتسديد دائب طول الأربعين ولكي يصلح للرسالة على العالمين أجمعين ، هذه الرسالة السامية القمة التي تربوا الرسائل كلها ربوة تطمّها وتتممها ، أفلا يقتضي ذلك لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) نبوة قبل رسالته ، أم استرشاداً باعظم ملك من ملائكة الوحي يسلك به سبيل المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره ، وإن لم يكن بوحي ، أم لا أقل من اتباعه شرعة التوراة الأصيلة على ضوء الإنجيل الإصيل ، تدليلاً بوحي أم سواء في موارد التحريف أم ماذا .

ومهما يكن من شيء فهو كان أفضل المؤمنين العابدين على الإطلاق وإن كان « ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان » قرآنياً قبل نزوله ونزوح روح القدس عليه .

وقد يعني نبؤته الشخصية قبل رسالته قوله « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » واقع النبوة منذ كان فطياً حتى رسالته ، ونبا النبوة وآدم بين الماء والطين .

أم يعني نبؤته في وجوب تصديقه قبل بعثته طول التاريخ الرسالي للرسل والنبين أجمعين : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » (٨١:٣).



مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



(٤٣) سُورَةُ الْخُرُفِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا السَّيِّدُ وَتَمَامُكَ

مركز تحقيق كتاب پویر علوم اسلامی



مرکز تحقیق تکاپویر علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا
 عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينًا
 لِّعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ
 قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾
 وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا
 أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ
 مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ
 الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ
 لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ
 السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ
 نُخْرِجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ

الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَكْبُونَ ﴿١٢﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ
 ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ
 الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى
 رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّا
 الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أُمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ
 وَأَصْفَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ
 لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾
 أَوْ مِنْ يَنْشُوْا فِي الْحَلْبَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾
 وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا
 خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ
 شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ
 إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ

مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ
وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا
آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾
* قُلْ أُولَٰئِكَ جُنُحُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ
قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

﴿حم﴾ رابعة الخوامس السبع ، تبدأ بالكتاب المبين وكما في
الدخان ، إلا أن هنا يجعل قرآناً عربياً ، وهناك ينزل في ليلة مباركة ، ثم
لا إنزال للكتاب في سائر السبع إلا تنزيلاً كما يسبقها أيضاً تنزيل الزمردون
« حم » إذا ففي مفتحات الخواميس تنزيلات ست للكتاب ، منها ما هنا :
« إنا جعلناه قرآناً عربياً » . . . « تعني تفصيل الكتاب ، وإنزال واحد في
الدخان يعني بحكم الكتاب النازل ليلة القدر جملة واحدة .

أتبى ما هو الكتاب المبين ؟ إن له حسب القرآن مصاديق ثلاثة ،
أعلاها أم الكتاب لدى الله « وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » كما هنا
و « إنا أنزلناه في ليلة مباركة »^(١) كما في الدخان أم ماذا . . وأدناها القرآن
المفصل : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » (٥ : ١٥) « إن هو إلا
ذكر وقرآن مبين » (٣٦ : ٦٩) وأوسطها القرآن المحكم النازل في ليلة
مباركة على قلب الرسول محمد (ص) « حم والكتاب المبين . إنا أنزلناه في
ليلة مباركة » (٤٤ : ٢) « إنا أنزلناه في ليلة القدر » (٩٧ : ١) .

فقد يعني الكتاب المبين هنا أم الكتاب فجعله قرآناً عربياً فجعل ثانياً
بعد إنزاله في ليلة القدر ، أو يعني النازل فيها فجعله جعل أول ، وقد
يلوح من « وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » أنه الكتاب المبين
الأوسط ، وهنا يلوح « حم » خطاباً لـ (أحمد - محمد) قسماً بالكتاب المبين
الذي أنزلناه عليك في ليلة مباركة « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »
إذ لم يكن قبله بمحكمه النازل فيها لا قرآناً : يُقرأ باللفظ ، ولا عربياً :
لائحاً لغير الرسول (ص) ، ولقد كان قبل النزول الأول : المحكم « في

(١) فإن ضمير الغائب المفرد في « أنزلناه » راجع إلى القرآن قبل الانزال لا بعده حيث
الجمع بين حالتي النزول وقبلة محال ، فـ « هـ » يعني أم الكتاب والله تعالى أنزله من علي
الربوبية إلى دنو العبودية حتى تلقاه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بصورة
محكمة ، ومن ثم نزل هذا المنزل آيات مفصلات لعلهم يعقلون .

وقد يحتمل أن الضمير راجع إلى الحالة الحاضرة لدى الجميع وهو القرآن المفصل وإن
كان أنزل وأدى من المنزل ليلة القدر ، فهناك حالة قبل الانزال في أم الكتاب ، وحالة
الانزال في ليلة القدر وحالة التنزيل في الكتاب المفصل والحقيقة واحدة ، إلا أن للكتاب
الأم فضله حيث الآخرين من ولده ، فإنه علم الله المحيط بكل شيء ، وللكتاب
المحكم فضله على المفصل بإحكامه وأنه يشمل ما يختص بالرسول نفسه ، وهذا المختص
بارز في الحروف المقطعة التي هي مفاتيح كنوز القرآن ، إضافة إلى علم التأويل الخارج
عن دلالة التنزيل ، فهنا اختصاصان للرسول من القرآن :

سورة الزخرف / آية ١-٢ ٢٧١

ام الكتاب لدينا لعلي « من أن تناله الأفهام حتى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) و « حكيم » لا يتخلل حتى للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ! . إذ لم يكن له سبيل إلى علم الله قبل وحيه اللهم إلا بوحيه بما أنزل عليه من علمه تعالى .

فقد أنزله الله مرة أولى في ليلة مباركة حتى وعاه الرسول محكماً ، ثم جعله قرآناً عربياً إنزالاً ثانياً تفصيلاً : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكم خبير » (١١ : ١)

وترى ما هو الكتاب المبين الأم ؟ وما هو الفرق بين الكتب الثلاث ؟

للكتاب الأم مواصفات عدة في سائر القرآن تميزه عن الآخرين على وحدة في الثلاثة .

إنه العلم المطلق بكل شيء : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » (٦ : ٥٩) ومفاتيح الغيب تشمل العلمين الإلهيين الذاتي والفعل ، ثم يستعرض الثاني « ويعلم ما في البر والبحر » والكتاب المبين الثاني : القرآن المحكم ، ولا الثالث : القرآن المفصل ، لا يشملان العلم الفعلي كله فضلاً عن الذاتي الذي هو عين ذاته تعالى فلا يحدث وينفصل عنه والفعل حادث منفصل : « وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » (١٠ : ٦١) هنا الآية تختص باستعراض العلم الفعلي الإلهي ككل ، وتختصها بالكتاب الأم : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين » (١١ : ٦) « وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب

مبين « (٢٧ : ٧٥) .. عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين « (٣٤ : ٣) »
 « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب « (١٢ : ٣٩) .

وذلك الكتاب الأم المبين هو الإمام المبين : « وكل شيء أحصيناه في إمام مبين « (٣٦ : ١٢) وهو من لوح محفوظ « بسل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ « (٨٥ : ٣٣) ولوح محفوظ هو الكتاب الأم ، لائح لدى الله ، محفوظ عند الله ، والنازل منه ليلة القدر على لوح قلب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) المحفوظ بالعصمة الإلهية ، ثم المنزل طول البعثة لائح في صدور الحفاظ محفوظ عن التحريف ، وأخيراً في ألواح الأوراق أم ماذا ، لائح للقارئ محفوظ عن التحريف ، وكتاب مكنون : « إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون « (٥٦ : ٧٨) .

والكتاب النازل بمحكمه ومفصله كانا في الكتاب الأم ، فتولد المحكم من محكم الأم ، والمفصل من هذا المحكم ، كولد ثان لهذه الأم .

فأم الكتاب يعم ويظم كل علم ، فما من غائبة في السماء والأرض ولا رطب ولا يابس ، وما من قرآن ولا عمل ولا من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ، لا يعزب عنه علم شيء ولا أي شيء ، فهو العلم المطلق بكل شيء .

إذاً - بطبيعة الحال - ليس الكتاب المبين الثاني : النازل ليلة القدر على قلب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس هو النسخة الثانية عن الكتاب الأم ككل ، وإنما هو منه كما هو فيه ، وليس الشيء في نفسه وإنما هو فيها يحويه ، كما نطق به آياته .

ثم الكتاب المبين الثاني أم للثالث : القرآن المفصل ، فإنه آياته وليس الأم بتامها ، اللهم إلا ما هو للناس والعالمين أجمعين ، اللهم إلا ما تعنيه

رموز القرآن ومفاتيح غيبه الخاص بمن أوحى إليه وأهليه وتأويله، إذا فالقرآن المفصل هو هو الأم الثاني برموزه المنحصرة بالرسول المنحصرة عمن سوى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ثم المبين الثالث : هذا القرآن ليس إلا آيات الكتاب المبين : « آلر تلك آيات الكتاب البين » (١٢ : ١) « آلر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » (١٥ : ١) « طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين » (٢٧ : ١) .

فهذا الكتاب القرآن والقرآن الكتاب ليس إلا آيات للكتاب ، والقرآن الأم ، النازل في ليلة القدر ، لا يزيد عليه ولا ينقص عنه ، إلا بيان ما يختص بالرسول من حروفه الرمزية وتأويله ، ثم هما : الأم الثاني بولدها ، ليسا هما الكتاب المبين الأول بتمامه ، حيث يجري علم الغيب كله دون عزوب أو غروب .

« والكتاب المبين . إنا جعلناه . . . دليل أن القرآن المحكم والمفصل واحد لا يختلفان إلا في الأحكام والتفصيل : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (١١ : ١) .

ثم « وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » دليل أن أم الكتاب الأولى ظرف للثانية بولدها ، فهي تحويها وتحيط بهما ، دون تساوي ، وإنما أنزل منه ونزل ما يحتاجه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والعالمون أجمعون إلى يوم الدين ، فهو من العلم الرباني وليس العلم كله ، فهو من الغيب وليس الغيب كله .

والكتاب المبين الأول هو أولاً مبين لرب العالمين لا عن جهل ، ومبين للنبي والعالمين على حدّهم ، ومبين كل شيء علماً واقعاً .

والمبين الثاني يخص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث لا سبيل لمن سواه إلى ما أوحى إليه ليلة القدر إلا ما بينه أو بينه القرآن المبين .

والمبين الثالث من طبعه أنه يبين دون خفاء في قصور دلالي ، وعلى من يستبين دقيق النظر وحديد البصر ليبلغ مدى بيانه فد « هذا بيان للناس » .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢)

الكتاب المبين الأم الثاني فضلاً عن الأول ، لم يكن قرآنًا : يُقرأ في آيات ، ولا عربيًا : بيّنًا يعرب عن حقيقته « للعالمين » « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » ولا يعني « عربيًا » إلا واضحاً لاخفاء فيه ، لا أنه باللغة العربية وإن كان بها . إنه عربي في بعدين : باللغة العربية فإنها أعرب اللغات وأظهرها ، بلسان عربي في هذه اللغة حيث لا تعقيد فيه ولا ريب يعتريه ، وجملة القول في عربيته أنه يعرب عن حقائقه كأوضح ما يمكن في فصاحة التعبير وبلاغته « لعلكم تعقلون » : تأخذون ما يعرب عنه دون قصور وخفاء فيما يعرب حيث لا يعزب عن دلالة ، ولا يغرب عن لمحة إلا وهو بيان له ، يعرب كأعرب بيان وأعذب تبيان .

فد « كم » في لعلكم ليسوا هم العرب فحسب ، حيث القرآن شريعة للعالمين وبيان للناس أجمعين ، بل هم العالمون أجمع شرط أن يعرفوا هذه اللغة ، أو يترجم لهم إلى لغتهم : « كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (٤١ : ٣) قرب عربي لا يعلمه ورب أعجمي يعلمه ، إن بلغته أم مفهومه أم ماذا .

إنه لسان عربي يعرب ، لا لغة عربية قد تعرب وقد تغرب « وهذا لسان عربي مبين » (١٦ : ١٠٣) « نزل به الروح الأمين على قلبك . لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين » (٢٦ : ١٩٥) .

إنه لسان عربي كما أنه حكم عربي « وكذلك أنزلناه حكماً عربيًا » (١٣ : ٣٧) دون أن يختص لسانه وحكمه بالإنسان العربي ، وإنما هو عبارة تعرب وحكم يعرب دون عوج في حكمه أو خفاء في تعبيره : « قرآنًا عربيًا

غير ذي عوج لعلهم يتقون » (٣٩ : ٢٨) .

أترى لو نزل القرآن بغير هذه اللغة ما كان يُعقل أو يُتقى ، فإنما يتقى ما يُعقل ، ويُعقل ويُقبل الظاهر دلالة ، الموافق للعقل والفطرة والمصلحة مدلولاً .

فكم من عبارة عربية لا تُعقل فلا تُقبل ، وكم من أعجمية تُعقل فتُقبل ، ولكننا القرآن جمع بين عربية اللغة وعربية اللسان وعربية البيان وعربية الحقائق التي يتقبلها العقل والفطرة ، ويصدقها الواقع، فهو حكم عربي في كافة المجالات . و « لعل » هنا في موقف ترجي العقل عن القرآن ، لا أن الله يترجى ، وإنما العالمون المكلفون بشرعة القرآن ، فمنهم من يعقله ومنهم من لا يعقله ، فالقرآن في نفسه بيان لا عوج فيه ، فيه رجاء عقلكم أن تأخذوا حقائقه ، لا إثبات في عقله مطلق ولا سلب عن عقله مطلق ، وإنما هو عوان ، يُعقل لمن يعقله ويعقل عنه ، ولا يُعقل لمن لا يعقله ولا يعقل عنه « وتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » .

﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ ﴾ (٤) .

الكتاب هنا كتاب العلم المحيط من تشريع وتكوين ، يحوي كتابات التشريع ومطلق التكوين ، والقرآن موقفه في أم الكتاب « علي حكيم » . و « لدينا » هنا تعني : انه لدينا - في أم الكتاب لدينا ، إنه في ميزان الله ، في أم الكتاب لدى الله « علي حكيم » ، « علي » على سائر الكتب السماوية وهي دونه ، كما هو علي عن أن تناله الأفهام قبل نزوله وحتى للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فكيف بمن دونه ! .

« حكيم » من أن يتدخل فيه الأوهام ، حكيم من النسخ والتحريف ،

فكما الله علي لا يُنال في علوه ، وحكيم لا يُغتال ، كذلك قرآنه المبين ، فعلوه وحكمته إزام له لا يزول ، وإن كان كل درجات في مثلثة الحالات « لدى الله » « لدى رسول الله » « لدى خلق الله » ولكنها الأمر الثابت أنه عليٌ يعلمو كل عال ، حكيم لا يتطرق إليه أي إدغال ، ولا ينفذ إليه غيره في أي مجال على أية حال ! .

القرآن هنا « علي » والله تعالى « علي » في آيات سبع، وأين علي من علي ! ، حيث القرآن قبس من أم الكتاب لدى الله « علي حكيم » .

ثم القرآن هنا « حكيم » وفي آيات عدة : « ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم » (٣ : ٥٨)^(١) والله حكيم في (٩٣) آية، وأين حكيم من حكيم !

ولا يعني « علي » هنا علياً (عليه السلام) حيث الضمير في « إنه » راجع إلى « الكتاب المبين » فالكتاب المبين في أم الكتاب لدى الله علي حكيم ، وإذا أولته إلى ضمير شأن حيث يتطلب مبتدء وخبراً - لا تجدد إلا خبراً موصوفاً « لعلي حكيم » بلا مبتدء ! حيث المبتدء لا يتبدء بلام التأكيد ، ولا يعني رواية « علي حكيم » إلا تطرفاً جاهلاً بعيداً عن أدب اللفظ والمعنى^(٢) اللهم إلا تأويلاً يعني النسخة الثانية من الحكمة المحمدية تمثلاً في الإمام علي (عليه السلام) وتدواماً في الأئمة من أهل بيته

(١) كما في « تلك آيات الكتاب الحكيم » (١٠ : ١) (٣١ : ٢) « يس والقرآن الحكيم » (٣٦ : ٢) .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٩٢ في كتاب معاني الأخبار بإسناده متصل عن حماد بن عيسى عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل « اهدنا الصراط المستقيم » قال : هو أمير المؤمنين ومعرفته والدليل على أنه أمير المؤمنين قوله عز وجل : « وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » وهو أمير المؤمنين (عليه السلام) في أم الكتاب في قوله « اهدنا الصراط المستقيم » ؟ ! .

الطاهرين كما يلوح من الرواية نفسها .

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾^(٥) .

هذا ذكر مبارك أنزل قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون ، رحمة عالية غالية لعلكم ترشدون ، فإن عقلتُم فأنتم مهتدون ، وإن أسرفتم في الجهالة والتجاهل فحقُّ عليكم عذاب الله أن يضرب عنكم الذكر صفحًا ، إعراضاً عنكم بنعمته واستعراضاً لكم بنقمته ، وإنه لتهديد مخيف أن يلوح لهم بعد ذلك بالإهمال من حسابه ورعايته جزاء إسرافهم القبيح .

إن ربكم يحدثكم في هذا الذكر بلسانكم كما يفهمه كل إنسان ، لسان الناس دون تكلف فـ « هذا بيان للناس » فهل إذا تحولتم من الناس إلى الناس « أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين » ؟

فلو أن ضرب الذكر صفحاً كان عنكم المسرفين برفعه أو محوه فما ذنب غير المسرفين ؟ أو أن ضربه عنكم فقط أن يجعل بينه وبينكم حجاباً مستوراً ، فانقطاع الحجة دائبة عليكم من رب العالمين ، فليكن الذكر أمامكم وبين أيديكم تعيشونه بأسماعكم وأبصاركم « لعلكم تعقلون » فتقون شفاء ورحمة للمؤمنين ، أم نكالاً وخساراً للظالمين :

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » .

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍِّّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴾^(٦) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍِّّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ^(٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾^(٨) .

« الأولين » هنا تعني من قبل الآخرين المسلمين كما « ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين » (١٥ : ١٠) « ثلة من الأولين وقليل من الآخرين . قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات » (٥٦ : ١٣ - ٣٩

٤٩ - « ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين » (٣٧ : ٧١) ، وإن كانت تعني أحياناً مَنْ قبلكم وقبل الأوسطين : « قال ربكم ورب آباءكم الأولين » (٢٦ : ٢٦) فحين تعني الأولين أولية الرسالة والمرسل إليهم فالآخرون هم المسلمون ، لمحة لطيفة إلى أن الرسائل كلها تقدمت وتهيأت لهذه الرسالة الأخيرة السامية ، لا شأن لها إلا أوليتها وأنها تعبد طريق هذه الأخيرة .

« وكم أرسلنا من نبي » رسالة تترى دوغماً انقطاع « في الأولين » : « ثم أرسلنا رسلاً تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون » (٢٣ : ٤٤) سنة دائبة في تواتر الرسائل رغم تواتر التكذيبات دون أن يضرب عنهم الذكر صفحاً أن كانوا مسرفين !

« ما يأتهم » هؤلاء المناكيد الأوغاد « من نبي إلا كانوا به يستهزؤن » وهم أولاء المترفون : « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون » (٣٤ : ٣٤) ومن ثم المستضعفون ، والرسالات الإلهية تُحارب المستكبرين وتؤوي المستضعفين :

« فأهلكنا أشد منهم بطشاً » أشد منهم بينهم^(١) وأشد منكم « ومضى مثل الأولين » مضياً في واقعه حيث الهلاك الواقع ، ومضياً في إنبائه حيث الإنبئات الماضية منذ بزوغ وحي القرآن ، ومضياً في إمضاءه ككل إنباء لكم ، حيث الإنبئات تترى طول نزول القرآن ، ومضياً في تحقيقه بينكم : « لتركبن طبقاً عن طبق » (٨٤ : ١٩) سنن من كان قبلكم حذوا النعل بالنعل والقذة بالقذة .

(١) ف « هم » يعنيهما ، أشد منهم بينهم وأشد من هؤلاء الموجودين زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

« اشد منهم بطشاً » : حملة على الرسل والرسالات ، وحملة على الأفراد والجماعات ، هؤلاء الاشداء اهلكوا بالطاغية .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ (٩)

هنالك خطوات ثلاث إلى الله ، أولاها أن هناك مخلوقاً أو ان العالم كله مخلوق ، وثانيتهما أن الخالق عزيز عليم ، وثالثتها انه هو الله .

الخطوة الاولى بيّنة مبرهنة نعيشها ليل نهار ، ولا أقل من أنفسنا حيث نُخلق تلو بعض ومع بعض ، فلا نأكر أن هناك مخلوقاً بين المختلفين في الله من ماديّين ومشرّكين أم من ذا ؟ .

فهنا يأتي دور الخطوة الثانية « مَنْ خَلَقَ » ؟ « أم خُلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون . أم خلقوا لسموات والأرض بل لا يوقنون » (٥٢: ٣٦) فالخالق لهم ولما سواهم غيرهم ، فهل يعلم الخالق أم يجهل ؟ « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (٦٧: ١٤) فاللطافة الدقة والخبرة الحكمة باهرتان في الخلق كله :

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ » . فالعزة : القدرة الغالبة ، والعلم المطلق : اللطافة والخبرة ، نلمسها كلها في هذا الخلق العظيم « فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » (٦٧: ٤) .

فلو أن الحكمة والإتقان في هذا الصنع البارع البديع دليل الجهل والعجز ، أم لا يدل على علم وقدرة ، فما هي آثار العلم والقدرة أم ليست لها آثار ؟ .

إن القدرة الغالبة غير المغلوبة والعلم النافذ هما لزام هذا الخلق العظيم ؟ فلو لا العزة لم تكن قدرة الخلق فضلاً عن هذا الخلق القويم ،

ولولا العلم لم تكن حكمة ونظام في هذا الخلق الحكيم ، ولولاها فلاهما
فلا خلقَ فضلاً عن هذا الخلق القويم الحكيم ، وآيات العزة والعلم
والخبرة واللفظ والحكمة نقرأها ليل نهار في هذا الخلق العظيم .

فسواء أكان هذا السؤال عن المشركين المقرين بالله ذي العرش ، أم
عن الماديين الناكرين الله ، حيث الخلق وإتقانه دليل لا مرد له على خالق
أقننه ، فالفطرة تحيب : « خلقهن العزيز العليم » والعقل يحيب والعلم
« خلقهن العزيز العليم » وحتى المجانين يعرفون أن العزة والعلم هما لزام
الخلق وأي صنع .

كلُّ من له أدنى شعور لا ينسب هذا الخلق-بما فيه هذه العقول البارعة-
إلى مادة غير ذات شعور، فلو أن العجز والجهل يأتیان بما لا يقدر عليه
فطاحل العلماء ونوابغ المخترعين ، فلنحاول في تحصيل العجز والجهل أم لا
نحاول في تحصيل العلم والقدرة ، بغية أن نقدر على ما تقدر عليه المادة
العاجزة الجاهلة ! فليكن الخالق أياً كان أعز وأعلم من كل ما خلق وهو
« العزيز العليم » .

ثم يأتي دور الخطوة الثالثة « ليقولن الله »^(١) يقوله المشركون المعترفون
بالله ، وليقله الماديون الناكرون الله .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴾^(١٠) .

إن جعلَ الأرضَ مهذاً بعدما كانت شمساً محكومة بجِراكات

(١) كنص الآية نفسها في ٢٩ : ٢٥ و ٣٨ وإضافة « وسخر الشمس والقمر » (٢٩ :

٦١) « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها ... » (٢٩ :

٦٣) « ولئن سألتهم من خلقهن ... » (٤٣ : ٨٧) .

فهذه الآيات الست في سورتي الزخرف والعنكبوت .

مضطربة ، وجعل سبل لنا فيها بُغية اهتداءنا الى منافعنا ، هما من مظاهر العزة والعلم لخالق السماوات والأرض .

فكما الطفل يربى في المهد ثم يمشى في سبل الحياة ، كذلك يتربى الإنسان في مهد الأرض ويمشي في سبلها إلى منتفعات الحياة ، سواء أكانت الحياة الأرضية المادية لصالح الجسم ، أم حياتاً معنوية سماوية هي معرفة الله ، فالسبل المجعلولة لكم فيها ليست هي السبل الأرضية فحسب ، بل وسبل الإنسانية كلها بما كُون فيها أو شزع ، فمن شريعة التكوين تهتدون إلى المكون وإلى حياتكم الأرضية ، ومن شريعة التشريع تهتدون إلى مشاريع الإنسانية ، وهي حجر الأساس في تبني الإنسان كإنسان .

فهناك مثلث من السبل المجعلولة في الأرض يعيشها كل إنسان وكل جيل حسب مستطاعه وعلى ضوء محاولاته الدائبة : سبل المعرفة الإلهية بما أودع في الأرض من بدايع العزة والعلم ، وسبل الحياة برّاً وبحراً وجوّاً ، وسبل التشرييع الإلهية ، عبر الرسالات ، والإنسان يعيش هذه السبل ويهتدي بها إلى معارج الكمال .

فالأرض بسبلها تكوينية وتشريعية مهد للطفولة الإنسانية حتى تبلغ بالإنسان إلى رجولات ورجولات ، حسب مختلف الإمكانيات والإدراكات .

فالأرض مهد بحراكها الدلول بعد أن كانت شمساً ، ومهد بحراكها المختلفة المولدة للفصول ، ومهد بحراكها التطورية في مختلف الحقول ، ومهد متمهد لترقية الناشئة إلى آماذ وقمم من الكمال الإنساني . .

« جعل لكم » ترى أن « كم » هنا تعني الموجودين زمن الخطاب : أم ومن يتلوهم إلى يوم القيامة ؟ أم بني الإنسان أياً كانوا وأيان ؟ أم كل عاقل ممن سبقنا من إنسان كما نحن ؟ .

طبعاً ليس مهاد الأرض جديداً يخصصنا ، فإنه يعم ويظم كل من يحتاج إلى مهاد الأرض من إنسان آمن ذا ، وعلى هامشه سائر النبات والحيوان ! فمهاد الأرض ومهداها وذلولها وكل مهادات الحياة الأرضية هي مجعولة بعزة الله وعلمه لمحاوئجها من إنسان وغير إنسان ، مهما كانوا هم في درجات .

فالأرض مهد كما هنا وفي طه (٥٣) ومهاد كما في النبأ (٧٨) وذلول كما في الملك (٦٧) وراجفة (٧٩ : ٦) وقرار (٤٠ : ٦٤) وكفات (٧٧ : ٢٥) تسبح كسابحات أخرى في يَمِّ الفضاء المنتظم (٢١ : ٣٣) أما ذات من دلالات على حركاتها التي هي من مخلفات عزته تعالى وعلمه بحكمته ورحمته ، تعبيرات سبع عن حركات عدة في مربع من كونها وكيانها : قبل الحياة عليها ، وزمنها وعند موتها وفي قيامتها .

ومن سبل الحياة الأرضية في الحقل المادي نزول ماء السماء عليها بقدر :

﴿ وَالَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (١١).

إن ماء الأرض كله نازل من السماء بقدر ، لا يزيد فيغرق ، ولا يقل فتجف الأرض ، وإنما بقدر يقدره علم الله وينزله بعزته وحكمته ، فالأرض قبل نازل السماء كانت ميتاً ، « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحى به الأرض بعد موتها » (٢ : ١٦٤) ولولا ماء السماء لظلت الأرض ميتاً دوغماً حيات وإنبات : « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون » (٢٣ : ١٨) وإنما نبات كل شيء نابت بماء السماء المقدر للأرض : « وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء » (٦ : ٩٩) فللأرض ماء من السماء يخصصها « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي » (١١ : ٤٤) وليس « ماءك » إلا النازل من السماء

بقدر ! فهاه السماء النازل على الأرض بقدر دليل على مدبر عزيز عليم ، وإنشاءه بلدة ميتاً آية له لإخراج ميت البلاد يوم المعاد : « كذلك تخرجون » رحمة ذات دالتين لسبل الإهداء ، على المبدء والمعاد .

﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ^(١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ^(١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ^(١٤) ۝

الأزواج كلها حسب القرآن والواقع الكوني هي الخلق كله ، فما من خلق إلا وهو زوج ولا زوج إلا وهو مخلوق ، فلا فرد حقيقياً إلا الله سبحانه وتعالى عما يشركون .

أجل إن الزوجية التركب وإن من جزئين فيزيائيين أم هندسيين ، إنها قاعدة الكون المخلوق وصيغته الشاملة « كل شيء » : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (٥١ : ٤٩) « سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » (٣٦ : ٣٦) فلا تخص الأزواج والزوجان - إذاً - الذكر والأنثى ، وشعني السلب والإيجاب أم ماذا ، مما عرفه الإنسان حتى الآن أم سوف يعرفه ، حيث الزوجية ضاربة إلى اعماق الكيان المادي أياً كان ، وإن في كل شحنة وأجزائها ما دامت مادة ، وزوال الزوجية ككل هو زوال الكيان المادي فالإنعدام المطلق ، كما أن الوجود المادي - وكل موجود سوى الله مادي - هو الوجود التركيبي الزوجي مما يعلمون « ومما لا يعلمون » ! .

وخلق الأزواج بنفسه دليل على عدم الزوجية في خالقها ، كما الزوجية بنفسها دليل حدوثها بعزير عليم .

« خلق الأزواج . . وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون »

تركبونه كالأنعام، أو فيه كالفلك وأضرابها، و « من » هنا تلميحاً أن ما تركبون لا يخص الفلك والأنعام : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » (١٦ : ٨) من سفن تحت البحرية أو طائرات وصواريخ أو سيارات أما هي .

« لتستووا على ظهوره » : ظهور ما تركبون ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه « حيث سخرها لكم بما خلقها ، أو رزقكم من عقول بما تصنعون مما تركبون » وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين : ضابطين ، يصبح لنا قرناً نركبه ، أو تقرر أسباب اصطناعه فنصطنعه ، إلا بفضل من الله ورحمة « وإنا إلى ربنا لمتقلبون » : إنقلاباً من النكران به إلى الإيمان ، ومن الخلق إلى الخالق فراراً : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين » (٥١ : ٥٠) .

آية الانقلاب تجعله في نطاق الركوب وطبعاً في السفر طال أم قصر ، والعبد دائم الانقلاب إلى ربه ، « كدحاً فملاقه » (٨٤ : ٦) ولكننا السفر لا ابتعاده عن الموطن المألوف أم أي مسكن ، يتطلب إنقلاباً إلى الرب أكثر قضية اضطراب هنالك أكثر ، ولتقل في السفر حين تركب ضمن ما تقول : « اللهم أنت الحامل على الظهر والمستعان على الأمر ، اللهم بلغنا بلاغاً يبلغ إلى خير ، بلاغاً إلى مغفرتك ورضوانك ، اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا حافظ غيرك » (١) .

إن الأدب الإسلامي هنا وثيق الصلة بتربية الروح الإنساني ، أنه ليس

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٩٣ ح ١٢ القمي عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (ع) قال : إذا استويت على راحلتك واستوى بك حملك فقل : الحمد لله الذي هدانا للإسلام ومن علينا بمحمد (ص) « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمتقلبون والحمد لله رب العالمين اللهم ... »

قوله فاضية ، وإنما فائضة على القلب ، نابضة منه ، لا مجرد طقوس لفظية عابرة ، وإنما استحياء للمشاعر واستجاشة للضمائر ، ولكي يرى الإنسان حياته كلها مربوطة بفضل الله ورحمته ، فيصبح دائب الانقلاب إلى الله ، فراراً دون قرار ولا ارتجاع إلى دار القرار .

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ (١٥) .

رغم أن خالق الأزواج والزوجين ليس من الأزواج والزوجين ، حيث الزوجية آية الفقر ، ومن المستحيل أن الفقير الذات يخلق الفقير الذات .. رغم كل ذلك « وجعلوا له من عبادته جزء » ولذا تجزئوه انفصالاً عن ذاته المقدسة من مَلِكٍ أو إانس وجان ، أم جزء من الإنسان (روحه) جزء من روحه ، وقد يحرصون له بكلامه « ونفخت فيه من روحي » (١٥ : ٢٩) رغم أن « الروح من أمر ربي » (١٧ : ٨٥) لا من ذاته !

فقد جعلوا المسيح ابن الله بولادة إلهية ، والملائكة بنات الله ، والجن أبناء الله :

« وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون » (٦ : ١٠٠) .

وذلك الجزء المخروق من ذاته سبحانه لا بد وأن يكون مثل ذاته سبحانه ، فكيف أصبح مخلوقاً كما يقولون وهو خالقه ؟ ... إن الإنسان لكفور مبين « نعمة العقل والوجدان ، فيكفر بربه كفراً وكفراناً مبيناً .

وترى الجزء المجعول له من عبادته هم فقط الذين ولدهم على زعمهم « وخرقوا له بنين وبنات بغير علم » ؟ وقد جعلوا !

أم تجزئوا عبادته فجاء له جزء لآلهة أخرى ؟ والجزآن عبادته كما هم معترفون ! وقد جعلوا !

أم تجزئوا الخلق، والتدبير لعباده، فله خلقهم ولألهة أخرى تدبيرهم؟ .. وقد جعلوا!

والآية تتحمل هذه الثلاث لفظياً معنوياً مهما عنت « له » الجزء البذاتي المتجزى من ذاته كالأول، أو الجزء العبادي ففريق يعبدونه وآخرون يعبدون آلهة أخرى هم من ولده أمّن ذا؟ كالثاني، أو الجزء في كيان العباد خلقاً وتدبيراً، فجزة الخلق له وجزة التدبير لألهة أخرى! . كما وأن « من عباده » تعني في الأول بعض العباد وهم الذين ولدهم في زعمهم، وفي الثاني فريق له يعبدونه وفريق لسواه يعبدون سواه، وفي الثالث قسم من كيانهم له وقسم آخر لآخر! .

ولأن الجزء في أصله من الكل، فهو قسم من ذات واحدة أو من ذات، فالمعنى الثاني يصبح في القوة ثالث الإحتمالات، كما الأول أول حيث الأظهر من الجزء هو من شخص لا أشخاص كالثاني ولكنها الجزء في إطلاق عام يعم الثلاثة تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

وبصيغة أخرى و « جعلوا » تشمل جعل الولادة أم البنية التشريعية أو الإعتقاد في جوانب أخرى من الألوهية لغير الله و « له » : لذاته - الخالقية - لتدبيره - أم لها - « من عباده » من ذواتهم ككل، أم بعضاً كالروح، أم شأن المعبودية، أو الخالقية أو التدبير - فتشمل الآية من جعل لله ولداً بولادة ذاتية بعضاً كالروح أو روح المسيح، أو كلاً كالمسيح عند جماعة، أن الله تنزل من لاهوت الألوهية إلى رحم مريم فتحول مسيحاً ولم يبق منه شيء، أم بولادة تشريفية، ومن جعل لله شريكاً في عبادة أو خلق أو تدبير، فمن الناس من يقول أنه الخالق المدبر وحده وله شركاء في العبادة، ومنهم من يقول أنه الخالق لأول الخليقة ثم هو الخالق لسائر الخلق مستقلاً أو كوسيلة لله، ومنهم من يقول أنه الخالق والمدبر غيره،

ومنهم من يقتسم الخلق والتدبير بينه وبين خلقه ومنهم .. فكل هذه الخرافات وأشباهها داخله في تنديد الآية ! .

﴿ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾ (١٦) .

« أم » هنا تعطف إلى محذوف من قبيل المعطوف كـ « اتخذ جزءاً له عبداً لنفسه فهو إذاً يعبد نفسه في حين يُعبد ؟ أو اتخذ عبداً له مخلوقاً لنفسه ولداً تشريعاً له ؟ وشرافه في عبوديته ، « أم » إذا اتخذ لنفسه ولداً مما يخلق ، قسم قسمة ضنيري فـ « اتخذ مما يخلق بنات » لنفسه « وأصطفاكم » واختاركم على نفسه « بالبنين » ؟ .. أهمل إشاراً لكم عليه وليس الإيشار إلا خصاصة وليست لله خصاصة ، ثم ولا إيشار إلا تفضيلاً ولا تفضيل على الله ، وهل يفضّل الله على نفسه - لو صح تفضيله - من يشرك به إهانة ومهانة لساحته ؟ ومن ثم لو صح التبيّن فليجعل خلقه جميعاً ولده من بنين وبنات ، دون أن يقتسم تلك القسمة الضنيري الجاهلة المجنونة، العاجزة الملعونة .

إن البنات أضعف من البنين حيث الأنثى تنشأ في الحلية فهي في الخصام غير مبين حيث لا تسطع حد الخصام ، وهذا واقع من البون بين البنات والبنين .

ثم في زعمهم البنات عار تظل وجوههم مسودة إذا بشروا بالأنثى ، وهم على هذين النقصين الواقعي والخيالي يهرفون أن الله اتخذ مما يخلق بنات وأصفاهم بالبنين ! .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَ وَجْهُهُ مُسْوِداً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (١٧) .

يسود وجهه من الغضب والاختجال وهو كظيم غيظه لا يظهر حتى

يدسها في التراب ! » ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون » (١٦ : ٥٨)

وإنما « بما ضرب للرحمن مثلاً » هنا بدلاً عن « الأنثى » كما في سواها ؟ لأنها في سواها بناتهم حيث بهن يبشرون ، وهنا لسن بنات الله ، وإنما « ما ضرب للرحمن مثلاً » ضرباً للرحمن باطلاً ، مثلاً : آية تمثّل ، والولد آية لوالده يمثّله ، وهم يمثلون في مثلهم الرحمن بمظهر الأنوثة .

﴿ أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحُلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ (١٨) .

هنا الواو في « أو من » تطوي عن ذكر سائر المفارقات بين البنين والبنات إلى ذكر رعونتتهن وعدم رجولتهن ، وهم يهتمون في الأولاد بالبطولات التي ليست إلا للأبناء .
أترى لو أن الله اتخذ لنفسه مما يخلق ولداً فكيف لم يصطف لنفسه الأفضل : البنين ، وهو الخالق للبنات والبنين ، ألم يسويهن وبينهم أن يجعل لنفسه بنين وبنات كما جعل لهم ؟!

هنا يذكر من المفارقات بين البنين والبنات إيجابية واحدة : « ينشأ في الحلية » حيث تتربى في الزينة والرعونة والليونة وهي خلاف البطولة ثم سلبية واحدة : « وهو في الخصام غير مبين » لا في خصام الصراع بدنياً فإنها أضعف من الذكر ، ولا الصراع عقلياً وفي المناظرة ، فإن عقليتها في الأغلب أضعف ، ولا في أي خصام وعراك يبين وإن بان بين المخاصمين ! .

والقوة العقلية والبدنية لقبيل الذكور بالنسبة للأناث في الأغلبية الساحقة مما لا تكاد تنكر ، وإن كان في كل ذلك مصلحة جماعية في حقل

الزوجية وسائر الحقول ، إلا أن « الرجال قوامون على النساء » لنفس المصلحة .

أفمن اللياقة والأدب الإنساني لمن يعترفون بالله الخالق للبنات والبنين أن ينسبوا إلى الله من هم يستامون إذا بشروا به ، ويتميزون غيظاً يكظمونه ، إجلالاً عن التصريح بما يكتُمونه ؟ فهم - على سنتهم السيئة - يرفضون البنات دساً في التراب ويستحيون البنين ، ثم هم أولاء يجعلون لله ما يدسون ، دساً لحرمة رب العالمين ودوساً لكرامته ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .

ثم وهم في تهتكهم لساحة الربوبية في هذه النسبة الجاهلة يهتكون الملائكة أيضاً ولأنهم من عمال رب العالمين إذ يجعلونهم بناته :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ أَنْثَىٰ ۖ وَشَكَّتْ شَهَادَتَهُمْ ۖ وَيُسْأَلُونَ ۖ ﴾ (١٩)

وكيف يجعلون الملائكة وهم عباد الرحمن المكرمون أنثى يهانون ؟ وعبوديتهم لله تجعلهم من المكرمين عند خلقه ، أم وفي ظنكم في بنوة تشريفية تشرفهم بهذه الكرامة ، فليجعلوا - إذا - بنين لا بنات ! « أشهدوا خلقهم » حين خلقهم أم بعد حين ؟ « وما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم » (١٨ : ٥١) فكيف بشهادة من خلُقوا قبلهم ! « ستكتب شهادتهم » الكاذبة هذه إذ كانوا مدعين « ويسألون » عنها !

ومن هنا يعلم أن الشهادة بما لا تعلم تحمل مسؤولية كبرى أمام الله ، ولا سيما في التي تكذبها العقول ، ولا تصدق في أيٍّ من الحقول أن الملائكة بنات الله !

فالملائكة لا بنات لله ولا أبناءه ، وهم لا ذكور ولا أناث ، خارجون عن القسمين إلى ثالث ، فالذكورة بآلتها وحالتها تقتضي أنثى كما الأنوثة

بآلتها وحالتها تقتضي ذكوراً ، ولا تناسل بين الملائكة ولا تزواج حتى تكون فيهم ذكورة وأنوثة !

وكتابة هذه الشهادة الكاذبة قولياً في قوله البنية الكاذبة ، وفعلياً في عبادة بنات الله الملائكة ، واعتقادياً : « لو شاء الله ما عبدناهم » مثلث الشهادة هذه « ستكتب ويسألون » عنها سؤال توبيخ لا استعلام .

ولماذا « ستكتب » والله كاتب الشهادات وكافة الأقوال والأعمال والأحوال في مثلث الزمان دون مستقبله اللامع من « ستكتب » ؟

عله مستقبل استمراره أن هذه الكتابة تلحق الشهادة أماهيه ، دوماً دون ترك أو فتور ، فكتابة الأعمال هي بعد تحققها لازماً لصاقاً ، كما جزاء الأعمال هي بعدهما جزاء وفاقاً .

إنهم عباد الرحمن حيث خلقهم لا ولده ، ولو كانوا من ولده فليكونوا من أبناء إكراماً لهم إذ هم عبادهم الخصوص ، لا من بناته .

ثم ومن فضيح فعلتهم أنهم يعبدون الملائكة على قولتهم أنهم بنات الله ، وكيف يعبدون من يترذلونهم عندهم ، ثم هم ينسبون فعلتهم الرذيلة هذه إلى الرحمن !؟

﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَاهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٢٠) .

كفر مربع لهؤلاء المناكيد الأوغاد : ١ - إثبات الولد الله سبحانه . ٢ - أنه بنت ٣ - الملائكة بنات الله ٤ - هم يعبدونهم بمشيئة الله : « لو شاء الرحمن ما عبدناهم » !

هؤلاء بعد ثالث كفرهم يحاولون التهرب حين يحاصرهم الحجج ، وتهاافت بين أيديهم الأسطورة فيحيلون غبادتهم لهم على مشيئة الله ، لو

شاء الرحمن ألا تعبدهم ما عبدناهم ، أن يمنعنا من عبادتهم تسييراً ! وهذه
قولة المجبرين ، ولكنهم يقولونها جاهلين « ما لهم بذلك من علم » لا علم
بمرضاة الله ومشيتته في عبادتهم ، ولا علم بمشيئة الله أنها لا تختص
بالتكوينية ، والله مشيئتان تكوينية وتشريعية ، والثانية كائنة في توحيد الله عبر
الرسالات ، والأولى لا تمنع الإختيار ، وهل يشاء الله ما منعه شرعته
وقمعه العقول أن يُشرك به « إن هم إلا يخرصون » : يكذبون بما لا يعلمون
« قتل الخراصون . الذينهم في غمرة ساهون » (٥١ : ١١) خرس عن
جهل في ذلك التهلك المائر لساحة الربوبية .

وأية مشية من الرحمن تبرر فعلتهم هذه ، لا تثبت إلا بوحى وكتاب أم
حجة قاطعة من العقل . ولا حجة لهم في خرصهم إلا سنة الآباء على أمة
الشرك :

﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ . بَلْ قَالُوا إِنَّا
وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٢١)

« أم » هنا تعطف إلى محذوف على هذا المعطوف كمثلته أو هو أدنى ، لا
حاجة إلى ذكره . كـ « هل تدلهم عقولهم على ما يدعون » ؟ « أم أوحى
إليهم ما يخرصون » ؟ « أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون » ؟
فلا وحي العقل يثبت ما يقولون ، ولا وحي خالق العقل بوسيط أم دون
وسيط ، فلا حجة لهم فيما يخرصون « بل قالوا ... » .

إنحسرت حجتهم عما يصح ، وانحصرت فيما لا يصح « إنا وجدنا
آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » ! ومن الأمة الطريقة والسنة
المستمرة التي تُقصد وآباءنا القدامى كانوا على هذه السنة وإنا على آثارهم
مهتدون إلى الحق .

ولكن إذ تنتقل هذه الحجج البالغة إلى آباءهم ، فهل عندهم من

إجابة كهذه ؟ فتسلسلاً إلى بداية أم غير بداية ! أم عندهم إجابات من عقلية أو وحي وكتاب فما هي ؟

فمجرد أن الآباء كانوا على أمة ، لا يبرر تقليد الأبناء لهم دون دليل ، وإنما الإنسان العاقل ابن البرهان أيًا كان ومن أيّ كان ، مهما كان ابن أبيه في الولادة البدنية .

إن الآباء كالأبناء هم كانوا يوماً أبناء ، فلائي مبرّر يقتلدون إذا ، الكونهم فقط آباء ، فهل ولدوا إلاّ الأبناء ؟ أم ولدوا مع الأبناء حججاً تُقنع الأبناء - كذلك ! :

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ (٢٣) .

ثم هب إن آباء من هذا القبيل كانوا على أمة الشرك فأنتم على آثارهم مقتدون ، فما لكم لا تقتدون بآباء موحدين إبراهيميين وهو الأب الأكبر لكم الأميين ، وأمة التوحيد « وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون » !

المترفون المنعمون في كل قرية كانت حجتهم الأولى والأخيرة « إنا وجدنا آباءنا . . » حلقات موصولة بعضها ببعض ، تحلق حجتهم الداحضة عليهم عبر الفكرة المشتركة بالله في الطول التاريخي والعرض الجغرافي .

ومع التنازل عن بطلان هكذا تقليد أعمى ، واحتمال أنه حق أم تأكيداً من حقه وهده ، فعلى فرض المستحيل في زعمكم أن هناك هدى أهدي من هداكم ، فهل تقبلون هدى التوحيد ؟ :

﴿ قَالَ أُولَئِكَ خِطَّتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٢٤) .

« قال » داعية التوحيد : النذير في كل قرية كلمة واحدة موحد « أولو

جئتكم .. « لو أنكم تفتشون عن هدى ولذلك ترونكم » على آثارهم مهتدون « - « لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم « - لو كانوا على هدى - فهل أنتم تستمرون فيما أنتم عليه ؟ « قالوا « كلمة واحدة موحدة في شركهم « إنا بما أرسلتم به كافرون « ولو جئتمونا بأهدى مما وجدنا عليه آباءنا !

ويا لها من حجة بارعة أمام هؤلاء الحماقى أنها على فرض إحالة حجة أهدى من حججهم « أولوا « تبحث جذور كافة الحجج عن أعماقهم حيث « قالوا « على افتراض أن تأتيهم حجة أهدى من أمة آباؤهم « إنا بما أرسلتم به كافرون !

والإنسان العاقل حتى وذو جنة وحتى الحيوان لا ينفي أمراً أو يشبهه فيثبت عليه إلا ببرهان ، وأما أن يثبت على تقليد أعمى « إنا بما أرسلتم به كافرون « رغم توفر البراهين وتواترها بدحضه وإبطاله ، فهو أضل سبيلاً من الأنعام ، أم « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً « (٢٧ : ١٤) كائنة الضلال ، أو حقاً في عمقهم في تقليد أعمى كالمستضعفين المتنازلين عن عقولهم ، عن فطرهم وفكرهم في كل حقولهم !

﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٢٥) .

« فانتقمنا » في صيغة التعبير يخيل للبسطاء أنه انتقام كما عندنا ، نتيجة الغضب وتهذر الأعصاب ، وليس لله غضب كما لنا ولا أعصاب ، وإنما يعني عذبناهم بما كفروا كنتيجة عادلة لكفرهم بما يظهر في ملكوت الواقع ، هنا يسيراً ، وفي الأخرى كثيراً ، وبينهما في البرزخ عوان ، فـ « إنما تجزون ما كنتم تعملون » و « بما » في أخرى تعنى « ما » كما هنا ، تعبيران عن حقيقة واحدة ونمط واحد من واقع العذاب ، فالعذاب هو العمل بما عُمل نتيجة الاختيار لعامل العذاب .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

لَأُيِّيه وَقَوْمِيءَ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي

فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِءَ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى

جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ

قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ

هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرْبَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمُ

يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ لَنَحْنُ قَسَمًا بِلَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ

لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْطَانًا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا

يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا

لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ

عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا

يَتَكْفُونَ ﴿٢٩٤﴾ وَزُحْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَوةِ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٩٥﴾ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ
ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَیْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٢٩٦﴾ وَإِنَّهُمْ
لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٩٧﴾
حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ
فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٢٩٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكَ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ
أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٢٩٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ
أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠٠﴾ فَلَمَّا
نَذَهَبَ بِكَ فَأَنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٣٠١﴾ أَوْ زُرِينَا الَّذِي
وَعَدْنَاهُمْ فَأَنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٣٠٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي
أُوْحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ
لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٣٠٤﴾ وَسَعَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً

يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٦) .

أذكروا أنتم المهتدون على آثار آباءكم المشركين تقليداً أعمى ، اذكروا من زوايا التاريخ الرسالي بطولات الموحدين ورجولاتهم ضد الآباء المشركين « و » اذكروا من بين هؤلاء الأكارم « إبراهيم » وقد تربى في جو الشرك على يدي أبيه آزر « إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون » عصياناً جريئاً على جو الشرك رغم أنه تربى فيه ، حيث يحاج أباه : عمه أو جده لأمه - حجاجاً بالتي هي أحسن فيتغلب عليه ! وأنتم دون حجاج مع آباءكم على آثارهم تهتدون ! رغم تواتر الحجج ضد أمتهم الشركية ؟ !

وهب إن تقليد الآباء جائز أو يجب ، أفليس إبراهيم أكرم الآباء في العرب فلتقلدوه في ترك تقليد الآباء ، ثم تقلدوه في أمة التوحيد واتباع الحجة على المهجة التي بها تهتدون !

ثم هب إن لتقليد الآباء مبرراً لأنهم آباء يُحترمون ، فهل الآباء القدامى أقرب إليكم فأوجب حرمة وأقرب وطئة إن تركتموهم ؟ أم الأب الحاضر دون فصل حيث يربيك ويحملك على ما يريد ؟ وإبراهيم مسيطر عليه بآب مشرك يصنع الأصنام ، ويهدده في ترك الأصنام ، ولكنه يرفض باطل التقليد ولا يخاف ضغط المربي ، ويتفجر في وجهه بجِدال بالتي هي أحسن سلباً للآلهة وإيجاباً لله .

أم إن للقدمة حرمتها ، فالقدامى يحترمون لأنهم قدامى أكثر من الجدد ، ولماذا ؟ أولم يكن القدامى قبل ربح من الجدد ، أم لا يكون الجدد

بعد ردح قدامى ، ثم ومن أكارم القدامى إبراهيم أبو العرب فليُحترم -
على أقل تقدير - لقدمته إضافة إلى حجته !

هنالك تقليد مطلق أعمى دون أي دليل بإجمال أو تفصيل ، ثم تقليد
بصير بدليل مجمل ، ومن ثم اجتهاد مطلق أماذا ؟ وسبيل الحق هو التقليد
بدليله ، أم إذا استطاع اجتهاد مطلق بدليله .

وكيف يصح للإنسان العاقل أم والمجنون أن يرجح سبيلاً على سبيل
دون أي دليل ؟ وإذا كان سلوك الآباء دليلاً وليس به ، فماذا يُصنع بآباء
مختلفين في سبلهم ؟ فهل ترجح آباء على آباء دون أي دليل إلا أنهم آباء ،
أفليس الآباء الآخرون آباء ! أم ليس أبوكم الأكبر إبراهيم من الآباء ؟
فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ؟

إبراهيم يتربى في جو محض في الشرك ، ولكنه لرفضه التقليد وتحريه
عن دليل يواجهه أباه المشرك وهو « براء مما تعبدون » : محض البراءة عن
الشرك ، حيث البراء مصدر ، فهو براءة عن الشرك ومصدر لهذه البراءة ،
رغم تربيته في محض الشرك !

فإبراهيم البراء مما يعبد هؤلاء ويترأسهم أبوه ، لا يتابع أباه ولا
يسايره لحظة ولو في ظاهر الحال ، إنه محض البراء وضراحه ، لا يجاري ولا
يداري ولا يجاري أباه في لفظة قول ، أو لحظة بصر ، أو لمحة فعل إلا
« إنني براء مما تعبدون » .

﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ (٢٧) .

« إنني براء من . . إلا الذي فطرني » خلقتني وجعل في فطرة التوحيد
« فطرة الله التي فطر الناس عليها » (٣٠: ٣٠) هذه الفطرة فيها الهداية
الإجمالية التوحيدية ، ثم الذي فطرني في هكذا « سيهدين » هداية الوحي

تكملة تفصيلية لهدي الفطرة لمن جاهد في الله « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » (٢٩: ٦٩) وبين الهديين هدى متوسطة « الذي خلقتني فهو يهدين » (٢٦: ٧٨) أترى أن ذلك المشرك كان والده والأنبياء هم من أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة وأية دناسة أدنس من الإشراك بالله ؟

كلاً : إنه كان عمه أوجده لأمه ولم يكن والده ، إذ تبرء عن أبيه آزر لما تبين أنه عدو لله ، ثم وهو بيني البيت مع ابنه اسماعيل يستغفر لوالده : « ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » (١٤ : ٤١) فحتى إذا لم يكن إبراهيم معصوماً - وهو من أفضلهم - ! لم يكن ليستغفر لأبيه آزر ، فاستغفاره لوالده يدلنا أنه غير آزر ، وإلا كذب كلام الله « تبرء منه » حيث يبرئه عن ذلك الإستغفار طول حياته .

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢٨) .

دون ان يكتفي بجاضر النضال ! ترى وما هي الكلمة الباقية في عقبه ؟ هل إنها الأولى : « براء بما تعبدون » ؟ ولا تكفي توحيداً لله حيث تحمل الرفض المطلق لعبادة كل معبود حتى الله ! أم هي الثانية : « إلا الذي فطرني » : عبادة الله ؟ وهي دون صلة بالكلمة الأولى ببراء وقد تحمل عبادة الله مع غيره ، أم دون نفي مطلق لمن سواه !

إذا فهي كلا النفي والإثبات : كلمة « لا إله إلا الله » فـ « إنني براء بما تعبدون » تعني « لا إله » و « إلا الذي فطرني » تعني « إلا الله » مزودة بدليل فطري : « الذي فطرني » لا « الله » فقط ، وآخر من هدي الفاطر « فانه سيهدين » !

ولماذا « فطرني » دون « فطر الناس » كما في آية الفطرة ؟ حيث الفطر درجات ، منها المستورة بظلم الشرك والضلال ، ومنها مشرقة في درجات

متوسطة، ومنها ما هي في درجات عليا كالفطرة الإبراهيمية ، إذ أفحَقُّ له « فطري » .

ولأن معنى الإشراك بالله هو أن يُعبد غير الله مع الله كيفما كانت هذه وتلك فـ « إلا الذي فطري » استثناء متصل بـ « عما تعبدون » أم وإذا كان منفصلاً وعلة أنسب ، حيث إن عبادة الله بين المشركين لا تليق بالله ، فـ « لا إله إلا الله » هي المعنية من الكلمتين السلبية والإيجابية وهما كلمة واحدة تامة .

وبطبيعة الحال ليست هذه الكلمة الباقية هي الأصوات المقطعة والحروف المنظومة فإنها لا تبقى وهي « كلمة باقية » ثم ماذا تفيد هذه الكلمة لولا واقع المعنى والالتزام بها !

وهل الضمير المستتر في « جعلها » لإبراهيم لا لله ؟ فهو مصدر الكلام هنا وركنه ! وهو القائل « إنني براء . . . إلا الذي فطري » ! وهو الموصي بها بنيه : « ووصى بها إبراهيم بنبيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » (٢ : ١٣٢) ! فقد وصى بها ولده وأمرهم أن يتوحدوا بها ما تناقلتهم الأصلاب وتناسختهم الأدوار !

أم لله دون إبراهيم ؟ حيث الوصية ليست جعلاً ، فقد تخالف الوصية الإبراهيمية والجعل الباقى ثابت ليس بيد إبراهيم أم سواء إلا الله ! وإبراهيم وإن كان مصدر الكلمة هناك ، ولكنها الهداية الإلهية فيها ليست له إلا من الله : « فإنه سيهدين » فضلاً عما من سواء من عقبه وهو لا يملكهم بعد ألا يملك نفسه !

أم المعنيان معاً معنيان ، فقد جعلها الله كلمة باقية في عقبه حتى لا يحول عنه ، ولكن بما زرعها إبراهيم في القلوب بأمر الله ، وبمادعى الله « واجنبي وبني أن نعبد الأصنام » (١٤ : ٣٥) « ربنا واجعلنا مسلمين لك

ومن ذريتنا أمة مسلمة لك « (١٢٨: ٣٠) فإبراهيم (عليه السلام) عمل لله ودعى الله في بقاء كلمة التوحيد فجعلها الله كلمة باقية في عقبه : نسله وذريته ، فلا يخلو نسله عن موحدين إلى يوم الدين .

ثم ومن أبرز الموحدين من نسله أئمة التوحيد وحملته الأعلون محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته الأطهرون ، وإلى ذلك تنظر الروايات التي تفسر هذه الكلمة بالولاية العليا والعصمة الكبرى^(١) لا أنها هي المعنية دون سواها ، وإنما هي المصداق الأجل الحملة إبراهيميون لكلمة التوحيد ، حيث حملوها أعرق وأعرق مما حملها إبراهيم (عليه السلام) !

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٩٦ ج ٢٣ وفي كتاب علل الشرايع باسناده إلى أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول الله عز وجل « وجعلها كلمة باقية في عقبه » قال : في عقب الحسين (عليه السلام) فلم يزل هذا الأمر منذ أفضي إلى الحسين ينقل من ولد إلى ولد لا يرجع إلى أخ وعم ولم يتم يعلم أحد منهم إلا وله ولد، وفيه عن معاني الأخبار عن أبي بصير قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن هذه الآية قال : هي الإمامة جعلها الله عز وجل في عقب الحسين باقية إلى يوم القيامة : وفيه عن الاحتجاج للطبرسي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حديث طويل يقول فيه في خطبة الغدير : معاشر الناس القرآن يعرفكم إن الأئمة من بعده ولده وعرفتكم أنه مني وأنا منه حيث يقول الله عز وجل « كلمة باقية في عقبه » وقلت : لن تفلوا ما إن تمسكتم بهما، وفيه عن المناقب لابن شهر آشوب الأعرج عن أبي هريرة قال سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن هذه الآية قال : جعل الإمامة في عقب الحسين وسيخرج من صلبه تسعة من الأئمة منهم مهدي هذه الأمة، وفي أحقاق الحق ج ١٣ ص ٣٠٦ العلامة الشيخ هاشم بن سليمان في كتاب المحجة على ما في ينابيع المودة ص ٤٣٧ اسلمبول روى حول الآية عن ثابت الشمالي عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال : قينا نزلت هذه الآية وجعل الله الإمامة في عقب الحسين إلى يوم القيامة وإن للغائب منا غيتين أحدهما أطول من الأخرى فلا يثبت على إمامته إلا من قوي يقينه وصحت معرفته .

فليست هنا بين الآيات لفظة الولاية حتى يرجع إليها ضمير «ها» في «جعلها» وإنما ما قالها إبراهيم المختصرة المحتصرة في : «لا إله إلا الله» !
المتدرجة في درجات حسب درجات الموحدين !

ومن في عقبه الموحدون درجات أعلامهم أئمة التوحيد الأعلون محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وخلفاءه المعصومون (عليهم السلام) ، وكما التمس لعقبه الإمامة فاستجيب لغير الظالمين «قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين» (٢ : ١٢٤) .

وقد تعني روايات الولاية أن «ها» في «جعلها» راجعة إلى الهداية الإبراهيمية و «فإنه سيهدين» الضاربة إلى المستقبل تعني هداية الولاية والإمامة الإبراهيمية ، بعد هدايته قبلها بالوحي «الذي خلقتني فهو يهدين» فتلك الهداية المستقبلية باقية في عقبه في مثلث من هدى موسى وعيسى التي علها كهدي إبراهيم وإمامته ، ومن هدى من دونهم من الأنبياء الإبراهيميين كأنبياء بني إسرائيل وإسرائيل نفسه وأضرابه ،^٣ ومن هدي من فوقهم كلهم وإمامته ، كاهدي محمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) الثابتة في أهل بيت هذه الرسالة السامية إلى يوم الدين ف «عقبه» يشمل العقب العام : كل من يأتي بعد إبراهيم (عليه السلام) من المكلفين حيث لا يخلون من كلمة التوحيد إلى يوم الدين ، ثم العقب الخاص : ذريته من موحدين ومشركين ، ثم الأنحص : الأنبياء الإبراهيميون من إسحاق وإسماعيل ، ثم انحص الخاص بالرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله المعصومون ، و «لعلهم يرجعون» ينحص العقب الأول والثاني .

وعلى أي الحالين فهذا وذاك من التأويل والتفسير بأعلى المصاديق وأجلاها دون منعة لسعة الكلمة كل موحدين من نسل إبراهيم إلى يوم الدين - و «لعلهم يرجعون» في ترجي رجوعهم إلى كلمة التوحيد تؤيد الشمول ، فإن أئمة التوحيد هؤلاء لم يسبق لهم شرك حتى يرجعوا عنه إلى

توحيد، فلعل « هم » في لعلمهم يخص المشركين ممن في عقبه وسواهم وإن كان الصدر « في عقبه » يزهر كأعلى مصداق في صدور المعصومين منهم وبينهما متوسطون أماذا ؟

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٩) .

« بل » هنا إعراض عما علّه يفهم من « وجعلها كلمة باقية في عقبه » أن كلمة التوحيد جعلت عريقة عميقة ثابتة في عقبه ، مندغمة في كيانهم لا يتخلفون عنها خلاف من قبل إبراهيم ، فالرسل الإبراهيميون منذ إسماعيل وإسحاق وإلى موسى وعيسى ومن بينهم من الرسل وسائر دعوات التوحيد رفعوا مشعله وأناروا مناره دون خمول وأقول إتصلاً دوغماً إنفصال .

« بل متعت هؤلاء وآباءهم » ولكن هؤلاء المشركون حيث متعوا وآباءهم وطال عليهم الأمد فقتت قلوبهم زمن الفترة الرسالية بين المسيح ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هؤلاء من العقب الإبراهيمي تخلفوا عن تلك الكلمة الباقية وتعرقوا في الشرك ، حيث طال بهم العهد ومتعمهم الله جيلاً بعد جيل حتى طال عليهم العُمر ونسوا ملة إبراهيم ، وأصبحت كلمة التوحيد فيهم غريبة . . « حتى جاءهم الحق » القرآن بعد غروبه زمن الفترة وجاءهم « رسول مبين » للحق أوضح بيان لحد لم يسبقه سابق ، وكأن من سبقه من رسل لم يكن فيهم مبين وكلهم في حذّه مبين .

فهذا الرسول مبين بنفسه ومبين بكتابه ومبني بمعجزاته ، مبين بمن قبله في بشاراته ومبين بشاهد منه في تربيته : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلاتك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١١: ١٧) !

سورة الزخرف / آية ٢٩ - ٣١ ٣٠٣

والضرورة البلاغية في رسالة هكذا ، خالدة حتى القيامة الكبرى ،
بازغة في قوم لُد ما أتاهم من نذير من قبل ، تقتضي هكذا حق ورسول
مبين ! ولكن :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٣٠) .

« ولما جاءهم الحق » قرآن محمد ومحمد القرآن « قالوا » كلمتهم
المختصرة عن تفاصيل أقاويلهم المختصرة في « هذا سحر وإنا به
كافرون » ! وليس الحق المبين يختلط بالسحر غير المبين ، أو يبين بنفسه أنه
سحر ، ولا يختلف اثنان من ذوي حجي ومَن دونهم في تمييز السحر عن
المعجزة ، ولذلك تراهم لا يعترضون ويشككون في القرآن الذي يقولون
أنه سحر إلا فيمن جاء به :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٣١) .

هنا الواو تعطف على معطوف عليه كالمعطوف مثل « لو شاء ربنا لأنزل
ملائكة » ثم التنزل إلى هذا المعطوف ، لو كانت النبوة في « لولا
نزل ... » ؟

فلم تبق من الريبة في هذا الحق إلا نزوله على يتيم غير ذي مال ولا
منال ، فلو نزل على رجل من القريتين عظيم لكانوا مصدقيه ؟ أترى إن
كان القرآن سحراً - فهو سحر أيا كان وببدا أي من الرسل كان - فهل
يتحول السحر إلى المعجزة إن تحول من يد لا ترضونها إلى مَن ترضون ،
أم يتحول المعجزة إلى السحر لو عكس الأمر ، تلك إذا قسمة ضيزى !

هؤلاء الحمقاني المخلدين إلى الحياة الدنيا وزهراتها وزهواتها ، لما
اختلت عندهم الموازين ، ورأوا العظمة فقط في الجاه والمال وسائر قيم
الأرض ، استعظموا رسالة السماء أن تنزل إلا على عظيم في ميزان

الأرض ، عظمة خيالية وخارجة عن طبيعة الرسالة ، بل ومنافية لها غير موافية معها وقد اعتبروها أصلاً ومحوراً للتفاضلات . فلتتبعه فضيلة السماء ولكن « الله أعلم حيث يجعل رسالته » يجعلها فيما لها سند من داخله ، مسانداً لها غير معاند ، الخلق المتجرد عن كافة العلاقات والصلات إلا بالله ، فلم يختره زعيماً ولا صاحب مال أو منال ، لكي لا تلتبس واحدة من قيم الأرض بقيم السماء ، ولا تزدان هذه الدعوة بخلق من حلي الأرض ، أو حيلة من جيلها ، دوغماً صلة بينهما إلا إغراء لها بمصاحب خارج عن ذاتها المجردة ، فلا يدخلها طامع ولا يتنزه عنها متعفف .

فالدعوة الرسالية مجردة عن كل دعاية إلا الحقيقة البارزة من ذاتها ، والحق البارز في دعائها ، حق يحمل حقاً ناصعاً صارماً إلى من يتحرى عن الحق المطلق ، دوغماً تدجيل ودعاية زائدة تُظهر الرسالة بمظهر أعلى مما هي ، كما لا تقصر فيها لتخفيها عما هي .

و « رجل من القرين عظيم » هو الوليد بن المغيرة المكي وابو مسعود عروة بن مسعود الثقفي الطائفي ، أمن ذا من الزعماء الأثرياء ذوي الأنفة والكبرياء ، ولو أنزل هذا القرآن على رجل منهما ، لأصبحت الرسالة السماوية التي هي للمستضعفين في أصلها ، أصبحت للمستكبرين ، أن يجتلبوا أضرابهم إليها ، أم ويخونوا في الدعوة لها ، فإنها تناحر الأثرة والكبرياء ، وتنافر المستأثرين الكبراء .

والقرآن يحيب عن هذه التطرفة الحمقاء ، والتطلُّبة الخواء « أهم يقسمون رحمة ربك » الرحمة التي ربك حتى أصبح قلبك المنير مشرقاً ، تلك الرحمة العليا الروحية من رسالة السماء ، أهم يعرفونها حتى يقسموها ، ولو عرفوها ولن ! فهي رحمة ربك ، فهو الذي يقسمها كما يشاء لمن يشاء فد « الله أعلم حيث يجعل رسالته » فلا يجعلها في قلوب خاوية عن الحق ،

خاملة بالباطل ، قلوب مقلوبة لا تتعلق إلا بزهرات الدنيا وشهواتها ،
فتضيع الرسالة فتجعل المرسل إليهم هباءً !

ويا عجباً وما لهم هم ورحمت ربك العليا أن يقسموها ، وليس لهم أن
يقسموا الرحمة الدنيا : (١) .

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَةً
رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٣٢) .

فهل إن الله يعجز أن يقسم رحمته الرسالية وهم قادرون؟ أو يجهل وهم
عالمون ، أو يبخل وهم لا يبخلون ، أمّاذا من عطب أو نقص يقتضي أن
يتوكلوا عنه قسمة رحمته دون تسوكيل «أهم» أولاء الحماسي الجهال ،
العجزة البخال ، الأوغال البطل الرذال «يقسمون رحمة ربك» ؟ «نحن
قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا» وهم يتطلبون قسمة في الحياة
العليا ، فهم أولاء أهل الدنيا يجهلون قسمة معيشتهم الدنيا ، فكيف
يتطلبون قسمة لمعيشتهم العليا ؟ وتفصيل الجواب عن هذه المهرطقة نجدها
في مناظرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) معهم (٢) .

-
- (١) الدر المنثور ٦ : ١٦ - اخرج احمد والحاكم عن ابن مسعود في قوله تعالى : أهم
يقسمون رحمة ربك قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ان
الله قسم بينكم اخلاقكم كما قسم بينكم ارزاقكم وان الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا
يحب ولا يعطي الدين الا من يحب فمن اعطاه الدين فقد احبه .
- (٢) نور الثقلين ٤ : ٥٩٧ ح ٢٨ في كتاب الاحتجاج عن ابي محمد الحسن العسكري
عن ابيه (عليه السلام) قال : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قاعداً
ذات يوم بفناء الكعبة اذ قال له عبد الله بن امية المخزومي : لو اراد الله ان يبعث اليينا
رسولاً لبعث اجل من فينا بيننا مالا واحسن حالاً فهلا نزل القرآن الذي تزعم ان الله
انزله عليك وابتعثك به رسولاً على رجل من القريتين عظيم : إما الوليد بن المغيرة بمكة =

= وإما عروة بن مسعود الثقفي بالطائف ؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : اما قولك : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم الوليد او عروة فان الله ليس يستعظم مال الدنيا كما تستعظم انت ولا خطر له عنده كما له عندك ، بل لو كانت الدنيا عنده تعدل جناح بعوضة ما سقى كافراً به مخالفاً شربة ماء ، وليس قسمة رحمة الله إليك بل الله القاسم للرحمات والفاعل لما يشاء في عبده وامائه وليس هو عز وجل ممن يخاف احداً كما تخافه انت لما له وحاله فعرفته بالنبوة لذلك ، ولا ممن يطمع في احد في ماله او حاله كما تطمع انت فتخصه بالنبوة لذلك ، ولا ممن يحب احداً بحبة الهوى كما تحب فيقدم من لا يستحق التقديم ، وانما معاملته بالعدل فلا يؤثر لأفضل مراتب الدين وخلاله الا الافضل في طاعته والأجد في خدمته ، وكذا لا يؤخر في مراتب الدين وجلاله الا اشداهم تباطئاً عن طاعته واذا كان هذا صفته لم ينظر الى مال ولا الى حال ، بل هذا المال والحال من تفضله وليس لاحد اكراهه من عباده عليه ضريبة لازب فلا يقال له : اذا تفضلت بالمال على عبد فلا بد ان تتفضل عليه بالنبوة ايضاً لانه ليس لاحد اكراهه على خلاف مراده ، ولا إلزامه تفضلاً ، لانه تفضل قبله بنعمة ، الا ترى يا عبد الله كيف اغنى واحداً وقبح صورته وكيف حسن صورة واحد وأفقره ، وكيف شرف واحداً وأفقره وكيف أغنى واحداً ووضعته ؟ ثم ليس لهذا الغني ان يقول : هلاً اضيف الى يساري جمال فلان ، ولا للجميل ان يقول : هلا اضيف الى جمالي مال فلان ؟ ولا للشريف ان يقول : هلا اضيف الى شرفي مال فلان ؟ ولا للوضع ان يقول : هلا اضيف الى مالي شرف فلان ؟ ولكن الحكم لله يقسم كيف يشاء ويفعل كما يشاء ، وهو حكيم في افعاله محمود في اعماله وذلك قوله : وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - قال الله : - اهم يقسمون رحمة ربك - يا محمد - نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا - فأخرجنا بعضاً الى بعض ، أخرج هذا الى مال ذلك وأخرج ذلك الى سلعة هذا والى خدمته فترى اجل الملوك واغنى الاغنياء محتاجاً الى افقر الفقراء في ضرب من الضروب إما سلعة معه ليست معه وإما خدمة يصلح لا يتهاى لذلك الملك ان يستغني الا به ، وإما باب من العلوم والحكم هو فقير الى ان يستفيدا من هذا الفقير الذي يحتاج الى مال ذلك الملك الغني وذلك الملك يحتاج الى علم هذا الفقير او رايه او معرفته ثم ليس للملك ان يقول : هلا اجتمع الى مالي علم هذا الفقير ؟ ولا للفقير ان يقول : هلا اجتمع الى رأيي ومعرفتي وعلمي وما اتصرف فيه من فنون الحكم مال هذا الملك الغني ؟ .

« نحن قسمنا .. » « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » في المعيشة الدنيا لغاية أسمى هي في تنظيم حياتهم الدنيا عادلة عاقلة :

« ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا » جملة من آية منقطعة النظر ویتيمة في سائر القرآن ، تبين حقيقة ثابتة من النواميس الإلهية في هذا الكون ، أن هناك طبقية بارادة الرحمن الرحيم لتنظيم الحياة حيث يدور دولاها .

هنالك معيشة في الحياة العليا ، الرسالة الإلهية ، و« الله أعلم حيث يجعل رسالته » في قلوب صافية ضافية تفيض كما تستفيض دوغما خيانة .

وهناك عيشة في الحياة الدنيا ، كسائر ما يعيش الإنسان فيما سوى الروحية والمعنوية ، من عقلية علمية واستعدادات في تحصيل المال والمثال أم في صناعات أم ماذا مما تدير شؤون هذه الحياة ، « ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا » دون أن يكون جميع الناس على سواء في معيشتهم نُسخاً متماثلة مكرورة تُحِيل أن تقوم معيشة وحياة في هذه الأرض .

ما هي الطبقية المرفوضة والمفروضة؟ علوم إسلامية

نجد مثثلة من الطبقيات بين المجتمعات ، من ظالمة وعادلة وفاضلة ، فالطبقية الحصيلة من المظلمات ، من أكلة الأرض ومصاصي الدماء ، من هؤلاء الظالمين بحقوق المستضعفين ، تلك الطبقية ظالمة تطاردها التشاريع الإلهية ، حيث تقرر « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » « ولا تَأْكُلُوا أموالكم بينكم بالباطل » أما ذا من ضوابط اقتصادية عادلة تحارب الفقر المظلوم والغنى الظالمة ، وأما الغنى عن سعي فلا ، أو الفقر عن تقصير وعُطالة فتحارب فقيره الذي ظلم نفسه ، لا الغنى الذي لا يظلمه ، كما يندد بالفقير المتخاذل الذي يتكاسل عن الأخذ بحقه .

هذه الطبقية ليست من فعل الله لا تكويناً ولا تشريعاً ، وإنما هي من مظلمات الناس النسناس ، دون الناس العدول ولا إله الناس .

ومن ثم طبقية عادلة في مراعات الناس ، إعطاء كل ذي حق حقه ، وإعطاء سعي كل ساع حقه ، فإن زاد سعيه عن حاجته فإنفاقاً على من نقص ، وإن نقص سعيه عن حاجته فرحمة عليه عن زاد دون من ولا أذى .

هذه طبقية عادلة تقرب بين الساعين في عيشتهم رغم اختلافهم في مساعيهم ، وهكذا تُقرّر الشريعة الإلهية ، سعيًا حسب المستطاع وتراحماً بين الساعين حسب المستطاع ! وهذه طبقية الناس .

ثم طبقية فاضلة هي من إله الناس ، لا من عدل الناس ولا ظلم الناس ، وهي الحصيلة من مختلف المواهب والإستعدادات : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا » فيمة التفاوت في مقادير الرزق ، نتيجة تفاوت الدرجات في استعدادات وفعليات ، هذه السمة لا تتخلف أبداً حتى في المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجّهة أن تساوي جميع الأفراد في هذا الرزق أبداً !

والحكمة الأصلية الإلهية في هذه السمة هي « التسخير » وطبعاً التسخير العادل المتعادل ، لا الإستثمار الظالم أو الإستعمار والإستكبار والإستعمار والإستبداد والإستضعاف والإستخفاف : سُخْرِيًّا ظالماً هاتكاً حُرْمَ الإنسانية في أبوابه السبع الجهنمية ، حيث التشاريع الإلهية تحاربها وتغلقها دون موارد ولا مسايرة .

أجل إن « سُخْرِيًّا » لا يعني طبقياً مشكلاً من مسخر ومسخر دائيين ، فإنه مسخري جانبي من الناس ، وإنما السخري من كل الجوانب عدلاً وفضلاً ، فالعامل مسخر للمهندس ولصاحب العمل ، والمهندس مسخر للعامل ولصاحب العمل ، وصاحب العمل مسخر للمهندس وللعامل على سواء ، فكل مفضل على الآخر بما عنده كما الآخر مفضل عليه بما

سورة الزخرف / آية ٣٢ ٣٠٩

عنده ، فلو كان الكل على سواء في المواهب والإستعدادات لما مكن أحد نفسه في شغل لأخر مثله ، ولما تمكن أحد من تسخير أحد هو مثله ، وحالة الإستغناء هذه تمنع الحياة الجماعية والتساخر بين الأفراد في حاجياتهم فتقف عجلة الحياة .

ف « سُخْرِيًّا » هذه هي التعامل اللازم واللائق بشأن الحياة كما تقتضيه الشرعة العادلة الإلهية : أن لكل ساع سعيه ، ثم الزائد والناقص في سعيه دون تقصير يتعاملان تعاملاً آخر ، أن يفيد الأول من سعيه الآخر ، ويستفيد الآخر من سعي الأول ، إنفاقاً دون من ولا أذى حتى تحصل طبقية الناس .

فطبقية النسناس تعم ما تحصل من ظلامات ، ومن ترك الإنفاقات الواجبة والراجعة ، وطبقية الناس تطردهما في ترك الظلامات وفعل الإنفاقات ، على ضوء الطبقية الفاضلة من إله الناس ! .

فليست الطبقية كلها ظالمة ، كما اللا طبقية ليست كلها عادلة ، وإنما الظلم مرفوض في طبقية ام لا طبقية ، والعدل مطلوب مرفوض والفضل في طبقية اولا طبقية .

أترى لو تفاضينا عن آماذ المساعي فأعطينا عمالا على اختلاف مساعيهم أجوراً متساوية أم قدر الحاجة لإزالة الطبقية بينهم ، ولكي لا تحصل ، هل هو إذاً عدل ، ؟ ف « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » إذا ظلم ؟ كما يقوله الإقتصاد الشيوعي .

أم لو أعطينا كلاً كما سعى دون رعاية لقصور الضعاف أن نزيدهم لحد الكفاف ، ودون أخذ الضرائب من الأقوياء إنفاقاً للضعاف ، تطبيقاً مكانيكياً لقاعدة السعي ، فهل عدلنا ام كما تقول الاشتراكية أم ظلمنا ؟ .

أم إذ نجمع - على ضوء الإقتصاد الإسلامي - بين قاعدة السعي وبين رعاية الضعاف القصر بفرض ضرائب الكفاف على الأثرياء رعاية للمحاويج أفراداً أو جماعات فهل ظلمنا أم عدلنا ؟ وهذا ما يقوله الإسلام : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيّاً » على ضوء قاعدة السعي والإنفاق المستحق ، لتتقارب الجماعة المسلمة مادياً ومعنوياً ، فسماحة الإنفاق ربوة روحية بين الناس ، وتطبيق قاعدة السعي عدل واقعي ، وفي اختلاف المواهب والإستعدادات تمازج في تعاون دائب بين الناس ، حيث الكل محايج بعضهم إلى بعض نتيجة اختلاف الدرجات والموهبات والحاجيات .

آية السخري تجعل مباحضة في بني الإنسان كافة كأنهم أبعاض لشخص واحد « ليتخذ بعضهم بعضاً » وكما أن هناك سُخْرِي التساخر العادل المتعادل المتكامل بين أعضاء الفرد الإنساني على درجات في الموهبات والإستعدادات في هذه الأعضاء ، تحكمها روح واحدة باتجاه واحد هو صالح المجموعة ، فلتكن كذلك المجموعة الإنسانية بأفرادها ، فيعني كل كادح صالح حياته ضمن المجموعة ، في سُخْرِي الترابط التضامن العادل المتكامل قضاء لحاجيات الأفراد ضمن المجموعة والمجموعة ضمن الأفراد .

لا نجد في آية شرعة إلهية سماحاً لُسْخْرِي الإستبداد والإستكبار والإستخفاف والإستعمار والإستثمار والإستضعاف والإستحمار ، حيث أغلقت هذه الابواب السبعة الجهنمية بمصراعيها على بني الإنسان ، فاتحة أبواب التعايش العادل السلمي والحياة التضامنية العادلة الفاضلة .

فلا نجد تسخييراً مسيراً على عمل ، أم خيراً في سعي لا يوازيه أجره ، فحرية العمل وحرية الإنتخاب في العمل لا يسلبها « سُخْرِيّاً » إلا عادلاً

يرجع إلى صالح الأفراد والمجتمعات ، تقديماً لصالحها على صالح الأفراد ، دون تأصل للأفراد والمجتمع على هامشها ، أو تأصل للمجتمع والأفراد على هامشه ، بل الأصلان مرعيان تفضيلاً لصالح المجتمع عند التعارض ، وكما تجده في الحقل الإقتصادي الإسلامي كأفضل ما يمكن على ضوء الكتاب والسنة !

ثم إن في اتخاذ بعضهم بعضاً سُخْرِيّاً حسب اختلاف الدرجات ومقتضاها منتوجة أخرى بعد قضاء هذه الحاجيات ، هي درك الإنسان للكمال والأكمل فالتحري عنه والإلتذاذ به ، ولو كان الناس على سواء جمالاً وكمالاً وفي كافة المتطلبات ففضاً عن شل الحركة التضامنية حينذاك ، لم يحظ الإنسان حظوة بما عنده حيث يراه عند سائر الناس على سواء ، ولم يلتذ إنسان بنعمة عنده لما يراها عند سائر الناس على سواء ، إذ ألزالت اللذات ومرّت الحياة مرّة دون جراك ، لو أنها مرت دون تضامن التساخر والتعامل !

فالإشترابية المتساوية خلقة وفي استعدادات هي هادمة اللذات ، موقف عجلة السير الدائب المتسابق في الحياة ، ولكننا الطبقية العادلة المتعادلة المتكاملة على ضوء التشرييع الإلهية ، إنها تضمن عجلة دائبة في صراع عجلة الحياة وسرعتها في صراعها ، سباقاً سائغاً سابغاً في ميادينها وسراعاً « سابقوا إلى مغفرة من ربكم .. سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة .. » .

« ورحمة ربك » الروحانية الرسالية « خير مما يجمعون » من المادية الدنيوية .

فإن الله يختار لـ « رحمة ربك » وهي الخير المطلق نسبياً إلى سائر الخير ، يختار لها من يناسبها وتناسبه ، من يحتضنها وتحتضنه ، من يعمل بها ويبلغها كما هو أخرى ، ولا صلة بينها وبين عرض هذا الأدنى ، بل الدنيا بزهرتها

وزخرفتھا تنافرها وتتعارض معها ، كما الرسالة الإلهية بغيتها الرئيسية هي التزهيد في الدنيا، التحديد لشهواتها، أترى المترفين أولى النعمة يتقبلون رسالة تقضي على ترفهم لصالح المحاويج من طرفهم ، أم لو تقبلوها يبلغونها كما هو أخرى بلاغاً يضاد كيانهم ، أم لو سلمت الرسالة من هذا وذاك ، أليست هذه الرسالة نفسها بالتي تقرب أهل الدنيا وتبعد أهل الآخرة أم تُغري الناس بمغريات الرسول أم ماذا ؟

« رحمة ربك » تلمح إلى قمة الرحمة الروحية في الحياة العليا ، وأين هي من معيشة الحياة الدنيا ، وإذا هم لا يصلحون لقسمة الحياة الدنيا وهم من أهلها ، فكيف يصلحون لقسمة الحياة العليا وهم ليسوا من أهلها ، ولا أن لأهلها أن يقتسموها ، إنها الربوبية الوحيدة المطلقة في قسمة الحياة دنياءها وعليهاها ف « لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون » حيث السؤال الاستنكار ينخص من يجوز عليه الخطأ ، والسؤال الاستعلام لا يجوز في كل صغيرة وكبيرة إلا ما عرّفنا ربنا بحكمته ورحمته « ورحمة ربك » العليا « خير مما يجمعون » من الدنيا والتي لم ينظر الله إليها منذ خلقها !

﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْمِنَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ^{٣٣} وَلِيُؤْمِنَهُمْ أَنْبَاءً وَسُرُوراً عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ^{٣٤} وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ^(٣٥) .

إن قاعدتي السّخري والسعي تقتضيان خليطاً من الفقر والغني في قبيلي الإيمان والكفر ، دون اختصاص لأحدهما بأحدهما ، مهما كان الكفار بطبيعة الحال أغنى من المؤمنين لأنهم مكبون على الحياة الدنيا دون الآخرة ، ثم الإيمان قيد الفتك ! .

إلا أن قاعدة ثالثة تناسرها هي رخصة الدنيا ودنائها ، وهي مجلبة

سورة الزخرف / آية ٣٣- ٣٥ ٣١٣

الشهوات ومدحرة الطاعات فلا تناسب في ميزان الله إلا لمن يكفر بالرحمن دون المؤمنين ، إلا أن فريق الإيمان ليسوا على السواء ، صابرين على الفقر المطلق لهم والغنى المطلقة لفريق الكفر ، فهناك قد يتفلسف الإيمان ، ففكر على ما يفر منه ، خروجاً عن الحفرة إلى البئر !

لذلك اختلط الفريقان في الفقر والغنى ، وفي قبيل الكفر مزيد الغنى في أبعاد : إخلادهم إلى الدنيا فيعطون منها كما أخلدوا : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد .. » (١٧: ١٨) « من كان يريد الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك ليس لهم في الآخرة إلا النار .. » (١١: ١٥) وأن « الإيمان قيد الفتك » والبعدان هما قضية الكفر والإيمان ، ومن ثم بعد ثالث من رحمة الرحمن على المؤمنين أنه لا يغنيهم كأصل كما يسعون لكي لا تلهيهم ، وأنها لا وزن لها في ميزان الله ، كما يروى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « لو كانت الدنيا تزن جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء »^(١) .

« ولولا ان يكون الناس أمة واحدة » كما كانوا قبل البعثات الرسالية ضلّالاً « لجعلنا .. » إلا أن جعلاً هكذا يجعل الناس أمة واحدة بعد الرسالات كما قبلها و « لو » تحيل بقاء فريق المؤمنين على الإيمان ، أو رغبة المتحررين عن الإيمان في الإيمان ، رغم أن هذا يجعل قضية خسة الكافرين وخسة الدنيا ! دون تبعيد لمن يتحرى عن إيمان .

وقد تعني « لولا .. » معنى ثانياً : لولا السنة الدائمة الإلهية على كون الناس أمة واحدة في قاعدي السخري والسعي ، لجعلنا .. رفضاً لهما .. حيث خسة الدنيا وزهادتها ؟ ولكننا استثناء القواعد التي جعلها الله تعالى

(١) الدر المنثور ٦ : ١٧ - أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه عن سهل بن سعد قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ...

كونية وتشريعية ، إذا كان لصالح الكتلة المؤمنة ، هذا الإستثناء راجحة أم لازمة ، لولا مانعة أخرى كـ « أن يكون الناس أمة واحدة » ضللاً بعد الرسالة وبها كما قبلها .

وقد تعنيها الآية وما أحسنهما متضامين ، فإن هكذا جعل لمن يكفر بالرحمن خروج عن قاعدتي السخري والسعي ، وجعل للناس كلهم ضللاً لا يحنون إلى إيمان ! و « أمة واحدة » تعنيها معاً ، ولكنها الأصل هو الثاني وعلى هامشه الأول ^(١) مهما كان الثاني هو الأول والأول هو الثاني حصولاً !

إن الشراء بلاء للمؤمن لا بد منها تمشية للحياة الدنيا ، وإنفاقاً على محاييها ، و « أن لا يكون الناس أمة واحدة » فما أقل المؤمنين الأثرياء أن يكونوا بمؤمنين صادقين ملتزمين بإيمانهم ، وما أكثر المؤمنين الفقراء أن يظلوا صادقين ، حتى أن أحدهم قد لا يتقبل الشراء كيلا يتلى ببلاء الأثرياء ^(٢) .

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٩٩ ح ٣١ - القمي عن الصادق (عليه السلام) في تفسير الآية « لو فعل الله ذلك لما آمن من أحدٍ ولكنه جعل في المؤمنين أغنياء وفي الكافرين فقراء وجعل في الكافرين أغنياء وفي المؤمنين فقراء ثم امتحنهم بالامر والنهي والصبر والرضا . وح ٣٢ في كتاب علل الشرايع بإسناده الى سعيد بن المسيب قال : سألت علي بن الحسين (عليه السلام) عن الآية قال : عني بذلك أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يكونوا على دين واحد كفاراً كلهم « لجعلنا . . » ولو فعل ذلك بامة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لحزن المؤمنون وغمهم ذلك ولم يناكحوهم ولم يوارثوهم : اقول : أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هنا المصداق الاجلي والآية باطلاقها تعني كل الناس : وفيه (٣٤) بإسناده الى منصور بن يونس قال قال ابو عبد الله (عليه السلام) قال الله عز وجل : لولا ان يجد عبدي المؤمن في نفسه لعصبت الكافر بعصاة من ذهب .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٦٠١ بإسناده عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : جاء رجل موثر الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نقي الثوب فجلس الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فجاء رجل معسر دون الثوب فجلس الى جنب الموتر =

ولكن الثراء بنفسها ليست بلاء ، وإنما لضعاف الإيمان ، فمن قوة الإيمان أن يحاول المؤمن في تحصيل المال تبسعة على العيال وإنفاقاً للمحاويج وتمشية لعجلة الحياة الجماعية للكتلة المؤمنة .

فالمؤمن بين تزهد عن الثراء كيلا تلهيه عما يعنيه ، وبين تزويد للثراء لكي يطبق ما يعنيه من صالح الجماعة المؤمنة وصالحه في سبيل الله .

فليست الثراء - إذا - مرغوباً عنها بإطلاقها في ميزان الله ، كما ليس الفقر مرغوباً فيه بهذا الميزان فقد « كاد الفقر أن يكون كفراً » ! أو قد يعكس الأمر ، ولكننا الأكثرية الساحقة أن الثراء بلاء أكثر مما الفقر بلاء ! فليست الغنى لصاحبه كرامة كما ليس الفقر عليه مهانة ، فهما لأصحابهما بلاء وإبتلاء : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقد ر عليه رزقه فيقول ربي أهانن . كلا . . . » (٨٩ : ١٧) .

« ولولا أن يكون الناس كجملنا لمن يكفر بالرحمن » ولماذا الكفر بالرحمن ، دون الله أو الرحيم ؟ عله لأن الرحمن أعم الصفات الإلهية التي تشمل عامة رحماته وخاصتها ، فالكفر بالله خاص بالمللحدين فيه أوالمشركين به ، والكفر بالرحيم خاص برحماته الخاصة ، ولكل من هذه الثلاث أهل ، وأما الكفر بالرحمن فهو يعمها كلها ، كفراً بالله في شقيه ،

= فقبض الموسر ثيابه من تحت فخديه فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : اخفت ان يمسك من فقره شيء ؟ قال : لا ، قال : فخفت ان يصيبه من غناك شيء ؟ قال : لا . قال : فخفت ان يوسخ ثيابك ؟ قال : لا ، قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : فما حملك على ما صنعت ؟ قال : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ! ان لي قريباً يزين لي كل قبيح ويقيح لي كل حسن وقد جعلت له نصف مالي فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) للمعسر : انتقبل ؟ قال : لا . فقال له الرجل : ولم ؟ قال : اخاف ان يدخلني ما دخلك ! :

وكفراً بالرحيم في شقه، وكفراً بالربوبية دون الخالقية او الخالقية دون الربوبية ، أم كفراً بالعبودية دونها أما هيه ة من كفر بأية رحمة من رحمت الرحمن « فباي آلاء ربكما تكذبان » !

« لبيوتهم سقفاً من فضة » وما أطفها وأنضرها نظرة إليها كأنما ينظر إلى السماء اللؤلؤية البيضاء « ومعارج عليها يظهرون » والمعارج وهي ما يعرج بها تعم المعارج الأرضية وفوق الأرضية من طائرات أم ماذا « عليها يظهرون » : يطلعون ظاهرين غاليين على ما يهون من التطلع إلى سقوف أرضية أم ما فوق الأرضية أم ماذا ؟

« وليبوتهم أبواباً » كما تناسب ذوات السقوف الفضية « وسرراً عليها يتكئون » كما تناسب تلك البيوت « زخرفاً » : زينة من ذهب أو فضة أم زمردة أم أية زينة من الزين من نابئات : « حتى إذا اخذت الأرض زخرفها وازينت .. » (٢٣: ١٠) أو مصطنعات « او يكون لك بيت من زخرف .. » (٩٣ : ١٧) وإلى « زخرف القول غروراً » (٦ : ١١٢) وهو صوت الشيطان : « واستفزز من استطعت منهم بصوتك » (١٧ : ٦٤) ف « زخرفاً » هي مطلق الزينة للبيوت وسواها ، عموماً بعد خصوص ، والحياة الدنيا كلها زخرف ، ولذلك تسمت هذه السورة بالزخرف وصيغتها الأخرى سورة الدنيا ، حيث تمثلها كما هيه .

« وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » .

« لما » هنا قد تعني « إلا »^(١) وعله غير فصيح ولا صحيح أن يؤق بدل « إلا » الصريحة « لما » كإحدى معانيها بل، ولا يعرف لها هذا

(١) كما حكاه سيبويه « نشدتك بالله لما فعلت » اي الا فعلت .

المعنى (١) .

أو أنها تعني معناها الإنتظار حتى الآن و « إن » مخففة عن مثقلة ف
« كل ذلك » المذكور حتى الآن متاع الحياة الدنيا ، عند أهل الآخرة والدنيا
بميزان الله « والآخرة عند ربك للمتقين » .

إلا أن « لَمَّا » بمعنى « إلا » مكررة في الذكر الحكيم وقريبتها التي تعني
منها « إلا » هي معها « وإن كل لما جميع لدينا محضرون » (٣٦ : ٣٢) .

« والآخرة عند ربك للمتقين » فإنها لصالحهم حيث هيشوا لها بما قدموا
من صالحات ، فهي ليست لسواهم وإنما عليهم بما قدمت أيدهم من
طالحات ، ولكنها الدنيا تُعاكس الآخرة ، حيث المتقون لهم منها حظوة قليلة
يستقدمونها لأخراهم .

و « عند ربك » قد تكون وصفاً للآخرة ، فإنها عند ربك والدنيا
بعيدة عنه ، وإن كانتا عند ربك قدرة وعلماً وحكماً ، ولكنها الآخرة عند
ربك قرباً ومُلْكاً « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » !

وقد تكون « عند ربك » في ميزان الرب ، وخصوص الحضور للرب ،
فالآخرة للمتقين عند ربك ، أو أنها تعنيها : « فالآخرة التي عند ربك هي
عند ربك للمتقين عند ربك » !

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (٣٦) .

متاع الحياة الدنيا وزهرتها يُعشي أصحابها عن ذكر الرحمن تعامياً عنه

(١) كما رواه الامام الرازي عن أبي الحسن وحكى عن الكسائي في انه قال : لا اعرف
وجه الثقل :

بتقصير دون قصور^(١) فالبصر يعشوا ومن ثم البصيرة تعشوا ويصبح الإنسان عشواً عن ذكر الرحمن متعامياً متغاضياً عما يذكره الرحمن ، محجوباً قلبه ، ناسياً متناسياً ، وهناك مهبط الشيطان وهنا « نقيض » نرسل « له شيطاناً فهو له قرين » .

وذكر الرحمن هو كل ما يذكرك الرحمن ، وهي كافة الرحمات التي تعيشها في نفسك وحولك ، من عامة تعم الكون، ومن خاصة للخصوص من خلق الله ، الدالة على وجوده وتوحيده وعلمه وعدله وحكمته وسائر صفاته وأسماءه الحسنى .

فليعيش الإنسان ذكر الرحمن دون أن يعشو عنه أياً كان ، عشو القلب او القالب ، عشو البصر والبصيرة ، عشواً عن اي إدراك وتبصر ، ولكي يتذكر الرحمن فإنه يتبني عقيدة الإيمان وعمل الإيمان ، وبه تنضبط الحياة في مسيرة ومصيرة الإنسان !

فلا يختص العشو عن ذكر الرحمن بعشو الباصرة بصرأ وبصيرة ، إنه يعمها وكل مدركة في الإنسان ، فعليه أن يكرسها كلها لذكر الرحمن .

وذكر الرحمن مصدراً وصادراً درجات كما العشو عن ذكر الرحمن دركات ، فرسالات الله وكتابه ذكر ، وآيات الله في الأنفس والآفاق ذكر ، والإنسان هو نفسه بما يحوم حوله من قريب أو غريب ذكر ، وهذه بين معصوم سديد ، او مأثوم طريد ، أم عوان بين ذلك ، فالمعصوم ذكر مضمون بعصمة تبشيراً ، والمأثوم ذكر بطرده إنذاراً ، والعوان إنذار

(١) عشى يعشى عشاً من باب علم اذا كان يبصره آفة لا يبصر مطلقاً او بالليل وعشا يعشو عشواً من باب نصر اذا تعامى وتعشى بلا آفة وهنا : يعش من الشانئ مجزوماً ولو كان من الاول لكان يعش بالكسر .

وتبشير .

فالعاقل اللبيب يذكر الرحمن بكل ذكر ، والجاهل البليد لا يذكر الرحمن فيعشو عن كل ذكر وإن كان قرآن محمد أو محمد القرآن « والله من ورائهم محيط » !

فالذاكرون الله لا يقيض لهم هكذا شيطان يمدّهم في عشوهم ، مهما كان لهم شيطان غيره ، والعاشون المتعامون عن ذكر الله يقيض لهم شيطان : « وقيضنا لهم قرنا فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين » (٤١ : ٢٥) « أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً » (١٩ : ٨٣) « وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون » (٧ : ٢٠٢) .

فقد يتغلب عليه وقد يغلب في عراقك دائب ، خناس نسناس يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ، وقد يغلب على طول الخط فيسلم كصاحبه المسلم كما للرسول ، (صلى الله عليه وآله وسلم)^(١) ومن معه .

وهنا شيطان آخر يُبعث إلى من يعشو عن ذكر الرحمن ، أخ له قرين

(١) الدر المنثور ٦ : ١٧ - اخرج ابن حبان والبغوي وابن قانع والطبراني وابن مردويه عن شريك بن طارق قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ليس منكم احد الا ومعه شيطان قالوا ومعك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ قال : ومعى الا ان الله اعانني عليه فأسلم ، واخرجه مثله جماعة من طريق عائشة وابن مسعود وابن عباس : اقول : ليس هذا هو الشيطان المرسل المقيض لانه خاص بمن يعشو عن ذكر الرحمن ، وإنما هو الذي مع الكل كما اخرج احمد في الزهد عن وهب بن منبه قال : ليس من الأدميين احد الا ومعه شيطان موكل اما الكافر فيأكل معه من طعامه ويشرب معه من شرابه وينام معه على فراشه واما المؤمن فهو يجانب له ينتظره حتى يصيب منه غفلة او غرة فيثب عليه . . . » .

يُمَدُّه في الغي دون إقصار، وهذا غالب على طول الخط على « من تصدى باللاثم »^(١).

وهذه سنة دائبة آتية للعاشي عن ذكر الرحمن أن يعيش معه الشيطان ليُمَدِّه في الغي دون إقصار، غياً يحسبونه هدى، ضلالة على ضلالة هيئوا لها بعشورهم ظرفاً يناسبه، وقد قضت مشيئة الله ألا يخلو القلب من هاد أو مضل، فمن يرفض الهادي جاءه المضل، فإن الإضلال طبيعة الشيطان ما وجد له سبيلاً، ثم الله ليس ليقطع سبيله إلى قلب عاش عن ذكره تسييراً على ترك الضلال وكما لا يسير إلى الهدى: « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » (٦١ : ٥) وإغما يهدي الله من اهتدى « والذين اهتدوا زادهم هدى » (٤٧ : ١٧) جزاء وفاقاً وعطاء حساباً !

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٣٧).

ويا لهذا الحسيان من خسران حيث « زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون » (٢٧ : ٢٤) « ... وكانوا مستبصرين » (٢٩ : ٣٨) فقد كانوا قبل ذلك مستبصرين، فعشوا عن ذكر الرحمن على بصيرة وعناد تعامياً معمداً عن الحق فقيض الله لهم شياطين تزييناً لهم فصدهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون « قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١٨ : ١٠٤) ؟ حيث لا يدعه الشيطان القرين أن يفيق أو يتبين الضلال فيثوب، وإنما يوهمه أنه سائر في الطريق القاصد القويم، حتى

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٠٣ ح ٤٧ في كتاب الخصال فيها علم أمير المؤمنين (عليه السلام) أصحابه من الأربعمائة باب مما يصلح للمسلم في دينه ودنياه « من تصدى باللاثم اعشى عن ذكر الله تعالى ؟ من ترك الأخذ عن امر الله بطاعته قبض له شيطان فهو له قرين .

يصطدم بالمصير الأليم ، وترى أن الشيطان الثاني هو من قبيل الجان أم وهو أيضاً من الإنسان ؟ إنه يعمها كما الأول دون اختصاص بجان أم إنسان ، اللهم إلا النفس الأمار بالسوء ، فإنسان يستجيب سائر الشيطان ، ومن المصيبة العظمى والدامية الكبرى أن قرّن الشيطان المقيض لهذا الإنسان يبقى معه حياته دون انفصال في البرزخ والقيامة الكبرى وهو عليه وبال ! :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيُشْسِ الْقَرْيُنَ ﴾ (٣٨).

ترى ماذا يعني « جاءنا » والله لا يجيء إلى ولا يجاء إليه ؟ .. إنه يجيء عالم الرحمن برحمته الرحمانية والرحيمية الخاصة بيوم الحساب . فـ « جاءنا » يعني ما يعنيه « وجاء ربك » نجيء ربوبيته الخاصة بيوم الجزاء وهم يجيئون إلى تلك الربوبية يوم الجزاء !

فقد يستمر ذلك العشو ، وهذا القرين وصدّه عن السبيل « حتى إذا جاءنا » العاشي عن ذكر الرحمن مع قرينه الملازم له ، وذلك المجيء باديء من الموت مجيئاً برزخياً وإلى القيامة الكبرى مجيئاً نهائياً « قال ياليت بيني وبينك بُعد المشرقين » بينونة غابرة في حياتها الأولى وحاضرة في حياتها الأخرى ، ولكنه تأوّه بعد حينه ولات حين مناص !

ليس هنا فعل ماضٍ أو مضارع يخص التأوّه بقربه مع الشيطان القرين في زمان خاص ، بل هو تأوّه يشمل هذا القرن في مثلث الزمان ، فبعد المشرقين أم أبعد « إذا جاءنا » لا يبعده عن عذابه الذي خلفه بقرنه في الحياة الدنيا ! .

هكذا ينتقل العاشي في ومضة من هذه الأولى إلى الأخرى ، طياً لشريط الحياة السادرة وشرائطها إلى نهاية المطاف فجأة دون انتظار، وهنالك

يفيق بعد طويل النوم، ويفتح عينيه بعد مديد العمى ، ويرى قرينه شيطانياً أضله بعدما رآه هادياً دله ، فيتأوه لحاضره وماضيه ، حيث يرى قرنه به عذاباً فوق العذاب ، فيخاطبه خطاب العتاب : « يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين » بونا بين المشرق والمغرب وهو أبعد البعد في هذه الكرة ، وأنا عشتك في أقرب القرب القرين « وشس القرين » !

﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (٣٩) .

ترى وما هو الفاعل في « لن ينفعكم » أهو التأوه الندم « يا ليت » لـ « أنكم في العذاب مشتركون » « إذ ظلمتم » باشتراك ، إذا فاشتراك باشتراك ؟ فلن ينفعكم « يا ليت » كم ، لا فصلاً بينكم (إنسان وشيطانه) ولا تخفيفاً عن المضلل زيادة على المضلل ، ومن اشتراك العذاب الجمع بينهما حيث يترائيان في حوار وتأوه !

أم الفاعل « أنكم . . » فاشتراككم في العذاب « لن ينفعكم » لا تسلية ، فكل مشغول بنفسه منشغل عن غيره والعذاب شديد لا يبقى مجالاً لتسلية ، ولا تخفيفاً فالعذاب كامل لا تخففه الشركة ، ولا يتقاسمه المشتركون ، ولا أن الله يخفف عن مضلل ويثقل على مضلل « إذ ظلمتم » فكل يعذب على حد ظلمه أي كان ولو مضللاً ، أو يكون الإضلال على جهل من المضلل : فمضلاً : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون » (١٦ : ٢٥) ، فاشتراك الظلم لإزامه اشتراك العذاب كل على قدر ظلمه « ولا يظلمون فتيلاً » ! فلا التأوه ينفع إذ ظلمتم لاشتراك العذاب ، ولا اشتراك العذاب ينفع إذ ظلمتم ، والآية لفظياً ومعنوياً تتحمل الفاعلين على البذل ، فتحمل المعاني

المسرودة ككل دون تحميل ، لا سيما الثاني^(١) والسبب الرئيسي في « لن ينفعكم » هو « إذ ظلمتم » فكلّ يعذب لظلمه وعلى حدّه ، دون رعاية للظالم المضلّ ، أو نكاية زائدة على الظالم المضلّ ، اللهم في مزيد الظلم من مضلّ او مضلّل على سواء ! ولا يظلمون نقيراً .

موقف بائس متقاعس ، شائن متشائن ، إشتراكاً في العذاب ولات حين متاب ، حيث الظلم عريق والضلال عميق : !

﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾^(٤٠) .

« أف » بعد ذلك الصمم المعمد والعمى القاصدة والضلال المبين « أنت تُسمع الصم » ولا سمع لهم يستمعون « أو تهدي العمى » ولا بصرهم يبصرون ويتبصرون فإنه « كان » طول حياته غريقاً « في ضلال مبين » : يبينه لنفسه وسواه ، دون ابتغاء لهذاه ؟ !

فهذاية الدلالة هنا لا مجال لها ، وهذاية الإيصال إلى المطلوب لست أهلاً لها ولو لأهلها ، فكيف تكون إذاً لغير أهلها ، ما الله على قدرته المطلقة لا يهدي لها ؟ فلماذا هذا التجشم في إسماعهم وليهتدوا ؟ ولم ذلك التحزن عليهم إذ لم يهتدوا ، فإن عشوهم عن ذكر الرحمان في سمعهم أصمهم ، وفي بصرهم أعماهم ولن يهتدوا إذاً أبداً ! فلاحظوة لهم إلا الإنتقام ، بعدل إذ « ما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » (٨: ٣٣) أم وعندك حيث الضلال تعدى طوره واقتضى انتقاماً فوره .

﴿ فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ^(٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾^(٤٢) .

ف « إما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم » (١٠ :

(١) حيث الاول يتطلب حذف لام التعليل « لانكم »

(٤٦) « ... فلأنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » (١٣ : ٤٠) فـ « ما عليك من حسابهم من شيء » (٦ : ٥٢) « إن علينا حسابهم » (٨٨ : ٢٦) .

فهل أنت مُستاءٌ بعدُ لم لم يهتدوا ؟ أم لم لم يعذبوا بعدما عاندوا ؟ فلا لك هذا ولا عليك ذاك إن عليك إلا البلاغ وعلينا الحساب .

وترى كيف تناسب نون التأكيد الثقيلة الحاتمة لدخولها ، وإن الشرطية المشككة ؟ .. عله لأن هناك حتمية الموت أيًا كان ، ولكننا الإنتقام على حتميته قد يكون قبل الموت أو بعده !

وترى كيف التلاحم بين وعد الإنتقام قبل موته « أو نرينك .. » وبين ترك العذاب فيه : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » (٨ : ٣٣) ؟

قد يكون « الذي وعدناهم » هنا « بعض الذي نعددهم » في ثلاث أخرى ، والعذاب في حياته كل عذابهم يوم الدنيا والثابت فيها - أحياناً - بعضه ، حيث يتعدى ضيلائهم طوره فيقتضي عذابهم فوراً .

أو أن الذهاب به لا يعني موته وإلا لقال « أو نتوفينك » كما في آياته الأخرى ، بل يعني هجرته من مكة إلى المدينة ، أو أنه يعنيها كالذي بينا وفي أحاديثنا^(١) وقد تعني « وأنت فيهم » كونه بينهم في مكة قبل هجرته لا حياته !

(١) فقد يروى انه موته كما في الدر المنثور - ٦ : ١٨ - اخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن ابن صالح عن جابر بن عبد الله عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله : فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون - نزلت في علي بن ابي طالب انه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي ، وفي ملحقات الإحقاق ١٤ : ٣٥٤ - اخرج الحافظ ابن المغازلي في المناقب ص ١٠٢ نسخة مكتبة صنعاء اليمن قال : اخبرنا الحسن بن احمد بن موسى الفندجاني قال حدثنا هلال بن محمد الحفار قال حدثنا اسماعيل بن علي قال حدثنا ابي علي قال حدثنا علي بن موسى الرضا قال حدثنا ابي =

فهناك تسليّة لخاطر النبي الأقدس (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه أدى واجبه في دعوته وماذا عليه بعد مهملها ضلّوا. وأخرى أن الله ينتقم منهم في حياته شطراً أو بعد مماته ، فما عليك إذا إلا استمسك بوحيه :

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٤٣) .

عش يا صاحب الرسالة السامية استمسكاً بالذي أوحى إليك دوغما فترة

موسى بن جعفر قال حدثنا ابي جعفر قال حدثنا ابي محمد بن علي الباقر عن جابر بن عبد الله الانصاري قال : ابي لادنهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجة الوداع بمنى حتى قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : لآلئكم ترجعون بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض وايم الله لئن فعلتموها لتعرفنني في الكتبية التي تضاربكم ثم التفت الى خلفه فقال : او علي او علي ثلاث مرات فرأينا ان جبرئيل غمزه فانزل الله على اثر ذلك « فلما نذهب بك فانا منتقمون » بعلي بن ابي طالب او نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ثم نزلت « قل رب اما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين ثم نزلت : فاستمسك بالذي اوحى اليك من امر علي انك على صراط مستقيم وان علياً لعلم للساعة ولك ولقومك وسوف تسألون عن علي بن ابي طالب . وفيه اخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن مسعود العبدى قال قرء علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) هذه الآية قال : ذهب نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) وبقيت نعمته في عدوه، وأخرج ما في معناه جماعة آخرون منهم ابو نعيم الاصفهاني بسنده عن زرين جيش عن حذيفة انه قرء فإنا منهم منتقمون بعلي بن ابي طالب ، ورواه مثله في فضائل السمعاتي بسنده عن ابن عباس وروى محمد بن العباس عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : ان الله تعالى انتقم بعلي في حرب البصرة وهذا ما وعده الله ورسوله .

وفي ملحقات الاحقاق ٣ : ٤٤٤ روى جماعة من أعلام القوم نزول الآية في علي (عليه السلام) منهم النيسابوري في تفسيره ٢٥ : ٥٧ بهامش تفسير الطبري عن جابر انه قال : لما نزلت : فانا منهم منتقمون قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعلي بن ابي طالب (رضي الله عنه) ، ومنهم السيوطي في الدر المنثور ٦ : ١٨ عنه والترمذي في مناقب مرتضى ٥٣ عنه والقندوزي في ينابيع المودة ٩٨ عن حذيفة بن اليمان مثله .

ولا فتور ، إنه لا يهتدي به هؤلاء ، ودونما نخوة أو ضرور أنك تهدي به هؤلاء ، وإنما استمساكاً به كما أوحى دونما تقتصر فيه أو قصور !

وترى « أوحى » الماضي يختص بالإستمساك بالماضي فقط من وحي القرآن ؟ والقرآن قرآن بماضي وحيه ومستقبله ، بل إنما « أوحى » حيث يضم مطلق الوحي المحكم ليلة القدر وقسماً من المفصل ، ثم القسم المستقبل من المفصل تنمة لتفصيل محكمه وتكملة لمفصله .

ولأن هذه التكملة من الوحي ، وليس واجب الإستمساك بما أوحى إلا بعله الوحي ، فليشمل الإستمساك بالوحي القرآني مثلث زمن الوحي ، فـ « بالذي أوحى » أبلغ من كل الصيغ ، فإن « ما يوحى » لا تشير إلى محكمها الماضي ، و « بالوحي » يشمل كل وحي في كل الرسالات ، و « با الوحي إليك » لا تصرح بمادة الوحي وإنما بمصدره ، و « بالقرآن » لا يشمل محكم القرآن ولا وحي السنة ، فما أبلغه وأشمله « بالذي أوحى إليك » !

ثم « بالذي أوحى » دليل أول لوجوب الإستمساك ، ودليل ثان : « إنك على صراط مستقيم » من صراط العصمة والروح القدسي الرسالي ، يعصمانك بإذن الله عملياً ، فاستمسك بالذي أوحى إليك علمياً فإنه صراط مستقيم وإلى صراط مستقيم ، كما أنك على صراط مستقيم وإلى « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » (٥٢: ٤٢) تماسكاً بين الصراطين المستقيمين : الناطق والصامت ، إيفاء بالرسالة الإلهية في عصمة تامة ، فاستمسك غير المعصوم بكتاب معصوم أو استمسك المعصوم بكتاب غير معصوم ناقص وإلى نقص !

ولماذا « فاستمسك » طلب المسك ، دون « فأمسك الذي أوحينا إليك » ؟ لأنه كرسول عليه طلب المسك بوحيه بين العالمين ، كما أمسكه لنفسه قبل العالمين ، فالإستمساك إمساك لنفسه وطلب من غيره ، ليصبح الرسول والمرسل

إليهم تمسكاً بالوحي يعيشونه في كل حياتهم

فالإستمسك بالقرآن صراط مستقيم لا جَوْل عنه ولا عِوَج فيه ، وهو سبيل المصلحين : « والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين » (٧ : ١٧٠) وهو العروة الوثقى يُستمسك بها في إسلام الوجه إلى الله « ومن يُسلم وجهه لله فقد استمسك بالعروة الوثقى » (٣١ : ٢٢) وهو القاطع لكل عذر والحجة في كلُّ غدر « أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون » (٤٢ : ٢١) .

فما دام الإستمسك بالقرآن فأنت على صراط مستقيم ، وإذا تحولت عنه إلى سواء فأين الصراط المستقيم ؟ اللهم إلا إذا وافق القرآن ! وإلا فسوف تُسألون :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (٤٤) .

كلُّ كتابات الوحي ذكر « وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين » (٢٦ : ٥) والقرآن هو أفضل الذكر « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (١٥ : ٩) تأكيدات منقطعة النظير عن سائر الذكر ! وكل رسول من الله ذكر « ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث ... » (٢٦ : ٥) .

ولكن الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أفضل الذكر : « فاتقوا الله يا أولي الألباب قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً ... » (٦٥ : ١٠) وهنا يأتي ذكر « القرآن » لذكر « رسول القرآن » وقومه : « وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » !

وترى المعنى من ذكر القرآن للرسول وقومه فقط أن يتذكروا به كما أنه حجر الأساس فيما يُهدف من ذكر القرآن ؟ أم وأنه يرفع ذكر من تذكر

به قدره كما رفع الله ذكر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن معه ،
فمئات الملايين من الشفاء تصلي وتسلم عليه وتقرن ذكره بذكر الله في
أذانات الصلاة وإقاماتها ، ذكر المحب المشتاق آناء الليل وأطراف النهار على
مر التاريخ ! وكذلك الذين معه من مسلمي التاريخ أياً كانوا وأيان !

« وسوف يُسألون » ماذا فعلتم بهذا الذكر ؟ وهل أدبتم واجب الشكر
في ذكره لكم ؟ فأما الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والذين معه
فمعهم ما معهم من إجابات حسب الدرجات ، ولكن الذين « اتخذوا هذا
القرآن مهجوراً » (٣٠ : ٢٥) علمياً وعقائدياً وعملياً ، رغم ما استظلوا
تحت ظله أننا أهل القرآن فاحترمهم العالمون أفهؤلاء « سوف يسألون »
تهتكاً واستنكاراً ، وهم الأكثرية الساحقة من المسلمين وحق من لا نسميهم
وهم يجهلون القرآن ! متجاهلين موقفه في حوزات الإسلام ! يدرسون فيها
ويدرسون كتابات سوى القرآن والقرآن مندرس بينهم لا يُدرس ، وهذه
قسمة ضيزى ما أظلمها بجنب القرآن أن يُدرس ولا يُدرس ، اللهم إلا
قراءته خاوية خالية عن الذكرى ، خاصة لأرواح الأموات والأحياء منها
يعاد وحق في استماعه ! مستمعين إلى كل متكلم إلا قارئ القرآن !

اجل إن هناك مسؤولية كبرى عن هذا الذكر العظيم عن حملوه ولم
يحملوه « ولتسألن يومئذ عن النعيم » (٨ : ١٠٤) وليست هذه المسؤولية لما
دون ذلك النعيم العظيم !

تري ومن هم قوم الرسول المسؤولون معه عن ذلك الذكر ؟ .. إن
للرسول أقواماً يجمعهم « العالمون » لمكان رسالته العالمية ، ولكنهم على
مدارج شتى من حيث وجهة هذه الرسالة ومفعوليتها فيهم .

فمنهم المكذبون به « وكذب به قومك وهو الحق » (٦ : ٦٦) ولما

ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدّون « (٤٣ : ٥٧) .

ومن قومه من قام بتمام الواجب في تقبّل وحمل دعوته وهم عترته المعصومون^(١)، وبينهما متوسطون ويجمعهم سائر العالمين وتجمعهم « وسوف تسألون » مهما اختلفت المسؤوليات حسب المسؤوليات، في درجات أم دركات !

﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (٤٥) .

المأمور بالسؤال هنا هو الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسؤول عنهم كافة الرسل ، ومورد السؤال « أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » ترى ولماذا السؤال وكيف سئل المرسلين وهم أموات ؟ فمسائلة الذين درجت قروئهم وخلت أزمانهم غير ممكنة ولا مفيدة إن أمكنت ! بطبيعة الحال ليس هذا السؤال ليعلم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد جهل ألا معبود إلا الله ، فإنه قبل رسالته كان على توحيد الله وهذا السؤال حين رسالته ، كذلك وليس ليعلم هل إن الرسل قبله كانوا موحدين ودعاة التوحيد أم ماذا ؟ وإنما لكي يعلم الناكرون أو الشاكرون في توحيد الله أن التوحيد سنة الرسالة الدائبة دوماً استثناء !

ثم وسؤاله (صلى الله عليه وآله وسلم) الرسل ينطلق عنهم وهم حضور لديه ليلة المعراج^(٢) أمّا ذاء، فله الحوار معهم أينما شاء في معراج أم

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٠٤ ينقل روايات عدة ان الائمة (عليهم السلام) هم قومه في هذه الآية وهم المسؤولون ، رواه عن الكافي عن ابي جعفر (عليه السلام) وعنه عن ابي عبد الله (عليه السلام) بعدة اسناد .

(٢) هنا روايات عدة من طريق اخواننا ومن طرقنا أن هذا السؤال كان ليلة المعراج ، =

= واللفظ الاكثر رواية قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا عبد الله اتاني ملك فقال : يا محمد : « ومثل من ارسلنا قبلك من رسلنا على ما بعثوا ؟ قلت : على ما بعثوا ؟ قال : على ولايتك وولاية علي بن ابي طالب ، اقول وهذا في ليلة المعراج كما رواه جماعة منهم العلامة الشيخ ابراهيم بن محمد بن ابي بكر بن حمويه الخويني في فرائد السمطين المخطوط جزء ٣٢ بسند متصل الى عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والعلامة البديخي في مفتاح النجاص ٤١ مخطوط والعلامة الحسكاني في شواهد التنزيل ج ٣ ص ١٥٦ ط بيروت بسند له عن علقمة والاسود عن ابن مسعود قال قال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما اسري بي الى السماء اذا ملك قد اتاني فقال لي يا محمد ! سل من ارسلنا من قبلك من رسلنا على ما بعثوا ؟ قلت معاشر الرسل والنبيين على ما بعثكم الله ؟ قالوا على ولايتك يا محمد وولاية علي بن ابي طالب (عليه السلام) ورواه مثله ابو الحسن الفقيه ابن شاذان من طرق اخواننا عن ابن عباس له .

ثم اقول : هذه ولاية التوحيد الكامل وعلى ضوءها ولاية الرسالة المحمدية والخلافة العلوية ، فلا تنافي نص الآية ان السؤال حول التوحيد ! وكما يرويه ابو نعيم المحدث الاصفهاني في حلية الاولياء في تفسير هذه الآية انه لما اسري برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) واحضرت الرسل عنده قال الله تعالى يا محمد ! سلهم بماذا بعثكم الله ؟ قالوا بشهادة الا اله الا الله والاقرار بنبوتك وبولاية علي (عليه السلام) (كفاية الخصام) ص ٣٤٨ / وفي الكافي عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : ولايتنا ولاية الله وما بعث نبي الا بها .

ومن طريق اصحابنا في تفسير القمي حدثني ابي عن الحسن بن محبوب عن ابي حمزة الثمالي عن ابي الربيع قال حججت مع ابي جعفر (عليه السلام) في السنة التي حج فيها هشام بن عبد الملك وكان معه نافع بن الازرق مولى عمر بن الخطاب فقال يا امير المؤمنين من هذا الذي تتكافى عليه الناس ؟ فقال هذا نبي اهل الكوفة محمد بن علي بن الحسين ابن علي بن ابي طالب (عليه السلام) فقال نافع : لآتينه فلاسلته عن مسائل لا يجيبني فيها الا نبي او وصي نبي او ابن وصي فقال هشام فاذهب اليه فاسأله فلعلك تحجله فجاء نافع فاتكى على الناس ثم اشرف على ابي جعفر (عليه السلام) =

= فقال : يا محمد بن علي ! إني قرأت التوراة والانجيل والزبور والفرقان وقد عرفت حلالها وحرامها وقد جئت أسألك عن مسائل لا يجيبني فيها الا نبي او وصي نبي او ابن وصي نبي فرفع اليه ابو جعفر (عليه السلام) رأسه فقال له : سل - فقال : اخبرني كم بين عيسى ومحمد من سنة ؟ فقال : اخبرك بقولي ام بقولك ؟ قال اخبرني بالقولين جميعاً قال اما قولي فخمسمائة سنة واما قولك فستمائة سنة ، قال فاخبرني عن قول الله عز وجل « واسأل من ارسلنا قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » من ذا الذي سأل محمد وكان بينه وبين عيسى خمسمائة سنة ؟ قال : فتلا ابو جعفر (عليه السلام) هذه الآية « سبحان الذي اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا » فكان من الآيات التي اراها الله محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) حين اسري به الى البيت المقدس ان حشر الله له الاولين والآخرين من النبيين والمرسلين ثم امر جبرئيل (عليه السلام) فاذن شفعا واقام شفعا ثم قال في اقامته حي على خير العمل ثم تقدم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فصلى بالقوم فانزل الله عليه « واسئل من ارسلنا قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : على ما تشهدون وما كنتم تعبدون ؟ فقالوا : نشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وانك رسول الله اخذت على ذلك موثيقنا وعهودنا ، قال نافع : صدقت يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا ابا جعفر انتم والله اوصياء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخلفاءه في التوراة واسماءكم في الانجيل والزبور وفي القرآن وانتم احق بالامر من غيركم :

وفي الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه واما قوله « واسئل من ارسلنا » فهذا من براهين نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) التي آتاه الله اياها واوجب به الحجة على سائر خلقه لانه لما ختم به الانبياء وجعله الله رسولا الى جميع الامم وسائر الملل خصه بالارتقاء الى السماء عند المعراج وجمع له يومئذ الانبياء فعلم منهم ما ارسلوا به وحملوه من عزائم الله وآياته وبراهينه فاقرؤا اجمعين بفضله وفضل الاوصياء والحجج في الارض من بعده وفضل شيعته وصيه .

غير معراج ولكنه سؤال بإجابته لا يفيدان مَنْ سواه فإنه غيب حيث المؤمنون عنه بعباد فضلاً عن سواهم ! وإنما هو تشريف لهم أن يُسألوا وله أن يسأل .

ومن ثمَّ سؤالهم عن كتبهم الناطقة على تحرفها - بجوابه حيث المآت المآت من آياتها البيّنات إجابةً له شافية : « لم يجعل من دون الرحمن آلهة يُعبدون » مهما تمسك المنحرفون من أهل الكتاب بمتشابهات من آياتها أو مختلقات ، ولكننا المحكمات الثابتة منها ناطقة دون تشابه واختلاف ! ودليل الفطرة والعقل يؤيدان توحيد العبادة ويرفضان شركها فإنه ظلم مستحيل على الله أن يسوي بينه وبين خلقه في العبادة .

ثم وسؤال علماء الأديان غير المنحرفين منهم والمتطرفين ، وإنما الربانيون منهم وهم حضور في كل زمان : « وإن كنت في شك عما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك .. » (١٠ : ٩٤) وأهم ما أنزل عليه هو التوحيد ، وشكّه (صلى الله عليه وآله وسلم) من باب إياك اعني واسمعي جارة .

وذلك السؤال في الحقلين الأخيرين استجاشة للآمم المشتركة أو المتشككة أن يتساءلوا أهله عما يشركون أو يتشككون ، والجواب كلمة واحدة عقلياً ونقلياً : « لم يجعل من دون الرحمن آلهة يُعبدون » .

وعلى مربع السؤال معني في أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يخصه كسؤال الحضور في معراج وغير معراج ، وما يعمه وسواه كالآخرين .

وفيما يخصه نجد أبعاد الزمان والمكان وأبعاد الحياة والموت كلها تطوى وتتلاشى أمام ذلك السؤال من إمام المرسلين ، فيراهم جميعاً ويسألهم ما أمره

سورة الزخرف / آية ٤٥ ٣٣٣

الله ويسمع الجواب الذي نجده في كتاباتهم وعلى السنة الربانية من علماء أديانهم .

ثم وفي غير هذا الموقف الجماهيري الرسالي ليلة المعراج ، بإمكانية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يواجه أي رسول أباً كان فإنهم كلهم من أمته المؤمنين به الناصرين له كما في آية الميثاق وروايته^(١) :

« وإذا اخذ الله ميثاق البين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال : أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا : أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » (٣ : ٨١) ففي الامالي عن الصادق (عليه السلام) عن ابيه عن جده عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : اخذت من النبيين ميثاقهم بربوبيتي ونبوتك وولاية علي .

افبعد هذا كله ، يُحجز الرسول عن سؤال المرسلين المؤمنين به حاجز الزمان وحاجز المكان وحاجز الموت أماذا من حواجز يخرقها !

وترى ان معراجهم وما سواه من آياته الكبرى اكبر ام سؤاله المرسلين في معراجهم ؟ طبعاً معراجهم الذي حوى سؤاله ، اللهم الا آيته الكبرى : القرآن ! .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِكَةٍ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا
جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ
مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ
بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ
فِي قَوْمِهِ قَالَ يَتَقَوِّمُ إِلَيْكَ الْمَلِكُ مُصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ
تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا
الَّذِي هُوَ مِهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ
أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾
فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾

فَلَمَّا أَتَيْنَا أَتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾
فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَافًا وَمَثَلًا لِّلْآخَرِينَ ﴿٥٦﴾ * وَلَمَّا ضُرِبَ
أَبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا
ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ
خَاصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ
مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً
فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُنَّ
بِهَا وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ
الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى
بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ
الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ
رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ^{٦٥} فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ
عَذَابِ يَوْمِ الْحِمْ^{٦٥} هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ^{٦٦} إِلَّا خِلَافَهُ يَوْمَ يَمِزُّ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوًّا إِلَّا الْمُتَّقِينَ^{٦٧}

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴾^(٤٦) .

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

حلقة مختصرة غير مختصرة من قصة موسى وفرعون وحوار بينهما ، بينها
وبين قصة الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) متشابهات كأنها
نسخة تكرر وأسطوانة تعاد ! تدليلاً على وحدة الرسالة في جوهرتها
وآياتها ، ففي عرض له (صلى الله عليه وآله وسلم) تسلييات واستقامات
وطمئنيات .

وهنا في إرسال موسى إلى فرعون وملاءة دلالة صريحة على عدم
اختصاص رسالته ببني إسرائيل مهما كانوا حجر الأساس في دعوته إذ كانوا
مستضعفين أمام الفرعة الجبارة ، و « آياتنا » كجمع مستغرق آيات الله
كلها وكما في أخرى « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » (٥٦ : ٢٠) هذه

لا تعني كل الآيات الالهية إلا جلّها ، و « كلها » و « آياتنا » هنا وهناك تعنيان كل الآيات التي كانت تناسب ظرف الزمان وظرف المكان ، وما أرسل رسول بمثل هذه المجموعة من الآيات التي تخلّق على الأرض والسماء براً وبحراً وإنساناً في مختلف الضروب والظروف ! ولأنها كانت من أصعبها وأصلبها أصبحت تترى عليهم يميناً وشمالاً ، ترغيباً وترهيباً لعلهم يرجعون ، « وجمعية أخرى لهذه الآيات أنها تجمع بين متصلة كاليد البيضاء ومنفصلة قرية كالعصا حيث قلبت حية تسعى وثعباناً مبيئاً ، وقلبت الحجر اثنتي عشرة عيناً ، والبحر رهواً ، وطريقاً ييساً ، ثم منفصلة بعيدة هي الدم والقمل والطفوفان والضفادع بآيات مفصلات تترى .

فقد أوتي إذا آيات الله كلها بأنواعها في هذا المثلث - إلى فرعون وملاه ! .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ (٤٧) .

متظاهرين أنها ضحك السخرية والإستهانة بها ، وهذه من سيرة الفرعنة الثراء ، توهيناً لرسالات الله بآياتها : « إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » (٨٣ : ٢٩) يوم الدنيا ، وأما الآخرة : « فليضحكوا قليلاً وليكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون » (٨٣ : ٩) .

﴿ وَمَا تُرِيدُ مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَهِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٤٨) .

وهذه ظاهرة مكرورة واقعة في آيات موسى .

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا كَافِتُونَ ﴾ (٤٩) .

وكان العذاب المدعو كشفة من آل فرعون هو الرجز : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم .. » (١٣٦ : ٧) .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ (٥٠) .

وإلى هنا تتختم الآيات منذ حجة العصى حتى غرقهم في اليم، يطوبها طياً لعرض حوار في هذا البين ، وعجب من هؤلاء النكثين الأشراس ، تراهم غرقى في بلاء الآيات ، وثم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم رجز البلاء ، ويعدونه بذلك الإهداء ، وهم على ما هم يتهتكون موقفه الرسالي : « أيها الساحر » ؟ ! وموقف الرب « ربك » كأنه ربه لا سواء و « بما عهد عندك » كأن عهده لا يتخطاه إلى سواء كشفاً للرجز عن هؤلاء !

فلو كان ذلك « الرجز » سحراً فلتدفعوه بسحر مثله وأنتم أهله ، وإن كانت معجزة فلماذا « يا أيها الساحر » ؟ ومن ثم « ربك » ثم « عندك » ؟ فلو كنتم من أهل الإيمان والإهداء بالآية الإلهية فتلك هي الآية والأخيرة من الآيات كلها ، فهل إن كشف الرجز آيةً ووقوعه سحر وليست آية ؟ ولكنها الله يستجيبهم « إلى أجل هم بالغوه » تأكيداً للحجة وإثارة للمعجزة فـ « إذا هم ينكثون » ومن قبل كان يعلم نكثهم بأضراهم الأسلاف السلاف : « ولورحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجؤ في طغيانهم يعمهون » (٢٣ : ٥٧) « إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون » (٤٤ : ١٥) .

تلك آيات من الله وما واجهها آل فرعون فما هي الآيات الفرعونية وإجاباتها ؟ إنها لا تتخطى خداعات خواء وادعاءات جوفاء وزخرفات تجلب عقول الجماهير الساذجة المخدوعة بالأبهة والبريق وزينة الحياة الدنيا .

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ^(٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ أَمْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ ^(٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ۝

عرض تافه رخيص يواجه به آيات الله البينات « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار . . . » وماذا يُثبت له ملك مصر الذي حصل عليه بالسيف والنار، بالزور والغرور ؟ وحتى إذا كان له حقاً وخيرة من شعبه ، أكل ذلك يُثبت أنه إله ؟ أم عبد يستغني عن الله ؟ إذا فكل ملك إله ، أو هو مسغتن عن الله ! وترى من هذا الذي هباه وأعطاه ؟ هل هو هو أم الله ؟ فليس هو إذاً بإله ولا يستغني عن الله ! .

فرعون بين فضله واستجاش قلوباً مستغفلة مستخفة « أفلا تبصرون » بأبصاركم ، إذ لا حاجة إلى بصيرة لهذا العرض المحسوس ؟ . . ومن ثم يبين مهانة موسى عنده « ولا يكاد يُبين » « فلولا أُلقي عليه . . » ومهانتة الأخرى عند الله « أو جاء معه الملائكة مقترنين » ؟ ويقايس بين نفسه وبين ذلك المهين « أم أنا خير أم هذا الذي هو مهين . . . » .

فرعون الطاغية هنا في تدجيله بين نفي وإثبات ، يُثبت لنفسه كل أهلية ينفيها عن موسى ، وينفي عن موسى ما يُثبته لنفسه :

١ - « لي ملك مصر وهذه الأنهار » وموسى مهين ليس له ملك ولا هو من الطائفة الملوكية ، بل من بني اسرائيل المستضعفين المستخدمين !

٢ - أنا أبين وهو لا يكاد يُبين ، حيث العقدة في لسانه ولا عقدة في لساني !

٣ - أنا عليّ أسورة من ذهب ، « ولولا القي عليه أسورة من ذهب »؟

٤ - أنا معي جندي مقترنين ولم يحىء مع موسى حتى ملائكة مقترنين .

ولكن ليس ملك مصر ولا أي ملك أوسع منه كرامة ، ولا استضعاف موسى مهانة ، وأما أنك تُبين وتفصح عما تريد ، فماذا تُبين إلا خرافات وادعاءات ، وموسى الذي لا يكاد يُبين على حد زعمك يُبين كما يستطيع حقائق بينات .

وترى ماذا يعني « لا يكاد يُبين » هل لأنه لم يكن فصيحاً كما يليق « وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي رداً بصدقني » (٢٨ : ٣٤) ينطلق لسانه « ويضيق صدوي ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون » (٢٦ : ١٣) أم كانت في لسانه عقدة لا ينطلق كما يحق « وأحل عقدة من لساني يفقهوا قولي » (٢٠ : ٢٨) فقد أرسل أخاه هارون ، وأحل عقدة من لسانه « قال قد أوتيت سؤلك يا موسى » (٢٠ : ٣٨) فصاحة متصلة بإزالة العقدة عن لسانه ، ومنفصلة بإرسال هارون وهو أفصح منه لساناً ، وتعزيزاً بتأثيره بأخيه ، وكل ذلك حصل .

وأما الملائكة المقترنون ، فهم ليسوا معك ، اللهم إلا شذمة كافرة من الضالين معك ، وآيات موسى التسع المقترنة به تكفيه عن إقران الملائكة ، ولو اقترنوا به لكانوا في صور الرجال فما هي إذاً فائدة الإقتران ؟ .

وأما الأسورة من ذهب تُصدّق رسالته ! فهي تصدق فرعنة وتُرفأ وقد تكذب الرسالة ، حيث الرسالة الإلهية تُناحر هذه الفخفخات المادية ، وتُشاجر المترفين ذوي الأثرة والكبرياء ! .

(لقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون (عليه السلام) على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصي فشرطا له إن أسلم بقاء مملكه ودوام عزه فقال : ألا تعجبون من هذين ؟ يشترطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما عما ترون من حال الفقر والذل ، فهلا ألقي عليهما أساور من ذهب ، إعظاماً للذهب وجمعه ، واحتقاراً للصوف ولبسه ، ولو أراد الله سبحانه لأنبئانه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقيقان ومغارس الجنان وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرضين لفعل ، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء واضمحلت الأنبياء ، ولما وجب للقابلين أجور المبطلين ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين ، ولا لزمَت الأسماء معانيها ، ولكن الله سبحانه جعل رسله أولى قوة في عزائمهم ، وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم ، مع قناعته تملأ القلوب والعيون غنى ، خصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى ، ولو كانت الأنبياء (عليهم السلام) أهل قوة لا تُرام وعزة لا تُضام ومُلك تمتد نحوه أعناق الرجال وتُشد إليه عُقد الرجال لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار ، وأبعد لهم من الاستبكار ، ولأمنوا رهبة قاهرة لهم ، و رغبة مائلة بهم ، وكانت النيات مشتركة والحسنات متقسمة ، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون

الإتباع لرسله والتصديق بكتبه والخشوع لوجهه والإستكانة لأمره والإستسلام لطاعته أموراً له خاصة ولا يشوبها من غيرها شائبة ، وكلما كانت البلوى والإختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل^(١).

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾^(٢).

الإستخفاف هو طلب الخفة من ثقل ، وثقل الإنسان عقله وهو إمام التواميس الخمسة في كيان الإنسان وهي العقل والدين والنفس والمال والعرض ، فإذا خف العقل بالإستخفاف تغافلاً عنه وتنازلاً عن حكمه تخلفه الطاعة المطلقة لمن يستخف ، وهو الإستحمار الذي يخلفه سائر الأبواب السبع الجهنمية من الإستثمار والإستعمار والإستكبار والاستبداد والاستضعاف ، فالإستحمار وليد الإستخفاف ثم هو أمٌ لسائر الأبواب فإذا خف الإنسان عقله أمام الإستخفاف ، حرماناً عن التعقل أو ابتعاداً عن حكم العقل أصبح كالريشة في مهب الرياح الإستحمارية ، متخلياً عن كيان الإنسانية ككل ، إلى أنزل وأنذل دركات البهيمية اللأشعورية ، وهنالك الطامة الكبرى والمصيبة العظمى ! وكافة المحاولات الفرعونية في حمل قومه على طاعته تختصر في هذه الصيغة : « فاستخف ... » فللمستضعفين أمام الطغاة إحدى حالات ثلاث .

المنعة والإستقامة على موازين العقل والحكمة كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف ، فلا يزيده الإستخفاف إلا قوة وسداداً ، وهؤلاء هم المستضعفون المؤمنون الذين وعدهم الله خلافة الأرض

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٠٦ ح ٦٦ عن نهج البلاغة عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) .

ووراثتها ، حيث لَا يُخَفُّونَ معها يُسْتَخَفُّونَ ، بل ويزدادون ثِقَلًا في الإيمان وتبلوراً في الإيمان .

٢ - سفه وقلة عقل دون فسوق ولا تقصير ، اللهم إلّا في مبادئه، وهنا الطاعة بالإستخفاف واقعة لا محالة ، ولا ذم فيها إلّا قليلاً: « إلّا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم .. (٤ : ٩٩) .

٣ - تخاذلٌ دون ثقُل على عقل ودراية ، بفسق عامد ، رغم إمكانية المنعة والإستقامة : وهم : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » (٤ : ٩١) .

هؤلاء هم المستخفون فسقاً حيث يُخَفُّونَ ، يحتنكهم كل شيطان وهم له مطيعون ، يُخَنُّونَ ظهورهم فهم عليهم راكبون « فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين » (١ : ٢١) فمادة الفسق : الخروج عن حكم العقل والفطرة وعن حكم الله ، تزداد فعالية لما يُسْتَخَفُّ الإنسان عن أثقال الإنسانية فيخف تنازلاً عنها وتخاذلاً : فطاعة مطلقة للمستخف المستحجر ! فاستخفاف الطغاة لهذه الجماهير إستحمار فاستحمار دائب لا حول عنه ، حيث يعزلون الجماهير عن أسباب المعرفة فيتناسونها حتى ينسوها ، فلا يعودون ليبحثوا عنها ، فلما تخلّوا عن المعرفة بأسبابها ألّفوا في روعهم ما يشاءون من بواعث الكوارث فيسهل استخفافهم ويلين سلساً قيادهم فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال حيث يلعبون بهم كالريشة في مهب الريح العاصفة .

ولما انتهت مراحل الإبتلاء إلى هذا الحد من الخفة والبلاء ، وقع هنالك الإنتقام في الأولى قبل الأخرى .

﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ^(٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَثَلًا ^(٥٦) لِلْآخِرِينَ ﴾ .

وهذه سنة الله بالنسبة للمستخفين الفاسقين العائشين على هوامش الفرعنات ، يستدرجهم ملياً يملئ ، ثم يأخذهم بغتة وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله) على ضوء هذه الآية : (إذا رأيت الله يعطي العبد ما شاء وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له ثم تلا هذه الآية) ^(١) .

وترى كيف بإمكان العبد أن يؤسف ربه ، وربنا لا يأسف مهما توفرت عوامل الأسف ؟ لا يعني « آسفونا » هنا إلا أنهم عملوا الأعمال المؤسفة وهو سبب الإنتقام ، وأمثال هذه الأفعال تُجرّد عما لا يليق بساحة الربوبية كما الغضب وأضرابه من تغير الحال حيث (لا يتغير بانغيار المخلوقين) ! فهو تعالى (لا يأسف كآسفنا) ^(٢) « فجعلناهم سلفاً » ماضياً فيه عبرة « ومثلاً » نموذجاً من عواقب الفسوق « للآخرين » كمن أتوا ويأتون بعدهم من الفاسقين ، وهم أمثال في رزايهم وقضايهم كما قومك من هولاء الآخرين .

(١) الدر المنثور ٦ : ١٩ - اخرج احمد والطبراني والبيهقي في الشعب وابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال . . .
(٢) نور الثقلين ٤ : ٦٠٨ في كتاب التوحيد باسناده الى احمد بن أبي عبد الله رفعه الى أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل « فلما آسفونا انتقمنا منهم » قال : ان الله تبارك وتعالى لا يأسف كآسفنا ولكنه خلق اولياء لنفسه يأسفون ويرضون وهم مخلوقون مدبرون فجعل رضاهم لنفسه رضى وسخطهم لنفسه سخطاً وذلك لانه جعلهم الدعاة اليه والادلاء عليه فلذلك صاروا كذلك ، وليس ان ذلك يصل الى الله كما يصل الى خلقه ولكن هذا معنى من قال من ذلك وقد قال ايضاً : من اهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ودعاني اليها . وقال ايضاً : من يطع الرسول فقد اطاع الله ، وقال ايضاً « ان =

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ (٥٧) وَقَالُوا
«أَلْهَتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ» (٥٨) إِنَّ هُوَ
إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ (٥٩) ترى من هنا ضارب المثل
وما هو هذا المثل الذي فاجأ صيداً من هؤلاء ضججاً وضحكاً؟ (١) ثم
احتجوا بما احتجوا جدلاً وخصومة ، فجاءت الإجابة « إن هو إلا عبد
أنعمنا عليه . » : ؟

هل هو المثل المضروب بابن مريم في سورة مريم (عليها السلام) فإنها
المكية الوحيدة التي أنت بذكر عيسى بن مريم ، حيث يُذكر مع جموع من
النبين من ذرية آدم ، وتختتم قصته معهم بأنه عبد أنعم عليه كما هم :
« أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح
ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتينا . . » (٥٨) ثم وفيها ردُّ
على الذين تبنوا المسيح لله « ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه . : وإن

الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » وكل هذا وشبهه على ما ذكرت لك وهكذا الرضا
والغضب وغيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك ولو كان يصل الى المكون الاسف والضجر
وهو الذي أحدثهما وأنشأهما لجاز لقائل ان يقول : ان المكون يبيد يوماً ، لأنه اذا دخله
الضجر والغضب دخله التغير ، فاذا دخله التغير لم يؤمن عليه الإبادة ولو كان ذلك
كذلك لم يُعرف المكون من المكون ولا القادر من المقدور ولا الخالق من المخلوقين تعالى
الله عن هذا القول علواً كبيراً هو الخالق للأشياء لا الحاجة فاذا كان لا حاجة استحال
الحد والكيف فيه فافهم ذلك انشاء الله .

ورواه مثله في اصول الكافي باسناده عن حمزة بن بزيع عنه (عليه السلام) : ..
اقول : بداية الحديث لتوجيه العوام حيث « نا » في « آسفونا » هو الله وليس اولياته الا
بضرب من التأويل أن آسفهم أسف الله ، وذيل الحديث لتوجيه الخواص ان اسفه يجرّد
عن تغير الحال الى عذابه الناتج عن الاسف .

(١) الصِدُّ بالكسر هو الضج الصريخ والضحك وقد يروى كذلك عن رسول الله (صلى
الله عليه وآله وسلم) « الصدود في العربية الضحك ، معاني الاخبار للصدوق بسند
متصل عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي الدر المنثور ٦ : ٣٠ - اخرج ابن مردويه

الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم (٣٦).

فهناك « قومك منه يصدون » : ضجة وضحكة ، فضجة وإنكاراً لما ضرب أنه عبد وليس إلهاً ولا ابنه فلا يُعبد ، وإنما هو حسب النصارى وهم أهل كتاب ، إله أو ابن إله . يُعبد ، ومن ثم ضحكاً : كيف أنت تصدنا عما نعبد من ملائكة وهم آلهتنا^(١) وهؤلاء الكتابيون : يعبدون بشراً « آلهتنا خير أم هو » طبعاً آلهتنا الملائكة ! فانت تصدنا ونحن منك نصداً ! « ما ضربوه لك إلا جدلاً » فالقرآن يضرب ابن مريم مثلاً للتوحيد ، وهم يحولونه إلى مزعمة النصارى مثلاً للشرك ، فمثل الحق يحول إلى مثل الباطل ، ضجة في تحويله وضحكة من تحوله : « آلهتنا خير أم هو » ! وطبعاً آلهتهم - في زعمهم - خير من ابن مريم في زعم النصارى .

وهذا تبرير كتابي في جدلهم الخصوم أن يعبدوا آلهتهم الملائكة من دون الله ! فيأتي الجواب كما لمح له في مريم « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه . » !

مركز تحقيق كتاب توحيد علوم إسلامي

أم إن ضارب المثل هو من هؤلاء لما نزل « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » قال قائلهم للرسول (صلى الله عليه وآله) : خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال (صلى الله عليه وآله) : بل لجميع الأمم ! فقال خصمتك ورب الكعبة ألسنت تزعم أن عيسى بن مريم نبي وتثني عليه خيراً وعلى أمه وقد علمت أن النصارى يعبدونها واليهود يعبدون عزيزاً والملائكة يُعبدون فإذا كان هؤلاء في النار فقد رضىنا نحن وآلهتنا أن نكون معهم ، فسكت النبي (صلى الله عليه وآله) وفرح القوم وضحكوا وضجوا فأنزل الله تعالى « إن الذين سبقتم منكم من آلئلك عنها

(١) الدليل على أن هؤلاء القوم كانوا عبدة الملائكة هنا قوله فيما بعد « ولو شئنا لجعلنا منكم ملائكة » وفيما سبق « وجعلوا الملائكة » (١٩) : وقالوا لو شاء الله ما عبدناهم » (٢٠) .

مُبْعَدُونَ ! ونزلت هذه الآية ايضاً « ولما ضرب ابن مريم : » (١).

وهناك تنقلب الحجة عكس ما مضت « آلهتنا خير أم هو » لعله هو !
فإذا هو في الجحيم فنحن وآلهتنا نرضى ذلك الجحيم !

أو أن ضارب المثل رسول الله (صلى الله عليه وآله) حيث شبه علياً (عليه السلام) بابن مريم كما رواه سادة أهل البيت عن علي (عليه السلام) قال : جئت إلى النبي (صلى الله عليه وآله) يوماً فوجدته في ملاء من قريش فنظر إلي ثم قال : يا علي ! إنما مثلك في هذه الأمة كمثلي عيسى بن مريم (عليهما السلام) أحبه قوم فأفرطوا في حبه فهلكوا وأبغضه قوم فأفرطوا في بغضه فهلكوا واقتصد فيه قوم فنجوا فعظم ذلك عليهم

(١) وفي الدر المنثور ٦ : ٢٠ - اخرج احمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لقريش انه ليس احد يعبد من دون الله فيه خير فقالوا : الست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً وقد عبدته النصرى فان كنت صادقاً فانه كآلهتهم فانزل الله « ولما ضرب ابن مريم مثلاً اذا قومك منه يصدون » قال يضجون وانه لعلم للساعة قال : خروج عيسى بن مريم قبل يوم القيامة ، وفيه اخرج ابن مردويه عن ابن عباس ان المشركين أتوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا له ارايت ما يعبد من دون الله اين هم ؟ قال : في النار قالوا ، والشمس والقمر قال : والشمس والقمر ، قالوا فعيسى بن مريم فانزل الله « ان هو الا عبد انعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبي اسرائيل » .

اقول : وما ذكرناه في المتن تجده في تفسير الرازي ج ٢٧ ص ٢٢١ وفي هامشه : ان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) رد عليه عند ذلك بقوله لابن الزبير « ما اجهلك بلغة قومك ، « ما لما لا يعقل ، وحينئذ فلا تقع على الذين اتخذهم الكفار آله من الانبياء والملائكة والصالحين وانما عني من الاصنام التي عبدوها ، ثم اقول : ان « ما » في « ما تعبدون من دون الله » يخص غير ذوي العقول فلا يشملهم الا بدليل و « ان الذين سبقت لهم منا الحسنى » يستثني الصالحين ! .

وضحكوا وقالوا يشبهه بالأنبياء والرسل فنزلت هذه الآية (١).

فالوجهان الأولان موجّهان بالقرآن أولاً فالأول وثانياً فالثاني ، وهذا الأخير موجّه وعلى هامش القرآن بالسنة (٢) لا أنه المقصود فقط أم بالأصالة ،

(١) رواه في مجمع البيان وفي نور الثقلين ٤ : ٦٠٩ عن روضة الكافي بسند متصل عن أبي بصير قال : بينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات يوم جالساً إذ أقبل أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال له رسول الله (عليه السلام) : ان فيك شبهاً من عيسى بن مريم لولا ان تقول فيك طوائف من امتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك قولاً لا نمر بمجلى من الناس الا اخذوا التراب من تحت قدميك يلتمسون بذلك البركة قال : فغضب الاعرابيان والمغيرة بن شعبة وعدة من قريش معهم فقالوا : ما رضي ان يضرب لابن عمه مثلاً الا عيسى بن مريم فانزل الله على نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) : ولما ضرب ابن مريم مثلاً اذا قومك منه يصدون . . وفي كتاب الخصال في احتجاج علي (عليه السلام) على الناس يوم الشورى قال : قال : نشدكم بالله هل فيكم احد قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) احفظ الباب فان زواراً من الملائكة يزورني فلا تأذن لاحد فجاء عمر فرددته ثلاث مرات واخبرته ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) محتجب وعنده زوار من الملائكة وعدتهم كذا وكذا ثم اذن فدخل فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اني جئت ثلاث مرات غير مرة وكل ذلك يردني علي ويقول : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) محتجب وعنده زوار من الملائكة وعدتهم كذا وكذا فكيف علم بالعدة ، أعانيهم ا فقال : يا علي ! كيف علمت بعدتهم ؟ قلت : اختلفت علي التحيات وسمعت الأصوات فأحصيت العدد قال (صلى الله عليه وآله وسلم) صدقت فان فيك شبهاً من اخي عيسى فخرج عمر وهو يقول : ضربه لابن مريم مثلاً فانزل الله « ولما ضرب ابن مريم مثلاً اذا قومك منه يصدون . » غيري ؟ قالوا : اللهم لا . وفي مناقب ابن شهر آشوب ، قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يدخل من هذا الباب رجل اشبه الخلق بعيسى فدخل علي (عليه السلام) فضحكوا من هذا القول فنزلت هذه الآية :

(٢) أخرج في كفاية الخصام بهذا الصدد عشرين حديثاً (١٣) منه من طريق اخواننا =

وانما تأويلًا يلائم القرآن حيث الجواب عن صيدهم « إن هو إلا عبد » لا يناسب نصاً إلا الأولين ، والأخير يناسب التأويل بتأويل الدليل ! « ما ضربوه لك إلا جدلاً » : إن المثل الذي ضرب بابن مريم نحن ضربناه حقاً وأنت ، وهم ضربوه لك جدلاً « بل هم قوم خصمون » .

فلو كان الجدال بحق وإلى حق فبالتي هي أحسن : « وجادلهم بالتى هي أحسن » وإن كان بباطل وإلى باطل فهي أسوء الجدال ، أم بباطل إلى حق أو حق إلى باطل فهو سيء وليس إلا خصومة للحق^(١).

= والباقية من طرفنا ومن رواه من اخواننا الحافظ أبو نعيم الاصفهاني في كتابه نزول القرآن في علي عن ربيعة بن ناجد عن علي (عليه السلام) انها نزلت في شأنه ، ومحمد بن العباس بسنده عن ابن عباس وعبد الله بن احمد بن حنبل بسنده عن الشعبي وسنده عن علي (عليه السلام) ومحمد بن قاسم بسنده عن ربيعة بن ناجد عن علي (عليه السلام) ، وفي ملحقات إحقاق الحق ٣ : ٣٩٨ ورواه احمد بن حنبل في فضائل الصحابة ١٧٢ والنسائي في الخصائص ٣٩ وعبد الدين الطبري في ذخائر العقبى ٩٢ وابن عبد ربه الاندلسي في عقد الفريد : ١٩٤ وابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة ٩٥ وابن حجر الهيتمي في الصواعق ١٢١ والسيوطي في تاريخ الخلفاء ١١٧ والمتقى الهندى في منتخب كنز العمال بهامش المسند : ٣٤ والمير محمد صالح الكشفي الترمذي في مناقب مرتضى ٥٨ والقندوزى في ينابيع المودة ١٠٩ ، ومنهم سعيد بن الحسين وسفيان بن وكيع وابن عقدة وعبد الله بن احمد وابن الصلت والوكيع واحمد بن القاسم كما في البحار ٩ : ٦٠ - ٦٢ .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢١ - اخرج سعيد بن منصور واحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان عن ابي امامة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا اوتوا الجدال ثم قرأ « ما ضربوه لك الا جدلاً بل هم قوم خصمون » وفيه اخرج سعيد بن منصور عن ابي ادريس الخولاني قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما ثار قوم فتنة الا اوتوا بها جدلاً وما ثار =

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٥٧)

«ان هو الا عبد» لا إله او ابن إله حتى يقاس بأهتكم أيها خير فليس العبد إلا ابن عبد «أنعمنا عليه» بما أنعمنا، كما يُنَّ في مريم «وجعلناه مثلاً» آية بنفسه حيث وُلد دون أب، وآية برسالته وآياتها، مثلاً إلهياً فـ «له المثل الأعلى في السماوات والأرض» والمسيح من المثل الأعلى في الأرض «مثلاً لبني إسرائيل» كحجر الأساس في رسالته ودعوته ثم وللعالمين أجمعين، فنحن جعلناه مثلاً لنا، ثم جماعة جعلوه لنا مثلاً فنسوا المثل وضلوا في المثل ! :

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ (٥٨) ﴿وَأِنَّهُ لَعَلَّمُ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٥٩) ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦٠).

أنتم البشر تعيدون الملائكة لكونهم ملائكة؟ «ولو نشاء» ولن «لجعلنا منكم ملائكة» أن تبدلكم ملائكة، أو نجعلكم في عصمتهم وطهارتهم كملائكة «في الأرض يخلقون» كونهم أناسي من قبل، ويخلف بعضهم بعضاً بالتناسل !

= قوم في فتنه الا كانوا لها حرزاً، وفيه اخرج ابن عدي والخرائطي في مساوي لإخلاق عن أبي امامة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ان الكذب باب من ابواب النفاق وان آية النفاق ان يكون الرجل جَدلاً خَصِماً .
ويروي ابن جرير الطبري في جامع البيان بسند متصل عن أبي امامة قال : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن فغضب غضباً شديداً حتى كأنما صب على وجهه الخل ثم قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فانه ما ضل قوم قط الا اوتوا الجدل ثم تلا (صلى الله عليه وآله وسلم) «ما ضربوه لك الا جدلاً بل هم قوم خصمون» .

إذا فأنتم تعبدون أمثالكم ، ومن بالإمكان تبديلكم بهم .

« وإنه لعلم للساعة » وما هو المرجع لضمير الغائب في « إنه » ؟ هل هو المسيح (عليه السلام) في خارقة ولادته عِلْمٌ للساعة الخارقة عندكم ، وكذلك في سائر خوارقه ولا سيما إحياء الموتى ؟ أو أنه في نزوله آخر الزمان فإنه من أشراط الساعة^(١) ؟ وهو كذلك في كل ذلك ! أو أن القرآن بما هو خاتمة الوحي في آخر الزمان لعلم للساعة ؟ وهو كذلك ! أو أن نزول الملائكة إلى الأرض عِلْمٌ للساعة « لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٠ - أخرجه الفريابي وسعيد بن منصور ومسدد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني من طرق ابن عباس « قال : خروج عيسى قبل يوم القيامة » وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة في الآية قال : خروج عيسى بمكة في الأرض أربعين سنة تكون تلك الأربعون أربع سنين يحج ويعتمر ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : آية للساعة خروج عيسى بن مريم قبل يوم القيامة وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن مثله .

وفي مجمع البيان قال ابن جريح أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم تعال صل بنا فيقول ان بعضكم على بعض أمراء تكرمه من الله لهذه الأمة - أورده مسلم في الصحيح وفي حديث آخر : كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم ؟ وأخرج مالك والشيخان وأبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها ، أقول : وحديث نزول المسيح (عليه السلام) تواتر عن طريق الفريقين وأنه يصلي خلف المهدي (عليه السلام) وفي قوله تعالى : « وإن من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » دلالة قوية على هذا النزول .

الصادقين : ما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا اذا منظرين » (١٥) :
(٨) ؟

كل ذلك عِلْمٌ للساعة فكلٌ محتمل والجمع أجمل على درجاتٍ لهذه
المحتملات « فلا تفترون بها واتبعون هذا صراط مستقيم » !

إنه لعلم للساعة ، لا إله الساعة او الدنيا أَمَّاذا ، وانما مثل للعالمين
يوم الدنيا وعلمٌ للساعة فلا تفترون بها ! « ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم
عدوٌ مبين » .

صدُّ متأكد للشيطان عليكم فـ « لا يصدنكم » وعداء متأكدة له عليكم
بيّنه لكم « إنه لكم عدو مبين » .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ
الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا^(٦١) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ^(٦٢) . فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ^(٦٣) ﴾

بينات عيسى التي جاء بها هي الآيات المعجزة البينة وآيات الإنجيل
وآيات من نفسه المقدسة حيث التربية والعناية الإلهية بيّنة في هذه الثلاث
وإن كانت درجات ، « قال قد جئتكم بالحكمة » وهذه كلها حكمة
والرسالة كلها حكمة عقلية وعلمية وعملية ، تُحكم ما انفصل وفصل بين
الناس ، أو بين الإنسان ونفسه من المشككات « ولأبين لكم بعض الذي
تختلفون فيه » فالكل موكل الى خاتمة الرسالات محمد (صلى الله عليه
 وآله) كما ينطق به القرآن : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء »
(١٦ : ٨٩)^(١) وينطق به الانجيل كما في يوحنا ١٦ : ٧ - ١٥) وما فيه « وإن

(١) نور الثقلين ٤ : ٦١١ عن بصائر الدرجات علي بن اسماعيل عن محمد بن عمرو =

عندي كثيراً أقوله لكم ولكنكم لا تطيقون حمله الآن (١٢) ولكن متى جاء روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق . «^(١) !

ثم الحكمة هي الناحية الإيجابية من الشرعة الانجيلية « ولأين : » من الناحية السلبية التي تتكلف بيان جذور من الخلافات والإنشاقات بينهم « فاتقوا الله » : في سلبياته « وأطيعون » في جكمه الإيجابية ومنها « إن الله هو ربي وربكم » سواء ولا أمتاز عنكم بربوبيته، فأنا وأنتم عبيد رب واحد « فاعبدوه » لا سواء « هذا صراط مستقيم » لا سواء ولكن .

« فاختلف الأحزاب من بينهم » أحزاب مذهبية متخلفة عن شرعة

= الزيات عن عبد الله ابن وليد قال قال لي ابو عبد الله (عليه السلام) : اي شيء يقول الشيعة في عيسى وموسى وامير المؤمنين (عليه السلام) قلت : يقولون ان عيسى وموسى افضل من امير المؤمنين (عليه السلام) قال : أبزعمون ان امير المؤمنين قد علم ما علم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قلت : نعم - ولكن لا يقدمون على اولى العزم من الرسل احداً قال ابو عبد الله (عليه السلام) فخاصمهم بكتاب الله قلت : وفي اي موضع منه اخاصمهم ؟ قال : قال الله تبارك وتعالى لموسى « وكتبنا له في الألواح من كل شيء » علمنا انه لم يكتب لموسى كل شيء وقال الله تبارك وتعالى لعيسى : « ولأين لكم بعض الذي تختلفون فيه » وقال تبارك وتعالى لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) : « وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » .

وفي الاحتجاج للطبرسي عن الصادق (عليه السلام) يستدل بدلاً عنها : وقال لصاحبكم امير المؤمنين (عليه السلام) قل كفى بالله شهيداً ، بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ، ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين « وعلم هذا الكتاب عنده . (١) اوردنا في كتابنا رسول الاسلام في الكتب السماوية بشارات ثلاث من يوحنا ١٤ : ١٦ و ١٥ : ١٦ : ٧ - ١٥ : يبشر فيها المسيح بمجيء بريكليطوس « محمد - احمد » ومن ضمنها انه يرشدكم الى جميع الحق - راجع ص ١٤٦ - ١٥٧ .

الحق، كان من بين هؤلاء اختلفوا في البيئات والحكم والبيان التي جاء بها المسيح ظلياً « فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » بين قائل إنه الله ، وقائل إنه ابن الله ، وقائل بالثالوث ، وقائل بالوهمية المسيح وأمه وآخرين في أخريات من العقائد والطقوس تأتي في طيات آياتها المفصلات^(١).

جاء المسيح بصراح التوحيد والتسامح الروحي والخُلُقِي قبل الشكليات الخاوية التي تخلت عن هذه الروح فحاربه المحترفون الناكرون له وجماعة من المعترفين إياه ، تفريطاً من هؤلاء وإفراطاً من أولاء ، فأصبح بين مَنْ يلعنونه ومن يؤلهونه على مختلف مذاهبهم الفلسفية وسواها ، وبقي القليل ممن وفي لرعاية الحق وهم الموحدون المخلصون حيث اتبعوه وتعرضوا لأنواع العقوبات من قبل الأحزاب !

(١) شرحناها في كتبنا الثلاثة « عقائدنا - المقارنات - رسول الاسلام في الكتب السماوية » : ومن هؤلاء الأحزاب طائفة الصدوقيين التي تولت الكهانة من عهد داود وسليمان وهم حسب احترافهم كانوا متشدين في شكليات العبادات وطقوسها وينكرون البدع وهم مترخصون في ملاذ الحياة ناكرون للقيامة .

وطائفة الفريسيين وكانوا على شقاق مع الصدوقيين ينكرون ذلك التشدد وجحدهم للقيامة ، والسمة الغالبة عليهم هي الزهد والتصوف وفي بعضهم اغترار بالعلم والمعرفة والمسيح ينكر عليهم تلك الخيلاء والشفقة .

وطائفة السامريين وكانوا خليطاً من اليهود والآشوريين تدين بالكتب الخمسة في العهد القديم المعروفة بالكتب الموسوية وتنفي ما عداها من المضافات اليها .

وطائفة الآسين أو الآسينيين وكانوا متأثرين ببعض المذاهب الفلسفية يعيشون عزلة عن سائر طوائف اليهود ويأخذون انفسهم بالشدة والتشدد :

وهناك غير هذه الطوائف نحل فردية شتى وبلبلة في الاعتقادات والتقاليد بين بني اسرائيل الراضخين لضغط الامبراطورية الرومانية الذين يتظرون الخلاص على يد المخلص المنتظر من الجميع .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٦٦) الْأَخْلَاءُ
يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)

« هل ينظرون » - نظراً أو نظرة - أمراً « إلا الساعة » فإنهم ناكرون كافة الإنبيات الغيبية والآيات الإلهية فلم تبق « إلا الساعة أن تأتيهم بغتة » مباغتة مفاجئة تحدث غريباً فهم كانوا يرونها بعيداً ونراه قريباً « تأتيهم » . وهم لا يشعرون « لا واقع الساعة ولا اعتقاد مجيئها ، لا شعورية في بعدين ، عامدة اذ لم يشعروها في حياة التكليف حيث لم يعتبروا ويستدلوا بآياتها ولم تنفعهم مؤشراتنا ، وغير عامدة إذ « لا تأتيكم إلا بغتة » دون خبرة سابقة بزمان وقوعها ، او امارات متصلة بوقوعها ، وانما هي مباغتة « وهم لا يشعرون » ! وان كانت مؤشرة بأشراطها وهم يتغافلونها !

﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٦٧) ترى ولماذا هنا الأخلاء دون الأصدقاء أو الأوداء ؟ علمه لأن الخلقة هي قمة الصداقة والمودة لحد يخل الخليل في خليلة كأنهما نفس واحدة ، أو تخل المودة بينهما وفي كل منها فإذا أصبحت الأخلاء أعداء فمن دونهم أولى بالعداء ! فكل خلة بين الأخلاء نبعت ونبئت على غير تقوى تبوء يومئذ إلى العداء حيث تبئتها الطغوى ، ولماذا إلى العداء دون أن تحبط فلا خلة ولا عداء ؟ لأنها حصلت على ضلال ، ونبئت وقويت على ضلال ، فأصبحت مضللة لكل خليلة ، فلا يتلاحمون عليها يومئذ بل ويتلاومون ويتلاعنون ، يلقي كل على خليلة تبعة ضلاله ، فالخلة التي تجمع بين الأخلاء هنالك تجمع بينهم ، فقد كانت ظاهرها فيها الرحمة وباطنها من قبلها العذاب .

(١) الأخلاء جمع لخليل من الخلقة : ما يغطى به جفن السيف لكونه في خلاها ، او الخلقة : المودة لأنها تتخلل في جوانح المودين وبينهم فلا تبقى فراغاً للعداء .

وهكذا يكون دور كل خِلة واتصال على غير تقوى حيث تبوء إلى عداء ، واما خِلة التقوى فهي تبقى هنالك وتقوى حيث هنالك حياة الربوة والمزينة : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » ! فـ « إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام وقلَّت الأنساب وذهبت الأخوة إلا الأخوة في الله .. »^(١) ألا كل خِلة كانت في الدنيا في غير الله عز وجل فأنها تصير عداوة يوم القيامة^(٢) وللظالم غداً يكفيه عضه يديه وللرجل وشيك وللأخلاء ندامة إلا المتقين^(٣) فـ « اطلب مواخاة الأتقياء ، ولو في ظلمات الأرض وإن أفنيت عمرك في طلبهم فإن الله لم يخلق أفضل منهم على وجه الأرض بعد النبيين (عليهم السلام) وما أنعم الله على عبد بمثل ما أنعم به من التوفيق لصحبته ، وأظن من طلب في زماننا هذا صديقاً بلا عيب بقي بلا صديق »^(٤).

(١) الدر المنثور ٦ : ٢١ - اخرج ابن مردويه عن سعد بن معاذ قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .. وفيه استناده في قوله الى الآية .

(٢و٣) نور الثقلين ٤ : ٦١٢ عن تفسير القمي عن الصادق (عليه السلام) وعن امير المؤمنين (عليه السلام) .

(٤) المصدر ح ٨٣ في مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) ويستند الامام بالآية بعد « لصحبته » .

وفي الدر المنثور ٦ : ٢١ - اخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وحميد بن رنجويه في ترغيبه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب « رضي الله عنه » في قوله « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » ومن طريق اصحابنا القمي بسند متصل عن الحارث عن علي (عليه السلام) قال .. اقول بين الثقلين اختلافات لفظية والمعنى واحد وما يأتي من طريق القمي لانه اضبط واجل : قال في الخليلين مؤمنين وخليين كافرين ومؤمن غني ومؤمن فقير وكافر غني وكافر فقير ، فاما الخليلان المؤمنان فتحالا في حياتهما في طاعة الله تبارك وتعالى وتبادلا عليها وتوادا عليها فمات احدهما قبل صاحبه فاراه الله في منزله في الجنة يشفع لصاحبه فيقول : يا رب =

هنا نعرف ان الحلة المنفية يوم القيامة والشفاعة ليست عن المتقين « من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون » (٢ : ٢٥٤).

يَعْبَادٍ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ

الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِمَا يَتَنَبَّأُ وَكَانُوا

مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصُحُفٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَافٍ وَفِيهَا

مَا تَشْتَهُي الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾

= خليلي فلان كان يأمرني بطاعتك ويعينني عليها وينهايني عن معصيتك فثبتته على ما ثبتني عليه من الهدى حتى تراه ما أريتني فيستجيب الله له حتى يلتقيا عند الله عز وجل فيقول كل واحد منهما لصاحبه : جزاك الله من خليل خيراً كنت تأمرني بطاعة الله وتنهايني عن معصيته ، واما الكافران فتخالاً بمعصية الله وتبازلاً عليها وتواداً عليها فمات احدهما قبل صاحبه فأراه الله تبارك وتعالى منزلته في النار فقال : يا رب خليلي فلان كان يأمرني بمعصيتك وينهايني عن طاعتك فثبتته على ما ثبتني عليه من المعاصي حتى تراه ما أريتني من العذاب فيلتقيان عند الله يوم القيامة يقول كل واحد منهما لصاحبه : جزاك الله من خليل شراً كنت تأمرني بمعصية الله وتنهايني عن طاعة الله ثم قرء الآية ... اقول : واخرج مثله في المعنى عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال : وذكر لنا ان نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقول الاخلاء اربعة مؤمنان وكافران ..

وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾
لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٨﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ
فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٩﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ
مُبْلِسُونَ ﴿٨٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٨١﴾
وَنَادَوْا بِمَمْلِكٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ ﴿٨٢﴾
لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٨٣﴾
أَمْ أَمْرُكُمْ أَمرٌ أَفْئَانًا مَبْرُومُونَ ﴿٨٤﴾ أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ
سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ
إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴿٨٦﴾ سُبْحَانَ
رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٧﴾
فَذَرَهُمْ يَخْضَوْنَ وَيَلْعَبُونَ حَتَّىٰ يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
يُوعَدُونَ ﴿٨٨﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ

إِنَّهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
الشفاعة إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِنْ
سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾
وَقِيلِهِ يَرْبِ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ
عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا
وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ .

إلى هنا كانت التهديدات تتلاحق على غير العباد ، ومن هنا البشارات
المتلاحقة للعباد « يا عباد » ! صيغة سيغت في سائر القرآن لعباد الله
الصالحين : « فبشر عباد » (٣١ : ١٧) عباد منحسرون في الله منحسرون
عما سوى الله « لا خوف عليكم اليوم » مما يحصل ، « ولا أنتم تحزنون » مما

حصل قبل اليوم ، فحاضرکم لا يُخيف وماضيکم لا يُحزن ، حيث الإيمان كان قيد الفتك، والإسلام بعده خروج عن أسر الهوى إلى حرية الهدى .

وترى ما هو الإسلام في تداومة طول حياة الإيمان « وكانوا مسلمين » والإيمان حاصل قبله بداية الإسلام ، والإسلام هو دوماً قبل الإيمان ؟

هنالك إسلام قبل الإيمان ولما يدخل الإيمان في القلب ، وهو الإسلام الظاهر على اللسان أم وعلى الأركان ، ومن ثم إيمان حيث يدخل الإسلام في الجنان ، ثم هنالك اطمئنان للإيمان الإسلام في القلب يعيشه المؤمن طول حياة الإيمان ، إسلاماً لوجهه كل وجهه لله « ومن يسلم وجهه لله وهو مؤمن فقد استمسك بالعروة الوثقى » (٣١ : ٢٢) .

إذا فالإسلام الثاني هو ثني الإيمان وكماله وهو أحسن الدين « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » (٢ : ١١٢) وعلى هذا الضوء فالرسول (صلى الله عليه وآله) وهو أول العابدين هو أول من أسلم « قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم » (٦ : ١٤) ١ .

وهناك سلبية الخوف الحزن من سمات « الذين آمنوا وكانوا مسلمين » فلرب مؤمن لم يسلم فعليه خوف وحزن قدر ما لم يسلم رغم إيمانه « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » لا يخلصون لله ويسلمون ! .

ويا لهذا الخطاب الحنون من عطف منون أن يخاطبنا ربنا بنفسه دون وسيط كأننا من رسله ، وتشريفنا بعبوديته الخاصة وهو أعلى تشريف كما « أسرى بعبده » ومن ثم إضافة ضيافته « لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » بداية الورود ولما ، ولكيلا يطمع غيرهم فيتحسرون ، وليطمح المؤمنون يواصف « عباد » بـ « الذين آمنوا وكانوا مسلمين » وثم أمر بالدخول في ضيافته للمؤمنين الأصلاء وأتباعهم :

﴿ اَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَازْوَاجُكُمْ يُخْبِرُونَ ﴾^(١) تسرون سروراً يشمل أعطافكم ويبدو عليكم الحبور والسرور^(٢) ترى هؤلاء العباد الصالحون يدخلون الجنة بما قدموا ، فلماذا أزواجهم ؟ فهل هن مؤمنات كما هم مؤمنون ؟ ف « ادخلوا الجنة » تشملهن ، حيث « عباد .. الذين آمنوا وكانوا مسلمين » تشمل أناثهم كذكرانهم سواء ! وإلا ؟ فكيف تدخل غير المؤمنات مع الأزواج المؤمنين جنتهم ! وهنالك الصلوات منقطعات إلا صلوات إيمان ، لا خللات ولا شفاعات ولا أنساب ولا أية صلوات إلا للمتقين !

الجواب أن الأزواج هنا الأقران في الإيمان إلا أنهم أتباع ، سواء أكانوا زوجاتهم أم الأغارب ، ذكراناً وأنثاً ، فهم كلهم من أزواجهم : القرناء الأتباع كما في الذريات : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين » (٥٢ : ٢١)^(٣) ، كما وفي اهل النار : « أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون .. من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم » (٢٧ : ٢٣)

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٤)

« ويطوف عليهم ولدان مخلدون . باكواب وباريق وكأس من معين »

(١) الحبور هو السرور الذي يظهر اثره وحباره في الوجه والحجرة الزينة وحسن الهيئة . وفي نور الثقلين ٤ : ٦١٣ ح ٨٥ في روضة الكافي عن ابي عبد الله (عليه السلام) انه قال لا ي بصير يا ابا محمد ! صرتم عند اهل هذا العالم شرار الناس وانتم والله في الجنة تحبسون وفي النار تطلبون وفي رواية بصائر الدرجات عنه (عليه السلام) اضافة « فلا توجدون » .

(٢) راجع سورة الطور حول الآية في الفرقان .

(٧٦ : ١٩) هم آمنٌ ذا ؟ من ذرياهم وأزواجهم ! « بصحاف » : قَصَع
أو أصغر « من ذهب » وما أَلطفها وأسمأها « وأكواب » جمع كُوب : كوز لا
عروة له ، تلك للطعام وهذه للشراب .

ثم وكنعيم شامل في بعدين - ١ - « وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ
الأعين - ٢ - وأنتم فيها خالدون » ! إن لأسفل أهل الجنة فوق ما نتصوره
من نعيم مقيم فضلاً عما فوقهم^(١) وترى « ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين »
تعم كل المشتريات والملاذات ؟ « وهم فيها اشتهدت أنفسهم خالدون »
(٢١ : ١٠٢) « ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون »
(٤١ : ٣١) ؟ !

أقول : نعم حيث الأنفس هناك طيبة لا تشتهي إلا الطيبات دون
شقاء ولا عناء ، فإذا اشتهى ولداً لم يحمل حمل التوليد والتربية ، ولا الوالدة
حمل الحمل ، فقد يخلق الله له ما يشتهي من دون حمل ولا ولادة^(٢) أم بهما

مركز تحقيق وتكميل علوم إسلامي

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٢ - أخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال قال رسول الله (صلى
الله عليه وآله وسلم) ... ان ادنى اهل الجنة منزلة واسفلهم درجة لا يدخل بعده احد
يفسح له في بصره مسيرة عام في قصور من ذهب وخيام من لؤلؤ ليس فيها موضع شبر
الا معمور يغدى عليه كل يوم ويراح بسبعين الف صحيفة في كل صحيفة لون ليس في
الآخر مثله شهوته في آخرها كشهوته في اولها لو نزل به جميع اهل الارض لوسع عليهم
عما اعطى لا ينقص ذلك مما اوتي شيئاً .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٦١٣ ح ٨٧ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن الحجة القائم
(عليه السلام) وفيه سئل (عليه السلام) عن اهل الجنة هل يتوالدون اذا دخلوها ام
لا ؟ فاجاب (عليه السلام) ان الجنة لا حمل فيها للنساء ولا ولادة ولا طمث ولا نفاس
ولا شقاء بالطفولية وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين كما قال الله سبحانه فاذا اشتهى
المؤمن ولداً خلقه الله عز وجل بغير حمل ولا ولادة على الصورة التي يريد كما خلق آدم
(عليه السلام) عبرة .

دون حمل ولا عناء ، ولا طول زمان^(١) تلك الأنفس لا تشتهي ذوات البعل من نساء الجنة ، إذ تنهياً لها ما تشاء ولا تشاء دعاة ولا تحتاجها أماً من مشتبهات كاذبة أم ظالمة ، وإنما طيبات مِلذات دونما عناء ولا تنازعات وايداعات ! إذ « يُخْرَجُ أَصْغَانَهُمْ » (٣٧ : ٤٧) وليست الجنة دار المنازعات والمشاجرات فـ « فيما اشتبهت أنفسهم خالدون » دونما دنائة في خيانة واعتداء على الآخرين ، ولا ابتغاء شهوة رذيلة ، فكلها فضيلة لا تحوي محرمات ذاتية والمحرمات المصلحية لا مجال لها في الجنة حيث النعمة المستطابة المتوفرة هناك لا تسمح لشهوة كاذبة أماً في غير فضيلة !

وهناك احاديث عن الرسول (صلى الله عليه وآله) يبين فيها مدى المشتبهات والمِلذات في الجنة أنها لا تقف لحد إلا أنها كما تطيبه النفوس الطيبة^(٢).

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ^(٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ^(٧٣) ﴾

« تلك الجنة التي نورث من عبادنا كان تقياً » (١٩ : ٦٣) « ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » (٧ : ٤٣) .

= اقول : نفي الولادة هنا يعني الولادة الصعبة وشقاء الطفولة وكما في حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) التالي :

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٣ - اخرج احمد وهناد والدارمي وعبد بن حميد والترمذي وحسن وابن ماجه وابن المنذر وابن حبان والبيهقي في البعث عن ابي سعيد الخدري قال : قلنا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ان الولد من قرّة العين وقمام السرور فهل يولد لاهل الجنة ؟ فقال : ان المؤمن اذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضع وسنه في ساعة واحدة كما يشتهي .

(٢) راجع الدر المنثور ٦ : ٢٣ - ٢٤ :

هنا ميراث للمستضعفين المتقين يوم الدنيا « وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها » (٧ : ١٣٧) « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » (٧ : ١٢٨) ويعني إخراج الأرض من حكم المستكبرين وتحويلها للمستضعفين ، فهل هكذا يورثون الجنة ولا شركة فيها ولن ، فضلاً عن أن المستكبرين كانوا زمناً محتليها حتى تحول إلى المستضعفين ؟ وليس الميراث إلا انتقالاً للدولة أم دولة أم ماذا من شخص أو اشخاص إلى آخرين !

علّه لأن الله تعالى خلق كلاً من الجنة والنار على سعة العالمين ، فأهل الجنة يورثونها بتقواهم ، وأهل النار يُحرمونها بطغواهم ، وكان لهم فيها أمكنة ودور ، وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله) : « ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فالكافر يرث المؤمن منزله في النار والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة وذلك قوله « وتلك الجنة .. » (١) .

كما وان ما يتركه الميت هو لكل ولده ويحرم الولد الكافر ويرثه في نصيبه الولد المؤمن ، فان آمن الكافر قبل القسمة يؤتاه نصيبه ، فمن مات مؤمناً دخل الجنة وأورث ما كان لغير المؤمن ، وأما من يموت كافراً فلات حين مناص إذ فات زمن الخلاص وقد كانوا داخلها لو آمنوا !

« لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » : كثيرة لا تفتى بأكلها بل « منها » تلميحاً مليحاً أنها باقية لا تنفذ مهما كثر الأكل والأكلون !
 ﴿ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿ (٧٥)

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٣ - اخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال :

أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة، والمجرم هو ذو جرم : أن سته في الحياة هي قطع ثمرة الحياة وبترها ، فلا تفيد يوم الأخرى ، ولا الدنيا إلا قضاء شهوات ، هم : « في عذاب جهنم خالدون » : ماكثون طويلاً قدر إجرامهم « لا يفتر عنهم » ما يستحقونه « وهم فيه مبلسون » : آيسون هنا ساكتون عن الخروج وتفتر العذاب ، فإنهم من الأبدن : أبد النار ، وهل ينقضي منهم عمر ؟ أو لا ينقضي منهم عمر أبداً ؟^(١) قضية العدل والرحمة الإلهية والجزاء الوفاق لأخلد الخالدين وهم الأبدون أن يفنوا بفناء النار ، وعدم الفناء فيما يروى يعني مع بقاء النار حيث الأدلة القاطعة تدلنا على فناء النار بمن في النار !

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾^(٧٦) حيث خُلدوا في جهنم بما ظلموا ، وأما إذا ظلوا فيها إلى غير نهاية ، وهم بأجرامهم لهم نهاية ، فإنه ظلم بجزاء غير وفاق ، فنفي الظلم هنا في خلود النار وإبلاسه في النار دليل لا مرد له على فناء النار ففناء من في النار .

﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُثُونَ ﴾^(٧٧) : صيحة متناوذة من مكان سحيق ، لا طلباً للبراءة فهم عارفون ألا براءة لهم ، ولا تخفيفاً فإنهم مبلسون ، وإنما يصيحون مستغيثين في طلب الهلاك السريع

(١) نور الثقلين ٤ : ١٤ ح ٨٩ القمي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) « وأما أهل النار فخلدهم في النار واثق منهم الأقدام وغل منهم الأيدي إلى الاعناق والبس أجسادهم سراويل القطران وقطعت لهم منها مقطعات من النار هم في عذاب قد اشتد حره ونار قد أطبق على أهلها ما يفتح عنهم أبداً ولا يدخل عليهم ريح أبداً ولا ينقضي منهم عمر أبداً العذاب أبداً شديد والعقاب أبداً جديد لا الدار زائلة فتفى ولا آجال القوم تقضى » أقول : عدم زوال الدار هنا يعني قبل زوال الأعمار ، وعدم انقضاء الآجال يعني قبل فناء النار .

الذي يريح فلا يحسوا بعدُ عذاباً، أم قضاء الخروج دون مكوث أماذا غير المكوث ، ولماذا لا يطلبون الرب دون وسيط ، إذ « قال اخسثوا فيها ولا تكلمون » (٢٣ : ١٠٨) « كلأ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » (٨٣ : ١٥) ! و « مالك » ليس إلّا هنا وفي « مالك يوم الدين » وهو هنا مالك النار بما ملّكه الله كما يراه ، فلا يملك لأهل النار أو عليهم حكماً إلّا من الله ، لذلك يطلبون قضاءهم منه من ربه ، وفي « ربك » هنا تلميحاً بهذه الأصالة في ربوبية النار ، وأخرى أنهم يرونها منقطعين عن الرب و « نادوا ... ربك » وثالثة كأنهم يحاكون ما كانوا عليه يوم الدنيا من نكران ربوبيته العامة أم أصلها ، فجاء الجواب الحاسم دون تأخير « إنكم ماكثون » فلا خروج عن النار ، فإنهم الذين لا يخرجون عن النار مهما فنوا بفناء النار !^(١) وقد يعني المكوث هنا الخلود أبداً وغير آبد ، فالإبلاس ايضاً إياس عن تفرّ العذاب وعن الخروج قبل أمده أو مطلق الخروج ، وليناسبه قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ (٧٨)

فالأكثرية الكارهة للحق من أهل النار هم الأبدون دون خروج ، والأقلية غير الكارهة ، بل المضلّلة تقصيراً في تحري الحق ، دون كراهة للحق فيرفضوه كراهية ، ولا محبة له فيتحرّوا عنه حباً ، هذه القلة كافرة وفاسقة تحلّد في النار دون أبدي ، فإنهم كانوا على هوامش الضلالة ، لا أصلاء ولا دعاة إليها إلّا جهلاً دون كراهية وعناد للحق ! :

وهذه قضية عدله سبحانه ألاّ يسوي بين أهل النار كما لا يسوي بين

(١) فمن أهل النار من يخرج قبل فناء النار وهم غير المؤبدين من أهل النار ، وهنا المعنيون بالمجرمين هم المؤبدون لا كل أهل النار .

أهل الجنة ، فلكلّ ما أحسن قدره ، وعلى كلّ ما أساء قدره ولا يظلمون
 فتيةً ١ : ولا نجد أكثرية كارهة للحق يوم الدنيا : وإن كان « أكثرهم لا
 يعلمون الحق فهم معرضون » (٢١ : ٢٤) اللهم الأكثرية خاصة « أم
 يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون » (٢٣ : ٧٠)
 فالأكثرية الكارهة للحق هنا هي من بين من « يقولون به جنة » لا كل
 الناس ولا كل الكافرين ، فطالما الأكثرية من الناس غير شاكّة ، فهي
 جاهلة فاسقة كافرة لا تؤمن وهي مضلّة عن سبيل الله أم آية دنائة
 وانجراف ، ولكننا القليل منها كارهة للحق « وجحدوا بها و استيقنتها
 أنفسهم ظلماً وعلواً » فهم مضللون والكثير منهم يجهلون فيضلّون
 « أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » إعراضهم عن الباطل إذ تصوّر
 لهم الحق بصورة الباطل !

وقد يعني « كم » في « أكثركم » عامة المكلفين ، فأكثرهم متخلفون عن
 فطرة التوحيد ، فهم له ولسائر الحق كارهون ؟ إلا أن « كم » هنا يخص
 المنادين مالكاً في الجحيم ، والأكثرية ليسوا للحق كارهين ، بل هم
 الضالون ، وقليل منهم مستكبرون وهم للحق كارهون ، وكثير مستضعفون
 ضالون بإضلالهم .

وهل إن « جئناكم » من كلام « مالك » ؟ ولم يكن من الرسل ، ولا
 وسيطاً في وحي الرسل ! أم من الله ؟ وهم « عن ربهم يومئذ لمحجوبون
 (٨٢ : ١٥) ! اللهم إلا في خطاب تبكيت ! أو أن مالكاً ينقله
 كـ « إنكم ماكثون » عن الله ؟ أم ليس « جئناكم » إطلاقاً من الله ، فإنه
 مصدر الحق لا الجائي به^(١) و « جئناكم » يتطلب مجيئاً منه وهو الله وجائياً به

(١) لا نجد المجيء بالحق في القرآن كله إلا في رسل الله ، الذين يبعثون بالحق من عند
 الله .

وهم رسل الله ، إذا فد « جئناكم » ليست إلا من رسل الله ا .

﴿ أَمْ أُبْرِمُوا أَمْراً فَلَانَا مُبْرِمُونَ ﴾ (٧٩)

« أم » عطف على محذوف لا يهم ذكره وقد يعرف من المعطوف كـ
أكذبتناهم في إنذار العذاب « أم » إذ صدقنا فهم « أبرموا أمراً » فلا
يخافون العذاب بما أبرموا ، من كيد يريدونه : « أم يريدون كيداً فالذين
كفروا هم المكيدون » (٥٣ : ٤٢) أو مكر بالرسول في دار الندوة :
« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر
الله والله خير الماكرين » (٨ : ٣٠) أم أي إبرام في أي أمر خلاف الحق في الدنيا
والآخرة فإن الله يُبرم الحق ويبطل الباطل إن الباطل كان زهوقاً ! كما أبرموا
أمر الخلافة الإسلامية في غير أهلها فأبرمها الله في أهلها (١) !

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ
يَكْتُمُونَ ﴾ (٨٠)

مركز تحقيق وتفسير علوم

(١) نور الثقلين ٤ : ٦١٥ ح ٩٢ في اصول الكافي بسند متصل الى عبد الله بن كثير
عن ابي عبد الله (عليه السلام) في قول الله تعالى : « ان الذين ارتدوا على ادبارهم من
بعد ما تبين لهم الهدى » فلان وفلان وفلان ارتدوا عن الايمان في ترك ولاية امير المؤمنين
(عليه السلام) قلت : قوله تعالى : « ذلك بانهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله
سنطيعكم في بعض الامر » ؟ قال : نزلت فيهما والله وفي اتباعها وهو قول الله عز وجل
« ذلك بانهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله في علي سنطيعكم في بعض الامر » قال :
دعوا بني امية الى ميثاقهم ألا يصيروا الامر فينا بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)
ولا يعطونا من الخمس شيئاً وقالوا : ان اعطيناهم اياه لم يحتاجوا الى شيء ولم يبالوا ان
لا يكون الامر فيهم فقالوا : سنطيعكم في بعض الامر الذي دعوتونا اليه وهو الخمس
أن لا نعطيهم منه شيئاً وقوله : « كرهوا ما نزل الله » والذي نزل الله ما افترض على
خلقه من ولاية امير المؤمنين (عليه السلام) وكان معهم ابو عبيدة وكان كاتبهم فانزل
الله : « ام ابرموا أمراً فانا مبرمون - ام يحسبون انا لا نعلم سرهم ونجواهم الآية .

حيث « قال واحد منهم ترون الله يسمع كلامنا فقال واحد إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع فنزلت : أم يحسبون ؟ ^(١) » .

لا فحسب أنا نسمع سرهم ونجواهم ، بل « ورسلنا لديهم يكتبون » من « كرام كاتبين ، يعلمون ما يفعلون » ومن أنبياء شهود ، ومن الجوارح والأرض بفضائها ، رسل إلهية تكتب كل حسبها الأقوال والأعمال كلها والنيات !

و « لديهم » يعني رسلنا الكائنين لديهم ، يكتبون لديهم سواء أكانت رسالة تكوينية كرسل الأعضاء والأجواء ، أم تدوينية علماً أماذا من تسجيل الأعمال !

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ ^(٢)

آية يتيمة غرة منقطعة النظير في سائر القرآن كثرت في تفسيرها القيلات والإحتمالات ! ندرسها وسواها في تساؤلات حتى يتبين الحق على ضوء الدلالات القرآنية والسنة وما تتجملها الآية لفظياً ومعنوياً أو لا تتحمل وما هو عنوان بين ذلك ، والذي يهمننا هو كشف الرباط بين جملي الشرطية « إِنْ كَانَ .. فَأَنَا .. ؟ »

يا ترى « إِنْ » نافية تعني لم يكن للرحمن ولد فأنا أول العابدين الموحدين له أن ليس ولدٌ معه يُعبد ؟ وإن النافية لا تدخل على فعل ! وعند نفى الولد فلا فرق في توحيد العبودية بين أول العابدين وسواه ! ^(٣) ثم

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٣ - اخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال بينا ثلاثة بين الكعبة والستارها قرشيان وثقفي او ثقفيان وقرشي فقال واحد منهم ترون ..
(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٤ - اخرج ابن جرير عن زيد بن اسلم قال هذا كلام العرب ان كان للرحمن ولد ، اي لم يكن .

والمناسب لهذا النفي اثبات الأوليّة في العقيدة لا العبادة ، ومناسبة أخرى
« و » بدل « ف » إذ لا تفريع في « إن » النافية !

أم إنها شرطية والعابدين تنفي العبادة بأنها هنا من « عَبد » إذا اشتدت
أنفَقَهُ ، فإن كان له ولدٌ تولد عن ذاته ، فهو والدٌ كسائر من يلد ،
فمتجزئٌ فمحدودٌ كسائر الخلق ، فليس إذاً إلهاً يُعبد فأنا أول المتأنفين
لعبادته ، ولأنني أعبد مخلصاً فليس له ولدٌ ؟ ولكن العابدين بمعنى
الأنفين ، وإن كانت لغة ولكنها شاذة ، وذكرها دون قرينة تصرفها عما
يُعرف غير فصيح ولا صحيح ، وإن كان المعنى في نفسه . من
الصحيح !^(١)

أم إنها شرطية والعابدين هم العابدون ، ف « إن كان للرحمن ولد » كما
تقولون « فأنا أول العابدين » لهذا الولد ، فإني العارف بوالد وما ولد قبلكم
وقبل كل أحد ، فإذا لا أعبد رحماناً هكذا ولا ولداً ، فليس إذاً للرحمن
ولد ؟ والمناسب لموقف صليب هكذا « لو » الإمتناعية لا « إن » المجوّزة كلا
النفي والإثبات ! « فأنا أول العابدين » ترمي إلى اثبات قاطع مطلق أنه
أول العابدين !^(٢)

(١) نور الثقلين ٤ : ٦١٦ ح ٩٥ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين
(عليه السلام) حديث طويل يقول فيه : قوله : ان كان للرحمن ولد فأنا أول
العابدين « اي : الجاحدين والتأويل في هذا القول باطنه مضاد لظاهره .
اقول : مضادة الباطن للظاهر في القرآن البيان غير مقبولة حيث لا تضاد فيه لا ظاهراً
ولا باطناً ، فليس هذا من كلام علي (عليه السلام) وقد يروى مثله عن ابن عباس ،
كما في الدر المنثور ٦ : ٢٣ - اخرج الطسقي عن ابن عباس ان نافع الأزرق قال له
اخبرني عن قوله عز وجل « فأنا أول العابدين » قال : انا أول متبريء من ان يكون لله
ولد .

(٢) المصدر ح ٩٦ في تفسير علي بن ابراهيم في الآية يعني أول القائلين لله عز وجل أن
يكون له ولد .

أم « إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » للوالد دون ما ولد ؟ حيث التسوية بين والد وما ولد ظالمة متهتكة ؟ وهو يناسب « لو » ولا تناسبه أولية العبادة ولا أصلها حيث الرحمان الوالد لا يُعبد !

أو « إن كان للرحمن ولد » دون ولادة ذاتية ، وإنما تكريماً لشرف العبودية القمة كما المسيح وعزير والملائكة - زعم المتبنين لله - كانوا أعبد من عبد الرحمان فاتخذهم ولداً « فأنا أول العابدين » في رتبة العبودية^(١) وكما أنني أول في درجات العصمة والولاية والرسالة بين العالمين، إذاً فأنا أول من يتخذ ولداً لهذه الكرامة العليا ؟ ولم يوح اليّ ولا لمحة من هذه الولادة ، ولم أدع ولن لمحة منها ، فلا ولادة هكذا لمن دوني في كرامة العبودية وكما : « قالوا اتخذ الرحمان ولداً سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين » (٢١ : ٢٩) .

وفي هذا الوجه الوجه ليست الجملة شرطية كاملة، جزاءها « فأنا أول العابدين » بل هي وصلية ، فإنما « أول العابدين » يهدم صرح هذه الولادة التكريمية لمن ادعيت له ، و « إن » الوصلية هنا دون « لو » الشرطية مسaire في الحوار التي تأتي لهم بكل بوار وخسار ! وهذا هو المعنى الأصل ، ثم الولادة الذاتية عن الرحمن ، كذلك هي منفية حيث « أنا أول العابدين » للرحمان العارفين وحيه ، ولا أعرف له وحيّاً يسانده ، فإنما يعانده ، فليس إذاً للرحمن ولد .

(١) فهذه الأولوية ليست زمنية ولا عددية وإنما عُدديّة رتبة حتى تصلح هدماً لصريح « ان كان للرحمن ولد » !

هذا وما يليه من صحيح المعاني التي لا تُعنى كلٌ بمفردها ، قد تعنيها الآية كلها ، دون ما لا يصح والله أعلم ^(١).

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ^(٨٢)

سبحانه أن يلد أو أن يتخذ ولداً وهو رب السماوات والأرض ورب العرش دونما شريك ، سبحانه عما يصفون وتعالى عما يشركون .

هناك ربوبيتان للرب الواحد ، ربوبية الخلق : «رب السماوات والأرض» وهو تعبير عن الخلق كله ، وربوبية التدبير: «رب العرش» : «إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون» (١٠ : ٣) «وهو وصف عرش الوجدانية عما يصفون» ^(٢).

إذا فما لمن دونه من خلقه الذين هم في تدبيره مهما سُمي ولداً أمّاذا رجاً بالغيب وكذباً !

﴿فَذَرَهُمْ خَوْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ ^(٨٣)

(١) فـ «إن» بين احتمالات ثلاث : نافية - شرطية - وصلية و «كان للرحمن ولد» بين احتمالين : ولادة ذاتية وتشريفية ، و «فانا أول العابدين» بين إيجابية العبادة وسلبيتها ، وكل هذه الوجوه عليها معنية على مختلف مراتبها والأصل فيها ما رجحناه وعلى هامشه سائرهما إلا غير الصحيح معنوياً أو أدبياً ، اللهم إلا ضمن الصحيح فيها ، فـ «إن» النافية وإن كانت لا تأتي قبل الفعل ولكنها ضمن شرطيتها ووصليتها تأتي قبل الفعل - تأمل :

(٢) نور الثقلين ٤ : ٦١٧ ح ٩٧ في كتاب التوحيد بإسناده إلى حنان بن سدير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث طويل ذكر فيه العرش وقال : إن للعرش صفات كثيرة =

ولما تصل الحجاج إلى ذلك الحد من اللجاج « فذرهم » واتركهم « يخوضوا » أغواراً مظلمة من تلكم الهرطقات « ويلعبوا » في خوضهم وكل حياتهم كأطفال « حتى يلاقوا يومهم » يوم الموت ويوم القيامة وهما يوم واحد لوحدة النشأة مهما كانا يومين لاختلافهما في الحدة « الذي كانوا يوعدون » : « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره .. » (٦ : ٦٨) « قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » (٦ : ٩١) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (٨٤)

هذه الآية تنفي مزعمة الإلهين أحدهما إله السماء وثانيهما إله الأرض ، وتنفي أيضاً كونها مكاناً لإله واحد إذ ليس له مكان ، فالوحيته - لا ذاته - تضم الأرض والسماء على سواء^(١) لا أنه في أحدهما ويحكم فيها وفي

= مختلفة له في كل سبب وضع في القرآن صفته على حدة يقول فيه ، فمن اختلاف صفات العرش انه قال تبارك وتعالى : « رب العرش عما يصفون » وهو وصف عرش الوجدانية عما يصفون ، وقوم وصفوه بيدين فقالوا : يد الله مغلولة ، وقوم وصفوه بالرجلين فقالوا : وضع رجله على صخرة بيت المقدس وارتقى الى السماء ، وقوم وصفوه بالأنامل فقالوا : ان عمداً (صل الله عليه وآله وسلم) قال : اني وجدت برد انامله على قلبي ، فلمثل هذه الصفات قال : « رب العرش عما يصفون » يقول : رب المثل الأعلى عما به مثله والله المثل الأعلى الذي لا يشبهه شيء ولا يوصف ولا يتوهم فذلك المثل الأعلى .

(١) نور الثقلين ٤ : ٦١٧ ح ٩٨ في اصول الكافي علي بن ابراهيم عن ابيه عن ابن ابي عمير عن هشام بن الحكم قال قال ابو شاذان الديصاني : ان في القرآن آية هي قولنا ، قلت : وما هي ؟ فقال « وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله » لم ادر بما اجيبه فحججته فخبرت ابا عبد الله (عليه السلام) فقال : هذا كلام زنديق خبيث إذا رجعت اليه فقل : ما اسمك بالكوفة ، فانه يقول : فلان - فقل له : ما اسمك =

الأخرى ، أم هو فيهما جميعاً ، وإنما « في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم » فيهما « العليم » بهما سواءً ، يحكم فيهما هو لا سواء ، ويعلم ما فيهما وحده لا سواء ، أفلا أن المسيح أو سواء إله الأرض ولادة أم وراثة والله إله السماء كما يهرف المسيحيون في صلاتهم « ليأت ملكوتك . في الأرض كما هو في السماء » وترى من يلتبسونه أن يأتي بملكوت الله إلى الأرض كما هو في السماء ؟ ولا أن الملائكة آلهة السماوات وهو إله الأرض ، فما من الوهة في الخلق والتدبير والعبادة إلا لله .

فهذه الآية تجرف ما يهرفه ويخرفه المقتسمون للالوهية إلى أقسام الكون ، أم يَكُونُون وَيُسْكِنُون إله السماوات والأرض في السماوات أو الأرض ، وإنما تمكيناً للوهيته في الكون كله دون تمكّن لذاته في الكون كله ، فإنما حكمته النافذة وعلمه الشامل يديران الكون ويدبرانه ، فالمدير هو الخالق والخالق هو المدير ، دون فرق بين كائن وكائن ، ودون تمكّن في أي كائن !

﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٨٥)

« تبارك » : تعظيم وتسامي « الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما » حيث يملكها ، وما بينهما ثم لا يملك ولا ملك سواهما « وعنده » لا سواء « علم الساعة » وهي المنزل الأقصى للسالكين « وإليه » لا سواء « ترجعون » ومن إليه الرجوع فإليه التدبير ، ومن إليه التدبير فله الربوبية ،

= بالبصرة ؟ فانه يقول : فلان ، فقل كذلك الله ربنا في السماء إله وفي الأرض إله وفي البحار إله وفي القفار إله وفي كل مكان إله ، قال : فقدمت فاتيت ابا شاكرا فاخبرته فقال : هذه نقلت من الحجاز ا .

فهو متبارك عما يصفون بهذا المثلث المجيد من شئون الألوهية !

﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾^(٨٦) ملائكة أو أنبياء أو الجن أم أيأ كانوا من دونه ، فهم لا يملكون الشفاعة التي ليست إلا بأذنه وتجليكه « إلا من شهد بالحق » : بحق الله في توحيدِهِ ويحق العبودية لنفسه ، وبحق الشفاعة لنفسه ، وبحق للمشفع له وهو من ارتضى الله دينه « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » (٤١ : ٢٨) « وهم يعلمون » : شروط الشفاعة في ميزان الله ، ويعلمون حقيقة حال المشفع لهم أنهم أهل لأن يشفع لهم ، إذا فقلوه في الشفاعة مأذون وصواب : « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » (٧٨ : ٣٨) !

وأما الذين عبدوا إذ عبدوا لأنفسهم ودعوا فلا يشفعون ولا يشفع لهم كأمثال فرعون الطاغية ، ثم الذين عبدوا ولم يعبدوا من الصلحاء ، فمنهم من يملك الشفاعة إذ « شهد بالحق وهم يعلمون » ومنهم من لا يملكها ويملك أن يشفع له لأنه من « من ارتضى » ثم من الأشقياء الذين عبدوا دون أن يدعوا أو يرضوا من لا يصلح أن يشفع له ، ومن ثم غير العقلاء من الأصنام والأوثان فسوالب بانتفاء الموضوع ، حيث الشفاعة في بعديها تتطلب علماً وشعوراً !

ف « لا يملك .. الشفاعة » قد نعم الشافعين والمشفع لهم ، وإن كان الأولين أولى ، ومهما اختلفت شروطها حيث يشتركون في الإيمان ، ف « من شهد بالحق وهم يعلمون » بينهما درجات .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنْتَ يُؤْفَكُونَ ﴾^(٨٧) والخالق هو الذي يملك خلقه وتدبيرهم ، ويملك عبوديته وشفاعتهم ، فأنت يصرفون إفكاً وكذباً وهم بوحدانيته في خلقه معترفون !

﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ

سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾.

لقد قيل في «قيله» قيلات عليلات لا تناسب القرآن البيان، و «قيل» هو «قول» صيغة ثانية مصدرية، والضمير الغائب راجع إلى حاضِر الوحي: الرسول (صلى الله عليه وآله) فبعد الاستفتاء العام من العالمين «ولئن سألتهم...» والجواب العام بين المشركين والموحدين: «ليقولن الله» فليُنظر العالمون إلى «قيله» عن المشركين «رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون» والواو تعطف إلى غير مذكور من ساير قبيله من هذا القبيل.

وهنا الجواب من رب العزة في ثلاثة بنود: «فاصفح عنهم» إعراضاً بصفحك عمن لا يحقُّ إلى حق، ولكن بالصفح الجميل: «وقل سلام» لست لكم إلا سلاماً، ولا أدعوكم إلا إلى سلام، وإذ تعرضون عن سلامكم فسلام «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً» دون خفاء ولا جفاء تزيد في جهلهم وكفرهم، وما أنت وتعذيبهم بصفح غير جميل «فسوف يعلمون» حين موتهم والقيامة الكبرى، يعلمون حقاً بعد علم متجاهل قاحل إذ جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً!



(۴۴) سِوَاةُ الدِّخَانِ مَكِينَةٌ
وَأَنْبَاءُهَا يَسْتَبِيعُ وَخَسِيفَةٌ
مركز تحقیق کامپیوتر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكَةٍ ۝ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ۝ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ۝ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۝ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝ يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ أَتَى لَهُمُ الدِّكْرُ ۝ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ۝ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا

إِنْكُمْ عَايِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

﴿حم﴾ ١ .

.. الدخان هي خامسة الحواميم السبع^(١)، بازغة بذكر الكتاب المبين المنزل في ليلة مباركة، و «حم» هذه قد تعني فيما تعني الرسول محمداً (صلى الله عليه وآله) حيث يقسم بالكتاب المبين انه انزله في ليلة مباركة ولا منزل له إلا قلبه المنير، كما و «رحمة من ربك» لمحة لأمعة أنه المخاطب في «حم» ولا يناسب النزول المحكم للكتاب المبين إلا الرسول الأمين، والست الأخرى من السبع الحواميم يعقبها تنزيل الكتاب وهنا فقط - إنزاله .

ولأن «الحواميم تاج القرآن»^(٢) ومحمد (صلى الله عليه وآله) تاج النبيين^(٣) فلتكن خاصة به (صلى الله عليه وآله) في خطابها كما هي وأضرابها تخصه في معانيها، وكما في الكاظمي (عليه السلام) «أما حم

(١) راجع سورة الاحقاف ج ٢٦ من الفرقان ص ٧-٨ وسورة الشورى ج ٢٥ .

(٢) المجمع عن انس بن مالك عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

(٣) في : نبوت هيلد : وحى الطفل : لحمان حطوفاء الموجود باللغة الأنقلوسية وهي عبرانية رمزية ، يصفه (صلى الله عليه وآله وسلم) بـ «محمد كايا إياعا د يطمع هويا ويسر كليليا» يعمر بيت الله بملك عظيم اسمه «محمد هو كبير قدير ، الشجرة الطيبة الرفيعة ، مأمول لإفناء ما كان واطفاء النائرة وهو الكل والتاج وحمل على الاكتاف .

فهو محمد (صلى الله عليه وآله) ^(١) وقد تعني «ح» أحمد ودم» محمد، وإذا لم تكن «حم» خطاباً لصاحب الكتاب المبين، لم يكن لها موقع أدبي كمبتدئ أم ماذا، «والكتاب المبين» القسم لا يصلح خبراً ولا فعلاً ولا أياً كان بالنسبة لـ «حم» إلا أن تعني جملة مستقلة عن «والكتاب المبين» اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا!

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ٣﴾

إن للقرآن مراحل ثلاث أعلاها أم الكتاب، وأوسطها محكم الكتاب وادناها تفصيل الكتاب : « وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » وقد أنزل من أم الكتاب حكيماً في ليلة مباركة هي ليلة القدر « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » . « في ليلة القدر » ثم نزل طول البعثة قرآناً عربياً : « والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآناً عربياً » ومهما تشترك الحواميم السبع في نزول القرآن تلوها ، فالدخان تختص من بينها بنزول الإنزال - المحكم - في ليلة مباركة ، والست الأخرى بنزول التنزيل طول البعثة :

وترى أن هذه الليلة المباركة هي غير ليلة القدر، كالنصف من شعبان ؟ ومحكم القرآن لم ينزل إلا مرة في ليلة واحدة هي ليلة القدر - ليلة مباركة ! أم إن ليلة القدر هي النصف من شعبان كما يقولها رجيل من

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٢٣ ج ١٤ عن اصول الكافي ، بإسناده الى يعقوب بن جعفر بن ابراهيم قال : كنت عند أبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) إذ أتاه رجل نصراني فقال : إني أسألك أصلحك الله فقال سل ، فقال : أخبرني عن كتاب الله الذي أنزل على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ونطق به ثم وصفه بما وصفه فقال : «حم» ... ما تفسيرها في الباطن فقال : أما حم فهو محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ...

أهل السنة ؟ ومحكم القرآن نازل في رمضان : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » فلتكن ليلة القدر وليلة مباركة هما ليلة من رمضان دون شعبان أو أيّاً كان !

فليلة مباركة هنا هي ليلة القدر هناك من رمضان ، كما الموصفات المذكورة هنا وهناك توّحّدها في قدر رمضان .

١ - ليلة القدر هناك واحدة وليلة مباركة هنا واحدة ، ولم ينزل محكم القرآن إلا مرة واحدة ، إذاً فهما هذه الواحدة ، هي من رمضان حيث هو منزل محكم القرآن !

٢ - ليلة القدر هي الوحيدة بين ليالي السنة قدراً ، وليلة مباركة هي الوحيدة بينها بركة ، والقدر القمة والبركة القمة هما واحدة وإلا فلا قمة في كل منهما على حدة ، فهما - إذاً - واحدة من رمضان !

٣ - هناك في وصفها « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام » وهنا « فيها يفرق كل أمر حكيم » و « كل أمر سلام » و « كل أمر حكيم » هما واحد ، فهما واحدة من رمضان !

٤ - هناك « بإذن ربهم » وهنا « أمراً من عندنا » وهما واحد ، فهما واحدة من رمضان !

٥ - هناك « سلام هي » وهنا « رحمة من ربك » وهما واحد ، فهما واحدة من رمضان !

ومن ثم الروايات المتواترة عن الفريقين أن ليلة القدر هي من رمضان ، فلتكن هي ليلة مباركة من رمضان ، مهما وردت روايات أخرى

بشأن النصف من شعبان^(١) وعلّها تبجيلات بشأنها لأنها مولد المهدي من آل محمد (عليهم السلام) : فإنها مولد النور الذي يشع الكون بأسره ، ويخلص العالم عن أسره في عسره (صلوات الله عليه) !.

لا دليل للقائلين بأن ليلة مباركة هي النصف من شعبان من كتاب او سنة^(٢) وهو منها برهان قاطع لا مرد له أنها هي ليلة القدر من رمضان .

(١) في الدر المنثور ٦ : ٢٦ - ٢٧ يروي احاديث نزول الله الى السماء الدنيا في ليلة النصف من شعبان ولا ريب انها مختلقة ، وروايات أخرى خالية عن النزول مادحة لهذه الليلة ولا ريب فيها ولا تُثبت أنها ليلة القدر ومنها ما اخرج به البيهقي عن عائشة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديث قال : (صلى الله عليه وآله وسلم) يا عائشة أويأ حيراء .. هذه ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويؤخر اهل الحقد كما هم ، من ثلاثين رواية عدة تذكر فضيلة ليلة النصف من شعبان اكثرها عن عائشة وفيها خرافة نزول الله الى السماء الدنيا !.

(٢) كما يعترف الرازي في تفسيره ٢٧ : ٢٣٨ في قوله : واما القائلون بان المراد من الليلة المباركة المذكورة في هذه الآية هي ليلة النصف من شعبان فما رأيت لهم فيه دليلاً يعول عليه وإنما قنعوا بان نقلوه عن بعض الناس ، فان صح عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه كلام فلا مزيد عليه وإلا فالحق هو الاول - يعني انها ليلة القدر وهي من رمضان ، أقول : ولن يصح عن رسول الله ما يكذبه القرآن والسنة المتواترة! وقد اخرج عبيد بن حميد عن ابي الجلود قال: نزلت صحف ابراهيم في اول ليلة من رمضان وانزل الانجيل لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان وانزل الفرقان لاربعة وعشرين - وكما تظافرت في رواياتنا اضافة الى نزول التوراة لثلاث عشرة والزيور لثمان عشرة ، وان القرآن نزل في التاسع عشر او الواحد والعشرين او الثالث والعشرين ..

واخرج عبيد بن حميد ومحمد بن نصر وابن جرير عن ربيعة بن كلثوم قال: كنت عند الحسن فقال له رجل يا ابا سعيد ليلة القدر في كل رمضان هي ؟ قال : اي والله انها =

ولأنها ليلة مباركة بنازلها القرآن ومنزلها قلب نبي القرآن ، كما أنه كتاب ذو قدر وهو (صلى الله عليه وسلم) نبي ذو قدر ، فلا قدر ولا بركة لزمان أو مكان إلا بما ينزل فيها أو يصدر منها من بركة وقدر .

وليلة مباركة مستمرة في بركتها وقدرها مرَّ الأعوام إلى يوم القيام ، حيث تتكرر بكل قدر اللهم إلا نزول القرآن حيث كان لأول ليلة قدر من أولى سني الرسالة المحمدية (صلى الله عليه وآله) ومن ثم فيها يفرق كل أمر حكيم « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » فرقاً وتنزلاً مستقبلاً منذ نزول القرآن المحكم حتى القيامة الكبرى .

وما دام النزولان .- للقرآن المحكم ولكل أمر - كانا في اختصاص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) للمرحلة الأولى من ليلة القدر، فتنزّل الملائكة والروح فيها من كل أمر يعمه والمحمديين المعصومين من عترته ، حيث

مركز تحقيق كامبوتور علوم إسلامي

= لفي كل رمضان وأنها لليلة يفرق فيها كل أمر حكيم فيها يقضي الله كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها، وفي نور الثقلين ٤ : ٦٢٤ ج ١٦ عن الكافي بإسناده عن اسحاق بن عمار قال : سمعته يقول وناس يسألونه يقولون : الأرزاق تقسم ليلة النصف من شعبان ؟ قال : فقال : لا والله ما ذلك إلا في ليلة تسع عشرة من شهر رمضان وأحدى وعشرين وثلاث وعشرين ، فإن في تسعة وعشرين يلتقي الجمعان وفي ليلة احدى وعشرين يفرق كل أمر حكيم وفي ليلة ثلاث وعشرين يمضي ما أراد الله تعالى من ذلك وهي ليلة القدر التي قال الله تعالى «خير من ألف شهر» قال : قلت : ما معنى قوله : يلتقي الجمعان ؟ قال : يجمع الله فيها ما أراد من تقديمه وتأخيرهِ وإرادته وقضائه ، قال قلت : فما معنى يمضي في ثلاث وعشرين ؟ قال : أنه يفرق في ليلة احدى وعشرين ما أمضاه ويكون له فيه البداء فإذا كانت ليلة ثلاث وعشرين أمضاه فيكون من المحتوم الذي لا يدوله فيه تبارك وتعالى .

يفرق فيها كل أمر حكيم بنازل الملائكة والروح في منزل قلب الإمام في كل عصر ، فكان هو الرسول في اثنين وعشرين سنة ، حيث الأولى جمع إليه إنزال القرآن ، ثم من بعده المعصومون من عترته .

« ... إنا كنا منذرين » طول كتابات الوحي والرسالات الإلهية ، طالما الإنذار بالقرآن هو أم الإنذار ، كما وأن رسالته هي أم الرسالات .

وعلى « كنا منذرين » تعني فيما تعني سابق الإنذارات الإلهية في كتابات الوحي بنزول القرآن ، بطيئات البشارات ، وقد أوردناها في «رسول الإسلام في الكتب السماوية» .

وإنها حقاً ليلة مباركة منقطعة النظير عن كل نذير ولهذا البشير النذير ، إذ فتح فيها ذلك الفتح المين للعالمين ، بادئاً فيها استقرار خاتمة المناهج الإلهية على المكلفين من الجنة والناس أجمعين ، يعيشون الكتاب المبين ويحيون به في كل حين .

ثم لا تقف هذه الليلة لمرة واحدة ذات قدر ومباركة ، ثم القدر في كل سنة ليس ذكرى لما مضى ، بل وتكرر في كل سنة :

« فيها يفرق كل أمر حكيم » وقد فرق القرآن المحكم في أولها عن أم الكتاب « لدينا لعلي حكيم » فرقاً من تلك الحكمة العليا ، ثم فرق فرقاً آخر هو تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين - : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (١: ١١) فرق التفصيل الأخير طول البعثة .

ومن ثم يستمر فرق كل أمر حكيم سوى أم الكتاب على مر الزمن منذ القدر الأول ، والفرق هو التبيين لكل أمر غير مبين في هذه الليلة ، حتى يصبح كفرق الصبح في بيانه ، أو مفرق الطريق في انضاحه ، ومنه فرق

الشعر إذا خلصت بعضه من بعض ، ويُنْتِ نَحْطُ وسطه بالمدرى او الإصبع .

هكذا يفرق فيها كل أمر حكيم ، للرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فرقاً للقرآن المحكم عن أم الكتاب ، وفرقاً لكل محكم يحتاجه الرسول في ولايته الرسالية ، وللأئمة من آل الرسول فرق واحد هو الثاني .
فيها يتضح لولي الأمر كلما أحكم له وأجل قبلها ، كما فرق القرآن ولم يكن الرسول يعلمه قبل إنزاله من أم الكتاب .

تري لمن يفرق فيها كل أمر حكيم بما تنزل الملائكة والروح فيها من كل أمر ، إلا لولي الأمر ؟ وهل ترى أنه كل من تولى أمر الأمة أياً كان ؟ وَمَنْزِلُ الملائكة والروح ليس إلا قلب محمد او قلب محمدٍ ! وكما في حوار لباقر العلوم (عليه السلام)^(١) « وكل أمر حكيم » هنا هو « من كل أمر » في

مركز تحقيق تكملة علوم اسلامی

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٢١ ج ١٠ في اصول الكافي باسناده الى ابي جعفر الباقر (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه (عليه السلام) فان قالوا : من الراسخون في العلم ؟ فقل : من لا يختلف في علمه ، فان قالوا : فمن هو ذاك ؟ فقل : كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) صاحب ذلك فهل بلغ اولاً ؟ فان قالوا : قد بلغ فقل : فهل مات (صلى الله عليه وآله وسلم) والخليفة من بعده يعلم علماً ليس فيه اختلاف ؟ فان قالوا : لا - فقل ان خليفة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مؤيد ولا يستخلف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الا من يحكم بحكمه والا من يكون مثله الا النبوة ، وان كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يستخلف في علمه احداً فقد ضيع في اصحاب الرجال من يكون بعده ، فان قالوا : فان علم رسول الله كان من القرآن ، فقل : « حم والكتاب المبين » الى قوله - انا كنا مرسلين » فان قالوا لك : لا يرسل الله عز وجل الا الى =

القدر ، فبعض الأمر مفروق عند ولي الأمر وهو الأصل الرسالي الذي تحتاجه الأمة ويحتاجه ولي الأمر في أمره ، وبعض غير مفروق وهو حكيم يحتاجه ولي الأمر في الأمة في كل سنة ، وبعضه حكيم عند الله لن يفرق لأحد، ولا يعني كل أمر إلا الأوساط من حكيم الأمر ، كما عبر عنه في القدر بالبعض : « من كل أمر » تنزل الملائكة والروح به لفرقه بأذن ربهم « انه لينزل في ليلة القدر إلى ولي الأمر تفسير الأمور سنة سنة يؤمر فيها في أمر نفسه بكذا أو كذا وفي أمر الناس بكذا وكذا وإنه ليحدث لولي الأمر سوى ذلك كل يوم علم الله الخاص والمكنون العجيب المخزون مثل ما ينزل في تلك الليلة من الأمر »^(١).

= نبي فقل : اهذا الامر الحكيم الذي يفرق فيه هو من الملائكة والروح التي تنزل من سماء الى سماء او من سماء الى ارض ؟ فان قالوا : من سماء الى سماء فليس في السماء أحد يرجع من طاعة الى معصية ، فان قالوا : من سماء الى ارض واهل الأرض اخرج الى ذلك فقل : فهل لهم بد من سيد يتحاكمون اليه ؟ فان قالوا : فان الخليفة هو حكمهم، فقل : الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور... ولعمري ما في الأرض ولا في السماء ولي لله عز ذكره الا وهو مؤيد ومن ايد لم يخطأ وما في الأرض عدو لله عز ذكره الا وهو مخذول ومن خذل لم يصب كما أن الأمر لا بد من تنزيله من السماء يحكم به أهل الأرض ، كذلك لا بد من وال - فان قالوا : لا نعرف هذا - فقل لهم قالوا : ما اجبتكم أبي الله عز وجل بعد محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يترك العباد ولا حجة عليهم .

(١) عن الباقر (عليه السلام) قال قال الله عز وجل في ليلة القدر فيها يفرق كل امر حكيم ، قال : ينزل فيها كل امر حكيم والمحكم ليس بشيئين انما هو شيء واحد فمن حكم بما ليس فيه اختلاف فحكمه من حكم الله ومن حكم بامر فيه اختلاف فرأى انه مصيب فقد حكم بحكم الطاغوت، انه لينزل ... ثم قرأ «ولو أن ما في الأرض من شجرة اقلام ...» (نور الثقلين ٤ : ٢٢٢ ح ١١ عن اصول الكافي) .

و «أمر» هنا كما في القدر يعم أمر الفعل وأمر الحكم مقابل النهي، وأمر الشيء «وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم» (١٥ : ٢١) ينزل مثلث الأمر الحكيم فيفرقه لولي الأمر عن حكمته إلى تفصيله، فلكل سنة من سني الأمة أمور وأوامر حكيمة ليست من صلب الشرع وأصله ، يفرقها الله تعالى لولي الأمر ، نبياً في زمنه ، وإماماً في زمنه ، مما يدل على تقاسم الأمر لدى ولي الأمر ، من دائب هو لزام ولايته وإمرته على المسلمين رسالة وإمامة ، ومن غيره وهو لزامه المتجدد في كل عام ، «ولو كان للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) دون غيره لكان الخطاب يدل على فعل ماض غير دائم ولا مستقبل ، ولقال : نزلت الملائكة وفرق كل أمر حكيم ، ولم يقل : تنزل الملائكة ويفرق كل أمر حكيم»^(١)

(١) نور الثقلين ع : ٦٢٦ ج ٢٤ في كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديث طويل بعد ذكر الحجج قال السائل : من هؤلاء الحجج ؟ قال : هم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن حل محله من أصفياء الله الذين قرئهم الله بنفسه ورسوله وفرض على العباد من طاعتهم مثل الذي فرض عليهم ميثاقاً لنفسه وهم ولاة الأمر الذين قال الله فيهم : [اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الأمر منكم] وقال فيهم : «ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم» قال السائل : ما ذاك الأمر ؟ قال (عليه السلام) الذي تنزل به الملائكة في الليلة التي يفرق كل أمر حكيم من رزق واجل وعمل وحياة وموت وعلم غيب السماوات والأرض والمعجزات التي لا تنبغي إلا لله وأصفياه والسفرة بينه وبين خلقه وهم وجه الله الذي قال «فاينما تولوا فثم وجه الله» هم بفيه الله يعني المهدي (عجل الله فرجه) الذي يأتي عند انقضاء هذه لفترة فيملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملأت ظلماً وجوراً ومن آياته الغيبة والاكتفاء عند عموم الطغيان وحلول الانتقام ، ولو كان هذا الأمر الذي عرفتكم بيانه للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) دون غيره لكان الخطاب يدل ...

ولقد أمرنا ان نحاجج ناكري ولاية الأمر الدائبة بسورة القدر والدخان
«فإنها لولاية الأمر خاصة»^(١).

وعَلَّ «حكيم» هنا تعني الحكمتين ١ :- صاحب الحكمة والمصلحة ٢ -
وغير المفروق، ففرقه هو عن حكمته الثانية ليتضح الأمر لولي الأمر .

إن كل أمر حكيم أمر وفرقه أمر ، وهما ليسا من عند ولي الأمر ولا
الملائكة والروح ولا أي من الخلق ، وإنما «أمرأ من عندنا إنا كنا
مرسلين» : أمر الأذن في تنزلهم على ولي الأمر ، وأمر الفرق لكل أمر حكيم ،
أمر التشريع لفرق شرعة حكيم ، وأمر التكوين لشرعة تكوينية حكيم ، أم
أي أمر يحتاجه في الأمر في أمرته على الأمة ، فكما أن شرعة التكوين

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٢٢ ح ١٢ - في أصول الكافي بإسناده إلى أبي جعفر (عليه
السلام) قال : يا معشر الشيعة خاصموا بسورة «انا انزلناه» تفلحوا فوالله انها لحجة الله
تبارك وتعالى على الخلق بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وانها لسيدة دينكم
وانها لغاية علمنا ، يا معشر الشيعة خاصموا بحم الكتاب المبين . انا انزلناه في ليلة
مباركة انا كنا منذرين « فانها لولاية الأمر خاصة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الله
وسلم) يا معشر الشيعة يقول الله تبارك وتعالى «وان من امة الا خلا فيها نذير» قيل :
يا ابا جعفر ، نذيرها محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : صدقت - فهل كان نذير
وهو حي من البعثة في اقطار الارض ؟ فقال السائل : لا - قال ابو جعفر (عليه السلام)
ارأيت بعثته اليس نذيره كما ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في بعثته من الله عز وجل نذير ؟
فقال : بلى - قال : فكذلك لم يمت محمد الا وله بعث نذير ، قال : فان قلت : لا - فقد
ضيع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من في اصحاب الرجال من امته ، قال : وما يكفيهم
القرآن ؟ قال : بلى ان وجدوا له مفسراً ، قال : وما فسره رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و
آله وسلم) ؟ قال : بلى قد فسره لرجل واحد وفسر للامة شأن ذلك الرجل وهو
علي بن ابي طالب (عليه السلام) والحديث طويل اخذنا منه موضع الحاجة .

والتشريع التي تتبني ولاية الأمر رسالة وإمامة ليست إلّا من عند الله ، كذلك الأمر فيهما سنوياً ليس إلّا من عند الله ، ولاية دائبة ، وعلى هامشها ولاية سنوية ! .

وعلى « إنا كنا مرسلين » تدل على دوامة ليلة القدر منذ بزوغ الرسائل الإلهية حتى آخر زمن التكليف ، حيث تضرب إلى اعماق الماضي الرسالي ، رسالة ذات بعدين : نزول كتاب الشرعة ، ومن ثم فرق كل أمر حكيم في كل سنة ، « إنا كنا مرسلين » رسل الوحي ، ورسل القدر لفرق الأمر ! وقد تعني « إنا كنا منذرين » الرسالة الأولى وهي الدائبة الأصيلية ، ثم « إنا كنا مرسلين » الرسالة الثانية السنوية ، فالأولى خاصة بالرسول والثانية تعم أولى الأمر ، طالما الرسل يجمعونها .

ف « إنا كنا » هنا وهناك تضم دوامة أمر الولاية إلى أمر الرسالة منذ بزغت الرسالة ، فلتكن ليلة القدر دائبة عبر الرسائل والولايات منذ البداية حتى النهاية القيامة .

أو أن الأولى تخص الرسالة والثانية تعمها والولاية ، ولكنها الرسالة في الولاية ليست في أصل الشرعة وبوحي ، وإنما في فرق كل أمر حكيم بإلهام على هامش الرسالة .

ومهما يكن من أمر فليلة القدر المحمدية تختلف عن القدر لسائر الرسل وولاية أمرهم ، في قدر الأمر المفروق لهم ، والكتاب النازل عليهم ، والملائكة المنتزلة إليهم : فإن « كنا منذرين وكنا مرسلين » إنما تثبت أصل القدر ، لا قدر القدر وكيفيته ، إذاً فالملائكة والروح خاصة بهذه الرسالة السامية ، كما أن مادة الوحي وكيفيته هنا تختلف اختلافاً شاسعاً عما هناك رغم الإشتراك في أصل الوحي .

وكما الرسالة المحمدية وولايتها هي المركز الرئيسي لسائر الرسائل

والولايات ، كذلك قدرها والملائكة والروح فيها وأمرها بفرقها ، ولذلك ترى خماسية الرحمة تربط بالنازلة على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) : ﴿ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) - إنا أنزلنا . ٢ - إنا كنا منذرين - ٣ - فيها يفرق كل أمر حكيم - ٤ - أمراً من عندنا - ٥ - إنا كنا مرسلين ! : « رحمة من ربك » .

فكما أن ١ - نزول القرآن - ٢ - وفرق كل أمر حكيم في قدرك ٣ - من عند الله ، هي « رحمة من ربك » كذلك الإنذار في الرسائل مع رسالتك ، ورسالات القدر فيها مع قدرك ، هما أيضاً « رحمة من ربك » !
فهما إذاً نابعتان من كوثرك جاريتان طول التاريخ الرسالي في سواقي الرسائل وولايات الأمر حيث « فَعَلَهُمْ فَعَلُهُ وَأَمَرَهُمْ أَمْرُهُ » (١) .

(١) تفسير البرهان ٤ : ١٥٩ ح ٢ - الكافي عن علي بن ابراهيم عن عمر بن اذينة عن الفضيل وزرارة ومحمد بن مسلم عن عمران انه سأل ابا جعفر (عليه السلام) عن قول الله عز وجل « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » قال : نعم ليلة القدر وهي في كل سنة في شهر رمضان في عشر الاواخر فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر قال الله عز وجل : « فيها يفرق كل أمر حكيم » قال : يقدر في ليلة القدر كل شيء يكون في تلك السنة الى مثلها من قابل من خير وشر وطاعة ومعصية ومولود واجل ورزق ، فما قدر في تلك السنة وقضي فهو المحتوم والله عز وجل فيه المشية قال : قلت : ليلة القدر خير من الف شهره أي شيء عني بذلك ؟ قال : العمل الصالح فيها من الصلاة والزكاة وانواع الخير من العمل في الف شهر ليس فيها ليلة القدر ولولا ما يضاعف الله تبارك وتعالى للمؤمنين ما بلغوا ولكن الله يضاعف لهم الحسنات ، والطبرسي في الاحتجاج عن امير المؤمنين (عليه السلام) في حديث طويل قال (عليه السلام) فيه : وانما اراد الله بالحق اظهار قدرته وابداء سلطانه وتبيين براهين حكمته فخلق ما شاء كما شاء واجرى فعل بعض الاشياء على ايدي من اصطفى من امثاله فكان فعلهم فعله وامرهم امره كما قال : « من يطع =

« انه هو السميع » دعوات المرسلين قبلك بشأنك، كإبراهيم الخليل وأضرابه ، سميع كل الدعوات الصالحة ليالي القدر وطول السنة ، سميع السنة القال والإستعداد والحال في صالح الأقوال والأحوال.. « العليم » حاجيات ومتطلبات الأمم فرادى وجماعات .

﴿ .. رَبِّكَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُتُمَ مُوقِنِينَ ﴾^(٧)

ذلك وكأنما الرحمت الربانية لرب السماوات والأرض وما بينهما مجموعة في الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فناشئه عنه بإذن الله إلى الكائنات ، فالرب الإله هو أولاً ربك ، ومن ثم هو « رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين »!

وإشارة ثانية في هذا الإنتقال - تهديم صرح مختلف الربوبيات المزعومات - أن ربه هو رب الأرض والسماوات « إن كنتم موقنين » بالرب الإله ، حيث الشرك في الربوبيات مع العلم أن ربك هو خالق الكون

= الرسول فقد اطاع الله « وجعل السماء والأرض وعاء لمن يشاء من خلقه ليميز الخبيث من الطيب مع سابق علمه بالفريقين من اهلها وليجعل ذلك مثلاً لأولياته وامنائه وعرف الخليفة فضل منزلة اولياته وفرض عليهم من طاعتهم مثل الذي فرضه منه لنفسه والزمهم الحجة بان مخاطبتهم خطاباً يدل على انفراده وتوحيده وابان لهم اولياء اجرى افعالهم واحكامهم مجرى فعله فهم العباد المكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بامرهم يعملون هم الذين ايدهم بروح منه وعرف الخلق اقتدارهم بقوله «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احداً إلا من ارتضى من رسول » وهم النعيم الذي يسأل عنه ان الله تبارك وتعالى انعم بهم على من اتبعهم من اوليائهم .

أجمع ، إنه ينافي الإيقان بربوبيته ، فالألوهية الوحيدة لزامها الربوبية الوحيدة .

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾^(٨) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾

ربوبية وحيدة جامعة للكون أجمع من سماواته وأرضه وما بينهما ، ولأهل الكون أجمع « ربكم ورب آبائكم الاولين » « بل هم » المشركون « في شك » من وحدة الربوبية رغم الاعتراف بوحدة الألوهية « يلعبون » لعبة بساحة الألوهية كأنه اقتسم ربوبية ما هو إلهه وخالفه ، بينه وبين خلقه !
﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾^(١٠) يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

لا نرى الدخان في سائر القرآن إلا هنا وفي فصلت « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » (٤١ : ١١) أتري أنهما واحد أو من نوع واحد ؟ أن ترجع السماء إلى ما كانت دخاناً وهو المستصحب مع اللهيب « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار » (١٤ : ٤٨) ؟ قد يكون هذا صحيحاً في نفسه كما « والسماء ذات الرجوع » - ومنه الرجوع إلى ما ابتدأت دخاناً - قد تأتي له شاهداً ، ولكن يوم الدخان هذ هو قبل القيامة الكبرى ، فهي تتلوه : « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » (١٦) فبطشة الدخان ليست من الكبرى ، ثم ولا كشف للعذاب يومها ولا قليلاً ، ويوم الدخان « إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون » (١٥) فبطشة الدخان قد تُكشف قليلاً وهي في نفسها أقل من الكبرى ، فليست هي الأخرى ! وقد يعني بطش الدخان المبين العذاب الأدنى : « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون » (٣٢ : ٢١) أو أنه

العذاب دون الأكبر وليس الأدنى ، اللهم إلا أن يُعنى من الأدنى ضمنها ،
قياساً إلى الأكبر .

أتري بعدُ ما هو هذا الدخان ومتى ؟ هل إنه مضى فيها مضى أو يأتي
كشروط من أشراط الساعة الكبرى ؟ لا نعرف فيها مضى دخاناً يُغشي
الناس كُلاً ولا جُلاً أو بعضاً من السماء كعذاب أليم ، فعله من أشراط
الساعة كما يروى عن نبي الساعة^(١).

وقد وصف ذلك الدخان بثلاث ١ «مبين» ٢ «يغشى الناس» ٣ «هذا
عذاب أليم» مما يؤكد أنه من أشراط الساعة المستقبلية ، ف «مبين» قد

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٩ - أخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً أول الآيات
الدجال ونزول عيسى ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر ثقيل
معه إذا قالوا والدخان قال حذيفة يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وما
الدخان فتلا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان
مبين» بملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة ، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة
الزكمة وأما الكافر بمنزلة السكران ليخرج من منخريه وأذنيه ودبره ، وأخرج ابن جرير
والطبراني بسند جيد عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)
«ان ربكم أنذركم ثلاثاً الدخان يأخذ المؤمن منه كالزكمة ويأخذ الكافر فينفخ
حتى تخرج من كل مسمع منه والثانية الدابة والثالثة الدجال» وأخرج ابن أبي حاتم عن
أبي سعيد الخدري أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : يبيح الدخان
بالناس . . . وأخرج مثله عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن ، قال بلغني أن رسول الله
(صلى الله عليه وآله وسلم) قال : . . . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم
عن علي (عليه السلام) قال : إن الدخان لم يمض بعد - ثم ساق مثله . .

وفي المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي ٢ : ١١٧ «طلوع الشمس من مغربها أو
الدخان أو الدجال م فتن ١٢٨ ، ٤٠ ، ٣٩ ، ١٢٩ ، د ملاحم ١٢ ، ت فتن ٢١ ، ج
٢٥ ، ٢٨ ، حم ٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧ ، ٣٧٢ ، ٤٠٧ ، ٤٤٦ ، ٥١١ ، ٤ ، ٦ ، ٧ .

يعني إبانة الدخان عن أمر غير مبان وأهمه الساعة ، فدخان الساعة رَجَعُ للسماء إلى ما كانت من دخان الغاز ، ودونه دخانٌ من أشراط الساعة ، كما انشقاق القمر من قبل هو من أشراط انشقاقه عند الساعة ، وأين دخان من دخان وانشقاق من انشقاق ، اللهم إلا أنها من أشراطها .

و « يغشى الناس » ككلٌ : « أفامنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون » (١٢ : ١٠٧) والساعة غاشية « هل أتاك حديث الغاشية » (٨٨ : ١) « يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون » (٢٩ : ٥٥) .

يغشاهم ذلك الدخان أدنى من غشية الساعة ، فيشملهم عذاباً « هذا عذاب أليم » ! وترى الطغاة هم الذين يستحقون غشية العذاب الأليم هنا ويوم الدين ، فما بال الثقة يغشاهم معهم هنا دون يوم الدين ؟ .

علَّه لهم عذاب دوغماً للطغاة تخفيفاً عنهم وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يأخذ المؤمن منه كالزكوة وأما الكافر بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره ، فيستفخ حتى يخرج من كل مسمع منه^(١) ! فقد اختلف عذاب الدخان هنا بين المؤمن والكافر وكما يختلف في قيامة التدمير « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » (٢٢ : ٢) .

وحتى إذا لم يختلف عذاب الدخان هنا والزلازل هناك ، فهو للكافر عذاب قبل العذاب الأكبر ، وللمؤمن عذبٌ حتى يخفف عنه من العذاب الأكبر ، وكما في الزلازل والبركانات التي لا تميز بين مؤمن وكافر ! وقد

(١) نفس المصدر .

يشير « يغشى الناس هذا عذاب أليم » إلى الاكثية الساحقة من نسناس الناس حينذاك فإنه من أشراط الساعة القريبة إلى الرجعة وقيام المهدي من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي به يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملأت ظلماً وجوراً .

وقد يعني دخان السماء الغاشي ما يحصل في الحرب العالمية الثالثة ، التي يذهب فيها ثلثا الناس أو ثلاثة أرباعهم ، أو سبعة أو تسعة أعشارهم حسب مختلف الحديث « حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين ظلموا » (١٧ : ٨) « فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً . وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جماعاً » (١٨ : ٩٩) .

فنسل ياجوج وماجوج من كل حدب مرتفع ، تهجماً على من تحت كل حدب ، قد يعمل دخاناً غاشياً كعذاب أليم ، وكما نرى الطائرات الحربية كيف تشعل ناراً ودخاناً في كل حدب ؟ .

ومهما يكن من شيء فدخان السماء الغاشي كل إنسان قبل الساعة هو من أشراط الساعة ، سواء أكان من هذه الحرب العالمية ، والنسل الباجوجي ، أماذا من عوامل الدخان بشرياً أم إلهياً ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا !

وترى ما هو - إذا - لسان حال الناس وقالهم ، أفهم تائبون وإلى ربهم آتبون ومن بعد الغفلة يتذكرون ؟ .

﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١٢) أُنْ لَّهُمُ الدِّكْرُ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ^(١٣) كُمْ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُونَ ^(١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ

قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ^(١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ^(١٦) ﴿١٦﴾

فمن الناس - حينئذٍ - النسناس الخناس ، المتولون عن الرسول القائلون إنه مجنون ، يقولون « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » نؤمن الآن أو آمنا وهم كاذبون ، و « أنى لهم الذكرى » حتى يؤمنوا وقد تعرق في أعماقهم الكفر حيث « قد جاءهم رسول مبين »: لكل حق كالشمس في رابعة النهار « ثم » بعد البيان « تولوا عنه » وازدادوا كفراً حيث « قالوا معلّم مجنون » بدل أن يقولوا « معلّم عاقل » !

ورغم أننا عالمون بكيدهم في استكشاف العذاب وكيدهم في دعوى الإيمان « إنا كاشفو العذاب قليلاً » تحقيقاً لما التمستم وإظهاراً لما كذبتكم وكذبتكم « إنكم عائدون » إلى ما كنتم « وإن عُدْتُمْ عَدْنَا » (١٧ : ٨) وكما يعود تطهيراً للأرض « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون » (٣٢ : ٢١) فذوق العذاب هو لمسه ، وكشف العذاب يعم قبل اللمس وبعده ، أم لذوقه ، ذركات عدة بعضها تلو بعض !

وأما الناس المؤمنون أم غير المكذبين من دونهم فقد لا يستكشفون العذاب ، لأنهم ليس لهم عذاباً ، أو يرويه تخفيفاً لهم عن آثامهم فيقبلون ، وإلى ربهم يُقبلون .

ثم لا يكفي فريق النسناس ذوق العذاب الأدنى وعوده - بل : « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » منهم !

وترى ناكرو الرب إلحاداً وإشراكاً كيف يستكشفون العذاب وهم في أعماق الكفر وأحقه ؟ .. إنها نداء من عمق الفطرة عندما تنقطع الأسباب ، فيظهر عنها ما تخفى تحت ستارات الذنوب والشهوات ، وكما الله ينبيه الغافلين ويوجههم إلى تلك الحالة ، لما « جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج

من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دَعَوْا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبيغون في الأرض بغير الحق ... (١٠ : ٢٢) .

وكيف يكشف الله عنهم العذاب قليلاً وهو يعلم كذبهم « إنا مؤمنون » والإيمان عند رؤية البأس لا ينفع ؟ إنه ليس من منافع الإيمان الكاذب حيث لم يُتقبل ، وإنما هو تأجيل للعذاب حجة عليهم ولن دونهم . أنهم كاذبون ، فكشف العذاب هنا من أصله هو من منافع الإيمان ، وكشفه قليلاً هو من حجج اللا إيمان ! فتنة عليهم وأخرى لغيرهم^(١) .

ومن ثم كيف تُحيل « أنى لهم الذكرى » ذكرى الإيمان ، بأن تولوا عن الرسول المبين وقالوا معلم مجنون ؟ إنه استحالة بالإختيار، حيث زاغوا عن بيان « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم « وجعل على سمعهم وبصرهم غشاوة » بل طبع الله عليها بكفرهم فهم لا يؤمنون .

وترى « انا كاشفو العذاب قليلاً » تعني تقليل العذاب كشفاً عن وطأته ، أم تقليل الزمان كشفاً عن أصله ؟ قد تعني « قليلاً » كلتا القلتين إذ تحملها أدبياً ويناسبانه معنوياً ، أو أن كشف العذاب يقتضي نفيه عن أصله زمناً « قليلاً » « إنكم عائدون » بعد قليل ، فالقلة الزمنية مقصودة على أية حال ، والقلة الأخرى مشكوكة، أم إنها تقليل للفتنة والحجاج عليهم ولن سواهم ، فلتكن قلة زمنية لا غيرها ! .

(١) عليهم فتنة شر أن يبتلوا بعذاب أكبر ويظهر كذبهم لمن لم يظهر له أنهم كاذبون ، وفتنة خير لغيرهم انتباهاً .

وأما « معلّم مجنون » فمجنونها يفسر معلّمها أن ليس تعلّياً إلهياً حيث المشركون لم ينسبوا إلى الله فرية الجنون أم تعلّم الجنون ، فإنما هو تعلّم بشري في سحر وجنة ، أو في غيرهما : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » (١٦) : (١٠٣) .

« يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » إنتقاماً يستحقون ، جزاءً وفاقاً بما كانوا يعملون ، حيث البطشة الدنيا هي ما دون الكبرى مهما كانت كبيرة .



مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

* وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ
رَسُولٌ كَرِيمٌ ١٧ أَنِ ادْعُوا إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم رَسُولٌ
أَمِينٌ ١٨ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۚ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ
مُّبِينٍ ١٩ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ٢٠
وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزِلُونِ ٢١ فَدَعَا رَبَّهُ ۚ أَن هَبْ لَّاهُ
قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ٢٢ فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا ۖ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ٢٣
وَأَنزَلْنَا الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّفْرَقُونَ ٢٤ كَمْ تَرَكُوا
مِن جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ٢٦
وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِنَ ٢٧ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا
ءَاخَرِينَ ٢٨ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ
وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ٢٩ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ
الْعَذَابِ الْمُهِينِ ٣٠ مِّن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ

الْمُسْرِفِينَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾
وَأَتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٢٣﴾

﴿ وَلَقَدْ فْتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ (١٧)

فتنة سالفة قبل فتنتهم ، من جنات وعبود وزروع ومقام كريم ،
ونعمة كانوا فيها فاكهين ، وأن جاءهم رسول كريم ، وإنها لفتنة كبرى أن
يصبح الإنسان في قوة ونعمة وثراء ثم يأتيه رسول من الله يهدده بظغواه
فيها ويحد له تقواه .

وهذه من النصوص على الرسالة العالمية لموسى الرسول (صلى الله عليه
 وآله وسلم) إذ جاء قوم فرعون ، كعديد أمثالهم ، وهكذا تقتضى كرامة
الرسالة وسعتها ألا تخص قوماً دون سواهم ، مهما ركزت على قوم دون
آخرين كما في بني اسرائيل ، « جاءهم رسول كريم » برسالة كريمة ، وهم
لثام مستكبرون ، ومن ثم بنو اسرائيل لثام مستضعفون إلا شذراً منهم نبيون
أم مؤمنون ، وما وُصف رسول بشخصه أنه كريم إلا موسى ومحمد (صلى
الله عليه وآله وسلم) « إنه لقول رسول كريم » (٨١ : ١٨) وقرآنه :
« إنه لقرآن كريم » (٥٦ : ٧٦) طالما الرسل بوجه عام . : « سفرة كرام
بررة » (٨٠ : ١٦) وعلى هذا الاختصاص فيهما لموضع اللثامة المنقطعة
النظير في قوم موسى وهذا البشير النذير .

وما هي دعامة الرسالة الموسوية إلى فرعون وملاه ، في اختصار دون
احتصار ؟ إنها :

﴿ أَنْ أَدْعُوا إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ إِنَّي لَكُمْ رَسُولُ أَمِينٍ ﴾ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ

إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾

إنها تختصر في سلبية الفرعة والإستكبار على عباد الله وعلى الله ، وما لم يتحقق السلب فلا دور للإيجاب ، ف « أدوا إلي عباد الله » تطلب أول من برئته الفرعة هو تخلية السبيل من عباد الله استعبدتهم فرعون وملاه ، إذ جعلوهم عبيداً لهم من دون الله ، ولا يتضرر من هذه السلطة إلا مَنْ تحت السلطة وهم بنو إسرائيل المستضعفون المستعبدون ، فليبدأ بهم تخليصاً لهم عن المستعبدين ، ومن ثم يرجعهم إلى عباد رب العالمين ، فما لم يخرج الإنسان من عبودية مَنْ سوى الله ، ليس ليصبح عبداً لله .

ثم « وأن لا تعلوا على الله » تطلب ثان ، فإن فرعون كان عالياً من المسرفين ، على عباد الله استعباداً ، وعلى الله إدعاءً « أنا ربكم الأعلى » فهو الطاغوت الذي يطغى على عباد الله ويطغى على الله ! :

يعمل الأمر الأول بـ « إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ » رسول لكم من الله أحمل أمانة الله ، فأدوا إليَّ عباد الله لأحقق فيهم ما أتمنت من الله ، وحتى إذا كانوا هؤلاء عباداً لكم مملوكين ، فالله يملكهم وإياكم ، وقد أرسلني لاستغاثهم منكم تخليصاً لاستعدادكم عليهم .

ويعمل الثاني « أَلَا تَعْلَوْنَ عَلَى اللَّهِ » بـ « إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ » ألا سلطان لكم على الله وعباده ، وألّا إله إلا الله وأنّي رسول الله ، سلطان يُبين صدق ما أقول .

فَالْعُلُوُّ الظَّالِمُ أَيْ كَانَ ، على عباد الله وعلى الله ، إنه رذيل قبيح ، تُطارده الرسائل الإلهية كأصل أصيل من أصولها ، وهذا الرسول الكريم يُؤمر أولاً بسلب العلو الأول ، ومن ثم الثاني ، فإن العباد هم المستأثرون المتضررون من هذا العلو كواقع خطير ، ولكننا الله لا يُعلَى عليه إلا في

توهمات واهية ، تُركّز الرسالة الإلهية على سلبها ثانية ، ولكي لا يعلو على عباد الله بتركهم العلو على الله ، وتعبدهم الله !

ثم « ليس عباد الله » هنا لمحة إلى كرامتهم في عبادة الله لموقفهم المتخلف طول تاريخهم ، وإنما هي تعريضة بآل فرعون ان اتخذوهم عباداً لهم ، فالواجب الرسالي تخليصهم عن أسر العبودية لغير الله ، حفاظاً على ساحة الربوبية وتحريراً لمستضعفي عباد الله !

« جاءهم رسول كريم . أن ادوا إليّ عباد الله » فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم » (٢٠ : ٤٧) وتحذراً من خلفيات هذه التطلّبات الثقيلة على آل فرعون يستعيز بالله أن يرجوه ، وقد كان عذاب الرجم عندهم أشد العذاب ، وهذا الرسول الكريم لا يترك أو يؤخر دعوته خوف الرجم ، ولا يعوذ بهم من عذاب الرجم ، وإنما ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجَمُونِ ﴾ (٢٠) « عذت » الماضي لا « أعوذ » الحال أو المستقبل ، تدليلاً على أن زاده في دعوته عوذ الرب فإنه رسول الرب فليُعذه ربه في هذه السبيل الشائكة الفاتكة وكما أعاد . . . وآخر المطاف في دعوته ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزَلُونِ ﴾ (٢١) : « لكم دينكم ولي دين » فلا تتعرضوني برجم أم ماذا ؟ كما لا أحلكم على ما أدعوا كرهاً دون إختيار « فاعتزلون » فإنما شأني بعد كمال الدعوة مع ربي : ﴿ فَدَعَا رَبُّهُ أَن هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ (٢٢) أجزموا قطعاً لثمرات الإنسانية الحرة قبل إيناعها ، وفصلوا عنها كافة مُعداتها، والرسالة حياة جماهيرية وسلالة من ثمرات الإنسانية هم مجرموها وقاطعوها ، يا رب أنت بعثني للإثمار الإيناع لاستعدادات خاملة كرماء على الإنسانية جمعاء « وجاءهم رسول كريم » وهم برجمهم المهذد مجرمون هذه البعثة الكريمة فأنت وشأنك يا رب ! فلا تخلص لي في أمرك إلاّ بأمرك يا رب !

هنالك تأتي الإجابة فور الدعاء كأنها آتية مع الدعاء ، ولما يصل أمرك إلى ما وصل : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ ﴾ (٢٣) «أسر بهم» فراراً عن تجدد حصرهم وأسرههم إياكم ، ولأن سراة كل شيء أعلاه ، فالإسراء ليلاً هو السير بهم في مرتفع الليل «لأنكم متبعون» رغم ظلام الليل وارتفاعه ﴿ وَاتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّفْرَقُونَ ﴾ (٢٤).

ولماذا هذا السري السري في مرتفع الليل ؟ «إنكم متبعون» على أية حال ، فليكن الفرار ليلاً لكي يبتعدوا عن إتباعكم فلا يلحقوكم ، وإذا اقتربوا إليكم بحرأ ، «واترك البحر رهوآ» لـ «إنهم جند مفرقون» في اتباعهم إذا وجدوه رهوآ ! .

والرّهو هو السكون، وهو الفرجة الواسعة ، وكيف يترك البحر ساكناً على التطامه وتموجه ؟ إنه ضرب بعصاه البحر : « فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرقة كالطود العظيم » (٢٦ : ٢٣) وهذا المنفلق أصبح طريقاً ييسأ : « فاضرب لهم في البحر طريقاً ييسأ » (٢٠ : ٧٧) وعلّ رهو البحر هو طريقه اليبس بفرجة واسعة ، إذ لا ماء فيه حتى يلتطم ولا ضيق حتى يصطدم ، أم ورهو سائر البحر الماء مدّ البصر من الطريق اليبس دفعاً عن الرهب ،

هنا يؤمر موسى أن يترك البحر في رهوه أم رهويه كيلا يهابه آل فرعون ، فيدخلوه لكي يصبحوا «جند مفرقون» وقد حصل ما أراد الله من غرق آل فرعون المتبقين وإنجاء بني اسرائيل المتبعين ! وقد تلمح « واترك البحر » أن موسى أراد بعد الخروج عن البحر أن يرجعه إلى ما كان صديقاً عن آل فرعون ، فأمره الله بترك البحر رهوآ «إنهم جند مفرقون» أتركه لإغراء فرعون بإغراقه ، وهكذا ينفذ قدر الله من خلال الأسباب جليلة وخفية ، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى !

هنا يطوى شريط حياة الطغاة الشريرة في ابحاءات قصيرة، تعقياً عليه
يشي بهوان فرعون الذي كان يشمخ بخرطومه فيطأطأ له المستخفون
طاعة عمياء وعبادة طخياء ، تاركاً كل ثرواته ونعماته .

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ^(٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ^(٢٦) وَنِعْمَةٍ كَانُوا
فِيهَا فَآكِهِينَ ^(٢٧) ﴾

تركوا كل كريم وكريم ، إذ تركوا الرسول الكريم ، ونعمة لا نعمة ،
حيث النعمة هي الحالة الحسنة من مال أو حال ، ومن حُسْنها بقاءها في
كل النشآت فإنها هيئة ، والنعمة هي التمتع المرة ثم انقطاع فإنها مرة ،
وهي للمتتمتعين بها خاصة بالدنيا أياماً ثم بالتمام ثم تنقطع عنهم بالمرة
وتصبح بعدها مرة ، ولا نجد النعمة في سائر القرآن إلا هنا !

فهؤلاء الحماقى هم الذين يبدلون نعمة الله نعمة فنقمة : « ألم تر إلى
الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبش
القرار » .

تلك النعمة الجنات والعيون وزروع ومقام كريم ، هم كانوا فيها
غريقين فاكهين : يتعاطون فيها الفكاهة ويختلف ألوان الشهوة بكل تفاهة
ورذالة وحيوثة

﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ^(٢٨) « وأورثنا القوم الذين كانوا
يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك
الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما
كانوا يعرشون » (٧ : ١٣٧) « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في
الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونُري فرعون وهامان وجنودهما
منهم ما كانوا يحذرون » (٢٨ : ٦) ١

ترى وهل أورث بنو إسرائيل كلها كان لفرعون وملائه وحتى « نعمة كانوا فيها فاكهين » ؟ عله لا ! حيث النعمة مضللة ومن مقامهم استعلاء على الله واستعباد لعباد الله !

أو عله نعم ، حيث النعمة هي النعمة التي تبدل بكفرانها والكفر بها نعمة ، فإرث النعمة للصالحين منهم نعمة ، وللطالحين نعمة ، وكما المقام الكريم السلطة ، كل يعاملها حسب البغية والشاكلة ، وليس لزام الإيراث نقل عين الميراث ، وإنما عزل قوم ونقل آخريين إلى ما كانوا يملكون ، على تحول وتبدل أماذا ؟

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ (٢٩)

ترى وهل تبكي السماء والأرض على المؤمن لكيلا تبكي على الكافر وما بكائهما ؟ أجل وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بكاء عليه ونحزناً من مواضع صلواته ومساعد أعماله (١) ولأن البكاء هي

مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٠ - أخرج الترمذي وابن أبي الدنيا في ذكر الموت وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والخطيب عن أنس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ما من عبد إلا وله في السماء بابان يصعد منه عمله وباب ينزل عليه من رزقه فإذا مات فقدها وبكى عليه وتلا هذه الآية « فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ » وذكر أنهم لم يكونوا يعملوا على وجه الأرض عملاً صالحاً يبكي عليهم ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدتهم فتبكي عليهم .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير عن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلاً قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً ، ألا لا غربة على مؤمن ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكى عليه السماء والأرض ثم قرأ

التحزن البادي على وجه الباكي ، وانقطاع عمل المؤمن بموته إنقطاع لما يصعد إلى السماء من أعماله ولما ينزل إلى الأرض من بركاته ، فكأنها إذا تبكيان ، وبفسح الحجة هما على الكافر يضحكان ، حيث تنقطع أعماله التي كانت تسود كتاب الأرض والسماء ، وتزعج كتابهما الذين يستسخونها !

ومن ثم فأهل السماء والأرض - المطلقون على وفاة المؤمن - هم عليه باكون وعلى الكافر ضاحكون ! ثم ومن البكاء الإستنصار ، الذي هو كائن من أهل الله للمؤمن وبائن عن الكافر !

ثم المؤمن ولا سيما العالم إذا مات ثلم ثلثة دون الكافر ، وقد يمثلون خلو الدار عن سكانها وقطانها ، بأنها باكية عليهم ومتوجعة لهم لانقطاع أسباب النعمة والأنسة عنها ، ولكنها الكافر حياته عذاب على الناس ، فلا تبكي عليه السماء والأرض ، إذ لا أثر له صالحاً حتى ينقص بفقدانه ، ولو كانتا من الجنس الذي يصح منه البكاء لم تبكيا عليهم ولم تتوجعا لهم إذ كان الله عليهم ساعطاً. ولهم ماقتاً ، وحياتهم عذاب على أهل السماوات والأرض .

كل هذه البكاء ثابتة للمؤمن ، منفية على الكافر « وما كانوا منظرين » حيث أغرقهم الله دون إنظار وما كانوا متتصرين .

المستضعفون وهم دوماً الأكثرية الساحقة ، ومن معهم من رسل الله

= رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) « فما بكت عليهم السماء والأرض » ثم قال : انها لا يبكيان على كافر .

واخرج ابن المبارك وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر من طريق المسيب بن رافع عن علي (رضي الله عنه) قال : ان المؤمن اذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ثم تلا هذه الآية .

وملائكة الله وسائر المؤمنين ، هم كلهم يفرحون ويرتاحون لموت الكافر ويكون لموت المؤمن .

فهناك بكاء للسماء والأرض على المؤمن ، كلما ازداد إيمانه ازدادت حيث تحمرُّ كما احمرت ليحيى بن زكريا وللحسين^(١) (عليهما السلام) وبكاء لأهل

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٠ واخرج ابن أبي حاتم عن عبيد المكتب عن ابراهيم (رضي الله عنه) قال : ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين ، قيل لعبيد . اليس السماء والأرض تبكي على المؤمن ؟ قال : ذاك مقامه وحيث يصعد عمله ، قال : وتلدري ما بكاء السماء ؟ قال : لا . قال : تحمر وتصير وردة كالدهان ، ان يحيى بن زكريا لما قتل احمرت السماء وقطرت دماً وان الحسين بن علي (عليه السلام) يوم قتل احمرت السماء ، واخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن زياد قال : لما قتل الحسين احمرت آفاق السماء اربعة اشهر .

اقول : ومن طريق اصحابنا روي بكاء السماء على يحيى وعلى الحسين (عليهما السلام) القمي في تفسيره قال حدثني ابي عن حنان بن سدير عن عبد الله بن الفضل الحمداي عن ابيه عن جده عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه قال : مر عليه رجل عنده الله ورسوله فقال : «فما بكت عليهم السماء والأرض ، وما كانوا متظيرين» ثم مر عليه الحسين بن علي (عليه السلام) فقال : لكن هذا لتبكين عليه السماء والأرض ، وما بكت السماء والأرض إلا على يحيى بن زكريا وعلى الحسين بن علي (عليهما السلام) ، وفي كتاب المناقب لأبن شهر اشوب عن الباقر (عليه السلام) ان علياً (عليه السلام) خرج قبل الفجر متوكئاً على عنزه والحسين (عليه السلام) خلفه يثلوه حتى ان خلفه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم قال : ان الله تعالى ذكر اقواماً فقال : «فما بكت عليهم السماء والأرض» والله ليقتلنه ولتبكين السماء عليه .

وفيه عن الصادق (عليه السلام) بكت السماء على الحسين اربعين يوماً بالدم وفيه عن اسحاق الاحمر عن الحجة (عليه السلام) حديث طويل في اواخره : وذبح يحيى (عليه السلام) كما =

السموات والأرض ، ولكتاب الأعمال وكتابه ، وللحياة الصالحة حيث البكاء تَحْزُنُ بانتقاص في الحياة ، وانتقاص في سنن الحياة ، وبكاء كل شيء بحسبه!

وهناك ضحك لها كلها لموت الكافر ، كلما ازداد كفرًا ازدادت ضحكًا وضحك كل شيء بحسبه ، وترى هلاً يبكي على الكافر حتى الكفار ، الذين كانت لهم حظوة وشهوة من حياته ؟ : : مورد الآية هم آل فرعون وقد استأصلوا بالغرق ، ومن ورائهم مستضعفون من بني اسرائيل وسواهم وهم يضحكون .

ثم وسائر الكفار الذين يموتون عن أمثالهم ، فقليل بواكيهم والضاحكون عليهم كثير ، وبكاء السموات والأرض يعني الكون كله بمن فيه وما فيه ، والشذاذ الباكون على الكافرين ، ليسوا السموات والأرض ، بل وليسوا منها بحق حيث لا يُعتبرون شيئاً!

ثم « فما بكت » إضافة إلى ما عنته ، قد تعني السخرية بهم حيث كانوا يستعظمون أنفسهم ، ويعتقدونهم إن ما توابكت عليهم الدنيا رغم ما

« ذبح الحسين ولم تبك السماء والأرض إلا عليهما (نور الثقلين ٤ : ٦٢٧-٦٢٨) . وفي تفسير البرهان ٤ : ١٦١ ج ٤ عن القمي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في الرحبة وهو يتلو هذه الآية اذ خرج عليه الحسين بن علي (عليه السلام) من بعض ابواب المسجد فقال : اما هذا سيقتل وتبكي عليه السماء والأرض . وفيه خرج أمير المؤمنين (عليه السلام) فجلس في المسجد واجتمع اصحابه حوله فجاء الحسين (عليه السلام) حتى قام بين يديه فوضع يده على رأسه فقال : يا بني إن الله عبر اقواماً بالقرآن فقال « وما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » وايم الله لتقتلن من بعدي ثم تبكيك السماء والأرض .

ضحكت ، كما نراها تضحك وحتى أهلوها الوارثون لها على فجارها ، حيث يستغلونها بما يستقلون بها !

إذا فذلك تعبير يلقي ظلال الموان على هؤلاء الطغاة المتطاولين حيث ذهبوا ذهاب النمل ، وهم كانوا يطلؤون الناس وطا النعال ، أرواح خبيثة منبوذة في الكون ، لما تنقطع عنه وتستروح فهو يستريح ، فإنهم عذاب للكائنين مهين ، ثم في الصفحة المقابلة لهم بنو اسرائيل الوارثون :

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ^(٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ^(٣١) ﴾

قد يأتي العذاب رحمة رغم كونه زحمة كما للذين يُستشهدون في سبيل الله أو يُؤذون دون مهانة في هذه السبيل ، وهذا رغم كونه عذاباً ليس من عذاب الله ، وإنما عذاب الشيطان ولم يأت في القرآن بصيغة العذاب اللهم إلا أذى في الله : « ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » (٢٩ : ١٠) :

وقد يأتي من الله تذكيراً ولعلمهم يرجعون : « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلمهم يرجعون » ومنه مُهين ومنه غير مُهين :

وقد يأتي مهينا بما قدمت أيدينا وأن الله ليس بظلام للعبيد، وقد كان فرعون من العذاب المهين ، حيث أهان كرم الإنسانية باستعبادها ، إستخفافاً لها « فاستخف قومه فأطاعوه » في بني اسرائيل قتلاً وفتكاً واستعباداً لرجالهم واستحياءً لنسائهم : « يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين » (٢٨ : ٤) « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » (٢ : ٤٩) .

« ولقد نجينا » تأكيدات ثلاث^(١) أنه نجاهم من العذاب المهين - « من فرعون » ولماذا ؟ « إنه كان عالياً من المسرفين » عالياً على عباد الله استعباداً لهم وعلى الله ادعاءً للربوبية العليا ، مسرفاً في علوه ، وليس الله ليصبر على هكذا هتك وفتك لساحته وعباده ، اللهم إلا امتحاناً للعلات على علّاتهم وامتهاناً لمن تخاذلوا أمامهم على علّاتهم :

إن العلو الإستعلاء بغير حق وفي إسراف هو من أهون العذاب المهين لجماهير المستضعفين . « وإن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين » (١٠ : ٨٣) « إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين » (٢٨ : ٤) ولقد أسرف في علوه حتى على الله مساً مهيناً من كرامة الله « فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى » (٧٩ : ٢٤) . فهناك نجاة لبني اسرائيل من هذا العذاب المهين ، ومن ثم اختيار لهم على علم على العالمين : **﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** (٣٢).

اختيار إلهي انتخاباً لخير الموجودين في ذلك الزمن ، و« على علم » بحالهم ومسيرهم ومصيرهم ، وبخيرهم وشرهم ، والله يعلم أنهم سوف يصبحون من افسد المفسدين ، لحد قلماً نجد أقواماً في التاريخ الرسالي- فيما يقصه القرآن - كأمثالهم فيما أفسدوا .

ولكنه لما يعلمه الله أنهم على حالهم واستقبالهم من أفضل العالمين وأحقهم بالانتصار حيث استضعفوا بالفرعة الجبارة وهم موحدون ، وأن

(١) هي - ل - قد - نا . فان (نا) جمعية الصفات انه تعالى بهذا الجمع العظيم نجاهم .

فيهم أنبياء صلحاء مهبا حصل بينهم من إنحراف وإنجراف وتلكؤ والتواء :
«ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم
الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونريّ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما
كانوا يحذرون »

لقد كان ذلك اختياراً مؤقتاً باختبار وحتى في الآيات التي أوتوها بلاءً
مبيناً : ﴿ وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴾ (٣٣) وهي الآيات التي
خصتهم دون آل فرعون ، إذ كانت في غرقهم كفلق البحر ، أو بعد
غرقهم كانبجاس العيون من الحجر ، ونثق الجبل ، وإنزال المن والسلوى
عليهم ، وبنتيجة اختبارهم وسقوطهم في هَوَات الضلالة والإفساد سلبت
عنهم النبوة إلى نبي اسماعيل ، وبعث عليهم من يشردهم ويسومهم سوء
العذاب إلى يوم القيامة « وإذ تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من
يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وأنه لغفور رحيم » (٧) :
(١٦٧) .

مركز تحقيق كتاب علوم إسلامي

وما فيه بلاءً مبين» تلميحاً بينة أن هذه الآيات المعجزات كانت
بطياتها بلاءً مبين يبين مدى إيمانهم أو كفرهم وكفرانهم .

إِنَّ

هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ^{٣٩} إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ
بِمُنشَرِينَ^{٤٠} فَأَنُؤَا بِعَابَابِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ^{٤١} أَمْ
خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ^{٤٢} وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ
كَانُوا مَجْرِمِينَ^{٤٣} وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا لِلْعَيْنِ^{٤٤} مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ^{٤٥} إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ^{٤٦}
يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ^{٤٧}
إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ^{٤٨} إِنَّ
شَجَرَتَ الزَّقُّومِ^{٤٩} طَعَامُ الْأَثِيمِ^{٥٠} كَالْمُهْلِ يَغْلِي
فِي الْبُطُونِ^{٥١} كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ^{٥٢} خَذُوهُ فَاَعْتَلُوهُ إِلَى

سَوَاءَ الْجَحِيمِ ④٧ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ
 الْحَمِيمِ ④٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ④٩ إِنَّ
 هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ⑤٠ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ
 أَمِينٍ ⑤١ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ⑤٢ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ
 وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ⑤٣ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمُ
 بِحُورٍ عِينٍ ⑤٤ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ⑤٥
 لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ
 عَذَابَ الْجَحِيمِ ⑤٦ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
 الْعَظِيمُ ⑤٧ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ⑤٨
 فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ⑤٩

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ^(٣٤) إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴾ ^(٣٥).

.. عرض . لقيلة شائنة عن شأن الموت والحياة لغير الموحدين من مشركين وملحدين ، القيلة التي سوف يستنكرونها يوم الدين إذ يعترفون بمرور الموت والحياة مرتين مرتين : « وقالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل » (٤٠ : ١١) ^(١) وهم كانوا بها كافرين ؛ « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ؟ » (٢ : ٢٨) .

فهـ «إن هي» العاقبة اوالنهاية أو-وبأخرى-الموتة «إلا موتتنا الأولى» فلا ثانية لها : أن نموت عن حياة برزخية هي بعد الموتة الأولى «وما نحن بمنشرين» عن الموتة الثانية .

فقد ينكر هؤلاء الناكرون أية حياة بعد الأولى «إن هي إلا حياتنا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين» (٢٣ : ٣٧) رغم أنها إحياتان .. أو ينكرون أية إماتة بعد الأولى «وما نحن بمنشرين» كما هنا .

فنكران الموتة الثانية نكران للحياة البرزخية بعد الموت ، حيث الموتة الثانية تستلزم حياة بين الموتين ، ثم «وما نحن بمنشرين» نكران للحياة الآخرة بعد الموتة الثانية .

فهـ «إن هي إلا حياتنا الدنيا .. وما نحن بمبعوثين» نكران للحياة الأخرى «إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين» نكران للحياتين بعد الموت ، والحياة البرزخية ضرورة كما الحياة الأخرى .

(١) راجع تفسير الآية من سورة المؤمن ستجد بحثه المفصل .

فهناك إمامتان واحيآن، إحياء أول للحياة الدنيا ثم إمامة عنها فحياة برزخية، ثم إمامة ثانية ومن ثم إحياء ثان للأخرى، هم يعترفون بهما يوم الدين، وهم أولاء ينكرونها يوم الدنيا!، .

هم هكذا يدعون دون برهنة على دعواهم، ولا يصدقون أية برهنة إلا أن يؤتى بآبائهم: .

﴿فَاتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٦).

أفأتيناً بهم أحياء لكي تثبت نشرة بعد مorte؟ فلماذا آباؤهم وهم لا يعرفونهم عياناً! وهم بمشهد متواتر من حياة بعد موت نباتية وحيوانية، ثم النشرة ليست إلا في الأخرى جاهيرية، وفي الرجعة جهرات خاصة، وليس صدق القول في النشرة يُحصر في نشر الآباء، ثم ولا يثبت نشرهم إلى الحياة الدنيا نشرهم إلى الأخرى إلا إمكانية بالمماثلة، وهي حاصلة عملياً وواقعياً!

أو أتينا بهم ليسألوهم هل هناك نشرة بعد الموت، وهم كأمثالهم في نكرانها! وحتى إذا صدقوها كيف هم يُصدقون حملة الوحي يكذبون، وإذا تكذبون حملة الوحي بآياتهم المعجزات وأنتم تعرفونهم فأنتم أولى تكذيباً لأبائكم وأنتم لا تعرفونهم، ولو عرفتمهم فلا حجة في أقوالهم إلا أنهم آباؤكم، تقليداً أعمى، وتقديماً لقولة الموت!

وهذه خرافة تتكرر وشريطة تعاد على ألسن الناكرين ليوم الدين: من الذي مات ثم رجع حتى نخبرنا عن الحياة الأخرى؟ يسألونه كأن لا جواب لهم إلا نكرانها، وليس تصديقها محصوراً في أخبار الموتى، وإنما تتبع

أدلتها العقلية والواقعية الأخرى في إمكانية الحياة الحساب وضرورتها دون أن يثبتها قولات الموتى ، أو تنفيها هي أم أموراً أخرى .

فإن هي إلا طنطنات وشنششات يهرها الخارفون وينكروها العارفون ، فإن لكل مدلولٍ دليلاً يخصه دون ما يتعنته الناكرون .

إنهم يغفلون أو يتغافلون عن حكمة النشرة الحساب ، أنها للوصول بالصالحين إلى النهاية الكريمة التي تهيئها وتأهلوا لها في الرحلة الدنيا ، والوصول بالطالحين إلى النهاية الحقيرة الذليلة التي قدّموا لها من حياتهم الرذيلة ، وخطواتهم المرتكسة في الحمأة القلرة .

إذاً فدور البعث والنشور ليس إلا بعد انقضاء الحياة الأرضية كلها ، دون أن تكون لعبة تتم حسب أية رغبة أو نزوة وتهوسة لفرد أو جماعة ، كي يصدقوا بالحياة الآخرة ولن يصدقوها مهما غرقوا في واقع الأدلة . هنا وقبل توجيههم إلى أدلة قاطعة على ضرورة الحياة الحساب ، يلمس قلوبهم المقلوبة بلمسة ضريعة سريعة عن مصارع مسارع لمن قبلهم كقوم تبع :

﴿أَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٣٧) .

تبع هذا هو أسعد الحميري من الملوك الحميريين باليمن ، لا نجد له ذمّاً في القرآن إلا لقومه ، مما يلمح إلى إسلامه وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) «لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم»^(١)

(١) الدر المنثور ٦ : ٣١ - اخرج احمد والطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه عن *

«وهو أول من كسا الكعبة»^(١).

فهنا قوم تبع، وفي (ق) «وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد»^(١٤).

قوم تبع كانوا خيراً منهم قائداً فتخلفوا عنه ، وأكثر منهم نعمة فبدلوها نعمة ونقمة فاستحلوا دار البوار جهنم يصلونها وبش القرار ، ومن قبل «أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين» فلا سبيل لكم إلا الهلاك .

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَإِهِيٍّ﴾^(٣٨).

توجيه بعد تهديد إلى برهان لضرورة الحياة الأخرى ، أن لولاها لكان خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ولعبة ، ولكننا الإله الحق لا يأتي إلا بالحق ، وحق الخلق لزامه حق الحياة الحساب .

إن خلقها لعباً هو في الخلق ، وضلال بعيد عن غاية الخلق : «وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لأعين . لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو

= سهل بن سعد الساعدي قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا تسبوا . . ، وأخرج ابن المنذر وابن عساكر ووهب بن منبه قال سمى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن سب أسعد وهو تبع قيل وما كان أسعد ؟ قال : كان على دين إبراهيم .

(١) المصدر اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تسبوا أسعد الحميري وقال هو أول من كسا الكعبة ، وروى في المجمع عن الوليد بن صبيح عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان تبعاً قال للأوس والخزرج : كونوا هيئتنا حتى يخرج هذا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اما انا لو ادركته لخدمته وخرجت معه .

زاهق ولكم الويل مما تصفون» (٢١ : ١٨).

إذاً فالخلق دون الحياة الحساب لعب وهو هو بالخلق مستحيل على الله في بعدين لو أراد- ولن-! لا تحذه من لدنه دون خلقه ، حيث اللهو بهم ظلم في ظلم وما الله بظلام للعبيد .

أترى لماذا اللعب الله في خلقها لولا الحياة الحساب ؟ لأن الخلق فيها ، بينهم ظلمات وتعديات ، وتخلقات عن شرعة الحق ، وبينهم استكبارات واستضعافات ، وفيهم من يعدل وما أقلهم ، والخلق الحق والخالقية الحق العادلة تقتضي الجزاء الوفاق لكل كما يعمل، فإنه قدير عليم وعدل حكيم ، فإذا لا نرى الجزاء الحساب هنا فلتكن حياة أخرى بعدها لتجزي فيها كل نفس بما تسعى ، ولولاها لكان الخلق لعبة وهواً وعيباً : «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون» (٢٣ : ١١٥).

ولأن الخالق هادف غير لاهٍ أو لأعب أو عابث ، وأن القصد والتصميم لائح من الخلق ، وأنه عدل حكيم ، فلتكن هناك حياة أخرى بعد الأولى إذ «ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين» :

﴿ مَا خَلَقْنَاهَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٩).

أكثرية ساحقة من ناس هم في الحق نسناس لا يعلمون أن لهذا المطاف نهاية ، أترى أن هذه الرحلة القصيرة على هذه الكوكبة الصغيرة للإنسان أم أياً كان من الخليفة ، في هذا الكون الشاسع الواسع المستحدم لتكامله ، كل ذلك تصبح هباء خواء ، دون أية نهاية مقصودة ؟

إن الخلق الحق ، البعيد عن أي باطل ، كيف يحمل باطل اللعب

واللهو العبث ، في اتساعة دوغما حاجة في هذه القصيرة ، وفي عدم الحياة الحساب في النهاية .

«ما خلقناها إلا بالحق» سبباً وملابسة وغاية ، فالخلق إذاً في مثلث الحق ، فلو لم يكن حساب أصبح في مثلث الباطل «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» .

«لا يعلمون» الحق الذي خلقتنا به ، لا جهلاً ذاتياً قاصراً فهم معذورون ، فإنما تجاهلاً وتغافلاً مقصراً فهم مسئولون !

لا يخفى على ذي حجب أن الفعل من العالم الحكيم هادف قاصد ؟ فهل الله يخلق ثم يهرج ويمرج بين خلقه دوغما شرعة تضبطهم هنا ، وحياة أخرى للحساب يجازيهم فيها هناك ؟

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾

إنه يوم الفصل بين المحشورين بانفصال العقائد والأعمال ، رغم أنه يوم الوصل بين المحشورين فإنه ميقاتهم أجمعين من الأولين والآخرين والخيرين والشريرين .

فالولاية الواصلة يوم الدنيا في غير الله هي الفاصلة يوم الدين حيث لا يغني مولى عن مولى شيئاً ، اللهم إلا ولاية الله بين من يتولاه فهي قد تغني شفاعته بإذن الله لمن يشاء ويرضى .

فلا ولاية ولا نصرة هناك إلا من الله وبأذنه ولا يملكون الشفاعه إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً (١٩ : ٨٧) فهناك يُنصرون دون إغناء ، فإنه الإستقلال وليس إلا الله ، والنصرة دون استقلال فهي حاصلة بشفاعة صالحة .

والمولى هنا هو الذي يلي أمر صاحبه وهو صاحبه الذي يتولى أمره ،
فالأول هو الأول والثاني هو الثاني، ولماذا لا إغناء هناك ولا نصرة ؟ ولا..
إذ « تقطعت بهم الأسباب » (٢ : ١٦٦) « ولا ينصرون » :
« واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ
منها عدل ولا هم ينصرون » (٢ : ٤٨) .

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٢) فمن رحمه الله يغنيه الله
وهو المؤمن والله ولي الذين آمنوا ، ومن رحمه الله ينصره المولى في الله
شفاعة بإذن الله « ما من شفيع إلا من بعد إذن » (١٠ : ٣) .

فـ « إلا » هنا إستثناء عن « ولا هم ينصرون » دون « لا يغني » فـ « شيئاً »
في سياق نفي الغنى ينفي كل غنى في كل شيء فلا يُستثنى ، « ولا هم
ينصرون » دون شيئاً ، يقبل إستثناء لمولى في شيء كما يشاء الله ويرضى ،
فالنصرة المساعدة هي موضع الشفاعة على شروطها ، دون الغنى المستقلة
لمن ليست له أية أهلية للرحمة الإلهية ، فالشفيع لا يغني ولا يكفي وإنما
ينصر ، فإنه تعالى هو الكافي المغني لا سواه « أليس الله بكاف عبده » اللهم
إلا غنى بالله كما يروي عن الصادق (عليه السلام) (١) وفي النجم تصديقه :

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٢٩ ج ٣٩ في اصول الكافي احمد بن مهران عن عبد العظيم بن
عبد الله الحسنى عن علي بن اسباط عن ابراهيم بن عبد الحميد عن زيد الشحام قال
قال لي ابو عبد الله (عليه السلام) « الا من رحم الله » نحن والله الذي استثنى الله فكنا
نغني عنهم ، اقول : يعني الغنى بالله وهي الشفاعة النصرة دونما استقلال .
والمصدر ح ٤٠ عن ابي عبد الله (عليه السلام) انه قال لا ي بصير يا ابا محمد والله
ما استثنى الله عن ذكره باحد من اوصياء الانبياء ولا اتباعهم ما خلا امير المؤمنين
وشيعته فقال في كتابه وقوله الحق « يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم =

«وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى» (٥٣ : ٣٦) فلا يغني أحدٌ إلا بالله وحتى رسول الله : «وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون» (١٢ : ٦٧) .

«إنه هو العزيز» الغالب فلا مغني سواه - «الرحيم» قد ينصر سواه بإذنه دون أن يغنيه ، فالعزة تُحصَر فيه حسراً عن سواه ، والرحمة قد تكون بإذنه وهي الشفاعة لسواه .

أجل وفي يوم الفصل يتجرد وينفصل الناس من كل سناد لهم في الأرض ، من كل قرابة وولاية وآصرة ، عائدين إلى ربهم فرادى كما خلقوا أول مرة ، اللهم إلا شفاعة برحمة الله لا سواه «إنه هو العزيز الرحيم» ! «إلا من رحم الله» نعم المولى الناصر الشافع^(١) والمنصور المشفع له ، حيث المستثنى منه يعمهما «مولى عن مولى» .

﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَيْمِ^(٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ^(٤٥) كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ^(٤٦) ﴾ .

* ينصرون الا من رحم الله» يعني بذلك علماً وشيعته اقول : فعلي واضرابه من المعصومين هم المولى الشافع والشيعه هم المولى الثاني .

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٣٠ ح ٤١ في تفسير القمي في الآية قال : من والى غير اولياء الله لا يغني بعضهم عن بعض ثم استثنى من والى آل محمد فقال : «الا من رحم الله» انه هو العزيز الرحيم » ثم قال : ان شجرة الزقوم طعام الاثيم، نزلت في ابي جهل بن هشام وقوله عز وجل : قال : المهل الصفر المذاب ، يغلي في البطون كغلي الحميم ، هو الذي قد حمى ويلغ المنتهى .

« أذ لك خير نَزْلًا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين » (٣٧ : ٦٥) - « ثم انكم أيها الضالون المكذبون . لاكلون من شجر من زقوم . فمالتون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم . هذا نُزْلهم يوم الدين » (٥٦ : ٥٦) .

إن الأثماء الظالمين الضالين المكذبين ، نُزْلهم الطعام زقوم يوم الدين ، زقوم يأكل زقومًا وذلك عذاب مهين ١ .

ولأنها من الشجرة الملعونة في القرآن يوم الدين ، هي أَكْلٌ للشجرة الملعونة في القرآن يوم الدنيا، ملعونة بملعونة وزقوم في زقوم ، وما أدراك ما زقوم !

إن جرس اللفظ يلمح بجرس المعنى ، فكما اللفظ كأنه خنقة الخلق كذلك الواقع خنقاً للخلق وغلباً في البطون « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » فإنها تطلع كخلفية لرؤوس الشياطين ، فهي إذاً طعام لرؤوس الشياطين . رؤوس للشياطين ورؤوس الشياطين : حملة رايات الشيطانات من الجنة والناس أجمعين .

فهناك مثلث من الزقوم : إسمًا في جرس اللفظ، وسمة في شاكلة الواقع ، ووصفة في فاعلية تنطبق حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة على مثلث الشيطانات أسماء وسمات ووصمات .

والزقم هو الكريه في المنظر والمطعم والريح ، فالزقوم هو المبالغ في ذلك ، فلا طعام في النار أكره من الزقوم ، كما ليس في النار أكره من ذلك الأثيم !

وإنه « كالمهل » المذاب من النحاس والرصاص أو دُردي الزيت ويغلي في

البطون» فأحرى به أن يُغلي فيصبح منه البطون غلياً على غلي «كغلي الحميم» البالغ في الحمة^(١) مما يحم، وإذا «سقوا ماء حمياً فقطع أمعاءهم» (٤٧ : ١٥) فماذا يصنع حميم الزقوم؟!

«خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ»^(٤٧) ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ^(٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ^(٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكْتَرُونَ^(٥٠) .

أمر صارم من الجبار الحكيم ، الى زبانية الجحيم ، باعتقال جبار لثيم وهو في زعمه العزيز الكريم «خذوه» أخذ الإعتقال ، وشدوه في كل إهانة ومهانة على أية حال ، وهو في حالة الفرار ولات حين فرار «فاعتلوه» خذوه بمجامعه وجروهم بقهرهم إلى سواء الجحيم : وسطه وعمقه وكأنه دركه الأسفل المحيط به سائر الجحيم ؛ «وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» (٨ : ٤٩) فإن الجحيم طبقات متداخلة كروية أماهيم ، بعضها فوق بعض ، مما يزيد كل تالية عذاباً حتى الدرك الأسفل في المركز الرئيسي منه ، كما الكرة الأرضية ذات الحرارة في أعماقها ، حيث الأسفل منها مركزها وهي أحر من سائر أطباقها .

ولأن أصل الحرارة في الجحيم هو في أصل الجحيم ، فأهل الأصل هم صلاؤه والباقون بهم يصطلون : «خذوه فغلّوه» ثم الجحيم صُلّوه . (٦٩ : ٣١) اجعلوه صلاة الوقود ، ثم ماذا بعد الأخذ القتل والجذب والدفع ؟

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٣٠ ح ٤١ في تفسير القمي في الآية قال : من وإلى غير أولياء الله لا يغني بعضهم عن بعض ثم استثنى من وإلى آل محمد فقال : «إلا من رحم الله انه هو العزيز الرحيم» ثم قال : ان شجرة الزقوم طعام الأثيم ، نزلت في أبي جهل بن هشام وقوله عز وجل : كالمهل : قال : المهل الصفر المذاب ، «يغلي في البطون كغلي الحميم» وهو الذي قد حمى وبلغ المنتهى .

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾^(٤٨) كما هم صبوا فوق رؤوس المستضعفين من عذاب الحميم ، إستكباراً عليهم وإستخفافاً واستحماراً لهم فأصبحت رؤوسهم خاوية عن الهدى حاوية لكل ردى، ومن ثم تأنيب وترذيل :

﴿فَقُذِّبَتْ إِنْكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(٤٩) كلمة تقال له حين العذاب ، عذاباً فوق العذاب ، حيث كنت يوم الدنيا تراك عزيزاً^(١) : تتغلب على من سواك - كريماً : كأنك المنعم على من سواك لا سواك ، وحتى إذا كانت قيامة فأنت انت لك الحسنى دون من سواك : «ولا أظن الساعة قائمة ولئن رُجعت إلى ربِّي إن لي للحسنى» (٤١ : ٥٠) «وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربِّي لأجدن خيراً منها منقلباً» (١٨ : ٣٦) : «ذق» ولما يصلك العذاب الحساب، وإنما ذوق العذاب ! وهذا من جزاء العزيز دونما عزة، والكريم دونما كرامة، وإنما ذلة ولثامة بلا هوادة !

﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ وتترددون في تكلف النكران، حيث البيئات من كل الصنوف واضحة الدلالة على ضرورة الحياة الحساب وضح النهار، ولكنكم «كنتم تمترون» تمهلاً على فطركم وعقولكم حيث لا تتحمل مثل ذلك النكران إلا تكلفاً، والإفتعال تكلف للفعل !

هذا مصير الأثماء ورؤوس الشياطين ، فما مصير المتقين ؟

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾^(٥١).

فكما الطغوى تجعل أهلها في اضطراب مهين، كذلك التقوى تجعل أهلها في

(١) في جوامع الجامع روي ان ابا جهل قال لرسول الله (صل الله عليه وآله وسلم) ما بين جليلها أعز ولا أكرم مني .

مقام أمين ، يوم الدنيا ويوم الدين ، حيث العقبات السوء من الأثمين يوم الدنيا التي ترهب دواثرها بالمتقين ، لا تحسب اضطرابات لهم أمام الأمن الأمين لهم يوم الدين ، ومن قبل وهم في الدنيا لهم الأمن في ضمائرهم « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (١٣ : ٢٨) « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » (٦ : ٨٢) فإنه في « حزب الله بالتقوى من كل بلية »^(١) ومن ثم لهم كمال الأمن في الدولة الأخيرة المهدوية : « وليبدلهم من بعد خوفنا أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » (٢٤ : ٥٥) أمن بعد أمن هنا وثالث يوم الدين :

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ^(٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ^(٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ^(٤) يُدْعَوْنَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ^(٥) .

« جنات » تجري من تحتها الأنهار « وعيون » إضافة إلى الأنهار « يلبسون من سندس » الحريرة الرقاق « و » من « استبرق » الحريرة السماك ، يلبسونها متقابلين ويجلسون متقابلين ، إخوة متقين متقابلين لإخوة متقين ، ثم وهم مع أزواجهم متقابلين .

« كذلك » المقام الأمين - ثم « وزوجناهم بحور عين » رجالاً لهم منهن زوجات كما لهم من المؤمنات زوجات ، وهن أفضل من الحوريات « يدعون »

(٢) نور الثقلين ٤ : ٦٣٠ ح ٤٦ في اصول الكافي محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن ابن محبوب عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله (ع) قال : أي عبد أقبل قبل ما يحب الله عز وجل أقبل الله قبل ما يحب يومن اعتصم بالله عصمه الله ومن أقبل قبله وعصمه لم يبال لو سقطت السماء على الأرض أو كانت نازلة على أهل الأرض فشملتهم بلية كان في حزب الله بالتقوى من كل بلية اليس الله عز وجل يقول : « ان المتقين في مقام أمين ؟ » .

المتقون رجالاً ونساء « بكل فاكهة » من الفاكهة والفاكهة « آمنين » بكل أمن دوغما اضطراب ، ويأمنون أضرارها .

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾^(٥٦)
فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٥٧).

أترى أن الموتة الأولى-وهي عن الدنيا إلى البرزخ-هم ذاقوها في الجنة ؟
فلا يذوقون فيها مorte ثانية^(١) . ولا موت في الجنة فضلاً عن الأولى التي هي قبل البرزخ والجنة !

إنه إستثناء منقطع يستأصل عن الجنة أية مorte فيها فإنها دار الخلود ، وما أجمله تأكيداً لاستتصاله إستثناء ما مضى عما قد يظن أنه يلحق ، فهو إذا تأكيد ذو بعدين .

وترى هل الموتة واحدة قبل الجنة هي الأولى ؟ فلماذا الأولى وهي تلمح لغير الأولى ؟ وإذا كانت واحدة فلتكن «إلا الموتة عن الدنيا » لا الأولى .

ثم هي مرتان كما حملتهما الأيتان ، واحدة تنذر بمن يحصرها في الأولى «إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ: إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ...» (٤٤ : ٣٥) والأخرى تثبت الموتة الثانية « وقالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » (٤٠ : ١١) إذا فكيف لا يذوقون فيها إلا الموتة الأولى ؟

علّ الثانية-وهي عن الحياة البرزخية إلى الأخرى - تخص غير المؤمنين كما الأيتان لا تدلانها إلا لهم دون المؤمنين ، فالصعقة العامة بالنفخة الأولى

(١) ولئن سأل سائل هب ان اهل البرزخ يصعقون مorte كما الكافرون او غشية كما المؤمنون ، فما للاحياء الذين يموتون موتتهم الاولى بهذه الغشية ؟ فالجواب ان المؤمنين وهم الاكثرية الساحقة لا يموتون إلا مرة واحدة ، وسواهم قد تتكرر موتتهم فالاولى بهذه الصعقة والثانية بامانة خاصة بين الصعقتين .

هي للكافرين مorte ثانية ، وللمؤمنين دون مorte بصعقة ، ولمن شاء الله لا صعقة ولا مorte : «ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » (٣٩ : ٦٨) (١) .

أو علّ ذوق الموت يعني ذوق ألمه ، فالكافر يذوقه في المorte الثانية كالأولى ، والمؤمن لا يذوقه في الثانية لأنه في رحمة الله مهما مات ثانية ، رغم ذوقه في الأولى ، حيث الدنيا دار بلاء وعناء

وعل «فضلاً من ربك» يعني فضل الجنة ، وفضلاً قبلها أنهم لم يذوقوا المorte الثانية ، حيث لم يموتوا ثانية أو لم يذوقوا ألمها و«ذلك» هو الفوز العظيم .

عما لا يريه شك أن «من شاء الله» وهم أكرم الأكرمين على الله ، هم لا يذوقون المorte الثانية ، ثم من دونهم من المؤمنين بالله قد لا يموتون وإن صعقوا ، وقد يموتون دون ذوق لآله .

ولأن «لا يذوقون . . . » من ميّزات أهل الجنة وكما في الصادقي «وأحياء

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٤ - اخرج ابن مردويه عن انس (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : يجاء بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيعرفه هؤلاء ويعرفه هؤلاء فيقول أهل النار اللهم سلط علينا ويقول أهل الجنة اللهم إنك قضيت أن لا نذوق فيها الموت إلا المorte الأولى فيذبح بينهما فيأس أهل النار من الموت ويأمن أهل الجنة من الموت ، أقول يأس أهل النار هو من الموت فيها وهي باقية تخفيفاً عن العذاب . وأما الموت المطلق بعد تكملة العذاب فواقع قضية عدل الله ، ثم قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويقول أهل الجنة . . دليل على اختصاص . . لا يذوقون . . بأهل الجنة - فقد يذوقه أهل النار كما بيّناه . .

لا يموتون» ^(١) فليذق اهل النار مorte ثانية أمأهيه بعد الأولى ، منها المورة الثانية وهي عن البرزخ ، ومنها موتاتهم المستمرة في حياتهم الجهنمية . . ثم لا يموت فيها ولا يحيى» (٨٧ : ١٣) فرغم أنهم لا يموتون في النار فوتاً- اللهم إلا مع النار- فحياتهم لا تشبه الحياة ، وإنما أشر من الموت ، حيث يذوقون دوغماً انفصال أخطر بواعث الموت .

إذاً فللكافر بعد المورة الأولى موتات : عن الحياة البرزخية إلى الأخرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيى ومن ثم الموت المطلق مع النار حيث تموت النار بمن فيها كما حققناه في مباحث الخلود في النار.

وهلاً يكون في الجنة نومٌ كما ليس فيها موت ، قد يكون راحةً ، وقد لا يكون لأنه أخ الموت ولأنه من ذوق الموت، فالمورة الأولى والثانية معهما

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٣٣ ح ٥٧ في اصول الكافي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) انه قال حاكياً عن القرآن يأتي الرجل من شيعتنا الذي كان يعرفه ويبادل به اهل الخلاف فيقوم بين يديه فيقول ما تعرفني ؟ فينظر اليه الرجل فيقول ما اعرفك يا عبد الله ! قال : فيرجع في صورته التي كانت في الخلق الاول فيقول ما تعرفني ؟ فيقول : نعم - فيقول القرآن : انا الذي اسهرت ليلك وانصبت عيشك وفي سمعت الاذى ورجعت بالقول في ألا وان كل تاجر قد استوفى تجارتة وانا وراؤك اليوم ، قال : فينطلق به الى رب العزة تبارك وتعالى فيقول : يا رب عبدك وانت اعلم به قد كان نصيباً في مواظباً علي يعادى لسببي ويحب في ويبغض فيقول الله عز وجل : أدخلوا عبدي جنتي واكسوه حلة من حلل الجنة وتوجه بتاج فاذا فعل به ذلك عرض على القرآن فيقال له : هل رضيت بما صنع بوليك ؟ فيقول : يا رب اني استقل هذا له فزده مزيد الخير كله فيقول عز وجل : وعزتي وجلالي وعلوي وارتفاع مكاني لانحلن له اليوم خمسة اشياء مع المزيد له ولن كان بمنزلة ، الا انهم شباب لا يهرمون واصحاء لا يسقمون واغنياء لا يفتقرون وفرحون لا يحزنون واحياء لا يموتون ثم تلا هذه الآية « لا يذوقون فيها الموت الا المورة الاولى » .

موتات النوم ، والجنة ليس فيها موت ولا نوم^(١)

ولكن قد تدلنا على نومهم الراحة آية المقيّل : «اصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً واحسن مقيلاً» (٤٥ : ٢٤) فانه نوم نصف النهار ، ولكنها تعني مقيّل البرزخ قبل القيامة بدليل التالية لها : «ويوم تشقّق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً» (٢٥) ثم اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا .
﴿فَإِنَّمَا يَسِرَّنَا بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨).

هل إن تيسير القرآن بلسانه تسهيل لتفهّمه على ضوء اللغة العربية ؟ وقد تكون صعبة لا ميسرة ! وحتى إذا كان القرآن ميسراً بالعربية فـ «لعلهم يتذكرون» لا تختص بالعرب وإن هو الا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم » (٨١ : ٢٨) «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر» (٥٤ : ١٧) !

والحل أن اللسان غير اللغة ، فمهما كانت لغته عربية وهي خير اللغات وأيسرها تفهّماً ، ولكننا اللسان الرسالي المحمدي (صلى الله عليه وآله وسلم) له موقعه الخاص في «لعلهم يتذكرون» «فإنما يسرناه بلسانك لتبشّر به المتقين وتنذر به قوماً لئلا» (١٩ : ٩٧) «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم» (١٤ : ٤) وقوم أولي العزم من الرسل هم العالمون أجمع ، فلا بد لكلّ من لسان يفهمه العالمون أجمعون ، فليست إذا هي اللغة .

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٤ - اخرج البزار والطبراني في الاوسط وابن مردويه والبيهقي في البعث بسند صحيح عن جابر (رضي الله عنه) قال : قيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ! اينام اهل الجنة ؟ قال : لا - النوم اخ الموت واهل الجنة لا يموتون ولا ينامون .

فقد تكون اللغة صعبة واللسان ميسر، أو اللسان صعباً واللغة ميسرة،
والقرآن ميسر في البعدين لساناً ولغة، حتى إذا لا تعرف اللغة فلتعرف
اللسان الذي يترجم اللغة، وهكذا القرآن.

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ (٥٩).

ماذا يرتقب الرسول. وماذا يرتقبون؟ إنه يرتقب خلفية رسالته
ومفعوليتها، وهم مرتقبون به دوائر السوء.

وارتقب رحمة ربك وما وعد المتقين من مقام أمين، إنهم مرتقبون لك
خلافه من الموت القوت وفي الحق يرتقبون شجرة الزقوم.

وارتقب عاقبة أمرك اليسر وهم مرتقبون عاقبة أمرهم الإمر «ويا قوم
اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن
هو كاذب وارقبوا إني معكم رقيب» (١١: ٩٣).

وارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين «إنهم مرتقبون» وهناك فليخسر
المبطلون.

فكل يرتقب نتائج أعماله شاء أم لم يشاء، يوم الدنيا ويوم الدين، وما
عليك إلا البلاغ المبين.



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

(۴۵) سُبُوْرَةُ الْجَانِيَةِ مَكِيْنًا
وَأَيْنَا لَهَا نَيْسَجٌ وَتَلَاوُثٌ
مركز تحقیق تکامیل و علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝
 إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝
 وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝
 وَاخْتَلَفِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ
 رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ
 ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ
 بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ ءُؤْمِنُونَ ۝
 وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَى
 عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُّ مُتَكَبِّرًا ۝ كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرُهُ بِعَذَابٍ
 أَلِيمٍ ۝ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا
 ۝ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ مَن رَّآهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا
 يَغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ

أُولِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ
كَفَرُوا بِعَاقِبَتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّبِّهِمْ أَلِيمٌ ﴿١١﴾
* اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ
لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

﴿حَم﴾ (١) «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» (٢).

الجاهلية هي سادسة الحواميم السبع ، بازغة بتزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ! وهو القرآن المفصل النازل على صاحب «حم» طوال البعثة ، بعد المحكم النازل عليه في ليلة مباركة كما في خامسة الحواميم .

نرى تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم هنا الجاهلية وفي غافر الحواميم ، والأحقاف ، وفي الشورى هو العزيز الحكيم في ذلك الكتاب وما أنزل قبله من كتاب ، ثم في فصلت «تنزيل من الرحمن الرحيم» ثم لا نجده في الدخان فإنها بازغة بذكر الكتاب المحكم النازل في ليلة مباركة ، ولا في الزخرف البازغة بالكتاب المبين .

ففي الخمس التي يأتي ذكر القرآن المفصل يتلوه «العزيز الحكيم» إلا في

سورة الجاثية / آية ١ - ٣ ٤٣٧

واحدة من «الرحمن الرحيم». مما يلمح أن الحكيم في القرآن المحكم عزيز في تفصيله وحكيم في ذلك التفصيل وهو الرحمن الرحيم في عزته وحكمته وعزيز حكيم في رحانيته ورحيميته.

فعزته وحكمته بارزتان في تنزيل الكتاب، فأصبح بآياته كلها تدل على عزة غالبية وحكمة بالغة برحانيته ورحيميته.

هنالك تبرز كل رحمة وعزة وكل حكمة ممكنة التنزيل على العالمين إلى يوم الدين، فإنه إضافة إلى الشريعة الأخيرة الإلهية نسخته تدوينية في آياته عن كل آية في السماوات والأرض للموقنين، فـ «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يوقنون؟».

ندرس هنا مثلثاً من آيات التكوين هي آيات الله كشريطات تتكرر وأسطوانات تدار في كتاب الله التدوين والتكوين، تجمعهما الآية «سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد» (٤١ : ٥٣) وتفصلها «إن في السماوات - إلى - يؤمنون».

﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

السماوات هي السبع، والأرض هي السبع، وهما تعبيران عن الكون كله، وفيه ككل «آيات للمؤمنين» فالإيمان هو الذي يفتح البصائر والأبصار لتلقي الأصداء والأضواء والأنداء، حيث يخالط القلوب بشاشته ويحركها استجاشة، فتتحيا وتلتقط من الكون كله آيات ويصبح الكون كله لدى المؤمن آيات بينات، فلا يواجه طرفاً من الكون إلا وهو آية تزيده إيماناً بالله!

إن آية السماوات والأرض وما فيها من آيات لا تقتصر على شيء دون شيء ولا على حال دون حال، فانها آيات الله على اية حال «وفي كل شيء له آية تدل على أنه صانع»!

ولكن لمن ؟ لمن أبصر بها فبصرته ، دون من أبصر إليها فأغمته ، والآية هي هي بنفسها وإنما الاختلاف في شبكات الأبصار ، قوم عنها عمون ، وآخرون وهم قلة يبصرون ويتبصرون حيث هم مؤمنون ! إنها آيات الله وكلماته ، تحدثهم عن الله : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » (١٨) : (١٠٩) فإن البحر بمداده ومدده آية وكلمة لربي بقطراته ، إذاً فلا تقف كلمات الرب لحد تُحصى ونحن فيها غرقى ، في بحر ملتطم من كلمات الله وآياته الدالات ، ولا مدلول في الكون يملك من براهين الآيات ما يملكها الله ! لو مدَّ الإنسان ببصره ، وفتح غشاء قلبه وغطاء بصيرته في الأرض والسموات لتزاحمت الآيات وتراكبت عليه معلنة عن نفسها دالة على خالقها لمن ألقى السمع وهو شهيد .

وكما أن كتاب التدوين فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات ، كذلك كتاب التكوين ، فلنرجع متشابهاته إلى محكماته : إتضحاً لكيانها ودالاتها على بارئها العزيز الحكيم ، الرحمن الرحيم !

السموات والأرض آيتان ، وفيهما وما بينهما آيات ، آيات فيها آيات ودلالات لا تجد فيها قيد شعرة إلا ذات دلالة على العزيز الحكيم الرحمن الرحيم !

وترى إذا كانت آيات الأرض والسموات خاصة للمؤمنين ، فالكافرون قُصُر لا يدركونها ، فلماذا يُؤنَّبون ويعذبون ؟ إنها آيات لكل الناظرين ، وحيث لا ينتفع بها إلا من يمشي سبيل الإيمان فهي إذاً آيات للمؤمنين ، كما القرآن هدى للناس أجمعين ، ولكن لا يهتدي به إلا المتقون فـ « هدى للمتقين » فـ « المؤمنين » كـ « المتقين » هم الذين يفتحون أبصارهم ببصائرهم فهم بآيات الله يهتدون .

فأوليات درجات الإيمان تحصل بنظرة بسيطة في سائر الكون ، ثم توصل إلى يقين الإيمان بنظرة عميقة في مظاهر الحياة فإنها أغمض ، ثم نظرة أعمق في موجبات الحياة وهي أغمض وأعمق ، فالأولى لقوم يؤمنون والثانية لقوم يوقنون ، والثالثة لقوم يعقلون، خطوات ثلاث يتدرجها السالك إلى الله «فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ١٩» .

تلك هي سفرة في سائر الكون ، شاسعة فيه آيات للمؤمنين ، فبالى سفرة أخص منها وألمس ، حيث الحيوة الناطقة بآياته تزيد المؤمن إيقاناً :

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٤)

فآية الدابة وأنتم منها ، تزيد على سائر الكون حياة ملموسة ، مادية ملموسة مزيجية بلطفية ملكوتية غير ملموسة ، مما يزيد التدبر فيه يقين الإيمان وإيمان اليقين .

دابة مبعوث في بعدين ، بـثُّ أول بين السماوات والأرض : «ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بـث فيها ما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير» (٤٢ : ٢٩) .

وبـثُّ ثانٍ استمرارية التناسل بين زوجيها في كل من السماوات والأرضين ، كما وأن قرّن «خلقكم وما يـثب» بـ«السماوات والأرض» يلمح بوجود دواب في السماوات كما في الأرضين، الشاملة لكل من يستحق خطاب «كم» ففي السماوات عقلاء الدواب كما في الأرض من جن وإنسان أم أياً كان .

فـ«في خلقكم» وخلق «ما يـثب من دابة آيات لقوم يوقنون» حيث مجال الإتقان هنا أوسع لمكان الحياة في كل دابة وبـثها على قدر :

هنالك بـث في الزمان وبـث في المكانة وبـث في المكان ، لو لم تكن يد

ضابطة وممسكة بزمام الدواب في كل بيت لا تثبت وتفاوتت وطمعتت .
فالنسور والأسود جارحة وعمرها مديد وبأسها شديد ، ولكنها قليلة
البيض والفراخ بالقياس إلى العصافير والزرابير في نسلها الكثير الغزير ،
فلو كانت كما النسور لم يبق لها أثر ، فسبحان من خلق كل شيء بقدر .
وذبابه واحدة تبيض في كل دورة مئات الألوف ولكنها لا تعيش إلا
زهاء أسبوعين ، فلو كان فلت في الزمام دون لفت ونظام قاصد حكيم ،
فعاثت الذبابة أكثر من صالح النظام لغطت كل الأجسام والالحقت
الأضرار الجسام . . وهكذا كل دابة في كل بيت وبيت لا تثبت إلا على
قدر ، ففي خلق ما يثبت من دابة آيات لقوم يوقنون ! : تستيقن قلوبهم أن من
ورائهم مدبر قدير عليم حكيم سبحانه الخلاق العظيم !

ومن هنا نقلة في خطوة أعمق واعرق ، حيث التفتيش عن موجبات
الحياة في الأرض والسموات :

﴿وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٩٠) .

خطوات ثلاث في ساحة الآيات لقوم يؤمنون ويوقنون ويعقلون ، وكمال
الإيمان هو الإتقان ، وكمال الإتقان هو عقل الإيمان والإتقان ، تنتجها هذه
السفرات الثلاث من الخلق إلى خالق الخلق ، سبحانه العظيم المنان !
إختلاف الليل والنهار لا تعني تفاوتاً بينها بتضاد وابتداد ، فإنه آية
التضاد ، وإنما تعني مجيء كل خلف الآخر كسناد وعتاد : «إن في خلق
السموات والأرض وإختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب» (٣) :
(١٩٠) «... لآيات لقوم يعقلون» (٢ : ١٦٤) «لقوم يتقون» (١٠) :
(٦) .

فلو كانت هنالك صدقة عمياء لكان الفعل واحداً دون إختلاف ! ولو

كان الخلق من شركاء متشاكسين فيما يخلقون لما تواتر الليل والنهار خلف بعض بهذا النسق والنظام !. فالليل الراحة اللباس، والنهار المعاش، يتعاملان في صالح الإنسان، بما فيها من آيات كونية أخرى لأولى الألباب الذين يعقلون ويتقنون.

ليس اختلاف الليل والنهار إلا نتيجة دورات دائبة للأرض حول نفسها وشمسها، عائمة سابحة في الفضاء، دون دعامة ترونها تدعمها وتمسكها على فللكها وتديرها في مدارها، إلا قدرة العزيز الجبار، سبحانه الخلاق العظيم !

ثم وهذه الدورات لو كانت أسرع أو أبطأ مما هي الآن لاستحالت الحياة على الأرض، أمّا ذا من مخلفات ومقدمات اختلاف الليل والنهار لقوم يعقلون، كلما تقدم العقل تقدمت هذه الآيات في دلالات ودلالات، سبحانه الخلاق العظيم !.

ولفتة ثانية في هذه الخطوة تُلَفَّت أنظار ذوي العقول، هي تكملة الحياة الأرضية بنازل السماء :

﴿وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (٥)

ورزقها النازل منها من رازقها إلى مرزوقها في الأرض يعم كل نازل منها ينفع الأرض وأهلها، من مطر ووقد وبرد، ومن نور ونار من شمس وقمر ونجوم.

فشمسها بنارها تزجي سحاباً من الأبخرة الحصىلة بإشراقها فترجع ماء صافياً بقدر، كمصفاة دائبة الإصفاء كما الأرض تُصْفَى في خلالها، ثم النار النور من شمسها تساعدان على إغناء ثمارها ودوابها من إنسانها وسواها، أمّا ذا من عوائد مشرقة بذلك الإشراق، حيث تتعامل نازلات السماء ما ظهر منها وما بطن - في إحياء الأرض بعد موتها فأحيا به الأرض بعد موتها .

فلو كانت الشمس ناراً دون نور ، أم نوراً دون نار ، أو انحصر ماء السماء بحارٍ دون بَرْد ، أو بَرْدٍ دون ماء ، أمّا ذا غيرهما هي الآن ، لانحسرت الحياة عن الأرض أو ما حصلت ، ومن ثم : « وتصريف الرياح » ... تصريفه الرياح ، وتصريف الرياح السحاب المسخرين الأرض والسماء ، فلولا هذا التصريف أو ذاك لما انصرفت الرياح إلى حيث يصلح ، ولتصريف الرياح علاقة بارزة بدورة الأرض وظاهرتي الليل والنهار والرزق النازل من السماء ، وعلاقة أخرى بتدوير وتدبير الأمطار ، وتوجيه البحار والأنهار، أمّا ذا من رحمت مقصودة لله الواحد القهار ، حيث تتعامل في تجاوب عاقل لصالح الحياة على الأرض ، لولاها لصعبت أو استحالت : « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (٢ : ١٦٤) ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ قُبَايَ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦).

هنالك إيمان بآيات الله فأيقاناً وعقلاً عنها دلالة على الله ، وإيمان بالله مدلولاً عليه بملككم الآيات ، فهل هنالك دليل أهدى من آيات الله ، أو مدلول أقوى من الله «قُبَايَ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ» ؟ .

وترى آيات الله حديثاً فإنها حادثة بما خلق الله، فهل الله نفسه كذلك حديث ؟ هنا حديث في ذاته ودلالته هي آيات الله، وثم حديث في كونه مدلولاً عليه سرمدى في ذاته هو الله ، فإذا كان الله ولم يكن معه شيء ، فهو الأزلي فوق حديث ، وإذا عُرف الله بعد خلقه آياته فالتبصّر بها فالإيمان به ، فهو حديث في الإيمان به ، فبأي حادث في الكون بعد الله معرفة به وإيماناً وبعد آياته يؤمنون ، فالله تعالى مدلولاً بآياته دون ذاته حديث، كما

آياته حديث ، او ان «بعد الله وآياته» تعني بعد حديث الله في كتاب التدوين القرآن ، وبعد حديث آيات الله في كتاب التكوين ، تؤمنون .

فمن الحديث مبصر ومسموع يُعقل ، ومنه غير مسموع يُعقل ، ولا ثالث للحديث ، فهل بعد كتاب الله حديث فوقه أو مثله ، وهل بعد آيات الله في سائر الكون حديث فوقه أو مثله ؟

لسان التدوين يحدثكم بأفصح بيان وأبلغه ، ولسان التكوين يحدثكم بأفصح بيان وأبلغه ، «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» تدوينا وتكويناً «فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير» (٦٧ : ٤١) ! .

فأنتم بين من لا يفهم أي حديث يدل على ما غاب من علم ؟ فكالأنعام وأضل سبيلاً ! أم تفهمون حديثاً به تعرفون فتؤمنون .

فهل في الكون حديث أبلغ من كتابي التدوين والتكوين ، والكون كله آيات الله ، وكتاب الله يحدثكم عنها وعن شريعة الله ، فإذا لا تؤمنون بحديث الله القرآن ، وبحديث آيات الله الكون ، محدثان بليغان ما أبلغهما عن الله «فبأي حديث بعد الله وآياته تؤمنون» .

فإما كفر مطلق بكل حديث ، أو إيمان مطلق بالله حيث يحدثكم عنه كل حديث ، فنفسك حديث ، وعالمك حديث ، وكتاب الله حديث ، يحدثك بلسان الفطرة والعقل ، بلسان الحال والقال ، بلسان التدوين والتكوين ، وبكل لسان يفهمه أي إنسان ، فإذا لا يؤمنون بحديث الله وآياته «فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون» ؟

أنت وكل كائن يحمل عقلاً أو أية مرتبة من الإدراك ، تعيش كوناً كله آية ، وكله لسان ، وكله حديث ، يحدثكم عن حكمة واحدة بارعة وتصميم فكيف به تكفرون وبكل ما تشتهون تؤمنون : «أفلم ينظروا في ملكوت

السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون» (٧ : ١٨٥) «كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين . وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين . فبأي حديث بعده يؤمنون» (٧٧ : ٥٠)

حديث الله القرآن هو أحسن حديث الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . . . (٣٩ : ٢٣) والكون-وهو أحسن الحديث- كله آيات الله ، محدثان عن الله ما لهما من مثيل فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

الإفك هو كل مصروف عن وجه الحق ووجهته ، قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً أما ذا من صرف عن الحق ، فالأفك هو المبالغ في الإفك ، والأثيم هو الذي يعيش الإثم كأنه لزامه في حياته ، والأفك الأثيم هو الذي يسمع آيات الله البينات من تدوينية القرآن وتكوينية الكون ، ويسمعها تتلى عليه ، ثم يصير مستكبراً ، في استكبار صارم عارم ، دون أن يهتدي بها إلى الله ، كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم .

ويل لفطرته المحجوبة، وعقله الغارب، وقلبه المقلوب، وكل كيانه الإنساني المتغافل عنه ، ويل في أولاه وأخراه ، في مبدئه ومنتهاه ، فهو ويل في مقاله وفعاله ، في حله وترحاله ، وي كأنه الويل كله ، أو كأن الويل هو هو كله ، فهم شياطين وتنزل عليهم الشياطين : «هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم. يلقون السمع وأكثرهم كاذبون» (٢٦ : ٢٢٣).

وإنها صورة بغیضة متكررة في كل جاهلية ، لو أن لها بشارة فهي عذاب أليم ، فضلاً عما لها من نذارة ، إذ تعجز عن تعبيرها كل صيغة «يسمع آيات الله» ولا يتسمّعها فلا يتفهمها ، حتى :
﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٩) .

إذا علم-وتفهم في كرور الآيات ومرورها على مسامعه - علم شيئاً ، لم يأخذها بعين الاعتبار، ولم يتذكر بها بل اتخذها هزواً ، إهانة بها ومهانة ليسقطها عن أعين الناس «أولئك لهم عذاب مهين» كما أهانوا آيات الله ، مهين بمهين، وأين مهين من مهين ؟!

وترى العذاب المهيّن لهم - فقط - يوم الدين ؟ كلاً ! فإنه مهان أينما كان وأيان، في حساب الله وحساب عباد الله ، مهما تظاهر الشياطين في احترامه مصلحياً لهم وخوفاً منه ، حيث الهازيء المهيّن بآيات الله بأحرى هو مهين بخلق الله ، لا يعرف لمن سواه احتراماً إلاّ اختراماً ، وفي حين يُحترم خوفاً ومصلحياً ، يُحترم واقعياً في الأولى ، ثم :

﴿وَمِنْ وَّارِثِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠) .

«من ورائهم جهنم» دليل أن عذابهم المهيّن بأدى يوم الدنيا وإلى يوم الدين ، ولا يغني عنهم هناك ما كسبوه من مال ومنال يملكونها «ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء» - إذ ملكتهم - شيئاً ، ضعف الطالب والمطلوب «ولهم عذاب عظيم» فوق أنه مهين .

﴿هَٰذَا هُدًى وَلِلَّهِ كُفْرُوًا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ﴾ (١١) .

«هذا» القرآن البيان «هدى» تدوينية تجاوب هدى تكوينية ، آيات

وآيات تتعامل في «هدى» فالضابطة العامة «والذين كفروا بآيات ربهم» رغم هداها ولهم عذاب من رجز أليم» والرجز أصله الإضطراب، فهنا مثلث العقاب الإضطراب الأليم، دركات يدركونها بميزانية تكذيب الآيات.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١٢) «وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»^(١٣).

خطوة رابعة رائعة للمساكين إلى الله لقوم يؤمنون ويوقنون ويعقلون أنهم يتفكرون، فيما سخر لهم البحر جرياً لفلكه بأمره ابتغاء فضله ولعلكم تشكرون، بل «وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه».

وترى ذلك تسخير البحر وما في البر، فكيف سخر لنا ما في السماوات، وليس لنا خبر حتى الآن عن كثير مما في السماوات، بل ولما نخلص خبر الأرض فأين ذلك التسخير وأتى؟

ذلك التسخير لكم له بُعْدَان، أصلي هو الله حيث سهل في الكون مسالك الإنسان وأقرانه لا ابتغاء فضله من بحر وبر وجو في الشعاع المستطاع لأي كائن، فقد نظم الكون بأجمعه بحيث ينتفع به كل كائن، عليم ما سخر له أم لم يعلم، فالشمس بتسخير الله تجري لصالحنا كما لسائر الكون، والنجوم مسخرات بأمره، أمّا ذا من كائن في الأرض أو في السماوات «جميعاً منه»: حال أن الجميع من المسخر والمسخر له والمسخر لأجله والمسخر معه، منه لا سواه! «وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير» (٧٩: ٢١) إذا فليس هناك تسخير من الإنسان أو أيّا كان، وإنما تسخير لأجل الإنسان- وفوقه معه- كما سخر مع داود الجبال والطير.

ومن ثم تسخير لنا في بُعد ثان أن هيا لنا أسباباً عقلياً وعلمياً أمّا ذا للكشف عن رموز من الكون نستطيع على ضوئها الحصول على خبايا

وخفايا في الأرض والسماء تجمعها كافة المحاولات العلمية في مختلف الحقول في تقدم متواتر .

فالكشف الذرية والأشعة ما فوق البنفسجية وأضرابها من كشف علمية وحتى نزولنا إلى القمر أمّا ذا من أجواء عالية وكرات ، كل ذلك مما سخر لنا ، ولكن على ضوء الجهود المتواصلة ، وإن كانت هنالك تسخيرات لصالحنا من الكون كله ننتفع بها دون وسيط ام بوسيط بسيط كالفلك التي تجري في البحر بأمره أمّا ذا من خلفيات ونتائج في تسخيرات تصلنا دون غور في خضمّ الإكتشافات الملتوية الصعبة والشائكة .

ومهما كانت هنالك فوارق بين هذه وتلك ولكنها «جميعاً منه» دون استقلال في أي استغلال للإنسان إلا على ضوء القوانين المقررة الكونية من ناحية ، والاستعدادات المتعالية الإنسانية من أخرى : «الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار» (١٤ : ٣٤) ف«سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» (٤٣ : ١٣) .

فلا يعني التسخير لنا أو معنا أن نستقل فيما سخر لنا ، أو المناصرة مع المسخر ضدّ صالح الكون ، وإنما السلوك في السبل الكونية جلية وخفية ، المقررة لنا .

فمثلاً مكائن التفريخ وأمثالها مما نستبدلها من مخترعاتنا بما خلق الله ، إنها من تسخير الله في بُعد ثان ، حيث هدانا إليها بما نبذل من جهود ونصرفها من طاقات وإمكانيات و«إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» فالفكر حركة من المبادئ ومن المبادئ إلى المراد، وهذه الحركة الفكرية في الكون المسخر لنا من الآفاق والأنفس، من الأرض والسماوات وما فيها من خبايا

وطاقات كامنة منتظمة، إنها آيات دالات على مدبر حكيم سبحانه الخلاق

العظيم .

فهناك إيمان وإتقان وتعقل وتفكير مع ركب الكون كآيات إلهية ربانية ،
توصلنا إلى خالق الكون .

قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا

يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ

فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي

إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ

الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ

بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ

الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ

الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾

إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَبَعْضُهُمْ

أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ لِلَّهِ وَلِى الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا

يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

أيام الله وما هي أيام الله ؟ ليست كل الأيام لله حتى تقسم
الأيام بما لله وما لغير الله ؟ وكل مكان وزمان لله !

أجل الأيام كلها من الله والله ، ولكن-الظاهر فيها حكم الله ، والحاكم
فيها الله لا سواء-ليست هي كل الأيام ، فكما أنه مالك يوم الدين وإن كان
مالكاً ليوم الدنيا ، كذلك في الدهر أيام خاصة بالله لا دور فيها
لسواء ، كيوم الرجعة ويوم البرزخ ويوم القيامة ، فالأول رغم كونه في
الأولى هو من أيام الله حيث الحاكم فيه بقية الله عليه سلام الله، والأخران هما
له إذ تقطعت الأسباب فلا حكم إلا لله « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » .
ليس يخص أيام الله بالآخرى فإنه يوم لا أيام ، ولا هو مع البرزخ
الوسطى فإنها يومان لا أيام ، وأقل الجمع ثلاث ، فالقدر الثابت من أيام
الله ثلاث ، وقد تكون هي الأصلية وأيام أخرى على هامشها !

لا نجد أيام الله في سائر القرآن إلا هنا وفي إبراهيم : « ولقد أرسلنا
موسى إلى قومه أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله
إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » (٥) (١) .

(١) هنا روايات ثلاث إحداها ما رواه العياشي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في
الآية « وذكرهم بأيام الله » قال : بآلاء الله يعني بنعمته ، والثانية في كتاب الخصال عن
مثنى الحنات قال سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول : أيام الله يوم القائم ويوم الكرة
ويوم القيامة ، والثالثة ما أورده القمي في تفسيره في الآية قال : أيام الله ثلاثة : يوم
القائم (عليه السلام) ويوم الموت ويوم القيامة .

في الدنيا لله أيام مركزها الرئيسي يوم الرجعة والقائم، ثم وعلى ضوئه كل يوم يغلب فيه حكم الله ، فهو إذا يوم واحد تجمع به بركات الله على أوليائه، ومنذ الموت حتى القيامة يوم ، واليومان محدودان ، ومن ثم القيامة الكبرى دون حدٍّ إلا ما يحدده عدل الله في أهل الجحيم حيث يفنون أخيراً بفناء الجحيم .

والذين لا يرجون أيام الله هم الناكرون والمترددون في هذه الأيام ، دولة عالمية ، ثم برزخ ، ثم قيامة ، وبصيغة أخرى: قيامة صغرى ثم وسطى ثم كبرى هي أيام الله التي لا يرجوها إلا أهل الله .

من حق أيام الله أن تُرجى إذ تعني هذه الثلاث ، أو تُخاف كأيام العذاب الإستئصال، والثانية لمن لا يرجو الأولى .

وترى كيف يؤمر الذين آمنوا أن يغفروا للذين لا يرجون أيام الله وهم خطر وشرر على الكتلة المؤمنة؟ ثم وكيف يغفرون وليس الغفر إلا بيد الله، وهو أيضاً لا يغفر حيث غفرهم يعني «ليجزى» قوماً بما كانوا يكسبون ؟! الغفر وهو الستر والإغماض، قد يعني غفراً إلهياً لا يتكفله غير الله ولا سيما فيما الله واعد في العذاب كما هنا ، أم غفراً بشرياً فيما يحق له الانتقام ولا يسطع أم لا تناسبه الظروف كما في العهد المكي، فليغفر حتى يأتي الله بأمره كما في العهد المدني ، أم غفراً في الدعوة غير الناجمة لمن كتب عليه العذاب حيث الإنذار وسواء عليه سواء ، فليغفر الإنذار إعراضاً عن الدعوة ليدوقوا وبال أمرهم «ليجزى» قوماً بما كانوا يكسبون ، وهذا الغفر يستمر في كافة العهود الرسالية للذين آمنوا .

إذا فآية الغفر ليست منسوخة بآيات القتال المكية حيث الغفر الأخير مستمر في ممرات الدعوة، والثاني مستمر في ظروفه طوال الدعوة ، مهما كان العهد المكي من أبرز مصاديقه ، فللمسلمين عهود تختلف، ولكل ظرف

عهذه من قيام وقعود وحرب وصلاح ، ومن الغفر للذين لا يرجون أيام الله ترك الدعوة حين لا تؤثر إلا مزيد الطغيان فحرب وإبادة ، كما منه تركهما إذ لا يسطع المحاربة ، وكل يتطلب ظرفه المناسب له ، والظرفان مشتركان في استحقاق العقوبة «ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون» .

فالفجر - إذا - قد يكون رحمة من الله أو من أهل الله كسائر موارد التسامح عن المذنبين ، وقد يكون نقمة كما في ترك الدعوة مقاطعة لإقامة الحجّة للذين «سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» وهذه المقاطعة تزيد المقطوع عنه طغياناً وكفراً فعذاباً فوق العذاب ، أم في ترك الإنتقام إذ لا تسطع فإلى الله المصير فيما لا تسطع «ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون» (١) .

كما ومن الغفر واجب ومنه راجع ومنه محرم ، ولا يؤمر الذين آمنوا إلا بغير المحرم ، فترك ملاحقة الكفار والمفسدين عند المكنة محرم ، وترك الأمر والنهي في ظروفها المتطلبية لها محرم ، وترك الدعوة فيها تؤثر أو تزيد حجة محرم ، فمثلث الغفر هذه محرم لا تغني آية الغفر هذه كما لا تعني الغفر المستحيل وهو السماح عن الذنوب الخاص بالله .

﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥)

فكل من العمل الصالح والطالح يرجع بلزام آثاره الى عامله ، مهما (١) نور الثقلين ٣ : ١ ح ٦ عن تفسير القمي في الآية قال : يقول لئمة الحق لا تدعون على ائمة الجور حتى يكون الله الذي يعاقبهم في قوله «ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون» حدثنا ابو القاسم قال حدثنا محمد بن عباس قال حدثنا عبد الله بن موسى قال حدثني عبد العظيم بن عبد الله الحسيني قال حدثنا عمر بن رشيد عن داود بن كثير عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية : قل للذين متنا عليهم بمعرفتنا ان يعرفوا الذين لا يعلمون فاذا عرفوهم فقد غفروا لهم ، أقول ليست معرفتهم غفراناً لهم الا في تاركة الدعوة حيث أيسوا بما عرفوهم من هداهم .

أثر في الآخرين ، فمن سن سنة حسنة كان له مثل اجر من عمل بها الى يوم القيامة ولا ينقص اولئك من اجورهم ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزر من عمل بها الى يوم القيامة ولا ينقص اولئك من اوزارهم شيئاً ، جزاء من ربك عطاءً حساباً وعقاباً وفاقاً .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٧) .

ذلك بيت اسرائيل ، أوتي مثلاً من الرحمة : الكتاب والحكم والنبوة ، في الرعي الأعلى منهم ، ومن ثم رحمة عامة : «ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين» .

فقد جمعت لهذا البيت المفضل على العالمين مجامع الرسالة ، من رسول جمعت له «الكتاب والحكم والنبوة» كموسى والمسيح (عليهما السلام) كتاب مستقل وحكم رسالي مستقل ونبوة ورفعة في الحكم الكتاب .

ومنهم من أوتي كتاباً برسالة دون حكم ولا نبوة ، اللهم إلا حكماً مَلِكِيّاً كداود وسليمان ، أم حكماً على هامش ولي العزم كسائر الحكم في سائر المرسلين ، وأما النبوة المطلقة وهي رفعة في الحكم الرسالة فهي لولي العزم خاصة ، فكل نبي رسول وليس كل رسول نبياً فـ «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض» .

ومنهم من أوتي حكماً دون كتاب ولا نبوة كطالوت ملك اسرائيل ، حكماً عن ضوء الرسالة وليس حاكمه من الرسل ، فما أوتي كتاباً فضلاً عن نبوة .

ثم الذين لم يؤتوا كتاباً ولا حكماً ولا نبوة في أنفسهم ، عاشوا مثلث هذه الرحمة ، حيث كانت لهم وإليهم كرأس الزاوية الرسالية ، ثم وهم رزقوا

من الطيات وفضلوا على العالمين .

﴿وَأَتَيْنَاهُمُ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٧) .

هنا «بينات» من أمر الشريعة التوراتية ، وبينات من أمر الآية الرسالية ، آيات بينات تكوينية وتدوينية ، حاسمات فاضلات لا غموض فيها ولا عوج ولا انحراف ، بينات ربانية كالشمس في رابعة النهار لا تدعو إلى اختلاف ، وإنما إلى العلم الواضح .

«فما اختلفوا» في بينات الأمر رسالة وكتاباً «إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم» بغياً على البينات، وعلى حكمة البينات بعضهم على بعض ، وبغياً على الأمة ، تحريفاً كما يهودون، وتجبدياً كما يشاعون «إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» .

ولقد وصل أمرهم في اختلافهم في أمرهم إلى حدٍ من تكريمهم في أمرهم لا يتحمل ، إلا أن يتحول أمر الشريعة إلى غيرهم وكما هددوا في التورات ولكن لا حياة لمن تنادي !

في العهدين الجديد والعتيق بشارات بانتقال أمر الشريعة الإلهية إلى بيت اسماعيل في الرسالة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) ونموذجاً منها ما في حزقيال ١٩ : ١٠ - ١٤ «أملك مثل كرمه غُرست على المياه فصارت كثيرة الثمار والأفنان من غزارة المياه» (١٠) وصارت قُضبان صُلبة صوألجة للسلطين وارتفع قوامها بين الفروع الملتفة فظهرت في ارتفاعها وكثرة عذباتها (١١) ثم إنها قلعت بُحْتَق وطرحت على الأرض فأبيست الريح الشرقية ثمرتها وكُسرت قُضبانها الصلبة وأكلتها النار (١٢) والآن هي مغروسة في البرية في أرض قاحلة ظمئة (١٣) فخرج من قُضبان شُعبها نار أكلت ثمرتها فلم يبق فيها قُضيب صُلْب صَوْلجان للتسلط هذارئاً ورئاً سيكون (١٤) .

فالكرم هنا ابراهيم حيث المخاطب في أمك اما حزقيال او كافة بني اسرائيل ، فالأغصان هي نسل إبراهيم من بيت اسرائيل ، إذ سكنوا فلسطين فنموا وريّوا وتمتعوا فتحصلت من هذه الأغصان قُضبان صلبة هي النبوة الإسرائيلية ، «ثم قلعت بحق وطرحت» وهي انقضاء الحكم والنبوة والكتاب عنهم «والآن هي مغروسة في البرية في أرض قاحلة . . » هي برية فاران أرض الحجاز ، حيث تحولت القُضبان الإسرائيلية من هذه الشجرة الإبراهيمية إلى قضبان إسماعيلية في الرسالة الأخيرة المحمدية ، والنار الخارجة منها هي الشريعة النارية التي هي نار للشاردين ونور للواردين ، نارٌ تحرق كل أغصان الباطل ، وتورق أغصان الحق من تلك الشجرة الطيبة . . «^(١)» -

ذلك ما تلمح به أي من الذكر الحكيم ، حين تذكر رحمة الكتاب والحكم والنبوة وريزقهم من الطيبات وتفضيلهم على العالمين :

«ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ^(١٨) إِنَّهُمْ لَن يَغْنَوْا عَنْكَ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ^(١٩)» .

إنه لا بد من حكم في الجماهير المحتشدة المختلفة ، فإما شريعة من امر الله وإما شرعة الأهواء الهباء ، فلا وسط بينهما ولا أنصاف حلول ، فشرعة الأهواء الخالصة أو الملتقطة من الشرعتين هما على سواء ، وقد تكون الضلالة في شرعة الالتقاط أعمق وأهوى ، حيث تبرز الحق بمظهر الباطل ليتجنب ، والباطل بمظهر الحق ليتبع ، فهناك استحوذ الشيطان على أوليائه

(١) راجع كتابنا (رسول الاسلام في الكتب السماوية) ص ٣١ - ٣٢ - وفيه بشارات اخرى كهذه تدل على انتقال الشريعة من بني اسرائيل الى بني اسماعيل .

ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى ! فلا يترك أحدُ شرعة الله إلا ليحكم الأهواء ، فكل ما عدى شرعة الله الخالصة هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون ، سقطات في هَوَات ولأتباع ضلالات !

أمر الله - وهو دينه - واحد والشرائع إليه عدة تنحو منحى واحد ، مهما اختلفت الشكليات حسب مختلف القابليات والبلديات : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب » (٤٢ : ١٣) (١) .

إن الأمر الدين هو كتاب الوحي ورسول الوحي بينات الوحي ، وفي هذا المثلث تُرسم شرعة من الأمر ، وشرعية من الأمر - الأخيرة - هي تحمل الأمر كله ، والشرائع المستقدمة عليها نبيات لها ومبشرات بها ، ومحضرات إياها للعالمين إلى يوم الدين .

إتباع هذه الشرعة منذ بزوغها إلى يوم الدين هو الدين كله ، والأمر كله ، كما إتباع سواها إتباع لأهواء الذين لا يعلمون ، على دركاتهم في الـ « لا يعلمون » من ملحدين ومشركين وكتابين أو مسلمين إلتقاطيين آمن ذا من هؤلاء الذين ينجرفون عن محض شرعة الإسلام إلى غير محضها، مهما كان خليطاً منها وسواها ، أم كلها سواها أم ماذا ؟

إنها شريعة واحدة تستحق هذه السمة « فاتبعها » ثم ولما عداها « ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » ولماذا تتبعها تركاً لشرعة الله أو لشيء منها ؟

(١) راجع تفسير الآية في الشورى تجد فيها بحثاً مفصلاً يساعدك على ما هنا من امر الشرعة الأخيرة .

هل ليغنونك من الله شيئاً في تشريع شرعة، ولا مشرّع إلا الله « فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً! »

أم ليغنونك بديلاً عنها أو عن بعضها نصرة لك في الدعوة أو كثرة في اتباع الدعوة فـ«لن . . » فإنهم وأنصارهم إذاً أتباع أهوائهم دون هذه الشرعة !

أم ليغنونك يوم القيامة بديلاً عن عذاب الله ؟ و«لن . . » فإنهم يكفيهم ما هم فيه من عذاب عظيم ! أما إذا من إغناء ترجوه منهم فـ«هم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين » فلا يغني عنك من الله هنا وفي أيام الله إلا الله ، وهو لا يغني إلا المتقين المتحرزين عن إتباع الأهواء .

إن الظالمين بأمر الله وشرعته ورسول الله وكتابه ، هم بعضهم أولياء بعض ، فلا تكن من هؤلاء الأبعاص فـ«الله ولي المتقين » دون الظالمين . فاتّباع غير هذه الشريعة من الأمر ظلم وضلال مهما كان في حكم مصلحياً أو أحكام ، فشريعة الله لا يتأجر بها ، ولا تخالفها أهواء الذين لا يعلمون .

هكذا يؤمر الرسول فأحرى بمن سواه من المكلفين إلى يوم الدين أن يتخذوا شرعة القرآن وعلى هامشها السنة الإسلامية ، يتخلّونها لا سواها نبراساً ينير الدرب على الحائرين، ومتراساً يجابهون به الماثرين !

هَذَا بَصَرٌ لِلنَّاسِ

وَهْدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ

أَجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ

نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ

إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمِهِ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ

وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصِيرِهِ غِشًّا فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا

وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ

إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ

مُجْتَنِبُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَشَاءُ بَأْسُنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾

قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ
مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ
يَحْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾

﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٢٠).

« هذا » الأمر شريعة من الأمر وهي في الحق الأمر كله ، وعله لذلك
يشار إليه بـ « هذا » دون « هذه » مع التصريح المسبق « شريعة من
الأمر » ، « هذا بصائر للناس » .

والشريعة في الأصل هي الطريقة المقضية إلى الماء المورود ، والشرايع
هي طرائق إلى الأمر الدين الحياة الرِّواء ، وهذه الشريعة تُرَوِّي الظَّمآن من
مائها المورود كله ، فهي مر وهو هي « بصائر للناس » .

والبصائر جمع بصيرة ، وهي المبالغة في الإبصار وهو الإدراك المصيب
للمواقع ، كما « الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيرة » (١٥:٧٥)
فالقرآن مجموعة من البصيرة ، ولأنه الصراط المستقيم ، لا يحيد سالكه عن
رحمته وهداه حتى يوصله إلى يقينه « وهدى ورحمة لقوم يوقنون » من علم
اليقين وعين اليقين وحق اليقين .

سائر الشرايع من الأمر ليست بصائر في نفسها بكتابات وحياها إلا على
ضوء اثباتاتها ببصائر الآيات المعجزات وأهمها واجمعها وأغناها بصائر شريعة
موسى : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى بصائر

سورة الجاثية/ آية ٢٠-٢١ ٤٥٩

للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون» (١٨ : ٤٣) ولكنه بصائر بعد هولاء الآيات : « ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مشبوراً » (١٧ : ١٠٢) :

فبصائر الكتب الشرعة في سائر الرسائل منفصلة عن بصائر الآيات المعجزات ، ولكن بصائر الشرعة الأخيرة يجمعها القرآن ، فهو بنفسه أفضل وأكمل آية معجزة لهذه الرسالة وهذه الشرعة ، ومهما كان نبيُّه بصيرة : « قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن إتبعني » (١٢ : ١٠٨) ولكنه قد لا يصدق في سبيله الرسالية إلا على ضوء بصائر القرآن : « وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبتنا قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (٧ : ٣٠٣) :

كل آية من هذا البصائر بصيرة تحمل بصائر في كافة الحقول لأرباب العقول ، بصيرة فطرية - عقلية - فكرية - علمية - قلبية ، بصيرة للأبصار والبصائر ، وبصيرة فردية واجتماعية ، ثقافية وسياسية ، واقتصادية وحقوقية ، أخلاقية ومعرفية أما إذا من بصائر ، تجعل الإنسان الذي على نفسه بصيرة ، تجعله نبعة البصائر ، وتضيء له الدرب إلى المسائر والمصائر .

« هذا بصائر للناس » ككل ، ولكنها لا تبصر إلا من استبصر بها فتبصر ، إذاً فهو « هدى ورحمة لقوم يؤمنون » (٧ : ٢٠٣) ومن ثم « هدى ورحمة لقوم يوقنون » ، فهناك إيمان ثم إيقان في مراتبه الثلاث .

فلا ذريعة للإيمان الإيقان إلا بصائر القرآن ، دونما حاجة إلى بصائر عقلية فلسفية أو علمية من غير القرآن ، أنتظن الله أهمل طرفاً من ذرائع الإيمان والإيقان في قرآنه البيان و « فيه تبيان كل شيء » ؟! و « إن هذا القرآن هو النور المبين ، والحبل المتين ، والعروة الوثقى ، والدرجة العليا ، والشفاء الأشفي ، والفضيلة الكبرى ، والسعادة العظمى ، من أثره على

ما سواه هداه الله ، ومن طلب الهدى في غيره أضله الله ، ومن جعله شعاره ودثاره أسعده الله ، ومن جعله إمامه الذي يقتدي به ومعوله الذي ينتهي إليه أداه الله إلى جنات النعيم والعيش السليم^(١)

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾^(٢)

« أم » الإضرابية في عطفها توحى بمعطوف عليه يناسب معطوفها كـ « أحسب الذين اجتروحوا السيئات إن هي إلا حياتهم الدنيا » كما ينقل عنهم بعد هنيئة ، « أم .. نجعلهم .. »

وتلك هي قولتهم الخواء تنازلاً عن نكران الحياة بعد الموت أن الله سوف يسوي بينهم في الحياة الأخرى في رحمته « أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ». فكما كانوا في محياهم سواء في عدم الانتقام من ظالمهم لمظلومهم ، كذلك في مماتهم ، ف « سواء محياهم ومماتهم » بما لهم الرجاحة في الحياة الدنيا وكان الله عليهم أعطف وبهم أرحم وأراف ! « ساء ما يحكمون » بين المحسن والمسيء ، ويحكمون على الله أنه ظلام للعبيد ، فستواء لم تكن هناك حياة الحساب بعد الموت ، أو كانت ولكنها سواء بين المحسن والمسيء ! وقد تعني « سواء » المساواة بين الحياة اللا حساب ، والممات اللا حساب ، إما لأن الموت فوت ، أو أنه حياة دون حساب كما الحياة الدنيا ، فالتسوية بين حياة الفريقين ومماتهم ظلم وبطلان لخلق الكون ، فمهما كانوا سواء في محياهم في اللا حساب على رجاحة مجترحي السيئات في الحياة ، ففي مماتهم حساب يجبر ما جرحوا وظلموا ، ويجبر المظلومون المؤمنون .

فرغم أن محياهم في اللا حساب سواء ، والظالمون هم المفضلون في

(١) اصول الكافي ج ٢ ص ٦٠٠ عن النبي (صل الله عليه وآله وسلم) .

حظوة الحياة الدنيا ! فمما تهم ليس سواء إلا حياة بعده أم ليست هي حياة الحساب !

ويلهم من هذه الرعونة النكراء ، الطاغية على خلق الله وعلى الله : ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢٢) .

إن خلق الكون بالحق ، مادة ومدة ، عِدَّة وعُدَّة ، مصاحباً « بالحق » وهادفاً « بالحق » ، ولتُجْزَى كل نفس بما كسبت ، في مجموعة الكون « وهم لا يُظلمون » كل ذلك يناحر قولتهم الخواء : « سواء عيائهم ومماتهم » أم و « ما هي إلا حياتنا الدنيا » اتسوية ظلمة هادفة بين المحسن والمسيء : وبين الظالم والمظلوم ، تجعل خلق الكون لهواً وباطلاً بما هم يُظلمون ، أجهلاً بما يُظلمون ! أم عجزاً عن جزائهم ، أو ظلماً « وأن الله ليس بظلام للعبيد » ؟ !

سيات مجترحة شرف الإنسانية ونواميسها ، وساحة الربوبية وسماحتها ، ثم يُتغافل عنها أو يعامل معها معاملة الحسنات ؟ ويجهل أنى يؤفكون ، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون !

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٣) .

« أرايت من اتخذ إلهه هواه أفانت تكون عليه وكيلاً » (٢٥ : ٤٣) كلا ! إذا فلا هداية بعد من الله ولا وكالة لرسول الله ، حيث انقطع بتأليه هواه عن ولاية الله !

إن لا تباع الهوى دركات أسفلها الطاعة المطلقة للهوى : أن يصبح صاحبها سلس القياد لها دونما تخلف عنها كأنه يعبدها ، فالآله من يؤله فيه

وَيُحْتَارُ وَيُعْجَزُ عَنْ دَرْكِهِ وَيَفْزَعُ لَهُ وَيُسْكِنُ إِلَيْهِ فَيُعْبِدُ ، وَمَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ هُوَ غَيْرُ مَنْ اتَّخَذَ هَوَاهُ إِلَهَهُ ، فَالْأَوَّلُ يَعْرِفُ إِلَهَهُ وَلَكِنَّهُ يَرْفُضُهُ وَيَسْتَبْدِلُ بِهِ هَوَاهُ يَطِيعُهَا كَمَا يَحِقُّ أَنْ يَطِيعَ اللَّهَ ! وَالثَّانِي قَدْ لَا يَعْرِفُهُ فَيُظَنُّ هَوَاهُ ، فَذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ إِلَهِهِ وَهَوَاهُ وَلَكِنَّهُ يَجْحَدُهُ إِلَى هَوَاهُ « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَضَتْهَا أَنْفُسُهُمْ » (٢٧ : ١٤) فَمَا أَضَلُّ مِنْهُ سَبِيلًا !

« وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ » عَلَى عِلْمٍ مِمَّنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَنَّهُ أَخْطَأَ هِدَاةَ ، وَعَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يَحْنُ إِلَى هِدَاةٍ ، فَحَقُّ عَلَيْهِ أَنْ يَضِلَّهُ اللَّهُ إِزَاغَةً بِمَا زَاغَ وَإِضْلَالًا بِمَا ضَلَّ ، تَرْكَأُ لَهُ فِي ضَلَالِهِ يَتَّعَمُهُ وَفِي طَغْيَانِهِ يَتَرَدَّدُ ، خَتَمًا عَلَى سَمْعِهِ فَلَا يَسْمَعُ وَعَلَى قَلْبِهِ فَلَا يَعْيُ وَلَوْ يَسْمَعُ ، وَغَشَاوَةٌ عَلَى بَصَرِهِ فَلَا يُبْصِرُ ، فَالْقَلْبُ لَهُ وَعِيٌّ مِنْ ذَاتِهِ وَوَعْيٌ مِنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ ، فَإِذَا خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَغَشَى عَلَى بَصَرِهِ فَلَا وَعْيَ لَهُ مِنْهَا ، وَإِذَا خَتَمَ عَلَى قَلْبِهِ فَلَا وَعْيَ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ : « لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » (٧ : ١٧٩) :

« فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ » إِذْ تَرَكَهُ وَأَضَلَّهُ « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » مَا هُوَ مُصِيرٌ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ، « وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » (٣٨ : ٢٦) « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى » (٧٩ : ٤٠) وَمَنْ تَذَكَّرَ صَحَا وَتَنَبَّهَ وَتَخَلَّصَ مِنْ رِبْقَةِ الْهَوَى وَتَقَلَّصَ .

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٢٤)

هَذِهِ أَطْوَلُ قَوْلَةٍ تُنْقَلُ عَنْ الْمَادِيِّينَ ، لَا مِثِيلَ لَهَا فِي سَائِرِ الْقُرْآنِ إِلَّا فِي نَكَرَانِ الْمَعَادِ « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »

(٢٣ : ٣٧) « وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » (٦ : ٢٩) .

فتلك إذا آية وحيدة في نسبة الإهلاك إلى الدهر، تزيد كفراً على نكران المعاد، تتحدث عن الناكرين للمبدء والمعاد^(١)، وهم قلة قليلة طول التاريخ، وعلى غرارها لا تحملها إلا آية واحدة .

لقد حصروا الحياة بالدنيا وحسروها عما بعدها من وسطى وعليا، وحسروا إهلاكهم بالدهر، مما يدل على إحياءهم في زعمهم كذلك بالدهر، دوغما علم أو إثارة من علم به يسندون في نكران المبدء والمعاد، إلا ظناً وحسباناً باتباع الهوى : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » (٥٣ : ٢٣) .

ولماذا « غموت ونحيا » معاكسة التعبير عن ترتيب الواقع « نحيا وغموت » ؟

علّه تعبير عن مواصلة الموت والحياة للمجموعة حيث يموت بعض ويحيى آخرون فيستمر النسل، فـ « غموت » جماعة « ونحى » جماعة أخرى، ينتقل الموت والحياة هنا دوغما نقلة بالموت إلى حياة أخرى، أو « غموت » نحن الأحياء ثم لا نحى حياة أخرى حقيقية وإنما بما يحيى أولادنا، كسخرية تقابل الحياة الأخرى، فنحن المجموعة - إذاً - بين موت واحد وحياة واحدة وليست هنالك بعدهما حياة ولا مودة أخرى، وهو خلاف الحق الذي جاء به الرسل فيصدقونها يوم الدين « وقالوا ربنا أمتنا الثنتين وأحييتنا اثنتين...! » .

(١) فـ « غموت ونحى » للدهريين يعني الاول وللمشركين بعنيهما .

وفي «نموت ونحيى» دون سناد لمن يميتهم ويحييهم تلميحة إلى نكران المحيي المميت اللهم إلا الدهر المميت وليس إلا من جنسهم .

فهم يظنون ألا تمتد إليهم يد بالموت والحياة، وإنما هي الأيام تمضي والدهر ينطوي وبطياته إذا هم أحياء ومن ثم هم أموات «وما يهلكنا إلا الدهر» وكيف يصلح الدهر مفسراً للموت وهو أمر منتظم مقصود وليس الدهر الطبيعة قاصداً ، فالأطفال يموتون كما الشيوخ ، والأصحاء يموتون كما المرضى، والأقوياء كما الضعفاء ، فالتفسير الحي للحياة والموت أنها على نظم وقصد دونما صدفة عمياء ، أو فاعلية دهرية طخياء !

هب إن الهلاك هو بالدهر ، فما هو سبب الحياة ، هل هو كذلك الدهر ، ومختلف الفاعليات دليل القصد والحياة في الفاعل، أم إن الحياة بما فوق الدهر فهو الله ، أم الحياة وهي أرقى ليس لها سبب وإنما الهلاك ؟ تلك إذا قسمة ضيزى !

ولأن جماعة من المشركين يعتقدون تناسخ الأرواح في الحياة الدنيا ، أن روح كل ميت ينتقل إلى حي فيعيش في غير بدنه ، والآية في احتمال أوسع تشمل قبيلي الملحدين والمشركين ، ف «نموت ونحيى» لجمع من المشركين قد تعني المعنيين ، فكما يموت بعض ويحيى بعض ، كذلك نموت من بدن ونحيى في بدن آخر^(١) : وما الإهلاك النسبي هذا ولا الإهلاك القاطع إلا

(١) نور الثقلين ٥ : ٢ ح ٩ - القمي في الآية : ثم عطف على الدهرية : نزلت هذه الآية في الدهرية وجرت في الذين فعلوا ، ما فعلوا بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ..

وفيه عن اصول الكافي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قلت له : اخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عز وجل ؟ قال : الكفر في كتاب الله =

بالدهر حسب الدهريين، ام والبعض من المشركين القائلين بربوبية للدهر الطبيعة أماذا ؟

وهل الدهر في زعمهم هو الزمان ، ففي تصرمه لحدّ ما هلاك مَنْ يهلك ، أو أنه الطبيعة ، فكما خلقتنا كذلك أهلكتنا ؟ وما الدهر إلا بأمر خالق الدهر طبيعة أو زماناً أو إياً كان مِنْ « كان » فهو المحيى وهو المميت « وما لهم بذلك » الذي يهرفون « من علم » : أي علم أو أية شائبة من علم ، ف « مِنْ » تلمح كتصريحه ألا علم لهم إطلاقاً في حصرهم الحياة بالدنيا ، وموتهم بالدهر وتناسخ لأرواحهم ، أماذا من هرطقات وأساطير الجهالات .

فالقول بغير علم جهل عميق وحق عريق قد يعبر عنه بالظن ، وكيف الظن وهو اعتقاد راجح ؟ :

حالات العقل بين احتمال وشك وظن وعلم ، ويقين بمراتبه ، فإذا كانت مستندة إلى حجة مقبولة كانت ممدوحة : محتمل لأنه . . أو يُشك فيه لأنه أماذا ! .

= على خمسة اوجه فمنها كفر الجحود على وجهين ، فالكفر بترك ما امر الله وكفر البراءة وكفر النعم ، فاما كفر الجحود فهو الجحود بالربوبية وهو قول من يقول لا رب ولا جنة ولا نار وهو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم الدهرية وهم الذين يقولون : وما يهلكنا إلا الدهر وهو دين وضعوه لأنفسهم بالاستحسان منهم على غير تثبت منهم ولا تحقيق لشيء مما يقولون يقول عز وجل « إن هم الا يظنون » ان ذلك كما يقولون . وفي نهج البلاغة : فانظر الى الشمس والقمر والنبات والشجر والماء والحجر واختلاف هذا الليل والنهار وتفجر هذه الأنهار وكثرة هذه الجبال وطول هذه الاثلال ، وتفرق هذه اللغات والالسن المختلفات فالويل لمن جحد المقدر وانكر المدبر زعموا انهم كالنبات ، ما لهم من زارع ولا لاختلاف صورهم صانع ولم يلجئوا الى حجة فيما ادعوا ولا تحقيق لما ادعوا وهل يكون بناء من غير بان او جناية من غير جان .

أما إذا لم تستند إلى وثاق وإثما بما تهوى الأنفس فهي كلها مطرودة ولو كانت يقيناً ! وهؤلاء يظنون ما يتقولون دوغماً حجة لهذه الرجاحة الظنية : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » فهو أردء من احتمال مرجوح يملك برهانه .

وقد يعبر عن يقينهم - الخاوي عن حجة - بالظن ، تزيفاً لموقفه وتنزيلاً إلى الظنة المتهووسة التي لا تملك أية حجة في أية رجاحة لما يظن .

وعلى أية حال فمن حالات النفس مقدسة وإن كانت شكاً في الحق إذا كان عن حجة ولما تصله حجة الحق وهو يتحراها ، ومنها مدنسة وإن كان يقيناً حين لا تملك حجة إلا على خلافها كظنون الدهريين . والمشركون وأضرابهم من الناكبين المقصرين عن صراط الحق .

فإذا كانت من هدى العقل متحررة عن الحق صحت ، أو كانت من هوى النفس متجترئة على الحق سقمت ، ولماذا بعد الحق إلا الضلال فأن تصرفون !

﴿ وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنبَأُ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٥)

وابلأؤهم كأمثالهم « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » وهل إلا دليل دليل لمن ليس له دليل ، لأنه من القدامى الماضين ؟ ولو أتوا بدليل فهل يربوا على آيات الله البينات ؟ فهل يأتي الأباء المشركون بأفضل مما أرسل به المرسلون ، أم لهم حجج على ما يدعون ، « وما كانت حجتهم » على عمر التاريخ الرسالي « إلا أن قالوا اتُّوا بآبائنا إن كنتم صادقين » .

﴿ قُلْ اللَّهُ يُخَيِّكُم ثُمَّ يُخَيِّكُم ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٦)

إنها لا صدفة للحياة والموت ولا فاعلية مستقلة من هذا الكون في إحياء وإماتة ، فإنما الله والله فقط « يحييكم » للحياة الدنيا « ثم يميتكم » عنها « ثم يجمعكم » في حياة أخرى « إلى يوم القيامة لا ريب فيه » في مثلث الإحياء والإماتة والجمع ليوم القيامة « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

مختلف الأفعال المنتظمة دليل على فاعلية إلهية حكيمة عليمه للحياة والموت ، والالوهية الحكيمة العادلة لزامها أنجمع إلى يوم الجمع ، فالآية إذاً برهان إجمالي لإثبات المبدء والمعاد .

الله يحييكم كما أحى الدهر ، ثم يميتكم كما يميت الدهر ، فالحياة والموت تلو بعض مشهودان لكل حي في مشهد الدنيا ، فماذا يجديكم أن يؤتى بآبائكم ؟ ثم الذي يحيي أول مرة ويميت هو أجدر أن يحيي ثاني مرة ويميت وهو أهون عليه ، كما يجمع الجميع للموت يوم الجمع الإماتة ، ثم للحياة في الجمع الإحياء .

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٢٧) .

« لله » لا سواه « ملك السماوات والأرض » تعبيراً عن الكون كله ، ملك لا يزول ولا يتنقل « ويوم تقوم الساعة » القيامة « يخسر المبطلون » في واقع أعمالهم وأفكارهم الظاهرة هناك بحقائقها الباطلة ، مهما لم يظهر خسارهم يوم الدنيا كما يجب ، رغم أنهم في خسار ووبار ، ومعيشة ضنك ، « من أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى .. » !

وَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى
إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا
يَنْطَلِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾
فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ
فِي رَحْمَتِهِ ؕ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا
أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا
مُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ
فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ
بِمُتَّبِعِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ فِي بَيْعَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنفَسُكُمْ كَمَا
نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ
نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُمْ بِأَنكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا

وَعَرَّضْنَا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَاَلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ
يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٢٨﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٠﴾

﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطَلِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِغُ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿ (٢٩)

مشهد عجيب رهيب ، يوم العرض الأكبر على الله ، وقد تجمعت فيه
الأمم المحتشدة ، جاثية على الركب دون جهنم^(١) في ارتقاب الحساب
« وترى » أنت أيها الرسول كشهد الشهداء ، ويرى معك كل راءٍ « كل
أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها » .

« كل أمة » هنا تعني كافة العالمين المكلفين ، وليس جمع « كل أمة » إلا
بقاسم كل شرعة شرعة ، إذا ف « كل أمة » تعني أمة كل شرعة ، وهي
الخمس لأولي العزم الخمسة « كل أمة تدعى إلى كتابها » فلكل من الخمس
كتاب تدعى إليه عرضاً لأعمالها عليه .

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٦ - اخرج سعيد بن منصور وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد
وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن عبد الله بن باباه قال قال رسول الله (صلى الله عليه
 وآله وسلم) كأنى أراكم بالكرم دون جهنم جاثين ثم قرأ سفیان : وترى كل أمة
جاثية .

وتُرى « كل أمة » لا تشمل المتخلفين عن كل شرعة من موحدين ومُشركين وملحدين الذين لا يدينون بأية شرعة من الدين ؟ وهم أخرى أن تكون جاثية ، وأن ينطق كتاب الحق عليهم بالحق ، استسناخاً لما كانوا يعملون !

أم تشملهم وكيف تشملهم وهم خوارج عن كل أمة ؟ . . « فأما الذين آمنوا . . وأما الذين كفروا » من أدلة الشمول ، وأن الكفار بدركاتهم تشملهم « كل أمة » ! وكون الكافر في كل رسالة من الخمس من أمتها لا يعني أنه مصدق بها ، وإنما أمة كل رسالة هي التي يتوجب عليها الإيمان والتطبيق لهذه الرسالة ، سواء آمنت فينعماً أو كفرت فبشياً ! فتدعى « إلى ما يجب عليهم من أعمالهم »^(١) ولا يعني كتاب كل أمة كتب الأعمال الشخصية فإنها لكل فرد فرد من كل أمة ، والنص : « كل أمة تدعى إلى كتابها » دعوة للعرض عليه بكتاب كل فرد فرد ، أو أن « كتابها » تعنيها ، كتاب كل أمة كمعروض عليه ، وكتاب كل فرد كمعروض به ، كما أن « ما كنتم تعملون - هذا كتابنا - إنما نستنسخ : » تعبيرات ثلاثة عن ثاني الكتابين .

يعرض كتاب الأعمال على كتاب الأمة فيجزي كل بكتابه الخاص ، بعمله ، فالجزء هناك عبارة عن ظهور ملكوت الأعمال « اليوم تُحزّون ما

(١) نور الثقلين ٥ : ٥ في روضة الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قلت له قول الله عز وجل « كل أمة تدعى إلى كتابها » قال : إلى ما يجب عليهم من أعمالهم :

وفي الدر المنثور ٦ : ٣٦ - أخرج ابن جرير عن قتادة في قوله « كل أمة تدعى إلى كتابها » قال يعلمون أنه يدعى أمة قبل أمة وقوم قبل قوم ورجل قبل رجل ذكر لنا إن نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقول : يمثل لكل أمة يوم القيامة ما كانت تعبد من حجر أو وثن أو خشبة أو دابة ثم يقال : من كان يعبد شيئاً فليتبعه فيكون أول ذلك الاوثان قادة إلى النار حتى تقذفهم فيها فيبقى أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل الكتاب .

كنتم تعلمون» لا «بما كنتم تعملون» فليس الجزء منفصلاً عن العمل ، فإنه متصل به اتصال الحقيقة بالظاهر والسر بالعلن ، «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ، وهذه من عشرات الآيات في تصريحاتها بانعكاس الأعمال^(١).

لكل أمة كتاب هو كتاب شرعة الله ، ولكل فرد كتاب استنسخه الله ، فهما كتاب الله كما الأول كتاب كل أمة والثاني كتاب كل فرد ، قد يعبر عنه بكتابك «اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» (١٧ : ١٤) أم كتاب الله «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون» .

«إنا كنا» هنا كتعليل لـ «كتابنا ينطق عليكم بالحق» أن كيف تنطق الأعمال ؟ فالجواب «إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون» وحق الاستنساخ للعمل نقل صورته بسيرته كما صدر في حال أو مقال أو أعمال ، في نسخة صوتية أم صورية أمّاذا من نسخة طبق الأصل^(٢) كما الصور التلفزيونية والأصوات المسجلة وأقوى منها وأبقى .

وهناك نُسخ تُسجّل في الأعضاء العاملة «وكلّ إنسان أزمانه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» وأخرى في الأرض بأجوائها «يومئذ تحدث أخبارها .

(١) راجع آية الزلزال والإسراء والكهف وغيرها في الفرقان تجد تفصيلاً حول انعكاس الأعمال .

(٢) نور الثقلين ٥ : ٥ ج ١٧ في تفسير علي بن إبراهيم بسند عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث القلم والكتاب المكنون قال : أو لستم عرباً فكيف لا تعرفون معنى الكلام واحذكم يقول لصاحبه : انسخ ذلك الكتاب ؟ أو ليس انما ينسخ من كتاب آخر من الاصل وهو قوله : إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون .

بأن ربك أوحى لها « يوم نجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما علمت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » وثالثة في صحائف قلوب شهداء الأعمال « يوم نبعث من كل أمة شهيداً على أنفسهم وجثنا بك على هؤلاء شهيداً » ورابعة عند الكرام الكاتبين « وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون » نُسخاً أربع طبق الأصل من أعمال العباد « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون »^(١).

هذا الكتاب في نسخه ينطق على أهله بالحق ، نطقاً عينياً هو افضل واحجى من نطق اللسان ، و « بالحق » دون اي باطل في زيادة او نقصان لحد يقول صاحب الكتاب : « ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك احداً » (١٨) : (٤٩) :

ذلك استنساخ بعد العمل وهنالك استنساخ قبل العمل في العلم في اللوح المحفوظ والكتاب المكنون منه النسخ كلها ، فكتب الأعمال نسخة منها والأعمال نسخة من الأصل العلم « إنا كنا نستنسخ .. »^(٢).

(١) المصدر ج ١٩ في بصائر الدرجات باسناده عن محمد الحلبي عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : ان الاعمال تعرض على الله في كل خميس فاذا كان الهلال اجلت فاذا كان النصف من شعبان عرضت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلى علي (عليه السلام) ثم ينسخ في الذكر الحكيم ، وفي الدر المنثور ٦ : ٣٦ - اخرج ابن جرير عن علي بن ابي طالب (عليه السلام) قال : ان لله ملائكة يتولون في كل يوم بشيء يكتبون فيه اعمال بني آدم .

(٢) المصدر ج ١٧ - القمي عن ابي عبد الله (عليه السلام) مثل عن « ن والقلم » قال : ان الله خلق القلم .. ثم ، قال للقلم اكتب ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة فكتب .. فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها اولستم عرباً .. وح ٢٠ في عيون =

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ^(٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ^(٣١) .

بعد الدعوة إلى كتاب الدعوة لكل أمة ، وعرض كتاب الأعمال على كتاب الشريعة الإلهية ، يقتسم الفريقان من كل أمة ، كتلة مؤمنة صالحة وأخرى كافرة طالحة و « اليوم تجزون ما كنتم تعملون » عمل كل من صالح وطالح هو جزاؤه حيث تبلى السرائر « فريق في الجنة وفريق في السعير » فالرحمة لأهل الجنة كما الجنة ، هي الظاهرة هناك من ملكوت الصالحات « ولدينا مزيد » حيث كانوا يسمعون إلى آيات الله تتلى عليهم ، والنار لأهل النار ، ظاهرة من ملكوت الطالحات جزاءً وفاقاً « أفلم تكن آياتي » في كتاب الأمة « تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين » مما يدل أن الداخلين في النار خالدين وغير خالدين هم الذين تليت عليهم آيات الله بينات فاستكبروا مجرمين ، وأما القُصُر والمجانين والبُلّه والمستضعفون غير

مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

= الاخبار باسناده الى الحسين بن بشار عن ابي الحسن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) قال : سألت ايعلم الله الشيء الذي لم يكن ان لو كان كيف كان يكون ؟ فقال : ان الله تعالى هو العالم بالاشياء قبل كون الاشياء : قال عز وجل : « انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون . . . » فلم يزل الله عز وجل علمه سابق الاشياء قديماً قبل ان يخلقها فتبارك وتعالى ربنا علواً كبيراً خلق الاشياء وعلمه سابق لها كما شاء كذلك ربنا لم يزل عالماً سميعاً بصيراً .

وفي الدر المنثور ٦ : ٣٦ - اخرج ابن مردويه عن ابن عمران رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان اول شيء خلق الله القلم فاخذ بيمينه وكلنا يديه يمين فكتب الدنيا وما يكون فيها من عمل معمول برأوفاجر رطب او يابس فاحصاه عنده في الذكر وقال : اقرأوا ان شئتم « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » فهل تكون نسخة الا من شيء قد فرغ منه ؟ .

الظالمين-ولم تصلهم الحجة-فهم معفو عنهم على قدر قصورهم ، فلا عذاب إلا بحجة بالغة قضية العدالة الإلهية .

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَنْذِرُ مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْنَ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ ﴾ (٣٦) .

« ما نذري ما الساعة » تجاهلاً عن الساعة وموقفها أنها لا تُدري، كأنها غير مفهومة ولا معقولة ، ومهما ظننا أنها ممكنة أم كائنة ، فـ « إن نظن إلا ظناً » هيئاً ضئيلاً لا يملك دليلاً فلا يلزمنا بشيءٍ للساعة « وما نحن بمستيقنين » :

وترى كيف يجتمع الظن بالساعة كما هنا ، والظن بعدم الساعة كما هنالك « إن هم إلا يظنون » رغم أنهم كانوا متأكدين في نكران الساعة « ما هي إلا حياتنا الدنيا » ؟

إن غير المستيقنين بالساعة دركاتٌ عدة ، فمن ناكِر للمبدء فمتأكد ألا ساعة ، ومن مشرك كذلك رغم اعترافه بالمبدء ، ومن مشرك أم ملحد شاكٍ في المبدء أو في المعاد ، وعُلَّ « إن نظن إلا ظناً » هي مقالة الآخرين ، وبأحرى المتأكدين ألا ساعة أن يكونوا من أهل الجحيم ، مهما يعبر عن يقينهم المدعى بالظن « إن هم إلا يظنون » حيث لا يستند إلى برهان وحق في موقف الظن ! .

﴿ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٣٧) .

سيئات الأعمال وهي حقائقها ، غير البادية يوم الدنيا ، تبدو لهم يوم الأخرى « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

« وحاق بهم » من الحقيق وهو نزولٌ برودةٍ فعل ، لم يأت في سائر القرآن

إِلَّا «بِمَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»^(١) فَقَدْ اسْتَهْزَئُوا بِالسَّاعَةِ «مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ» ثُمَّ فِي السَّاعَةِ : «حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» مِنَ السَّاعَةِ ،
حَيْثُ تَحِيطُ بِهِمْ هَازِئَةٌ بِكُلِّ تَرْذِيلٍ وَتَأْنِيبٍ !

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾^(٣٤)

نَسِيَانٌ هُنَاكَ فِي حَقِّ الْعَذَابِ نَسِيَانٌ هُنَا لِلْسَّاعَةِ ، لَيْسَ فِي الْحَقِّ إِلَّا
تَنَاسِيًّا هُنَاكَ بِتَنَاسٍ هُنَا ، نَسِيَانٌ مُتَعَمِّدٌ وَأَنْتَ تَعِيشُ ذِكْرَ السَّاعَةِ ،
مُتَغَافِلًا عَنْهَا دَوْمًا غَفْلَةً ، فـ «الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ» عَامِدِينَ مُتَغَافِلِينَ دَوْمًا غَفْلَةً ،
جَزَاءً وَفَاقًا .

فـ «نَنسَاكُمْ» لَا تَعْنِي إِلَّا تَعَامُلَ النَّاسِ وَلَيْسَ بِنَاسٍ «كَمَا نَسِيتُمْ»
تَعَامُلَ النَّاسِ لِلْسَّاعَةِ وَلَسْتُمْ بِنَاسِينَ «كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا
وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى» (٢٠ : ١٢٦) «فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا
إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» (٣٢ : ١٤) .

فَاللَّهُ لَا يَنْسَى «لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى» (٢٠ : ٥٢) وَإِنَّمَا يَتَنَاسَى
مَنْ تَنَاسَاهُ «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» (٩ : ٦٧) أَمْ تَنَاسَوْا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا
«فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا» (٧ : ٥١) .

ثُمَّ النِّسْيَانُ غَيْرُ الْمُتَعَمِّدِ يُغْفَرُ «رَبَّنَا لَا تَوَاقِدْنَا إِنَّا نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا»
(٢ : ٢٨٦) رَغْمَ الْمُتَعَمِّدِ الْمُتَوَاصِلِ حَيْثُ لَا يُغْفَرُ ، كَنَسْيَانِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ .

(١) كما في ٦ : ١٠ : ١١ : ٨ - ١٦ : ٣٤ - ٣٩ : ٤٨ - ٤٠ : ٨٣ - ٤٦ : ٢٦ وفي ٢١ : ٤١ فحاق بالذين سخرؤا منهم ما كانوا به يستهزئون وفي ٤٠ : ٤٥ فوقاه الله سيأت ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (٣٥)

« ذلك » حقيق العذاب الإستهزاء ونسيانكم إنما هو بعصيانكم « بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً » حالاً ومقالاً وأفعالا « و » الحال أنكم « غرركم الحياة الدنيا » وإلى هنا ينتهي معهم الخطاب العتاب ، سداً للستار عليهم بإعلان مصيرهم بمسيرهم ، تحويلاً لوجه الكلام إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن معه من الصالحين « فالיום لا يُخرجون منها » فهم واقعون فيها قدموا من هزء وغرور دون خروج عن ذلك ، فإنه لزامهم أيّاً كانوا وأيّان .

فـ « منها » تعني النار التي هي السيئات البادية مما عملوا ، وهي أنفسهم وأعمالهم : « حصب جهنم » « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » (٢١ : ٩٨) واردون في حصبها وهي حطبكم أنفسكم بأعمالكم « لا يُخرجون منها »

وترى أنه الخلود إلى غير النهاية فيها ، ولزامه خلود النار هكذا ، فلأن النار سوف تحمد وتغنى ، فهم يفنون بفناء النار ، وليس ذلك خروجاً عن النار وإنما فناء مع النار !

« ولا هم يُستعتبون » : ولا يطلب منهم أن يعتبوا ، لا ربهما إذ لا يعتب بعده ، ولا أنفسهم وإن كانوا معائبين إذ لا يفيدهم صوابهم أنفسهم ، ولا يُسمع منهم حيث الأبواب أوصدت إحصاها الأخير فلم يك بعد ذلك تحوير ولا تغيير ، فلماذا « يُستعتبون » ؟

﴿ فِيهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٦) وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ (٣٧)

« الله الحمد » لا سواء على ألوهيته وربوبيته في الأولى برؤية التكوين

سورة الجاثية / آية ٣٧ ٤٧٧

والتكليف إمتحاناً ، وفي الأخرى بربوبية الجزاء الوفاق عدلاً وإمتحاناً « وله
الكبرياء » كما له الحمد « في السماوات والأرض » : الكون كله « وهو
العزیز الحکیم » فهو المحمود الكبير العزيز الحكيم لا سواء !



مركز تحقیق کتب وپویر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

- ﴿سورة فصلت﴾ فصلت آياته قرآناً عربياً... ؟ ٦-٨
خلق الأرض في يومين - جعل الرواسي والبركات والأقوات في أربعة أيام -
قضاء الدخان سبعا في يومين وهذه ثمانية، ثم يبقى لخلق الدخان يوم فهذه
تسعة، فما هو التوفيق بين صريح الآيات في خلق السماوات والأرض ..
في ستة أيام وهذه الآيات - اليكم قولاً فصلاً في كمال التوفيق .. ١٢-٣٨
كيف جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم... ؟ ٤٢-٤٣
شهادات الأعضاء يوم يقوم الأشهاد... ٤٧-٥٦
كيف «تنزل عليهم الملائكة...» وهم لا يوحى إليهم - ومتى ؟ .. ٦٦-٧٢
دفع السيئة بالحسنة ومجالاته ٧٣-٨٣
«... وإنه لكتاب عزيز...» من أدلة صيانة القرآن عن النسخ والتحريف

٨٣-٨٨

- «أعجمي وعربي»؟ ١٩ بشارة بحق القرآن العربي في كتاب أشعيا ٨٨-٩٣
الآيات الأفاقية والأنفسية الحالية والمستقبلية؟ ٩٥-٩٩
﴿سورة الشورى﴾ ما هو رمز «حَمَّ عَسَق» ٦-١٠
«لتنذر أم القرى ومن حولها» تعم العالمين أجمع، مَنْ في السماوات وَمَنْ ..
في الأرض - بشارات كتابية تصدق شمول الدعوة الإسلامية ... ١٢-٢٣
القرآن هو المرجع الوحيد وعلى ضوء السنة المتأيدة به ٢٧-٢٩

الموضوع _____ الصفحة

- «ليس كمثله شيء» تستأصل أية مماثلة ذاتية وصفاتية وأفعالية ... ٢٩-٣٧
الشرائع الخمس عن الدين الواحد - سائر الوحي أمام الوحي الأخير ...
وصية وذريعة إليه ٣٩-٤٩
«فلذلك فادع واستقم كما أمرت ..» أو امر ونواي عشرة
بشأن الدعوة المستقيمة ٤٩-٥٦
حجج داحضة ٥٧-٥٩
لا شريك لله في شرع شريعة من الدين ٦٩-٧٠
«ما هو الأجر المسؤول»: المودة في القرى - مئات الأحاديث
في أنهم عترة الرسول (ص) والمعصومون ٧٢-٨٣
آية منقطعة النظر تدل على وجود الحياة النباتية والحيوانية والإنسانية في
السموات،
وأن الله سوف يجمع بين إنسان الأرض وإنسان السماء ٩٥-١٠٤
«وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ..» هل تشمل الصالحين
والمعصومين؟ ١٠٤-١٠٩
صفات عشر للصالحين وفي محورها «وأمرهم شورى بينهم» بحث فصل ..
عن ضرورة الشورى الإسلامية وحدودها وظروفها ومتطلباتها في
الحقول السياسية والأحكامية ١١١-١٣٦
ظروف العفو عن السيئات والظلمات ١٣٦-١٤١
درجات الوحي مما فيه حجب وما ليس فيه أي حجاب إلا حجاب ذات ..
الالهية - ما هو «روحاً من أمرنا»؟ وكيف «ما كنت تدري ما
الكتاب ولا الإيمان»؟ ١٤٨-١٦٢
«سورة الزخرف» ما هو الكتاب المبين ٦-١٠
«... قرآناً عربياً لعلكم تعقلون» فما هو ذنب غير العرب ومنهم من هم ...
أعقل؟! ١٠-١١

«ما هو أم الكتاب؟» مهد الأرض وسُبلها تكوينية وتشريعية .. ١١ - ١٨
إبراهيم في حوار صارم مع أبيه وقومه - ما هي الكلمة الباقية في عقبه ؟
٣٢ - ٣٨

حججيات بين المشركين وبين الرسول (ص) ٣٩ - ٤١
كيف «ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً» أليس ذلك استعباداً واستثماراً
واستعماراً ؟ كلاً إنه نظام طبقي عادل لا مرد له - ما هي الطبقة المرفوضة
والمرفوضة ؟ طبقات ثلاث : نسناس - ناس - وآله الناس ! ٤١ - ٤٨
«لولا ان يكون الناس أمة واحدة لجعلنا ...» ؟ ٤٨ / ٥٣
العاشون عن ذكر الرحمن العاشون ذكر الشيطان ٥٣ - ٥٨
«واسأل من أرسلنا من رسلنا» وكيف يسأل وأين ومتى ؟ ٦٥ - ٦٩
الإستخفاف هو مفتاح الأبواب السبعة الجهنمية ٧٨ - ٨٠
«ولما ضرب ابن مريم مثلاً ..» في حوار بين النبي (ص) والمشركين
٨١ - ٨٦

«قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين» في احتمالات عدة ١٠٥ - ١٠٨
«سورة الدخان» ما هو الكتاب المين؟ وليلة مباركة؟ ٦ - ١٧
ما هو «دخان مبين» ؟ ١٨ - ٢١
ما هي بكاء السماء ؟ إن هي إلا موتتنا الأولى ٣١ - ٤٠
«فإنما يسرناه بلسانك» دون «لغتك» ٥٥ - ٥٦
«سورة الجاثية» كيف يكون الله حديثاً؟ أيام الله ؟ ٩ - ١٨
كيف أوتي بنو إسرائيل « الكتاب والحكم والنبوة » وما هو الفارق بينها ؟
١٩ - ٢٠

«ثم جعلناك على شريعة من الأمر ..» هذا بصائر للناس ٢١ - ٢٧
«أفرأيت من اتخذ إلهه هواه» لا «هواه إلهه» ؟ ٢٨ - ٢٩
«نموت ونحيا»؟ والموت بعد الحياة ! ٢٩ - ٣٣

الموضوع _____ الصفحة

«وترى كل امة جائية...» كتاب كل امة وكتاب كل شخص - «إنا كنا
نستنسخ ما كنتم تعلمون» صيغة صريحة عن بقاء صور الأعمال وأصوات
الأقوال ! ٣٦ - ٣٩



مركز تحقيق كتاب علوم إسلامي

